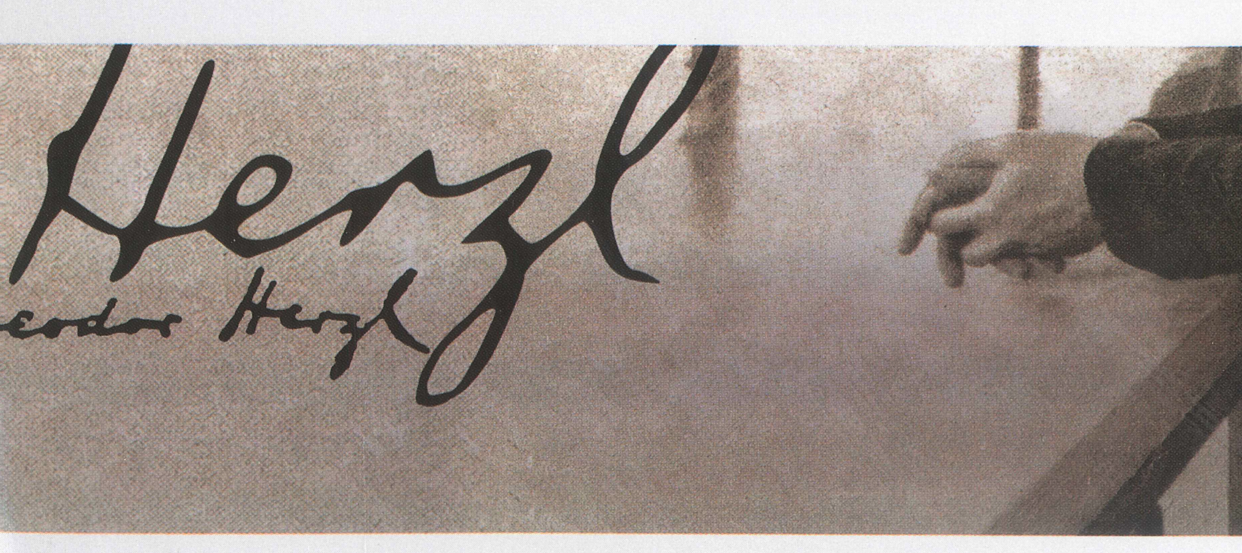


ترجمات

الاستثنائية الإسرائيلية

منطق الصهيونية الهدّام



محمد شهيد عَلَم

ترجمة: مصطفى هندي

الاستثنائية الإسرائيلية
منطق الصهيونية الهدّام


بسم الله الرحمن الرحيم

الاستثنائية الإسرائيلية

منطق الصهيونية الهدّام

محمد شهيد عَلَم

ترجمة

مصطفى هندي



الاستثنائية الإسرائيلية

منطق الصهيونية الهدّام

محمد شهيد عَلَم

الطبعة الأولىٰ

١٤٤٣هـ/٢٠٢١م

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن نظر المركز»

الترجمة الشرعية الكاملة لكتاب:
Israeli Exceptionalism:
The Destabilizing Logic of Zionism
M. Shahid Alam
PALGRAVE MACMILLAN®
First published in 2009



Business Center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith
London W6 9Dx, UK

www.Takween-center.com
info@Takween-center.com

الموزع المعتمد

+966555744843
المملكة العربية السعودية - الدمام

+201007575511
مصر - القاهرة



مؤسسة دراسات تكوين
للنشر والتوزيع
س ٠ ت : ٢٠٥٠١١٧١٢٠
جوال : ٠٥٥٥٧٤٤٨٤٣



«ظفرتَ بذلك النور،

لكنك لم تظفر بالإنسانية؛

أنشد الإنسانية،

هذا هو المقصود»

✍ **جلال الدين الرومي**

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الجزء الثالث: إقامة علاقة خاصة

مُقَدِّمَة

لماذا يكتب رجل اقتصاد[1] كتابًا عن الجغرافيا السياسية للصهيونية؟ يمكن شرح هذا بسهولة: كان بإمكاني تصنيف كتاب عن اقتصادات الصهيونية، أو الاقتصاد الإسرائيلي، أو اقتصاد الضفة الغربية وغزة، لكن أنَّىٰ لأيٍ من ذلك أن يساعدني علىٰ فهم المنطق الكامن والدوافع العميقة التي تسوق الصهيونية؟

إن الصهيونية حركة تاريخية دلفت إلىٰ الوجود من تضاعيف التاريخ المضطرب لأوروبا، مدفوعةً بتفاعلات جدلية (dialectical) بين تيارين متشابكين في الحضارة الغربية هما: اليهودية والمسيحية. وكما اتضح للجميع، زجّت الصهيونية بهذين التيارين الغربيين في تصادم خطر مع نظيرهما الإسلامي. لن يكون من السهل تناول هذا التاريخ المأساوي بالفحص والتحليل ضمن نموذج اقتصادي، أو مجموعة من المقاربات الاقتصادية.

لم تكن الصهيونية -في جوهرها، أي باعتبارها حركة احتلالية[2] استيطانية إقصائية- وحشًا أمرًا مستغربًا أو استثنائيًا؛ بالنسبة لي باعتباري «رجل اقتصاد»، وقد كان أول احتكاك لي مع النزعة الاستعمارية عندما كنتُ طالبًا في الدراسات العليا، ففي أحد الأبحاث الثلاثة التي كتبتها لأطروحة الدكتوراه، استخدمتُ

(١) انظر نبذة تعريفية بالمؤلف في آخر الكتاب (المحرر).

(٢) تترجم (colonialism) بالاستعمارية، وقد اخترنا ترجمتها بالاحتلالية واشتقاقاتها، متىٰ ما سمح السياق بذلك. (المحرر).

أدوات التحليل الاقتصادي للإجابة علىٰ سؤال: لماذا أدت التجارة الحرة التي فرضها البريطانيون علىٰ الهند في القرن التاسع عشر إلىٰ حالة من الفقر المدقع والعوز؟ وبعد عقد من الزمن -بعد أن أثبتُّ جدارتي وحصلتُ علىٰ «عضوية» قسم الاقتصاد بجامعة نورث إيسترن (Northeastern)- عدتُ إلىٰ هذا الموضوع مرة أخرىٰ. في العديد من المقالات -التي تحوّلت إلىٰ كتاب بعنوان «الفقر من ثروة الأمم»[1]- فحصتُ النظرية التي قدمتُها والوقائع التاريخية التي تؤيدها، وقدمت الأدلة علىٰ الارتباط بين الاستعمار وتراجع الاقتصاد العالمي الذي ظهر خلال القرن التاسع عشر.

لطالما استحوذت الصهيونية علىٰ اهتمامي بسبب براعتها في الدفاع عن أهدافها. كان أول لقاء لي مع أحدهم في عام ١٩٧٤م عندما كنت طالبًا في جامعة إنديانا (Indiana) في بلومنجتون (Bloomington)؛ فور أن اكتشف محاوري معارضتي للصهيونية، اتخذ الحوار منعطفًا غريبًا؛ فبعدما افترض أنني عربي، قال -بغضب شديد- أن العرب -بشكلٍ ما- مسئولون عن الهولوكوست؛ فلو لم يقاوم العرب دخول اليهود إلىٰ فلسطين، لما كان هناك يهود في أوروبا ليبيدهم النازيون، فجميعهم سيكونون آمنين في فلسطين. كانت تلك هي القطرة الأولىٰ -بالنسبة لي- من سيل الخطاب الصهيوني المتعجرف المغرور.

لقد بدأتُ الكتابة عن الصهيونية عندما أقنعتني هجمات الحادي عشر من سبتمبر بالدخول إلىٰ ساحة الحوار العام حول «صراع الحضارات»؛ تلك الأيديولوجيا التي وُظِّفت ببراعة لتبرير الهجوم الصهيوني علىٰ العرب. في هذا الوقت، بدأت أسأل نفسي أولًا: لماذا حققت الصهيونية مثل هذا النجاح المثير خلال هيمنة الرأسمالية العالمية ووسط تراجع واضمحلال كافة عمليات التطفّل الإمبريالي علىٰ الجغرافيا الخارجية؟ أنتجت تأملاتي المبكرة في هذا السؤال بعض المقالات التي أصبحت جزءًا من كتابي السابق «تحدي الاستشراق الجديد»[2].

---

(1) *Poverty from the Wealth of Nations:* Integration and Polarization in the Global Economy since 1760, (Macmillan, 2000).

(2) *Is There An Islamic Problem* (Kuala Lumpur: The Other Press, 2004, republished in 2007 as *Challenging the New Orientalism*, IPI: 2007).

سأترك للقارئ أن يقرر ما إذا كان هذا الكتاب الذي بين أيدينا -وهو حصيلة ثلاث سنوات من العمل- قد قدّم تفسيرًا أدق وأكثر تحديدًا أم لا .

الكتابة عن الصهيونية لم تكن سهلة، فتاريخ الصهيونية مليء بالمآسي والظلم، ولم يكن الأمر قاصرًا علىٰ الفلسطينيين. إن مأساة الفلسطينيين ظاهرة للعيان، وعلىٰ الرغم من أنها طُويت وهُمِّشت بسبب عنصرية وتحيّز وسائل الإعلام الغربية للصهيونية، إلا أن الغربيين تمكنوا -مؤخرًا فقط- من رؤية هذه المأساة علىٰ حقيقتها. لقد كانت الصهيونية مأساة للشعب اليهودي أيضًا، هؤلاء الذين ضمّهم الصهاينة، وامتصوا طاقتهم، وسخّروا مواهبهم، ودفعوهم ليعقدوا آمالهم علىٰ مشروع لم يكن عليهم القيام به أبدًا، وقد كانت فرصة النجاح الوحيدة للصهيونية تكمن في طمس أي آمال للآخرين. وكلما زاد اختناق هذا المشروع بأغلال منطقه الذي تأسس عليه ازداد حجم الدمار الذي يمكنه إحداثه؛ إنه يختار الدمار من أجل تأخير التأقلم مع المأساة التي ولّدها، أو التعويض عنها.

تلقيت دعمًا حارًا -لحسن الحظ- خلال مواجهاتي مع الصهيونية من عدد قليل من الأصدقاء الأوفياء. لقد وقفوا بجانبي عندما أثارت كتاباتي غضب الصهاينة وبعض مؤيديهم، ولم تكن انتقادات الصهيونية مأمونة العواقب في الولايات المتحدة؛ فبعد الحادي عشر من سبتمبر، أصبح موقفهم مهددًا أكثر من ذي قبل، ولم يكن بإمكاني مواجهة التركيز المكثّف الذي تلقيته من هذه الفرقة المتشددة بمفردي؛ أنا ممتن لإلين هاكوبيان (Elaine Hagopian)، سيد شاكيل (Syed Shakeel)، كين بارني (Ken Barney)، بول دي رويج (Paul de Rooij)، لورنس ديفيدسون (Lawrence Davidson)، فرانك ناريندورب (Frank Naarendorp)، كمال أحمد (Kamal Ahmed)، سوزان بارني (Susan Barney)، ناظم علي (Nazim Ali)، آغا سيد (Agha Sayeed)، تيبو صدّيق (Teepu Siddique)، وعمر فهمي ومحمد إدريس أحمد لدعمهم الحار وصداقتهم الحقيقية ومشورتهم السديدة

في هذه الأوقات الصعبة. ومع أنهم قلة، لكنهم -بدفء مشاعرهم- كانوا أفضل من كثير لا ينفع.

اثنان من أصدقائي يستحقان شكرًا خاصا هما: إلين وكين، اللذين قدّما بسخاء تعليقات مستفيضة علىٰ مسودّة هذا الكتاب، وكانت مفيدة جدًّا في تنقيح المخطوط، وأضيف هنا أن هؤلاء الأصدقاء لا يتفقون مع جميع تفاصيل السرديّة التي أطرحها في هذا الكتاب؛ والواقع أن خلافاتي مع كين أسفرت عن إحدىٰ المناقشات الفريدة والمثمرة لوجهات النظر المتعارضة.

سأكون مقصّرًا إذا لم أعترف أنني مدين بالكثير لـ «فارسانا، وجنيد، ونور» -زوجتي وأبنائي- لتحمّلهم وتقبّلهم طيلة السنوات الثلاث الماضية جرعة استثنائية من الحديث المزعج والمستمر عن كل ما هو خاطئ في العالم. الآن بعد أن أنجزنا هذا الكتاب، أعدكم بالمزيد من المرح والحديث العذب، والمزيد من [شعر] الرومي وغالب، وإقبال وفايز.

وأختم بكلمات من كتاب البيروني [تحقيق ما للهند من مقولة]: «ونستغفر الله في الحكايات إلا عن حق، ونستوفقه للاعتصام بما يرضيه، ونسترشده للوقوف علىٰ الباطل لنتقيه، إن الخير من عنده، وهو الرؤوف بعبيده، والحمد لله رب العالمين، وصلواته علىٰ النبي محمد وآله أجمعين».

الجزء الأول

الاستثنائية الإسرائيلية

«تنفرد إسرائيل عن العالم بالأعذار التي قُدِّمت بالنيابة عنها»

إدوارد سعيد

الفصل الأول
تنويعات الاستثنائية

«إسرائيل ليست مجرد مثال آخر علىٰ أمة ضمت أجناسًا متعددة؛
إنها المثال الوحيد للأمة الإسرائيلية»
مارتن بوبر (Martin Buber)

«وحدها إسرائيل هي التي تُشَرْعِن مملكة الله وتعيش فيها»
يعقوب نيوزنر (Jacob Neusner)

«قمة الأخلاقية -بالنسبة لي- هي أن للشعب اليهودي الحق في الوجود؛ وإذا لم يكن، فلا أخلاق في العالم»
جولدا مائير (Golda Meier)، **١٩٧٦**[(١)]

في أغسطس ١٨٩٧م اقترح مؤسسو الصهيونية خطة جديدة لـ «تحرير» أمة لم تكن موجودة في ذلك الوقت. لقد دعوا إلىٰ تحرير اليهود الأوروبيين وجمعهم في

(1) Davis, *Zionism in Transition*, 76; Neusner, *Comparative Hermeneutics of Rabbinic Judaism*, 341; Morris, *Righteous Victims*, 343.

فلسطين، وليس في أوروبا[١]. إن خطة استعمارية بلغت هذا الحد من الطموح والجرأة -بل والخيال- يجب أن يُدافع عنها بأساطير لا تقل جموحًا عن طموحات الصهاينة.

لا نعاني -في الحقيقة- من قلة أو صعوبة في الحصول علىٰ السرديات التاريخية والدراسات والتحليلات النفسية للصهيونية ومؤسسيها، بل إنها لتملأ بسهولة مكتبة كبيرة[٢]، ويتقاطع اهتمام هذا الكتاب مع هذه الأدبيات، ولكنه أيضًا ينظر إلىٰ المسألة الصهيونية بطريقة مختلفة. نحن نركز علىٰ أصل الفكرة الصهيونية وطموحها الأساسي -الذي يمكن ملاحظته بوضوح منذ إطلاقها- لإنشاء دولة يهودية في الشرق الأوسط من خلال إبادة السكان الأصليين؛ وإذا أراد هذا الاحتلال الذي لا يعرف الرحمة أن ينجح؛ فعليه أن يطلق العنان لمنطق هدّام مزعزعٍ للاستقرار[٣]، ولا يمكنه أن يتقدّم إلا من خلال خلق وتعزيز

(١) في نهاية المؤتمر الصهيوني العالمي الأول أصدر إعلانًا عن نواياه عرف باسم برنامج بازل، وصرح البيان أن «الصهيونية ستسعىٰ جاهدة من أجل إقامة وطن آمن ومعترف به علنًا في فلسطين للشعب اليهودي». انظر: Khalidi, From Haven to Conquest, 89. وفي التصريحات العلنية لأهدافهم، لم يقصر الصهاينة برنامجهم علىٰ اليهود الأوروبيين، ولكن ليس هناك من شك في أن هذه الحركة كانت بالأساس لصالح اليهود الغربيين، وأدخل الصهاينة اليهود غير الغربيين إلىٰ حركتهم في وقت لاحق فقط لتعويض قلة عدد اليهود الغربيين الذي بدوا عازفين عن التصويت لصالح الصهيونية.

(2) See Sokolow, History of Zionism: 1600-1918; Hertzberg, The Zionist Idea; Laqueur, History of Zionism; Vital, Origins of Zionism; Davis, Zionism in Transition; Shimoni, Zionist Ideology; Shlaim, Iron Wall; Hertzberg, Fate of Zionism; Falk, Fratricide in the Holy Land; Rose, Myth of Zionism; Rose, Question of Zion; M. Brenner, Zionism; Kovel, Overcoming Zionism.

(٣) يعمل المستوطنون المحتلون في أي مستعمرة علىٰ إزاحة السكان الأصليين عن أراضيهم. قد يسعىٰ المستوطنون إلىٰ طرد السكان الأصليين لدافعين: وجود العمالة المحلية الأرخص سيؤدي إلىٰ خفض أجور المستوطنين دون المستويات الأوروبية؛ أو أن يقاوم السكان الأصليون نزع ملكيتهم وبذلك يشكلون تهديدًا للمستوطنين المحتلين.

الصراعات بين الغرب والمجتمعات الإسلامية (islamicate)[١]، ومنذ تدشينه، دفع هذا المنطق الدولة اليهودية إلىٰ تعميق هذا الصراع. لقد وُلدت الصهيونية من رحم الطموح الجامح، لكن المنطق الهدَّام لهذه الفكرة هو ما عمل علىٰ تطويرها واستدامتها؛ وهذا هو موضوعنا الأساسي.

اقترح الصهاينة قيادة اليهود -الذين شكلوا منذ آلاف السنين مجتمعًا دينيًا عالميًا- إلىٰ فلسطين وتحويلهم إلىٰ أمة ذات أرض ودولة خاصة بهم[٢]، وفي

---

(١) حسب مارشال هودجسون (Marshall Hodgson): "islamicate" كاسم تشير إلىٰ مجتمع يتكوّن من غالبية مسلمة، وكصفة تشير إلىٰ بعض خصائص المجتمع المسلم، والتي ليست بالضرورة أن تكون مستمدة من الإسلام كدين. انظر: Hodgson, The Venture of Islam 1, 57-60.

[ينظر في الترجمة العربية: هودجسون، مغامرة الإسلام، ج١ ص١٥٤-١٥٨، ترجمة أسامة غاوجي، نشر الشبكة العربية للأبحاث، ط١ ٢٠٢١م. (المحرر)].

(٢) في كتاب حديث نشر بالعبرية في إسرائيل بعنوان «اختراع الشعب اليهودي (The Invention of the Jewish People)» [صدر مترجمًا بالعربية عن دار مدار المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية بترجمة سعيد عياش ط٢ ٢٠١٣م] يتساءل شلومو ساند عن صحة الادعاء المركزي للصهيونية وهو أن «الدياسبورا اليهودية» أو «الشتات اليهودي» وقع عندما طرد الرومان اليهود من فلسطين بعد تدمير الهيكل الثاني. ابتداءً من القرن التاسع عشر، بدأ المفكرون الصهاينة في نشر أسطورة أصل مشترك لتوفير أساس عنصري لمزاعمهم بأن اليهود هم «أمة» بالأصل. تشير الأدلة التاريخية إلىٰ أن التحولات الجماعية -ومعظمها حدث خلال الألف الميلادي الأول- وليس الهجرة من فلسطين هو ما خلق المجتمعات اليهودية في شمال إفريقيا واليمن وأوروبا، من بين أماكن أخرىٰ. تحول يهود فلسطين أولًا إلىٰ المسيحية، وبعد الفتح العربي تحوّل معظمهم إلىٰ الإسلام. علىٰ نفس المنوال، كتب بول ويكسلر (Paul Wexler): «ينحدر معظم اليهود السفارديم من سكان مختلطين يتألفون من أغلبية غيّرت دينها -مؤخرًا- علىٰ يد حركات التنصير من الشرق الأدنىٰ والعرب وشمال إفريقيا، وجماعة صغيرة من اليهود الفلسطينيين الأصليين (وذريتهم المختلطة)». انظر:

wexler, Non-Jewish Origins of the Sephardic Jews, 229.

كما أظهر باتاي (Patai) ووينج (Wing) في كتابهم «أسطورة العرق اليهودي (Myth of the Jewish Race)» -علىٰ حد تعبير أحد المراجعين- أن «اليهود أقرب جينيًا إلىٰ جيرانهم غير اليهود منهم إلىٰ اليهود في الأراضي الأخرىٰ»، كان هذا صحيحًا علىٰ وجه الخصوص عندما قورن اليهود الشرقيين باليهود في وسط وشرق أوروبا. انظر: schnall, "Review," 182.

كما أن ادعاءات أن اليهود هم جنس واحد فندها وفضحها لازار (Lazare) في كتابه «معاداة السامية (Anti-Semitism)» ص ١١٩-٢٨، وفي كتابه الحديث «أسطورة العرق اليهودي (Myth of the Jewish Race)» كشف عالم الأحياء كوركوس (Corcos) زيف هذه الفكرة.

السنوات الأولىٰ من الحركة، رفض معظم اليهود الصهيونية باعتبارها طموحًا طوباويًا مغامِرًا؛ لأن اليهود كانوا يفتقرون إلىٰ المتطلبات الأساسية لقيام دولة قومية(١)، فهم لم يكونوا أمة -بالمفهوم الشائع-، كما أنه ليست لديهم أرض يمكنها أن تكون وطنًا، ومن أجل التغلب علىٰ هذا النقص الفادح للمقومات الأساسية، سيكون علىٰ الصهاينة إيجاد دولة أم تعمل تحت ظلها وحمايتها(٢)، ومن ثم الاستيلاء علىٰ فلسطين، وإقناع اليهود الغربيين باحتلال هذه الأرض، وإخلاء فلسطين من سكانها الأصليين. ويمكنك القول أنه بمقدار ما كان ينقص الصهيونية من مقومات، فإنها لم تتوقف يومًا عن الطموح.

ولما كان هذا الطموح القومي جامحًا وصادمًا إلىٰ أبعد الحدود، تطلبت صناعة الأساطير المؤطرة له جهدًا هائلًا ومتواصلًا، فيتوجّب علىٰ الأيديولوجيين الصهاينة تبرير مهمتهم العنيفة، وتمجيدها، ثم وضعها في نهاية المطاف فوق النقد، كما أن عليهم إقناع المجتمعات اليهودية المتنوعة والمشتتة في الغرب بأنهم «أمة» تنحدر من العبرانيين القدماء، وتحفيز المجتمعات اليهودية في الغرب -

---

(١) عارض اليهود الأرثوذكس الصهيونية لأنها أخرجت المسيح اليهودي من رواية العودة اليهودية. انظر: Rabkin, Threat from Within، في الوقت نفسه، استبعدت حركة الإصلاح في ألمانيا عقيدة عودة إسرائيل من بيانها في عام ١٨٤٥، وحذت حركة الإصلاح في الولايات المتحدة حذوها في عام ١٨٨٥. انظر:

jewishencyclopedia.com, "Zionism"; and Neusner and Avery-Peck, Routledge Dictionary of Judaism, 116.

في عام ١٨٩٧ عارض المجلس الحاخامي الألماني وقادة الجالية اليهودية في ميونيخ الخطط الصهيونية لعقد أول مؤتمر لهم في ميونيخ، وفشل تيودور هرتزل في حشد الدعم المالي لمشروع الصهيونية من اثنين من أبرز المحسنين اليهود في عصره: البارون روتشيلد (Rothschild) وهيرش (Hirsch). انظر: M. Brenner, Zionism, 26.

(٢) سيتكرر مصطلح الدولة الأم أو الدولة الراعية، وهي علاقة بين دولة ومستعمراتها، فبريطانيا علىٰ سبيل المثال هي الدولة الأم لمستعمراتها التي كانت تضم مصر وأجزاء من الشام. (المترجم).

الذين كانوا في الغالب راضين عن حياتهم وقانعين بطموحاتهم- ليصبحوا في طليعة المهاجرين إلىٰ فلسطين؛ كما سيضطر [الصهاينة] إلىٰ تحويل المهاجرين اليهود -الهاربين من معاداة السامية في أوروبا الشرقية- بعيدًا عن وجهاتهم الغربية المفضلة ليزجُّوا بهم في معركة خطرة لاحتلال أرض جديدة؛ وسيكون عليهم بناء حجة قانونية وأخلاقية لغزوهم الإقليمي في الشرق الأوسط. ومن أجلٰ شرعنة التطهير العرقي المتكرر للفلسطينيين كان عليهم -أيضًا- أن ينكروا أي حقوق لضحاياهم في أراضيهم، بل وأن ينكروا أنهم كانوا موجودين يومًا ما بوصفهم شعبًا.

لم يكن الصهاينة ليستولوا علىٰ فلسطين بأنفسهم؛ لذا كان عليهم تجنيد واحدة أو أكثر من القوىٰ العظمىٰ للقيام بتلك المهمة نيابة عنهم، وقد كانت تلك العملية هي الأولىٰ من نوعها في التاريخ؛ حيث تعيّن علىٰ بعض القوىٰ العظمىٰ الانخراط في عملية احتلالية «لحساب الغير» والاستيلاء علىٰ الأراضي ثم تسليمها إلىٰ شعب آخر ليحكمها، ولقد بدا مثل هذا النوع من الاحتلال أقل مصداقية وإقناعًا؛ لأن اليهود لم تربطهم صلة عرقية أو دينية بأي من القوىٰ الغربية العظمىٰ التي يمكنها إنجاز صفقتهم. ومن هنا واجه الصهاينة مهمة أخرىٰ أكثر صعوبة: فقد تعيّن عليهم إقناع واحدة أو أكثر من القوىٰ العظمىٰ بالعمل ضد مصالحهم الوطنية الخاصة.

لا جدال في ضخامة المهام التي كان علىٰ الصهاينة إنجازها؛ فمن أجل حشد اليهود ليقفوا وراء هذه الأهداف شبه المستحيلة؛ توجّب علىٰ مُنظِّري الصهيونية صياغةُ نعرة قومية تثير مخاوف عميقة وطموحات سامية؛ فكانوا يذكِّرون اليهود ليل نهار بأنهم شعب أصيل ضارب بجذوره في التاريخ، وأنهم صفوة الإله، ويتمتعون بمواهب فريدة، ومتفوقون عنصريًا، ولا يُهزمون، وأنهم شعب جدير -أكثر من أي شعب آخر- بصنع التاريخ باعتبارهم أمة عظيمة. تطلب الأمر من الصهاينة بناء وتأسيس أيديولوجية تؤكد «الاستثنائية اليهودية»، وأيقنوا أنه لكي

ينجح مشروعهم -توحيد اليهود في الدولة التي اقترحوا إنشاءها- فلا مفرّ من وجود قائمة لا تنتهي من الصفات الاستثنائية، وإلا فلا يمكن تحويل هذا المشروع الطوباوي إلىٰ واقع ملموس.

لقد واجه الصهاينة هذا التحدّي الأيديولوجي بنجاح مفاجئ؛ قليلون هم من استطاعوا مضاهاة الصهيونية في المكر، أو في حشد الجهود وتجييش الطاقات، أو في النجاح في تأكيد دعوىٰ الاستثنائية. إن ادعاءات الاستثنائية متنوعة، وتتعلق باليهودية واليهود وإسرائيل، وهي تصنيفات متداخلة في معظمها. كان من السهل جدًّا التأكيد علىٰ استثنائية اليهودية واليهود، فتلك الدعوىٰ لها -علىٰ الأقل- جذور في الكتاب المقدس اليهودي؛ لكن لم يكتف الصهاينة بذلك، بل أطلقوا دعاوىٰ استثناء جديدة حول حركة «تحريرهم»، وعلىٰ التاريخ الطويل للمعاناة اليهودية، والقدرة اليهودية علىٰ الصمود وأنهم أطول أعمارًا من أعدائهم، وسلّطوا الضوء علىٰ مساهماتهم البارزة في الحضارة الإنسانية، وانتصاراتهم المذهلة علىٰ الجيوش العربية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، ففي الوقت نفسه، خلقوا استثناءات سلبية صوّرت إسرائيل كدولة صغيرة، محاصرة بالجيوش العربية المعادية، ومهدّدة باستمرار، وغاية أماني أعدائها أن يحرموها من حقها في الوجود.

أصبحت ادعاءات الاستثنائية الآن جزءًا لا يتجزأ من الصورة التي كونها معظم الإسرائيليين واليهود عن أنفسهم؛ ومعظم الصهاينة يرون أن إسرائيل هي في بعض النواحي حالة خاصة، وطفرة، ومعجزة، واستثناء، وفريدة من نوعها، بل إن فرادتها مثيرة للدهشة، ففي الكتابات الصهيونية، غالبًا ما تظهر إسرائيل علىٰ المسرح العالمي بكامل زينتها من دعاوىٰ الاستثنائية، علاوة علىٰ ذلك -كما يؤكد أحد الأكاديميين الإسرائيليين- «من واجب اليهود الحفاظ علىٰ هذا التفرد و«الامتياز عن الغير» »[1].

---

(1) Dror, "On the Uniqueness of Israel," 247.

لا شك أن بعض الخطابات حول الاستثنائية الإسرائيلية واليهودية ليست سوىٰ غرور وغطرسة، أو نعرة قومية غاضبة، أو نوبة من الحزبية المفرطة في الحماس؛ وهذه الاستثنائية المبتذلة ليست قضيتنا هنا، بل إن ما يثير فضولنا هو عندما تعمل هذه «*الاستثنائية الإسرائيلية*» كأيديولوجية؛ وحينما تدخل إلىٰ مفردات الدفاع الخبيث عن الصهيونية، وعندما توظِّف إسرائيل هذه اللغة لإنكار حقوق الفلسطينيين؛ وتثير هذه الاستثنائية اهتمامنا أيضًا؛ لأنها تسعىٰ إلىٰ التعتيم علىٰ الطابع الاستعماري لإسرائيل، ورفعها فوق التحليل التاريخي، وإقامة قطيعة بينها وبين الحقبة الاستعمارية التي تنتمي إليها.

تستخدم إسرائيل دعاوىٰ الاستثنائية في تلطيخ ضحاياها الفلسطينيين، وتجميل مجتمعها المعزول باعتباره الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، ولتبرير الاحتلال الاستيطاني باعتباره خاتمة حتمية ومستحقة بعد تاريخ طويل في «المنفىٰ» اليهودي. في العبارة التي افتتحتُ بها هذا الجزء لإدوارد سعيد، اخترنا أن نتعامل مع الاستثنائية الإسرائيلية من حيث إنها «إيديولوجيا الاختلاف»[١].

إن الاستثنائية الإسرائيلية مفرطة في الطموح؛ ولن يرضىٰ هذا الإسقاط الخطابي لقوتها بشيء أقل من إعفاء إسرائيل من توبيخ الضمير العالمي، ناهيك عن حظر فحص ومساءلة الأخلاق اليهودية، وقد نجح خطاب الاستثنائية -علىٰ مدىٰ ستة عقود- في وضع إسرائيل فوق القوانين الدولية، كما تمكّن من إضفاء الشرعية علىٰ سياساتها التوسعية، وإعفائها من عقوبات جرائمها الأخلاقية والقانونية. تدّعي إسرائيل -المحمية بأباطيل الاستثناءات- الحق في حصد ملايين الأرواح، والاستمرار في العنف، وبدء حروب جديدة، وتهديدُ جيرانها -في الآونة الأخيرة- بهولوكوست نووي.

ولبَنْيَنة وتنظيم هذا الخطاب، استعان المشروع الإيديولوجي للاستثنائية الإسرائيلية بطاقم من ألمع العقول الإدارية، وتولىٰ الترويج له فيلقٌ من المنسقين

(1) See Said, "An Ideology of Difference," 38.

والمأجورين، كان منهم: رؤساء أحزاب، ومحررون، وكتّاب أعمدة، ومنتجو الأفلام، والروائيون، والمؤرخون، وجميعهم لا يحجبهم حياء ولا يشعرون بالخزي، وقد اخترعوا لغة جديدة لها مفرداتها وقواعدها، وأساليبها وأدبها؛ إنهم ينسجون رواياتهم عن الاستثنائية بعزيمة لا تعرف الكلل؛ ومستعدون دائمًا لاختراع أنواع جديدة من الاستثناءات، وتوظيف الأنواع القديمة في استخدامات جديدة، بينما الضمير العالمي لا يزال متعثرًا في قراءته الأخلاقية لإسرائيل، بل لم يخجل هذا المشروع من توظيف علماء الآثار وعلماء الوراثة لدعم دعاوىٰ الاستثنائية[١].

اتخذت *الاستثنائية الإسرائيلية* ثلاثة أشكال رئيسية؛ إن جزءًا هامًا من هذه الاستثنائية -المتجذّر في عقيدة الاختيار اليهودية- يستدعي «الحق الإلهي» للشعب اليهودي في شطب الحقوق التاريخية والقانونية للفلسطينيين في وطنهم، وهذا يعطي لليهود -الذين عانوا طويلًا- الحقَ في طرد أو إبادة الفلسطينيين إذا لم يعترفوا بحقوق اليهود في أراضيهم، ويحشد الشكل الثاني الإنجازات الإسرائيلية -وبعضها يبدو استثنائيًا للوهلة الأولىٰ- لرفع معنويات القطيع، وكسب الدعم الغربي لإسرائيل، كما أنه يبرر بأثر رجعي طرد اليهود «السادة» للفلسطينيين «الرعاع»، ويزعم الشكل الثالث من الاستثنائية أن لليهود تاريخًا مأساويًا فريدًا، ويصوّر إسرائيل كدولة ضعيفة منقطعة النظير، ومن أجل تأمين نفسها ضد هذه التهديدات «الاستثنائية» لوجودها؛ تدّعي إسرائيل أنها معفية من تطبيق القوانين الدولية.



---

(١) جذبت الدراسات التي تسعىٰ إلىٰ إقامة صلة وراثية بين اليهود أو تسعىٰ إلىٰ تتبعهم إلىٰ أسلافهم المشتركين اهتمام العديد من علماء الوراثة في إسرائيل والولايات المتحدة. انظر:

Goldstein, Jacob's Legacy.

لم يكن لأي فكرة دور محوري في حشد الدعم اليهودي والمسيحي للصهيونية مثل ما كان لعقيدة الاختيار الإلهي أو «شعب الله المختار»[(١)]، ومع ذلك فلم تكن هذه العقيدة القوة الوحيدة الدافعة الحقيقية للصهيونية، فقد كان الآباء المؤسسون للصهيونية في الغالب من اليهود العلمانيين الذين سعوا إلىٰ حل «المشكلة اليهودية» من خلال إنشاء دولة يهودية -بحيث تكون الدولة للشعب اليهودي ومن أجله وتبنىٰ بسواعده- في فلسطين، ومع ذلك، وبعد تحديد موقع دولتهم في فلسطين، كان الصهاينة الأوائل يُنظِّرون أيضًا لتسخير القوة الرمزية الأسطورية لفلسطين باعتبارها «أرض الميعاد» والوطن القديم للشعب اليهودي، وكان تيودور هرتزل (Theodore Herzl) قد أدرك إغراء هذه القوة الأسطورية، مع كونه علمانيًا؛ فكتب في عام ١٨٩٦: «فلسطين هي وطننا التاريخي الذي لا يُنسىٰ؛ إن اسم فلسطين بحد ذاته سيجذب شعبنا بقوة هائلة»[(٢)]، وبمرور الوقت، وبسبب هذا الاختيار، ستصبح عقيدة الاصطفاء الإلهي للشعب اليهودي واحدة من الركائز الأساسية في صرح الاستثنائية الإسرائيلية[(٣)]. ومن المفارقات

---

(١) وفقًا لهيرتزبيرج (Hertzberg) وهيرت مانهايمر (Hirt-Manheimer)، «تتأكد يهودية اليهودي من خلال الاقتناع بأنهم شعب مختار، قد يكون هذا وهمًا، أو علىٰ الأقل مبالغة، ولكن هذا هو جوهر تصور اليهودي عن نفسه»، ويكتبان أيضًا: «إن التأكيد المركزي للإيمان اليهودي هو أن الله قد اصطفىٰ أجدادهم وقطع لهم عهدًا أبديًا». انظر:

Hertzberg and Hirt Manheimer, Jews, 15-16.

(2) Herzl, *Jewish State*, 12.

(٣) تتضمن عقيدة الاختيار اليهودية ثلاثة اصطفاءات متشابكة قام بها إله الكتب اليهودية: أولًا، اختار الله نسب إسحاق بن إبراهيم ﷺ ليكون «شعبه المقدس» (سفر التثنية ٧: ٦)، وأنهم «خاصة» الرب، و«مملكة كهنة وأمة مقدسة» (سفر الخروج ٩١: ٥). كما اختار أرضًا لشعبه، وعلىٰ الرغم من اختلاف حدودها، فقد تضمنت هذه الأرض دائمًا الأرض الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط، ومثل الشعب المختار، كانت هذه الأرض أيضًا فريدة من نوعها؛ فهي أرض زكية، «تفيض لبنًا وعسلًا» (سفر الخروج ٣٣: ٣)، وخالية من أي عيب، وأفضل الأراضي علىٰ وجه الأرض، وكانت أيضًا أرضًا مقدسة، منفصلة عن أراضٍ أخرىٰ، لأنها كانت مسكنه في هذه الدنيا. أخيرًا، قطع الله عهدًا مع شعبه المختار؛ فوعدهم بأن يجعلهم ملوكًا وحكامًا علىٰ هذه =

-التي كان لابد منها- أن تسعىٰ الصهيونية السياسية وتكتسب زخمًا كحركة هادفة لخلق دولة آخر الزمان تجسيدًا للوعود والنبوءات الإلهية.

وعندما قُدِّم المشروع السياسي للصهيونية لأول مرة لم يكن لديه من أوراق الاعتماد اللازمة لإثبات مشروعيته وجدارته بالدعم شيئًا أبعد من عقيدة «أرض الميعاد»، أي الاعتقاد اليهودي القديم بأن مصيرهم الذي اختاره لهم الإله، وخلاصهم الأرضي ومجدهم؛ مرتبطٌ بفلسطين، وقد استقبل بعض اليهود المشروع الصهيوني بالذعر؛ لأنهم كانوا قلقين من أن تتسبب خطة إنشاء دولة يهودية في إِشعال فتيل معاداة السامية في أوروبا، في حين قابلها آخرون بسخرية تامة، لأنهم رأوا هذا المشروع خيالًا طوباويًا لا يمكنه النجاح.

اعتمد نجاح الخطة الصهيونية علىٰ تحقيق ثلاثة شروط كانت تبدو غير قابلة للتحقيق: إقناع اليهود بترك منازلهم الحالية في أوروبا والأمريكيتين، والمخاطرة باحتلال أرض متخلّفة؛ وانتزاع السيطرة علىٰ فلسطين من السيادة العثمانية؛ وأخيرًا: إجلاء الفلسطينيين عن أراضيهم، وقد اعترضت عقبات صلبة للغاية الطريق أمام نجاح الصهاينة في تحقيق هذه الشروط، حيث افتقرت الصهيونية السياسية للمكافأة الدينية للعمل علىٰ إعادة اليهود إلىٰ فلسطين، ووفقًا للقراءات التقليدية للكتاب المقدس اليهودي، اعتقد اليهود الأرثوذكس أن «إعادتهم» ستكون مهمة المُخلِّص اليهودي (Jewish Messiah)، الذي كتب الله ظهوره في آخر الزمان ليكتب نهاية التاريخ(١)، علاوة علىٰ ذلك، وبدءًا من القرن التاسع عشر، توصل

= الأرض، وأن يهديهم ويباركهم ويحبهم طالما قدّسوا شرعه، بالمقابل، هدَّدهم بالعقوبات الشديدة -بما في ذلك النفي من أرض الميعاد- إذا خرقوا عهدهم (سفر الخروج ١٩ : ٥). ويبدو أن العجز الأخلاقي المتراكم في السلوك اليهودي أدىٰ أخيرًا إلىٰ طردهم من الأرض الموعودة في القرن الأول الميلادي. وفي قرون نفيهم، عاشت الأغلبية الساحقة من اليهود في أوروبا والشرق الأوسط، خارج فلسطين. جميع الاقتباسات من الكتاب المقدس اليهودي في هذا الكتاب هي من: **Berlin and Brettler, Jewish Study Bible.**

(١) بحسب آرثر هيرتزبيرج (Arthur Hertzberg) ، «تلقّىٰ الشعب اليهودي [في التلمود] تحذيرًا من =

عدد متزايد من اليهود المندمجين (assimilated Jews)[١] لفكرة استثمار «العودة إلىٰ جبل صهيون» بمعنىٰ رمزي يمكن ملاحقته حتىٰ في المنفىٰ؛ ولن يكون سهلًا التغلب علىٰ معارضة اليهود الأرثوذكس أو شكوك اليهود الذين استوعبوا الأمر.

تعامل الصهاينة الأوائل مع هذه الاعتراضات بازدراء؛ وعندما وصف خصومهم خططهم بأنها خيالية أو مجنونة، اعتبروا هذه الأوصاف كما لو كانت مجاملات، ففي عام ١٩١٤م صرّح حاييم وايزمان (Chaim Weizmann) في اجتماع «إنه من حسن حظ الصهاينة أن يُعدَّو مجانين؛ ولو كنا عاديين، لما فكرنا في الذهاب إلىٰ فلسطين، ولبقينا مثل كل الناس العاديين»[٢]. كان الصهاينة الأوائل متهورين للغاية؛ فقد أمدّتهم الإشارات الكتابية لعظمة النبي داود بقوة في الحديث عن تأسيس الدولة اليهودية بصورة لم يتمكن الإسرائيليون من تحقيقها في العصور القديمة، فشجّعت الصهيونية حفنة من اليهود الطموحين علىٰ الانخراط في مشروع نيتشوي يتمثّل في خلق دولتهم المنعوتة بدولة آخر الزمان دون انتظار المُخلِّص اليهودي. في يومياته بتاريخ ٣ سبتمبر ١٨٩٧، أي بعد أيام قليلة من المؤتمر الصهيوني العالمي الأول في بازل، كتب تيودور هرتزل في مذكراته: «لقد أسست الدولة اليهودية في بازل؛ إذا قلتُ هذا بصوت عال اليوم، فلن أتلقىٰ سوىٰ ضحكات ساخرة؛ ربما في غضون خمس سنوات -وبالتأكيد خلال خمسين سنة- سيعرف الجميع أنني علىٰ حق»، لقد استطاع هرتزل ببراعة أن يختزل الجرأة الصهيونية المبكرة في عبارته المقتبسة من روايته «الأرض القديمة الجديدة» التي

= محاولة التنبؤ بوقت الخلاص؛ لأن ذلك لغز لا يعرفه إلا الله، ويجب ألا يشتركوا في أي مساع نشطة، ناهيك عن استخدام الأسلحة، لفرض «نهاية الزمان»». انظر:

Hertzberg, Fate of Zionism,6.

(١) تُعرف حركات الاندماج اليهودية بأنها اندماج وتماهي اليهود ضمن ثقافة المجتمعات التي يعيشون فيها، وقد كانت تلك إحدىٰ الاستراتيجيات التي استعملها اليهود لتجنب التهميش في المجتمعات المسيحية التي عاشوا فيها. (المترجم).

(2) Rose, *Question of Zion*, 16-17.

كتبت عام ١٩٠٢م: «إذا أردت شيئًا، فلن يكون خرافة»[١]، ومع مرور الوقت، اكتسبت هذه المقولة البراقة شهرة واسعة باعتبارها شعار الصهيونية ومصدر إلهامها، وفي محاضرة للجمعية الصهيونية بجامعة لندن أقيمت عام ١٩٠٩م ضرب حاييم وايزمان علىٰ نفس الوتر النيتشوي عندما أعلن «علينا أن نكتسب لقبنا من رغبتنا في الذهاب إلىٰ فلسطين»[٢]، وبمجرد أن اتضحت الصعوبات العملية والأخلاقية لخطتهم، وجد الصهاينة عقيدة «الاختيار اليهودي» طوع أيديهم لتبرئتهم من كافة التبعات. كتب ناحوم غولدمان (Nahum Goldmann) عام ١٩٧٨م: «علىٰ المرء أن يطلق العنان لخياله حتىٰ يتصور ما سيحدث في العالم إذا نهضت جميع الشعوب التي فقدت دولها منذ قرون أو آلاف السنين لاستعادة أراضيهم»[٣]، بمعنىٰ آخر، كيف أمكن للصهاينة تبرير سرقة الأرض من الفلسطينيين؟ زعمت إحدىٰ الحجج أنه بما أن الفلسطينيين ليسوا شعبًا -اعتمادًا علىٰ خدعة أن فلسطين ليست دولة ذات سيادة- فليس لديهم حقوق قانونية في أراضيهم[٤]، وهناك حجة أخبث، حيث ادّعىٰ آخر أن معظم العرب الذين عاشوا في فلسطين في نهاية الانتداب البريطاني لم يكونوا من السكان الأصليين، بل كانوا مهاجرين من دول عربية مجاورة، ولم يجذبهم إلىٰ فلسطين سوىٰ الطلب المتزايد علىٰ العمالة بسبب الاحتلال اليهودي[٥]، أما الحجة الثالثة فكانت

---

(١) اقتباسات هرتزل انظر:

vital, Origins of Zionism, 369, and Herzl, Old-New Land, ii.

(2) Rose, Question of Zion, 16.

(3) Goldman, Jewish Paradox, 72.

(٤) من الواضح أن المفارقة العميقة في هذا الموقف هي أن الصهيونية حرمت علىٰ الفلسطينيين ما أحلّوه لأنفسهم، لقد نفوا أن يكون الفلسطينيون شعبًا؛ لأن الأرض التي سكنوها لم تكن دولة ذات سيادة، ومع ذلك، زعموا أن اليهود كانوا شعبًا، علىٰ الرغم من أنهم لم يمتلكوا أرضًا ولا دولة.

(٥) أعادت جوان بيترز (Joan Peters) في كتابها «منذ زمن بعيد (From Time Immemorial)» إحياء هذه الحجة، وهي تعزو -زورًا- الزيادة الطبيعية في عدد سكان فلسطين منذ خمسينيات القرن التاسع عشر -التي كانت نتيجة التحسينات في الرعاية الطبية والصرف الصحي- إلىٰ الهجرة. حدثت =

أبسط، حيث أكد الصهاينة أن فلسطين كانت ضيْعة خالية، وأرضًا مباحة (terra nullius)[(١)]؛ ببساطة: ليس هناك فلسطينيون.

كانت عقيدة الاختيار في الكتاب المقدس كافية لإثبات صحة الادعاءات الصهيونية حول فلسطين[(٢)]، ولم يجد الصهاينة صعوبة كبيرة في إقناع جماهيرهم من اليهود والمسيحيين -ذوي النفوذ ومن لا مفر من إقناعهم- بأن الاستيلاء علىٰ فلسطين لم يكن سرقة، واعتقد العامة الذين أُشربوا أساطير الكتاب المقدس أن فلسطين هي وعد الله لليهود؛ وأنها ميراثهم الأبدي، ولا يمكن لحوادث التاريخ الأرضي وتقلبات الدهر -مثل غياب المُلّاك الأصليين- أن تلغي حق الملكية الأبدي الذي أصدره الإله، ومن ثم فالصهيونية ليست إلا حركة مسيانية (messianic movement)[(٣)] لإعادة فلسطين إلىٰ أصحابها اليهود الذين اختارهم الله،

= زيادة طبيعية مماثلة في السكان الفلسطينيين في إسرائيل، الذين انخفض عددهم إلىٰ ١٥٠٠٠٠ بعد التطهير العرقي في ١٩٤٨-١٩٤٩. في عام ٢٠٠٤، ارتفع عدد السكان إلىٰ حوالي ١,٣ مليون. علىٰ الرغم من أن الكتاب قد نال إعجاب الصهيونيين البارزين في الولايات المتحدة -بما في ذلك النجوم البارزين مثل شاول بيلو (Saul Bellow) وباربارا توتشمان (Barbara Tuchman) -علىٰ نطاق واسع، إلا أن كتاب بيترز- وفقًا لفينكلشتاين (Finkelstein) في كتابه «الصورة والواقع (Image and Reality)، xxxii» هو «بهتان عظيم».

(١) الأرض المباحة مصطلح قانوني يعني أن أرضًا معنية لا مالك لها، وهو ترجمة لتعبير لاتيني مستمد من القانون الروماني، ويعني حرفيًا: «أرض ليست لأحد»، ويستخدم هذا المصطلح في القانون الدولي لوصف الأراضي التي لم تخضع أبدًا لسيادة أية دولة، أو التي تخلت عنها الدول وانتفىٰ عنها وصف أية سيادة مسبقة عليها بشكل صريح أو ضمنًا. (المترجم).

(٢) كانت هذه نقطة البداية والإلهام الرئيسي لجميع الصهاينة الأوائل تقريبًا. كتبت أنيتا شابيرا (Anita Shapira): «كان من بين الافتراضات المضمرة الموجودة لدىٰ جميع الشعراء وأغلبية المفكرين والقادة الصهاينة أن لليهود حقًا خاصًا في أرض إسرائيل، أي فلسطين». وعلّق آحاد هعام (Ahad Ha-Am)، كما نقلت عنه شابيرا، أن «حقنا التاريخي في هذه الأرض فوق مستوىٰ الشكوك، وأجلىٰ من أن يفتقر إلىٰ أدلة». انظر:

shapira, Land and Power, 40-41.

(٣) المسيانية messianic (الخلاصية): قبل بعثة المسيح ﷺ كان الاعتقاد اليهودي هو أن الله سيرسل «مسيحًا» ليخلص اليهود ويعيد بناء الهيكل، وكان لابد أن تتوافر في هذا المخلص عددٌ من =

وبمجرد قبول هذه الرواية الشاذة، أصبح بإمكان المحتلين اليهود أن يزعموا أنهم لم يفعلوا شيئًا سوىٰ «استرداد» أراضيهم؛ وفي المقابل، فإن الفلسطينيين -سواء كان أسلافهم من الكنعانيين أو العبرانيين- ليس لهم أي حق في أراضيهم؛ وهكذا أصبح الفلسطيني هو المغتصِب.

وكان علىٰ التاريخ اليهودي المقدس دعمُ الصهاينة في مهمة أخرىٰ وهي: إيجاد أغلبية يهودية في فلسطين، وحبذا أن يتم ذلك بطرد السكان الأصليين[١]، في البداية، لم يعر الصهاينة أي انتباه للوجود العربي في فلسطين؛ لقد ادعوا ببساطة أن الفلسطينيين متشردون لا يضمرون أي حب لأرضهم أو منازلهم، ويمكن إقناعهم بالمغادرة برشوة صغيرة[٢]، وعندما لم ينجح هذا الأمر مع الفلسطينيين، استعد الصهاينة لطردهم بالقوة، وكانت الحرب تغطية مناسبة لتلك المساعي. لم يمض سوىٰ وقت قليل حتىٰ تمّ للصهاينة ما يريدون؛ فبعد الموافقة علىٰ خطة التقسيم التي أصدرتها الأمم المتحدة في نوفمبر١٩٤٧، لم يحل ديسمبر

= الصفات -حسب الكتب المقدسة لديهم. ولما بعث الله تعالىٰ عيسىٰ عليه السلام، لكن بصفات مغايرة؛ كفروا به، ولذا فاليهود ينتظرون مخلصًا آخر. و«المسيا **משיח**» كلمة عبرية تعني المُخلِّص؛ والأصل أن هذا الخلاص لن يتم إلا برسول من عند الله؛ لكن الصهيونية -كما يرىٰ المؤلف- قررت أن تقوم هي بهذا الدور دون انتظار المخلص الإلهي، وتجمع الشعب اليهودي في فلسطين وتقيم دولة له. انظر: Meyer, Eduard (1901-1906). Jewish Encyclopedia. Vo. 4, p. 404 واليهود تاريخ وعقيدة، (ص: ١٥١-١٥٢). (المترجم).

(١) في عام ١٩١٩، في خطاب إلىٰ الاتحاد الصهيوني البريطاني، أعلن حاييم وايزمان (Chaim Weizmann) : «أكرر مرة أخرىٰ: إن ما أعنيه بـ «وطن قومي يهودي» هو خلق هذه الظروف التي يمكننا من خلالها بناء دولة في نهاية المطاف . . بحيث يمكننا القول أن ***فلسطين يهودية تمامًا، مثلما نقول إن إنجلترا إنجليزية، وأمريكا أمريكية***» [التسويد مضاف]. انظر:
rose, Question of Zion, 121-22.

(٢) في مقال كتبه آحاد هعام (Ahad Ha-Am) عام ١٨٩١، بعد رحلة قصيرة إلىٰ فلسطين، قال: إن اليهود في أوروبا يعتقدون أن «العرب ما هم إلا جماعات متفرقة في الصحراء، شعبٌ لا يفترقون في حماقتهم كثيرًا عن الحمير». انظر:
shapira, Land and Power, 42.

من نفس السنة إلا وقد تمكّن المغتصبون اليهود من طرد حوالي ٨٠٠٠٠٠ فلسطيني، ودمروا مدنهم وقراهم، وتأكدوا من عدم عودتهم أبدًا إلىٰ منازلهم، التي أصبحت الآن هي دولة إسرائيل اليهودية. يُحتمل أن هذا التطهير العرقي للفلسطينيين قد أزعج بعض اليهود العلمانيين، لكن جيلًا جديدًا من الصهاينة المتدينين -الأكثر دراية بروايات الغزو التوراتية- لم يترددوا في القول بأن الرب قد حثّ علىٰ اتخاذ إجراءات أكثر صرامة وعنفًا عندما كان الإسرائيليون القدماء يسيطرون علىٰ كنعان[1]؛ وإذا قارناهم بأسلافهم الأسطوريين، فقد كان الصهاينة لطفاء مع الفلسطينيين.

وعندما أسرف الصهاينة في طموحاتهم التوسعية، وجدوا مرةً أخرىٰ دعمًا في التوراة؛ ومن هنا ظهر لهم أن وعد الرب لبني إسرائيل لم يقتصر علىٰ أرض كنعان؛ بل إنه -بمسحة من كرمه- أعاد رسم حدود الميراث اليهودي لتشمل جميع الأراضي من النيل إلىٰ الفرات[2]، حسب الجغرافيا السياسية الحالية، فإن هذه الإمبراطورية الإسرائيلية الواسعة ستشمل مصر وفلسطين والأردن وسوريا ولبنان والعراق، وربما الأجزاء الشمالية من المملكة العربية السعودية؛ وإذا كان بإمكان الصهاينة استخدام الكتاب المقدس للمطالبة بفلسطين، فيمكنهم التذرع بنفس السلطة الإلهية للمطالبة ببقية الشرق الأوسط أيضًا، وفي اليوم الثالث من حرب السويس عام ١٩٥٦، أخبر بن غوريون (Ben-Gurion) الكنيست -حسب رواية قدمتها إسرائيل شاهك (Israel Shahak)- أن «السبب الحقيقي وراء تلك الحرب هو «إعادة مملكة داود وسليمان إلىٰ حدودها التي رسمها الكتاب

---

(١) كانت تعليمات الرب لبني إسرائيل، وهم يستعدون للاستيلاء علىٰ الأرض الموعودة، واضحة لا لبس فيها: «مَتَىٰ أَتَىٰ بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكَهَا، وَطَرَدَ شُعُوبًا كَثِيرَةً مِنْ أَمَامِكَ . . . وَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ أَمَامَكَ، وَضَرَبْتَهُمْ، فَإِنَّكَ تُحَرِّمُهُمْ، لاَ تَقْطَعْ لَهُمْ عَهْدًا، وَلاَ تُشْفِقْ عَلَيْهِمْ [وَلكِنْ هكَذَا تَفْعَلُونَ بِهِمْ: تَهْدِمُونَ مَذَابِحَهُمْ، وَتُكَسِّرُونَ أَنْصَابَهُمْ، وَتُقَطِّعُونَ سَوَارِيَهُمْ، وَتُحْرِقُونَ تَمَاثِيلَهُمْ بِالنَّارِ]» سفر التثنية ٧: ١-٥.

(٢) قدمت هذه الوعود التوسعية في: سفر التكوين ١٥:١٨، وسفر التثنية ١١:٢٤، وسفر يشوع ١: ٤.

المقدس» عند هذه النقطة من خطابه، قام كل أعضاء الكنيست تقريبًا برفع أيديهم وترديد النشيد الوطني الإسرائيلي»[١].

ولم تكن عقيدة الاختيار تفصل اليهود وحدهم عن الأمم الأخرىٰ، بل كانت تضعهم فوق هذه الأمم[٢]، ترىٰ «الديانة اليهودية» -وفقًا لحزقيال درور (Yehezkel Dror)- «أن الشعب اليهودي وإسرائيل لا تضاهيهم أي أمة، لا في طبيعتهم ولا في مبرر وجودهم، حيث إن وجودهم وحدهم هو الحقيقة وهو المعيار»[٣]، ومع مرور الوقت، أدىٰ هذا التأكيد المتزايد علىٰ«التميّز الجذري» لإسرائيل إلىٰ ميول عنصرية، وبما أن اليهود هم الأداة التي اختارها الله ليحكم بها الأرض، فقد اعتبر بعض المفكرين اليهود أن هذا يعني أن اليهود أسمىٰ من أن يخضعوا لقوانين الطبيعة والمجتمع[٤]، وبعبارة أخرىٰ، طالما اعتقد اليهود أنهم كانوا يتصرفون باعتبارهم أدوات تنفذ مشيئة الرب، فلم يكن هناك ما يلزمهم بالقوانين التي تطبق علىٰ أي أمة أخرىٰ، ومع انتقال الإسرائيليين إلىٰ اليمين الديني -وهو تحوّل مدفوع بمنطق وخبرة الصهيونية نفسها- أظهر المناصرون

---

(1) Shahak, *Jewish History*, 8-9.

(٢) في عام ١٩٠٤ كتب الحاخام كوك (Kook) كبير الحاخامات الأشكناز في فلسطين، «لذلك علىٰ المستوىٰ الجماعي لإسرائيل، رسم الله هاتين البنيتين: بنية مقابلة للكينونة المادية، التي تطمح إلىٰ التحسّن المادي للأمة . . . وبنية ثانية مخصصة للسمة الروحانية. بحكم الجانب الأول، فإن إسرائيل قابلة للمقارنة مع جميع دول العالم، لكن بالنظر إلىٰ الجانب الثاني، تعتبر إسرائيل فريدة من نوعها، «فإسرائيل وحدها هي المخصوصة بالقيادة الإلهية»؛ ومن بين جميع الأمم، فقط إسرائيل هي التي لن تحاسب «إن التوراة والقدسية الفريدة لإسرائيل هي التي تميزها عن سائر الأمم». انظر:

kook, When God Becomes History.

(3) Dror “On the Uniqueness of Israel,” 247.

(٤) في القرن الخامس عشر، قدم إسحاق أبرافانيل (Isaac Abravanel) -رجل الدولة اليهودي وشارح الكتاب المقدس- بيانًا واضحًا لما تستلزمه عقيدة الاختيار اليهودي -علىٰ حد تعبير كاتب سيرة حياته الحديثة- «إعفاء من قوانين الطبيعة والمجتمع الذي تحكم الأمم». انظر:

Feldman, Philosophy in a Time of Crisis, 137-38.

للصهاينة استعدادًا متزايدًا لتبرير انتهاكاتهم لحقوق الإنسان باعتبارها امتيازًا يهوديًّا[١]، وبالرغم من مقاومة ضحاياهم لتقدّم الصهيونية، فإن «الشعب المختار» استطاع رويدًا رويدًا أن يستثمر قدرة «العرق الأسمىٰ» لإضفاء الشرعية علىٰ أفعاله، حتىٰ صارت أفعالهم تُبرَّر بمحض الإرادة.

❁ ❁ ❁

إن الخطاب الصهيوني المتمركز حول عقيدة الاختيار الإلهي سيكون مقنعًا إذا تمكّن اليهود من تحقيق انتصارات غير متوقعة يمكن اعتبارها «معونات إلهية»، وكما اتضح بعد ذلك، تجاوزت الإنجازات الصهيونية -قبل إنشاء إسرائيل وبعدها- سقف توقعاتهم المتواضعة، وعمل الأيديولوجيون الصهاينة علىٰ صقل هذه الإنجازات حتىٰ يمكن إضفاء سمة الاستثنائية والفرادة وحتىٰ المعجزة. ننتقل الآن إلىٰ اختراع هذه الاستثناءات الإسرائيلية علىٰ أرض الواقع.

غالبًا ما يُقدم إنشاء إسرائيل -في ظاهره، ورغم ما في ذلك من غرائب- دليلًا علىٰ *الاستثنائية الإسرائيلية*، ويمكننا بسهولة العثور علىٰ كلمات مثل المعجزة أو الأعجوبة ملاصقة لأي ذكر لقيام إسرائيل[٢]، فزعم رئيس الوزراء نتنياهو (Netanyahu) أن قيام إسرائيل كان «معجزة لا مثيل لها في التاريخ»،

---

(١) كتب ستانارد (Stannard) عن طرق أخرىٰ يمكن أن تتحول بها عقيدة الاختيار إلىٰ العنصرية «مع التركيز بشكل خاص علىٰ الحفاظ علىٰ نقاء الدم (علىٰ سبيل المثال، سفر التثنية ٧: ٣، سفر يشوع ٢٣: ١٢-١٣)، وعلىٰ الخوف الضمني أو المعلن من تلويث هذا النقاء بدم الآخرين النجس؛ فإن أيديولوجية العهود في جوهرها ليست سوىٰ خطوة بعيدة علىٰ طريق العنصرية الكاملة، وإذا توافرت الوسائل، فغالبًا ما تدفع أصحابها إلىٰ الاضطهاد العنيف لهؤلاء غير المختارين الذين يشكّلون تهديدًا مستمرًّا». انظر:

stannard, "Politics of Genocide Scholarship," 275.

(٢) وهكذا، كتب جونسون (Johnson) -وهو كاثوليكي ومؤيد متعصب لإسرائيل- «في منتصف القرن الماضي، ظهرت أكثر من ١٠٠ دولة مستقلة جديدة تمامًا؛ لكن إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي يمكن أن يسمّىٰ خلقها معجزة إلىٰ حدٍ ما».

johnson, "The Miracle," 21.

وادّعىٰ أن شعبًا واحدًا فقط في التاريخ -هو اليهود- فقد دولته، وتشتّت شمله، وبعد مرور تسعمائة عام، أعاد تأسيس دولته في نفس موقعها الأصلي، وذلك عندما تحدث في واشنطن إلىٰ اللجنة اليهودية الأمريكية في الذكرىٰ السنوية الخمسين لإنشاء إسرائيل(١)، وهو ادعاء تلوكه ألسنة الصهاينة بكثرة دون الالتفات إلىٰ ما يتضمن من سخرية وتناقض. وإذا نظرنا إلىٰ القرون الأخيرة، فلن تخطئ أعيننا كثرة الدول الأوروبية الاحتلالية الاستيطانية، إلا أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي تُعرِّف نفسها علىٰ أنها استعادت الدولة التي مُحيت من الوجود في العصور القديمة؛ وبالطبع انتاب الانبهار معظم الناس؛ لأن مثل هذه الغرائب نادرة الحدوث، لكن تبقىٰ إسرائيل استثناء وطفرة لن تتكرر، إنها الوحيدة ضمن مئات من الدول المنقرضة التي ظهرت من جديد من خلال التطهير العرقي.

في كثير من الأحيان توصف الانتصارات العسكرية الإسرائيلية بأنها «معجزة»، والتنافس بين إسرائيل والعرب -حسب الرواية الصهيونية- يكاد يكون غير متكافئ، مع ميل الكفة ضد إسرائيل؛ فهي دائمًا تلك الدولة «الصغيرة» التي تدافع عن نفسها ضد العالم العربي كله؛ أو ذلك الجيش الإسرائيلي المحاط بالأعداء، ويواجه وحده الجيوش العربية مجتمعة، فتصوّر إسرائيل المشهد دائمًا كما لو كانت هي النبي داود يقاتل جالوت العربي، لذلك، يُنظر إلىٰ انتصارات إسرائيل علىٰ أنها تؤكد نبوءات الكتاب المقدس. وبالإضافة إلىٰ ذلك، أظهر الإسرائيليون مهاراتهم القيادية والعسكرية والقتالية الاستثنائية بوصفه انعكاسًا مذهلًا لصمود اليهود الأبدي كضحايا للكراهية المعادية للسامية(٢)، ووصف أحد الصهاينة المتحمسين انتصار إسرائيل في حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ بأنه «الانتصار الذي لم ولن يوجد مثله في تاريخ الحرب»؛ لقد استطاع هذا البلد الصغير هزيمة حضارة بأكملها.

---

(1) Israel, Ministry of Foreign Affairs, "Address by Prime Minister Netanyahu."

(2) Pipes, "[Michael Oren's] Six Days of War."

يزعم الإسرائيليون التفرد الأخلاقي لأفعالهم في علاقاتهم الداخلية والخارجية، في الحرب والسلام علىٰ حد سواء. كتب الحاخام أبراهام إسحاق (Abraham Isaac): «إنه لخطأ فادح ألا يستشعر المرء الوحدة المميزة للروح اليهودية، وألا يظن أن المنح الإلهية التي تميز إسرائيل بشكل فريد تسمو علىٰ كامل المحتوىٰ الروحي لجميع الحضارات والقوميات الأخرىٰ»[١]، وبالمثل، تحدث بن غوريون عن «المهمة الأخلاقية الفريدة» لإسرائيل. إن الصهاينة الذين يسعون لإضفاء طابع قدسي علىٰ «علاقة إسرائيل الخاصة» مع الولايات المتحدة بما يجعلها متجاوزة للسياسة الدولية؛ يرون أن «أمريكا تدعم إسرائيل لأنهما -كدولتين- تتشاركان شخصية أخلاقية مميزة»[٢]، وعندما كشف جنرال إسرائيلي أن الهاجانا[٣] -في أغسطس ١٩٩٥- قتلوا أسرىٰ الحرب المصريين في حرب السويس، استنكر رئيس الوزراء إسحاق رابين فعل الجنرال؛ لأنه سلط الضوء علىٰ حادثة نادرة، وقال: إن «الجيش الإسرائيلي يخطو خطواته كجيش للبشرية جمعاء، هذا الجيش الذي يتمتع جنوده بمعايير أخلاقية فريدة؛ إن تلك الحالات الشاذة لا تؤثر شيئًا علىٰ القاعدة العامة»[٤]. تؤدي بعض ادعاءات *الاستثنائية الإسرائيلية* دورها فقط من خلال حصر المقارنات بعناية في دول الشرق الأوسط؛ وهكذا، لا يملّ القادة الإسرائيليون وأعوانهم الصهاينة في الغرب من تذكير الجماهير الغربية بأن إسرائيل هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط؛ وأن إسرائيل وحدها هي التي ترفع لواء الحرية في هذه الزاوية المظلمة من العالم،

---

(1) Kook, "Rebirth of Israel," 425.

(2) Rose, Question of Zion, 73.

(٣) الهاجانا (Haganah): تكتّل عسكري نشأ في ظل الانتداب البريطاني علىٰ فلسطين في الفترة السّابقة لإعلان دولة إسرائيل؛ وكان الهدف المعلن من تأسيسه الدفاع عن أرواح وممتلكات المستوطنات اليهودية في فلسطين خارج نطاق الانتداب البريطاني، وبلغت المنظمة درجةً من التنظيم مما أهّلها لتكون حجر الأساس لجيش إسرائيل الحالي. (المترجم).

(4) Israel, Ministry of Foreign Affairs, "PM Rabin Response."

والتي تقع تحت قبضة ثلة من الملوك والديكتاتوريين. وبالمثل، تلفت إسرائيل الانتباه إلىٰ «نموها المعجز» منذ عام ١٩٤٨، ومستوىٰ المعيشة المرتفع، ومستويات التعليم والتكنولوجيا، مما يجعلها مجتمعًا استثنائيًا في الشرق الأوسط[١]، وفي هذه الحالات -كما في حالات أخرىٰ- تستطيع إسرائيل ادّعاء التفرد فقط لأنها في الشرق الأوسط، وهي بذلك تستخدم الجغرافيا لإخفاء حقيقة أنها بقعة أوروبية في قلب الشرق الأوسط، ودولة احتلالية استيطانية تقوم علىٰ الموارد المالية ومهارات وتكنولوجيا المجتمعات الغربية الأكثر تقدمًا.

كما أن إسرائيل هي «الأصل الاستراتيجي الأهم» لأمريكا في الشرق الأوسط، وعندما ألحقت إسرائيل هزيمة عسكرية مذهلة بالقوميتين العربيتين الرائدتين مصر وسوريا في يونيو ١٩٦٧ كان ذلك بمثابة أوراق اعتماد إسرائيل بأنها الأصل الأكثر قيمة وموثوقية لأمريكا في الشرق الأوسط، وخلال الحرب الباردة، كانت إسرائيل حصن الغرب ضد القومية العربية والهيمنة السوفيتية علىٰ الشرق الأوسط؛ ومنذ نهاية الحرب الباردة، زعمت أنها أفضل دفاع ضد التهديد الإسلامي للمصالح الغربية في الشرق الأوسط؛ إن إسرائيل هي «حاملة الطائرات» الأمريكية، و«حصنها» في الشرق الأوسط. في خطابه أمام اللجنة اليهودية الأمريكية في مايو ١٩٩٨ ادّعىٰ رئيس الوزراء نتنياهو أن «العامل الحاسم الذي منع السيطرة السوفيتية علىٰ الشرق الأوسط هو إسرائيل»[٢]، كما تؤكد إسرائيل -كدليل آخر علىٰ أنها لا غنىٰ عنها للولايات المتحدة- أنها واحدة من الدول القليلة التي صوتت دائمًا لصالح الولايات المتحدة في الجمعية العامة للأمم المتحدة، وينسون أن يضيفوا أن الأعضاء الآخرين في هذه المجموعة هم جزر توفالو (Tuvalu) وناورو (Nauru) ومارشال (Marshall).



(١) «زوّدت إسرائيل مواطنيها بأعلىٰ مستوىٰ من المعيشة من أي دولة في الشرق الأوسط»:
Brownfeld, "Judaism and the Jewish State," 194.

(2) Israel, Ministry of Foreign Affairs, "Address by Prime Minister Netanyahu."

هناك نوع ثالث من الاستثنائية يدّعي وجود تاريخ فريد للمعاناة اليهودية، ويُسلِّط الضوء بكثرة علىٰ المحن التي عانىٰ منها اليهود -كالقيود القانونية التي فرضت عليهم، واضطهادهم، وطردهم- ورحلتهم إلىٰ فترات التسامح، التي أقرتها قواعد العصر، حيث ازدهروا خلالها، وقدموا العديد من الإسهامات في الثقافة اليهودية والاقتصاد والمعرفة وثقافة المجتمعات الأممية علىٰ حدٍ سواء.

يبدو أن هذا «التأريخ المأساوي» للشعب اليهودي الذي عانىٰ بصورة استثنائية قد ظهر جليًا خلال القرن التاسع عشر؛ حيث كان من المتوقع تعويض اليهود العلمانيين بصورة مُرْضية عن فقدانهم لدينهم وطقوسهم[١]، فمنذ إنشاء إسرائيل -وبعد الهولوكوست- أصبح هذا النهج في التعامل مع التاريخ اليهودي أكثر انتشارًا، مما يجعل من المستحيل تقريبًا -في بعض الدوائر- تصور أن اليهود قد لعبوا أي دور في التاريخ الأوروبي غير دور الضحية، وفي العقود الأخيرة، انشغل عدد قليل من المؤرخين اليهود بتوسيع هذه النظرة المأساوية، حتىٰ تشمل تاريخ اليهود في الشرق الأوسط؛ وهي المنطقة التي يشهد التاريخ بأن تعاملها مع الأقليات الدينية كان أكثر إنسانية وتسامحًا من أوروبا المسيحية. إن هذا الاتجاه

---

(١) طوّرت إستر بنباسا (Esther Benbassa) هذه الأطروحة في كتابها (المعاناة بوصفها هوية La Souffrance Comme Identité). قُدّمت أطروحة مفهوم «التأريخ المأساوي» اليهودي لأول مرة في عام ١٩٢٨ من قبل سالو ويتماير بارون (Salo Wittmayer Baron)، المؤرخ البارز للتاريخ اليهودي في القرن العشرين، وقد أكّد أن المؤرخين اليهود يشوّهون تاريخ اليهود في أوروبا عندما يجعلون معاداة السامية -أي التميز والترحيل والمذابح التي تعرض لها اليهود- محور هذا التاريخ:

liberles and Lyman, Salo Wittmayer Baron, 340.

هذه النظرة المأساوية لم تمت بعد؛ لأنها ضرورية للصهيونية، وللاطلاع علىٰ مثال حديث علىٰ هذه النظرة، انظر:

vital، A People Apart: The Jews in Europe, 1789-1939. New York: Oxford University Press, 1999.

ووفقًا لكتابه، يبدو أن فيتال (Vital) لا يرىٰ قيمة كبيرة في هذا الوجود [في المنفىٰ] خارج سياق الوجود اليهودي في نهاية المطاف لتقرير المصير في أرضهم، «إنه ضار باليهود».

لإعادة كتابة التاريخ اليهودي المُعدَّل في الشرق الأوسط عازمٌ كل العزم -وبكل السبل- علىٰ توثيق كل تمييز وكل شبهة اضطهاد تحمّلها يهود الشرق الأوسط[1]؛ فالكراهية التي أنتجت -وما زالت- المعاناة اليهودية «الاستثنائية»، هي أيضًا فريدة من نوعها، وهذه الأنواع الاستثنائية من الكراهية الموجّهة ضد اليهود فقط: غير عقلانية، ودائمة، وعالمية، ولا حدود لنواياها الخبيثة. كتب دينيس براغر (Dennis Prager) وجوزيف تيلوشكين (Joseph Telushkin) في كتابهما المشهور «لماذا اليهود؟» ما يلي: «في حين أن كراهية الجماعات الأخرىٰ كانت موجودة دائمًا، لم تكن أي كراهية أخرىٰ عالمية وعميقة ودائمة مثل معاداة السامية»[2]، فمعاداة السامية فريدة؛ لأنها تكره اليهود ليس بسبب ما يفعلونه، ولكن فقط لأنهم يهود، وهذا التأريخ يرفع معاداة السامية فوق التاريخ؛ فكراهية اليهود موجودة خارج نطاق السببية، وبمعزل عن الظروف المادية والاجتماعية والسياسية؛ فهي لا تنشأ من الخصومات والغيرة العرقيّة؛ ولا علاقة لها بالسياسات الخلافية للطبقات الحاكمة، وبعبارة أخرىٰ، فإن معاداة السامية هي سمة أساسية وواقعية لعالم غير اليهود. إن هذه النظرة التي تجعل من معاداة السامية قانونًا يوجّه العالم منتشرةٌ لدرجة أن العديد من اليهود والغربيين يسمون الآن أي عداء تجاه اليهود -حتىٰ الصادر من ضحاياهم الفلسطينيين أو العرب- معاداة للسامية. في الواقع، إن أي انتقاد لإسرائيل يُندد بأنه معادٍ للسامية.

حسب التأريخ الصهيوني لا توجد مأساة إنسانية تقارب رعب الهولوكوست؛ إنها تقف في التاريخ بمفردها. لم يُقتل البشر من قبلُ بهذه الأساليب الباردة؛ ولم يسبق أن أبيد هذا العدد الكبير من البشر بتلك الطريقة المروعة التي لم يسبق لها مثيل، ومنذ ذلك الحين، سعت مجموعة من البشر إلىٰ إبادة مجموعة أخرىٰ إبادة

---

(١) لمراجعة شاملة عن أدبيات حياة اليهود في ظل الإسلام انظر:

ye'or, Dhimmi and Decline of Eastern Christianity; Karsh, Islamic Imperialism. See M. Cohen, "Jews under Islam".

(2) Prager and Telushkin, *Why the Jews*? 3.

كاملة. كان الصهاينة يصفون معاداة السامية بأنها كراهية عدائية بشكل فريد حتىٰ قبل اندلاع جنون الهولوكوست؛ ويرون أن كراهية اليهود وحدها هي التي يمكن أن تنتج أكثر الجرائم فظاعة ضد أي شخص[١]، ومن ثمّ فالهولوكوست لم يكن إلا نهاية طبيعية للكراهية الدائمة التي لا حدود لها، وغير المبررة مثل معاداة السامية.

لقد أفرغ الصهاينة بحارًا من مداد الجدل لإثبات تفرّد الهولوكوست ومناقشته والدفاع عنه؛ وبمجرد أن يُلقىٰ اعتراضٌ علىٰ إحدىٰ دعاوىٰ الاستثنائية تظهر دعاوىٰ جديدة. لقد جعل اليهود من الهولوكوست حرمًا مقدسًا؛ حتىٰ أن مجرد مقارنته بأي إبادة جماعية أخرىٰ، وأي جرائم أخرىٰ ضد الإنسانية تعد انتقاصًا منه، وإنكار للمأساة اليهودية، ويبدو الأمر كما لو أن التاريخ «اختار» اليهود علىٰ وجه الخصوص لهذه المعاناة التي لا يمكن تصورها، وهذا يعني أن الهولوكوست هو تجديد العهد الأصلي بين الله والشعب اليهودي، ذلك العهد الذي أُبرم الآن في معسكرات الاعتقال في أوشفيتز (Auschwitz)، لقد اختار الله اليهود مرة أخرىٰ بجَعْلهم -وحدهم- يعانون من الموت من خلال الهولوكوست، والتشكيك في استثنائية الهولوكوست، ومقارنته بإبادة الأمريكيين الأصليين، والتسمانيين، والهيروس، والكونغوليين، والغجر، والكمبوديين، أو التوتسي هو ازدراء لهذا العهد، وتشكيك في استثنائية الشعب اليهودي.

علىٰ الرغم من أن معاداة السامية قد تضاءلت منذ الهولوكوست بين المسيحيين الغربيين، إلا أن شكلًا جديدًا من معاداة السامية -كما يصرّ الصهاينة- أخذ مكانه في العالم الإسلامي؛ فرأوا أن معاداة السامية الإسلامية الجديدة -التي

---

(١) يتحدث التاريخ المقدس اليهودي عن محاولتين في العصور القديمة لإبادة اليهود بالكامل: الأولىٰ من قبل المصريين في الخروج، والثانية علىٰ يد هامان، وزير الملك الفارسي أخشورش (Ahasuerus)، في سفر أستير (Esther). ومع ذلك، لا يوجد دليل علىٰ أن هذه الأحداث حدثت بالفعل.

تعود جذورها حسب زعمهم إلىٰ القرآن الكريم وسنة النبي [صلىٰ الله عليه وسلم]- تستهدف كلًا من إسرائيل واليهود في العالم الغربي، وبحسب الرواية الصهيونية فقد قوبل المستوطنين اليهود بمعاداة السامية الجديدة عندما بدأوا في الوصول إلىٰ فلسطين لاستعادة «أرضهم الموعودة»، وبدافع من كراهيتهم «القديمة» لليهود، بدأ العرب في تنظيم هجمات ضد أقرب المستوطنين اليهود في فلسطين علىٰ الرغم من أنهم جلبوا «الازدهار» لجيرانهم العرب، وأدت الكراهية العربية لليهود إلىٰ غزو منسق -في مايو ١٩٤٨- من قبل خمسة جيوش عربية لدولة إسرائيل الناشئة؛ والواقع أن جيران إسرائيل العرب وسكانها الفلسطينيين لم يتوقفوا أبدًا عن تهديد إسرائيل؛ فلم يتخلوا أبدًا عن عزمهم علىٰ تدمير الدولة اليهودية الوحيدة في العالم من خلال الحروب والحصار الاقتصادي والهجمات الإرهابية.

يزعم الصهاينة أن جيران إسرائيل -مدفوعين بكراهيتهم لليهود- يشكلون تهديدًا فريدًا لأمنها القومي، علىٰ عكس أي تهديدات تواجهها أي دولة أخرىٰ في العالم؛ ويزعمون أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي لا يعترف أعداؤها بحقها في الوجود، وهي الدولة الوحيدة التي تعاني من تهديد مستمر لوجودها، وأن هزيمتها في حرب ستؤدي إلىٰ التدمير الكامل لسكانها، وبعبارة أخرىٰ، بعد أن عانت إسرائيل بالفعل من الهولوكوست تواجه الآن يوميًا احتمالًا وشيكًا بحدوث إبادة جماعية أخرىٰ، وبما أن إسرائيل تواجه خطر الإبادة الكاملة، يجب علىٰ العالم ألا يطالبها بضبط النفس، فلا يمكن لإسرائيل أن تتحمل أي مخاطر في السعي لتحقيق السلام، أو أن تقدّم أي تنازلات للفلسطينيين أو العرب.

ظهرت هذه الأسطورة الإسرائيلية عن «استثنائية تهديدات الأمن القومي الإسرائيلي» بعد فترة وجيزة من قيام إسرائيل[1]، ففي سبتمبر ١٩٤٩ وبعد أكثر من

---

(1) Merom, "Israel's National Security," 413.

عام بقليل علىٰ قيام إسرائيل، أعلن ديفيد بن غوريون (David Ben-Gurion) أن مشكلة الأمن القومي الإسرائيلي كانت «فريدة تمامًا، ولا توازيها مشكلة أخرىٰ بين الأمم»، وفي أغسطس ١٩٥٢، كرّر بن غوريون القول إن مشكلة إسرائيل الأمنية كانت «مشكلة فريدة من نوعها، تمامًا كما أن اليهود هم شعب فريد من نوعه»[١]، كتب جيل ميروم (Gill Merom) أنه بمرور الوقت «تغلغلت مفاهيم استثنائية تهديدات الأمن القومي بعمق في المجتمع الإسرائيلي لدرجة أنها اندمجت في خطاب النقاد الاجتماعيين. ويمكن العثور علىٰ ادعاءات الاستثنائية في كتابات العلماء البارزين وصانعي الرأي المستقلين الذين كانوا ينتقدون بشدة السياسة الخارجية والخطاب الإسرائيلي»[٢] حول أساطير بناء دولتهم.

❁ ❁ ❁

رسم منتقدو الصهيونية وإسرائيل -بما في ذلك عدد قليل من الإسرائيليين- استثنائية معكوسة، حيث تصف إسرائيل بأنها هي التي تشذ عن القوانين، وتنتهك المعايير الدولية وتنجح في الإفلات من العقاب، وتشارك في الانتهاكات الممنهجة لحقوق الإنسان، وتشن الحروب حسب الرغبة، وتوسّع أراضيها من خلال الإغارات؛ هذا ليس المكان المناسب لتقديم قائمة حصرية بهذه الاستثناءات الإسرائيلية السلبية، لكننا سنذكر طرفًا من أفظعها.

بصفتها دولة احتلالية حتىٰ النخاع، ليست إسرائيل وحدها في تاريخ التوسع الأوروبي إلىٰ الخارج، لكنها الوحيدة من نوعها في القرنين العشرين والحادي والعشرين[٣]، وقد أقام الأوروبيون -منذ القرن السادس عشر- مستعمرات استيطانية في الأمريكيتين وأستراليا ونيوزيلندا -من بين أماكن أخرىٰ-، حيث شرّد

---

(1) Ibid., 414.

(2) Ibid., 413-14.

(٣) عرض جبور في كتابه (الاستعمار الاستيطاني Settler Colonialism) ورودينسون (Rodinson) في كتابه (إسرائيل: دولة استعمارية؟ (Israel: A Colonial-Settler State?) التحليلات الأقدم والأكثر شمولًا عما إذا كانت إسرائيل دولة استعمارية استيطانية أم لا.

المحتلون البيض السكان الأصليين، أو قتلوهم؛ من أجل إنشاء مجتمعات جديدة علىٰ صورة تلك التي تركوها وراءهم، وبحلول أواخر القرن التاسع عشر، تراجع هذا التوسع الأوروبي المعتمد علىٰ الإبادة الجماعية إلىٰ حدٍ كبير، ورغم وجود عدد قليل من المجتمعات القديمة في العصر الحديث التي كان من الممكن أن يبيدها المحتلون البيض بسهولة -في أفريقيا الاستوائية وآسيا- إلا أن مناخها القاسي ومسببات الأمراض لم يكونا في صالح المستوطنين الأوروبيين، ومثّل القرار الصهيوني عام ١٨٩٧ بإقامة دولة احتلالية في فلسطين خروجًا عن هذا الاتجاه، وفي عام ١٩٤٨، أي بعد خمسين عامًا تقريبًا، كان المحتلون اليهود من الغرب يخلقون الدولة الوحيدة في القرن العشرين التي تأسست علىٰ الغزو والتطهير العرقي[١]، إن إسرائيل هي الدولة الاستعمارية الوحيدة التي أنشأها الأوروبيون في العصر الحديث في مكانٍ ما في العالم القديم.

علاوة علىٰ ذلك، فإن الاحتلال الاستيطاني في إسرائيل ليس شيئًا ينتمي إلىٰ ماضيها؛ فبعد انتصار الإسرائيليين في حرب يونيو عام ١٩٦٧ قرروا توسيع مشروعهم الاحتلالي الاستيطاني ليشمل الضفة الغربية وغزة وسيناء ومرتفعات الجولان، وفي العقود الأخيرة، تطوّر الأمر ولم تعد المطالبة بجولة أخرىٰ واسعة من التطهير العرقي للفلسطينيين في الأراضي المحتلة -وحتىٰ داخل حدود إسرائيل قبل عام ١٩٦٧- قاصرة علىٰ الأطراف المتطرفة من اليمين الإسرائيلي، بل أصبحت هي سمة التيار الرئيسي للسياسة الإسرائيلية.

من المرجّح أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي تصرّ علىٰ تعريف المواطنة بشكل مستقلّ عن الجغرافيا، فمن ناحية، استمرت في إنكار حق

---

(١) فيما يتعلق بالتطهير العرقي للفلسطينيين، فإن أفضل مصدرين هما: كتاب نور مصالحة (طرد الفلسطينيون Expulsion of the Palestinians: The Concept of Transfer in Zionist Political Thought, 1882-1948) وإيلان بابيه (التطهير العرقي في فلسطين The Ethnic Cleansing of Palestine) [صدر الأخير مترجمًا إلىٰ العربية عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية بترجمة أحمد خليفة، ط١ ٢٠٠٧م].

العودة -ومن ثم حقوق المواطنة- لملايين الفلسطينيين الذين طردوا أو أُبعد آباؤهم وأجدادهم عن فلسطين في جولتين كبيرتين من عمليات التطهير العرقي منذ عام ١٩٤٨[١]، وفي نفس الوقت تمنح إسرائيل - بموجب قانون العودة تلقائيًا وبشكل فوري- الجنسية لليهود الوافدين أو الأشخاص من أصول يهودية أو المتحولين إلىٰ اليهودية، وبموجب هذا القانون، كما قال مازن قمصية بإيجاز: «لا يهاجر أي يهودي إلىٰ إسرائيل، بل اليهود (بما في ذلك المتحولون) «يعودون إليها» (ومن هنا اشتق اسم القانون)[٢]، بالإضافة إلىٰ ذلك، يتلقّىٰ المهاجرون اليهود دعمًا سخيًا من الدولة عند وصولهم إلىٰ إسرائيل، بمعنىٰ آخر، تقلب إسرائيل حقوق الإقامة والمواطنة المعترف بها دوليًا علىٰ رأسها، وتنكر هذه الحقوق علىٰ من اكتسبوها بالولادة، لتمنحها بحرية لأولئك الذين يطالبون بها بناءً علىٰ الأساطير الدينية القديمة.

في السنوات الأخيرة، اتّهم النقاد إسرائيل -بشكل متزايد- بممارسة التمييز القانوني ضد الفلسطينيين، ومثل هذا التمييز منتشر ومتفشٍ في الأراضي المحتلة، حيث أقامت إسرائيل مستوطنات حصرية لليهود، مرتبطة بإسرائيل قبل عام ١٩٦٧ عبر طرق مخصصة لليهود فقط، ومنذ يونيو ١٩٦٧ عانىٰ الفلسطينيون في هذه الأراضي في ظل نظام الاحتلال العسكري، الذي لا يُظهر أدنىٰ احترام لحقوقهم الإنسانية، حتىٰ تجاوز الأمر الفصل العنصري في جنوب أفريقيا؛ حتىٰ تجرأ رئيس أمريكي سابق -جيمي كارتر(Jimmy Carter)- مؤخرًا علىٰ الاعتراف بوجود فصل عنصري في الأراضي المحتلة في عنوان كتابه الجديد «فلسطين: السلام وليس الفصل العنصري»[٣]، وعلىٰ الفور، بدأت وسائل الإعلام الأمريكية الرئيسية

---

(١) طُرد ما يقارب ٨٠٠٠٠٠ فلسطيني من الأراضي التي استولت عليها إسرائيل عام ١٩٤٨، وطرد ٣٢٠,٠٠٠ فلسطيني آخر من الضفة الغربية عام ١٩٦٧. انظر:

Farsoun and Aruri, Palestine and the Palestinians, 303.

(2) Qumsiyeh, Sharing the Land of Canaan, 87.

(3) See Carter, Palestine.

-بقيادة الرقباء الصهاينة- بمهاجمة الرئيس كارتر بوحشية لذكره ما لا يصح أن يُذكر؛ وتجدر الإشارة إلىٰ أن عددًا كبيرًا من الوظائف السياسية والأكاديمية في الولايات المتحدة تعرضت لنهاية مبكرة بسبب جرائم أقل فظاعة من تلك التي أشار إليها كارتر[١]، لكن لم يكن لدىٰ جيمي كارتر، ذي الثمانين عامًا، الكثير ليخسره.

داخل حدود ما قبل عام ١٩٦٧ أيضًا، خصصت إسرائيل حقوقًا علىٰ أساس العرق، وكان الفلسطينيون في إسرائيل حتىٰ عام ١٩٦٦ يُحكَمون بموجب الأحكام العرفية، التي قيّدت بشدّة حقوقهم المدنية والسياسية، بما في ذلك حقّهم في حرية الحركة، وإنشاء وسائل الإعلام الخاصة بهم، وفي اختيار أو تشكيل الأحزاب السياسية[٢]، ومنذ تأسيسها، ربطت إسرائيل سياسة الهجرة إليها علانية بالعرق اليهودي، ويُعرِّف القانون الإسرائيلي الأرض بأنها ملك للشعب اليهودي، يملكها نيابة عنه الصندوق القومي اليهودي (JNF)، وهو منظمة شبه حكومية، وأمّمت إسرائيل جميع الأراضي التي يملكها الفلسطينيون في عام ١٩٤٨، واستمرت في مصادرة الأراضي الفلسطينية بموجب إجراءات تعسفية متنوعة؛ ونتيجة لذلك، يمتلك الصندوق القومي اليهودي اليوم ٩٣% من جميع الأراضي في إسرائيل ما قبل عام ١٩٦٧[٣]، ومع ذلك، تحرّج الرئيس كارتر -حتىٰ في لحظة جرأته- من ذكر وجود فصل عنصري داخل إسرائيل قبل عام ١٩٦٧.

إن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي ترفض تعيين حدودها، وقد تغيّرت حدودها الواقعية بتناغم مثير للإعجاب؛ ففي البداية، كان خط الهدنة لعام ١٩٤٨ بمثابة حدود إسرائيل؛ لكنها توسّعت إلىٰ الخارج في الأعوام ١٩٥٦

---

(1) Findley, They Dare to Speak Out.

(2) Cook, Blood and Religion, 7.

(3) Ibid., 8.

و١٩٦٧ و١٩٨٢ بسبب الحروب والغارات، وفي مناسبات قليلة، كان علىٰ إسرائيل أن تنسحب من الأراضي التي غزتها، فانسحبت من سيناء عام ١٩٥٧، ومن سيناء مرةً أخرىٰ في عام ١٩٧٨، ومن جنوب لبنان في مايو ٢٠٠٠، ومن جنوب لبنان مرةً أخرىٰ في أغسطس ٢٠٠٦، وبالإضافة إلىٰ ذلك، حدّدت إسرائيل -منذ اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣- مجموعة جديدة من «الحدود» الداخلية داخل الضفة الغربية لاحتواء وتحييد المقاومة الفلسطينية داخل مجموعة من البانتوستانات[١] المنظّمة التي يهيمن عليها غالبية يهودية.

إذا لم تكن إسرائيل قد وصلت بعدُ إلىٰ حدود مملكة داود الأسطورية -أو بالأحرىٰ تجاوزتها- فهذا ليس بسبب افتقارها للطموح؛ إنه فقط بسبب القيد الديموغرافي، وستحتاج إسرائيل -لأجل التوسع خارج حدودها الحالية- إلىٰ إمدادات أكثر وفرة من المستعمرين اليهود المستعدين لتحمّل مخاطر الاحتلال، ولحسن حظ العرب، هذه المستعمرات قليلة، كما كانت قبل صعود النازيين في ألمانيا، ولو نجحت إسرائيل في اجتذاب خمسة ملايين يهودي بعد عام ١٩٦٧، فإن سيناء كانت ستبقىٰ تحت الاحتلال الإسرائيلي، وستمتد حدودها في الشمال إلىٰ نهر الليطاني وعبر نهر الأردن في الشرق. ولحسن حظ العرب أيضًا، تعثر التوسع الإسرائيلي بسبب فقر الديموغرافيا اليهودية، ويمكن أن يتغيّر ذلك بسرعة كبيرة إذا قررت إسرائيل تخفيف شروط التحوّل إلىٰ اليهودية؛ حيث يمكن لملايين اليهود المتحولين من أفقر دول العالم -الذين سيجذبهم الوعد بحياة أفضل- أن يبدأوا في التدفق إلىٰ إسرائيل بموجب قانون العودة، ومن الواضح أن الصهاينة قد

---

(١) البانتوستانات (Bantustans): أصلها نسبة إلىٰ مناطق في جنوب أفريقيا يشكل فيها السود أغلبية سُكانية، في كل من جنوب أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا (ناميبيا الآن)، فيما يخص الشرق الأوسط: يُطلق علىٰ الضفة الغربية وقطاع غزة أحيانًا «البانتوستانات الإسرائيلية»، بمعنىٰ أن حل الدولتين يقتضي أن يشكل الإسرائيليون أغلبية في تلك المناطق كما يشكل السود أغلبية في جنوب أفريقيا. (المترجم).

وزنوا هذا الخيار، لكنهم رفضوه حتىٰ الآن، ليس بسبب اعتراضات اليهود الأرثوذكس، ولكن لأن المكاسب التي سيجلبها الآن سيقابلها مخاطر علىٰ المدىٰ الطويل علىٰ الأرجح، ويبدو أن القيود الديموغرافية لإسرائيل مُلزِمة، وقد تحدد هذه القيود المصير النهائي لهذا الاحتلال الغاشم.

الفصل الثاني
مصادر الاستثنائية

«نحن لا نصلح للدخول في القالب النمطي للبشر العاديين»
ديفيد بن غوريون (David Ben-Gurion)

«الله وحده هو الذي خلق شعبًا مميزًا للغاية مثل الشعب اليهودي»
جدعون عزرا (Gideon Ezra)[١]

ليس هناك من شك في قدرة المشروع الصهيوني على تقديم دعاوى الاستثنائية، وأي شخص يلقي نظرةً على الأدب الصهيوني الغزير سيلاحظ -دون جهد- المزاعم المتكررة للاستثنائية اليهودية والإسرائيلية، ونادرًا ما يخلو أي جانب من التاريخ الإسرائيلي أو اليهودي من بعض مزاعم الاستثنائية.

توظّف *الاستثنائية الإسرائيلية* في عدة استخدامات؛ منها أنها تخفي وتفسر وتدافع عن الطابع «الاستثنائي» للمشروع القومي الصهيوني، وعندما سعى الإيرلنديون إلى التحرر القومي، كان هدفهم واضحًا؛ فقد أرادوا استعادة السيطرة القومية على حياتهم وبلدهم من القوة الأجنبية؛ ولم يكن أحد مضطرًا إلى إقناع

(1) Merom, "Israel's National Security," 411.

الإيرلنديين بأن بينهم وبين الآلهة صلة، أو أنهم يمتلكون جوهرًا فريدًا يميزهم عن جميع الشعوب الأخرىٰ، أو أن تاريخهم أو دينهم أو عرقهم أو لغتهم أو أخلاقهم أو ثقافتهم تجعلهم سادة علىٰ مستعمريهم، صحيح أن القوميون الإيرلنديون طرحوا من حين لآخر -متباهين بكثرتهم- ادعاءات استثنائية، إلا أن نجاح حركتهم لم يكن منوطًا بقبول هذه الدعاوىٰ، بل ليقينهم بأنهم أمة لها الأرض التي تستحقها، ولها الحق في أن تبني عليها دولتها، فلم يكن عليهم أن يثبتوا لأحد أنهم استثنائيون.

واجه الصهاينة عائقين لم يواجههما القوميون الإيرلنديون، حيث لم تشكّل المجتمعات اليهودية المتنوعة والمشتتة في أوروبا -بل في العالم كله- شعبًا واحدًا؛ وبدلًا من ذلك، وُحّد يهود العالم بشكل صوري من خلال تراثهم الديني، لكنهم تشاركوا لغاتهم وثقافاتهم وجيناتهم مع مجتمعاتهم التي عاشوا فيها، ومع ذلك فلم يكن لأي مجتمع يهودي بلد خاص، أو إقليم كبير ومتصل يشكلون فيه غالبية السكان، وعلىٰ الرغم من هذه العيوب اليهودية -غياب الأمة والأرض- كان الصهاينة مصممين علىٰ «تحرير» يهود أوروبا ومنحهم دولتهم الخاصة.

عالج الصهاينة العائق الأول بإنكار وجوده؛ فقد كانوا يعلمون أن اليهود ليسوا أمة، ولكن ليس من الحكمة أن يكون مبدأ حركتهم «القومية» هو الاعتراف بأن الأمة اليهودية ليست موجودة بعد، كما أنهم لم يعتقدوا أن هذا العيب كان عائقًا خطيرًا أمام حركتهم، وكان الصهاينة مقتنعين بأنهم يستطيعون بسرعة إقناع ما يكفي من اليهود الخائفين بأنهم أمة، وذلك بالاستعانة بـ «أعداء السامية» الذين تزايدت هجوهم في العقود الأخيرة، وبدلًا من بناء القومية القائمة علىٰ الدين المشترك، اختار الصهاينة وضع أساس عنصري للقومية اليهودية، حيث تمسكوا باتهام الآخرين بمعاداة السامية، وأن يهود أوروبا هم جنس مختلف -ليسوا ألمانًا أو روسًا بل شيء أسمىٰ من هذا وذاك- ينحدر من العبرانيين القدماء.

قدّمت الهوية العرقية أفضل أمل لغرس القومية في المجتمعات اليهودية المختلفة عرقيًا، الهوية القائمة علىٰ أسطورة الأصل المشترك وحدها هي التي يمكنها توحيد الشعوب التي كانت مختلفة عرقيًا وثقافيًا مثل يهود البرتغال وبريطانيا وألمانيا واليونان وروسيا؛ أسطورة الوحدة العرقية وحدها والإيمان بأنهم عائلة واحدة تنحدر من إبراهيم ويعقوب [عليهما السلام]؛ هو ما يمكنه توحيد اليهود الأرثوذكس والمحافظين والإصلاحيين في أمة واحدة، وبمجرد اقتناع اليهود بهويتهم العرقية، وأنهم حافظوا عليها علىٰ مدىٰ مئات الأجيال في المنفىٰ؛ فإن هذا سوف يمنحهم أيضًا الفخر بنسبهم القديم، وقدرتهم الفريدة علىٰ البقاء، والحفاظ علىٰ نقائهم العنصري في ظروف صعبة، وكان من المؤكد أن ذلك سيولد شعورًا قويًا بتميّزهم وتفوّقهم، ذلك الشعور المتأصل في التقاليد اليهودية والكتاب المقدس اليهودي، والذي يرون أنفسهم -من خلاله- بوصفهم أمة فريدة وقديمة، حلّت عليها بركة الإله.

أما عن الأرض، فقد كان الصهاينة أكثر صراحة حول مشكلة أرضهم؛ فلم يكن هذا شيئًا يمكنهم التحايل عليه، وفي الواقع، كانت مشكلة الأرض هي ما حدد حالة «الاستثناء» اليهودية؛ لقد كانوا شعبًا استثنائيًا؛ لعدم توفر بلد يمكنهم الانتماء إليه، ومن الناحية النظرية، كان من السهل حل مشكلة الأرض، فكل ما كان علىٰ اليهود فعله هو أن يطالبوا بفلسطين كوطن لهم؛ وكانت هناك طريقتان للقيام بذلك: يمكن لليهود ذوي الخلفية العلمانية أن يزعموا أن لهم حقًّا تاريخيًّا في فلسطين، حيث إنهم ينحدرون من الإسرائيليين القدماء، وسيكون من السهل استعادة هذه الأرض لأنه -وفقًا للخطاب الصهيوني المبكر- «كانت تلك أرضًا بلا شعب»، ولم يطالب أحد بفلسطين أثناء غيابهم؛ في حين كان لليهود المتدينين حجة أبسط -وأكثر إقناعًا- فبالنسبة لهم إذا كان إلههم قد وعد أسلافهم بهذه الأرض، فكل ما عليهم فعله هو استعمال حقهم الإلهي في هذه الأرض الموعودة.

ومن ثمّ اتضح فجأة أن اليهود شعبٌ ولهم أرض؛ وبمجرد أن يقدّم الصهاينة قضيتهم ويبنوا حجّتهم، فلن يكون هناك شيء غريب في مشروعهم الاحتلالي. كان هذا هو الخطاب الرسمي للمشروع الصهيوني للتحرير الوطني للشعب اليهودي؛ وعلىٰ خلفية هذا الخطاب، نجح الصهاينة في إقناع العالم الغربي بدعم مشروعهم الاحتلالي الإقصائي في الشرق الأوسط.

لم يكن القادة الصهاينة حمقىٰ لدرجة الانخداع بخطاب هم من اختلقه، بل كانوا علىٰ دراية تامة بعجزهم الملازم لهم، ووجّهوا كل طاقاتهم لمعالجته، وبطريقة ما، لم تكن خطاباتهم المنمقة والمحركة للمشاعر إلا غطاءً مؤقتًا لمنحهم المزيد من الوقت لحشد الدعم والموارد اللازمة لخلق حقائق جديدة عن أرض فلسطين؛ وفي سبيل ذلك لعبوا علىٰ وتر العرق اليهودي، وعقيدة الاختيار الإلهي من أجل السيطرة علىٰ فلسطين، فأوجدوا أغلبية يهودية من خلال التطهير العرقي؛ وبمجرد شروع اليهود في احتلال فلسطين، سعوا إلىٰ تكوين دولة يهودية جديدة من الأعراق المتنوعة التي استُمدت منها القوة الاحتلالية اليهودية.

اتخذ الصهاينة في عام ١٩٤٨ أولىٰ خطواتهم الكبرىٰ لتجاوز معضلة فقدان الأرض، لكنهم لم يكونوا بعد أمة يهودية، وقال ديفيد بن غوريون -كبير زعماء إسرائيل- في خطاب ألقاه أمام القيادة العليا للجيش الإسرائيلي في أبريل ١٩٥٠: «لم نصبح أمةً بعد، وما زلنا لا نملك أرضًا، إن الأرض التي ٩٠٪ منها صحراء مقفرة ليست أرضًا؛ وإن الشعب الذي لا يفهم فيه المرء لغة جاره، والذي لا يدرك ثقافة أمته، ولا يعرف أرضه ولا يرتبط بها، ولا يتمسك بثقافة أمته وآمالها؛ ليس شعبًا قادرًا علىٰ مواجهة أعدائه وحل مشاكله وقت الأزمات»[1]، وكما هو واضح لم يحن الوقت بعد للتخلّي عن أساطير الطهارة العرقية والاصطفاء الإلهي.

(1) Ben-Gurion, *Ben-Gurion Looks at the Bible*, 35.

كان الصهاينة مقتنعين بأن تحديد موقع دولتهم اليهودية في فلسطين سيعالج عجزهم الملازم لهم بضربة واحدة، ولهذا رفضوا عام ١٩٠٣ العرض البريطاني بمنح اليهود أراضي في شرق أفريقيا، كما رفضوا مرة أخرىٰ في عام ١٩١٢ عرضًا برتغاليًا باحتلال أنغولا[١]. لقد رفض الصهاينة هذه العروض علىٰ الرغم من أن جهودهم في الحصول علىٰ فلسطين لم تحقق نجاحًا يذكر، ولم تنجح أي من هذه الجهود حتىٰ أواخر عام ١٩١٧، صحيح أن بعض الصهاينة كانوا يطمعون في فلسطين لأسباب دينية، ولكن كان هناك عدد قليل من المتعصبين الدينيين في صفوف الصهاينة في هذا التاريخ المبكر؛ فقد كانت الاعتبارات العمليّة هي السبب الأكبر وراء رفضهم للبدائل، حيث عرف الصهاينة أن أفضل فرصهم لتعبئة الدعم اليهودي لمشروعهم الاحتلالي تكمن في تسخير أساطيرهم وآمالهم وذكرياتهم؛ والشيء الوحيد الذي يمكنه القيام بذلك هو دولة يهودية في فلسطين، ومن هنا كان إصرارهم علىٰ ربط مشروعهم بفلسطين.

واجه الجناح السياسي من الصهيونية منافسة شديدة علىٰ كسب دعم يهود أوروبا. كان عليه أن يتنافس مع حركة المحاكاة الثقافية[٢]، والعديد من حركات الحكم الذاتي اليهودية؛ والأهم منها كالحركات السياسية الراديكالية التي كانت تكتسب زخمًا، خاصة في أوروبا الشرقية[٣]، والواقع أن معظم اليهود لم يروا الصهيونية حلًا قابلًا للتطبيق للمشكلة اليهودية، فقد بدت آفاق الصهيونية قاتمة جدًّا في ذلك الوقت، فإن فلسطين كانت لا تزال جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وفشل الصهاينة في إقناع السلطان العثماني بالتخلّي عن سيطرته علىٰ هذه

(1) Telegraph, "Angola Is Offered for Zionist Colony," 8.

(٢) هي حركات تهدف إلىٰ تشجيع الأقليات علىٰ أن تكون مشابهة للمجموعات الثقافية الأكبر وتندمج معها وتحاكي سلوكها. (المترجم)

(3) Brenner, *Zionism*, 19-22.

الأراضي المقدسة لدىٰ المسلمين واليهود الأوروبيين، وبشكل غريزي -ولمحاربة هؤلاء المنافسين العلمانيين- لجأ الصهاينة إلىٰ الآمال المسيانية (messianic) لليهود -ولكن مع بعض التحوير- ورفعوا شعار أن الصهيونية ما هي إلا بديل نفعي (pragmatic) للخلاص الإلهي، واستطاع الحاخام يهوذا القلعي (Judah Alkalai) وهيرش كاليشر (Hirsch Kalischer) وضع الأساس التبريري الذي انطلقت منه الصهيونية السياسية في العقود السابقة، وأكدوا -علىٰ حد تعبير آرثر هيرتزبرج (Arthur Hertzberg)- أن «المبادرة الذاتية كانت مقدمة ضرورية لقدوم المُخلّص الإلهي، بدلًا من التمرد علىٰ إرادة السماء»(١).

وكما زعم الصهاينة أن إنشاء دولة يهودية سيفتتح حقبة من «الحياة الطبيعية» لليهود، أكدوا أيضًا أن هذه الدولة سيكون لها مهمة خاصة بين دول العالم؛ فلن تكون إسرائيل مثل ألبانيا أو سلوفاكيا، فقد كان علىٰ اليهود أن يتمسّكوا بكونهم مبعوثين لأداء مهمة إلهية وأنهم «منارة للأمم»، ومن أجل الحفاظ علىٰ فرادتهم باعتبارهم «شعب الله المختار» تعيّن علىٰ اليهود -علىٰ حد تعبير آرثر هيرتزبرغ- أن يتطلعوا إلىٰ دور «سيد» الشرق الأوسط، أو الدولة الصغيرة الأكثر حداثة والمخصوصة بالعناية الإلهية، أو أنها أصح تعبير عن «الأيديولوجية الاشتراكية»(٢)، وكانت هذه محاولة لترجمة العقيدة اليهودية القديمة للاصطفاء الإلهي إلىٰ مصطلحات علمانية حديثة؛ وعلىٰ حد تعبير أكاديمي إسرائيلي: «إن تبرير وجود الصهيونية -ومن ثمّ التشبث بفرادة الشعب اليهودي باعتباره كيانًا منفصلًا وفريدًا- يكمن في قدرتها علىٰ تقديم مساهمات إبداعية جذرية إضافية للبشرية، وحاجة الإنسانية لهذه الإسهامات

---

(1) Hertzberg, *The Zionist Idea*, 15-16.

(2) Hertzberg, *The Zionist Idea*, 19.

تتجاوز حاجتها إلىٰ عصر محوري آخر (Axial Age)[1]»[2].

وهناك مفارقة أعمق لازمت المشروع الصهيوني؛ حيث اقترحت إنهاء حالة «الشذوذ» اليهودي في أوروبا عن طريق إنشاء دولة يهودية «استثنائية» في فلسطين، التي لم تكن أرضًا مباحة (terra nullius)، ومن أجل خلق أغلبية يهودية ساحقة في فلسطين، تعيّن علىٰ الصهاينة طرد المواطنين الأصليين، وبعبارة أخرىٰ، كان الصهاينة يقترحون إنشاء دولة احتلالية استيطانية في فلسطين؛ وبالطبع كان من غير المحتمل أن يعتبر الفلسطينيون والعرب والمسلمون هذا الغزو لأراضيهم عمل عادي أو مقبول، أو أن الإسرائيليين ضيوف يجب إكرامهم، وإذا كان من الممكن إقامة دولة يهودية في فلسطين، فمن الطبيعي أن تواجه جيرانًا يرون وجودها عارًا لا يمكن نسيانه أو تجاهله بسهولة، ومن الواضح أن الصهاينة كانوا يقترحون استبدال حالة «شذوذهم» في أوروبا بشذوذ أكبر وأكثر خطورة.

إن هذا الشذوذ في المشروع الصهيوني -بالبحث عن مكان لأمة اليهود في أرض شخص آخر- دفع -ولا يزال يغذّي- الأشكال المتكاثرة من دعاوىٰ الاستثنائية الإسرائيلية، فقد كان علىٰ الصهاينة إيجاد سبل لعقلنة مطالبتهم

(١) هو مصطلح يتعلق بتاريخ الفلسفة والأديان، قام بصياغته الفيلسوف الألماني كارل ياسبرز بعد «فيكتور فون» (١٨٥٩) و«إرنست فون لاسولكس» (١٨٧٠)، للإشارة إلىٰ الفترة التاريخية القديمة الممتدة من القرن الثامن إلىٰ القرن الثالث قبل الميلاد. ويرىٰ جون آرنولد توينبي أن الجنس البشري بين عامي (٦٠٠-٤٨٠) قبل الميلاد، وفي فترة زمنية لا تتجاوز المائة وعشرين عامًا، ظهر فيه خمس عبقريات إنسانية متميزة، علىٰ يد خمسة من عظماء التاريخ، في تعاقب مدهش، فظهر في إيران «زرادشت»، وظهر في الأسر البابلي (أشعيا الثاني) وكان الثالث (بوذا) وفي الصين، ظهر (كونفوشيوس) بتعاليمه من أصغر وأضعف ولايات الصين؛ والخامس هو الفيلسوف (فيثاغور)، وبسبب أهمية معاصرة هؤلاء الحكماء الخمسة لبعضهم البعض، فقد أطلق الفيلسوف الألماني (كارل ياسبرز) علىٰ الفترة التي تنتظم حياتهم: (العصر المحوري)، أي العصر الذي تمفصل فيه تاريخ البشرية؛ فقد كان ظهورهم في حقيقة الأمر منعطفًا مهمًا، من حيث إنهم استمروا في التأثير علىٰ البشرية إلىٰ يومنا هذا. (المترجم).

(2) Dror, "On the Uniqueness of Israel," 257.

بفلسطين، وهي الأرض التي يسكنها العرب بأغلبية ساحقة منذ أكثر من ألف عام، وهنا طرحت الأسطورة اليهودية القديمة عن الاصطفاء الإلهي سببًا وجيها؛ ففلسطين يهودية لأن يهوه وعد اليهود بأن تكون لهم إلىٰ الأبد؛ وبمجرد أن يقبل العالم الغربي عقيدة الأرض الموعودة، فإنهم سينظرون إلىٰ الفلسطينيين علىٰ أنهم «واضعو يد» علىٰ ملك الغير، ويمكن لليهود -حاملي شعلة الاصطفاء الإلهي- طردهم بمجرد أن يختاروا ممارسة حق ملكيتهم غير القابل للإلغاء، وهكذا استخدم الصهاينة في فلسطين قوتهم العسكرية لإثبات أن المطالبة بالأرض المبنية علىٰ محض أسطورة يمكن أن تكون لها مصداقية ووزن أكبر من قرون من حقوق الملكية.

لقد برّر الأوروبيون استغلالهم للمستعمرات التي احتلوها بزعم أنهم كانوا «يُمدِّنون» السكان الأصليين؛ ففي مستعمرات الاستيطان -حيث سعوا إلىٰ إبادة السكان الأصليين- كانوا يتحدثون عن تحسين الأرض؛ والمفاجأة أن السكان الأصليين كانوا جزءًا من الحيوانات البرية التي يجب القضاء عليها. وزعم الصهاينة -في السنوات الأولىٰ من مشروعهم الاحتلالي عندما كانت فلسطين لا تزال جزءًا من الإمبراطورية العثمانية- أن وجودهم في فلسطين سيعود بالنفع علىٰ الفلسطينيين؛ حيث وصف أوائل المستوطنين اليهود الفلسطينيين بأنهم ثلة من المتوحشين، مؤكدين أنهم بحاجة ماسة إلىٰ «التحسين»[1]، وعندما أخضعت فلسطين للاحتلال البريطاني، غيّر الصهاينة مسارهم، وطفقوا يتحدثون كثيرًا عن طرائق تطويرهم لأرض فلسطين، وأن كدحهم والتقنية التي جاؤوا بها أدت إلىٰ ازدهارها، وعندما طرد المحتلون اليهود بعد عام ١٩٤٨ معظم الفلسطينيين من

---

(١) إليك شهادة آحاد هعام (Ahad Ha'am) في كتابه (حقيقة من أرض إسرائيل A Truth from Eretz Israel، 15-14)، الذي كتبه بعد رحلة إلىٰ فلسطين عام ١٨٩١ قال فيه: «نحن الذين نعيش في الخارج، معتادون علىٰ الاعتقاد بأن العرب سكان الصحراء البرية هم مثل الحمير، لا يعون ولا يفهمون ما يحدث حولهم». وتابع أن المستعمرين اليهود «يتعاملون مع العرب بعداء وقسوة، ويتعمدون ظلمهم ويضربونهم بشكل متكرر دون سبب، بل ويتفاخرون بأفعالهم».

أراضيهم، كانوا يبررون إبادتهم للفلسطينيين بالإشارة إلىٰ الحضارة والمدنيّة التي كانوا يبنونها في أراضيهم[١]، ومن الطبيعي أن يكون لهذه المزاعم وزنًا أكبر إذا طعّمت بلغة الاستثنائية، وإذا استطاع الجمهور الغربي أن ينظر إلىٰ الإنجازات الإسرائيلية علىٰ أنها «معجزات» استثنائية ومنحٌ إلهية فريدة من نوعها، فمن باب أولىٰ أن يروا آلام الفلسطينيين باعتبارها مجرد تضحية صغيرة لخدمة قضية أكبر.

إن ادعاءات استثنائية الهولوكوست قد خدمت أيضًا الغرض نفسه، وفي هذه الحالة، يتذرع الصهاينة بضخامة الجريمة الأوروبية ضد اليهود لجعل حياة الفلسطينيين لا قيمة لها، وبما أن إسرائيل وحدها -كما يدّعي الصهاينة- هي التي توفر ضمانة صارمة لمنع تكرار الهولوكوست، فسيصبح طرد الفلسطينيين تضحية مقبولة؛ لأن طرد الفلسطينيين لا يُقارن -من الناحية الأخلاقية- بما عاناه اليهود علىٰ أيدي النازيين؛ ففي النهاية المحتلون اليهود طردوا الفلسطينيين ولم يبيدوهم!

وكما أن معاناة اليهود فريدة فإنها تمنحهم استحقاقات فريدة، وكما قال يعقوب نوسنر(Jacob Neusner)، فإن الهولوكوست لا يُميّز اليهود عن الآخرين فحسب، بل يمنحهم «حقا علىٰ هؤلاء الآخرين»[٢]؛ فيحق للناجين من الهولوكوست أن يطالبوا الفلسطينيين بالتضحية بحقوقهم الضاربة في القدم اعترافًا بالكوارث الأكبر التي لا يمكن تحمّلها والتي تحملها اليهود، وبحسب ناثان جليزر (Nathan Glazer)، فتبعًا لترسيخ «التميز الاستثنائي لليهود» تمنحهم

---

(١) ومؤخرًا قال المؤرخ الإسرائيلي البارز بيني موريس (Benny Morris) لمحاوره: «لم يكن هناك سبب في العالم يمنع وجوب أن يكون [للشعب اليهودي] دولة واحدة؛ لذلك، من وجهة نظري، تجاوزت الحاجة إلىٰ إقامة هذه الدولة في هذا المكان علىٰ المظالم التي وقعت علىٰ الفلسطينيين بسبب طردهم»، وتابع: «حتىٰ الديمقراطية الأمريكية العظيمة لم يكن من الممكن إنشاؤها دون إبادة الهنود؛ هناك حالات يبرر فيها الخير العام النهائي الأفعال القاسية والظالمة التي يتم ارتكابها علىٰ مر التاريخ». انظر:

shavit, "Survival of the Fittest,".

(2) Neusner, "A 'Holocaust" Primer," 978, quoted in Finkelstein, *The Holocaust Industry*, 47.

الهولوكوست «الحق في اعتبار أنفسهم مهددين بشكل خاص، ويستحقون -بشكل استثنائي- أي جهود ضرورية للبقاء»[1]، وبالفعل، نشر الصهاينة «استثنائية» الهولوكوست للحصول علىٰ حصانة كاملة لإسرائيل من أي مراجعة نقدية، وقرّروا -باستخدام الخلط بين إسرائيل والناجين من الهولوكوست- أن المعادين للسامية وحدهم هم من سيتجرؤون علىٰ اتهام إسرائيل بأي مخالفات ضد الفلسطينيين؛ فالكراهية المعادية للسامية وحدها هي التي يمكن أن تثير مثل هذه الفتنة ضد اليهود.

صُنِعت بعض أشكال *الاستثنائية الإسرائيلية* لتأمين الدعم الغربي لإسرائيل، وتعتمد إسرائيل -بشكل كبير- علىٰ الدعم العسكري والمالي والدبلوماسي من الولايات المتحدة حتىٰ يومنا هذا، ونظرًا للاعتماد الكبير علىٰ الولايات المتحدة يمتلك الصهاينة مفاتيح ضغط واسع ومتعدد الطبقات لضمان عدم ترجع الدعم الأمريكي لإسرائيل، حيث تعمل كتائب اللوبي الإسرائيلي العديدة -بلا كلل- من أجل تلميع صورة إسرائيل[2]، وزرع الصهاينة صورة لإسرائيل كموقع غربي محاصر في قلب الحواضر الإسلامية لكسب التعاطف الغربي، كما روجوا لكونها «الديمقراطية» الوحيدة في الشرق الأوسط، فهي البلد الصغير المناضل المضطر؛ لأن يكون في حالة دفاع دائم عن نفسه ضد الهجمات الإرهابية التي يشنها المسلمون، وقد ساهمت هذه الصور -المزروعة بعناية- للاستثنائية الإسرائيلية الأمريكيين علىٰ التماهي مع إسرائيل، واعتبارها فريدة من نوعها، والاعتزاز بها، ومن ثمّ دعمها سياسيًّا.

---

(1) Glazer, *American Judaism*, 171, quoted in Finkelstein, *The Holocaust Industry*, 48.

(٢) يشمل اللوبي الإسرائيلي في أي دولة جميع القوىٰ المحلية التي تعمل في مجالات متنوعة -ومن خلال أدوات متنوعة- لتعزيز مصالح إسرائيل علىٰ النحو الذي تحدده حكومة إسرائيل. ونتيجة لذلك، فإن اللوبي الإسرائيلي أكبر من اللوبي اليهودي، لكن الأخير يقع في صميمه، وأيضا فإن المنظمات اليهودية الفاعلة الرئيسية تقود وتدير عموم أنشطة اللوبي اليهودي.

لا تسعىٰ دعاوىٰ *الاستثنائية الإسرائيلية* فقط إلىٰ تبرير -وإخفاء- «الشذوذ» المتأصل في المشروع الصهيوني؛ بل تدعو إلىٰ التفرّد اليهودي باعتباره الأمل الوحيد لبقاء إسرائيل، إن شعبًا استثنائيًا حقًّا، وملتزم تمامًا بمهمة إسرائيل الفريدة في العالم هو الذي يمكن أن يواجه التحديات الصعبة للدولة «الاستثنائية»، ليس لدىٰ الإسرائيليين خيار سوىٰ الإيمان بـ «تفرّدهم» إذا كانوا يريدون البقاء؛ وهذا وحده هو ما يعطيهم الأمل بالتفوق علىٰ خصومهم؛ فإن فقدان «إحساسهم بالتفرد» سيؤدي إلىٰ «تراجع إسرائيل بسبب عمليات الاستنزاف الخارجية والداخلية، وانخفاض مستويات الطاقة العالية اللازمة للبقاء علىٰ المدىٰ الطويل في الشرق الأوسط، وأضف إلىٰ ذلك عمليات الاضمحلال التي تشكل خطورة بالغة علىٰ الوضع الجغرافي الاستراتيجي لإسرائيل»[1]، علىٰ حد تعبير حزقيال درور (Yehezkel Dror). باختصار: الاستثنائية الإسرائيلية وحدها هي التي تسمح بإعفاء إسرائيل من المساءلة القانونية والأخلاقية التي تكشف عن مشاريعها المتطرفة.

---

(1) Dror, "On the Uniqueness of Israel," 257.

الجزء الثاني

منطق الصهيونية الهدّام

«منذ اللحظة الأولىٰ، كان لدىٰ دولة إسرائيل متفجراتٌ موقوتة مزروعة في أسس بنائها، هذه المتفجرات هي شكاوىٰ مئات الآلاف من النازحين العرب».

إسحاق دويتشر (Isaac Deutscher)، **١٩٥٤**[١]

---

(١) ولد المؤرخ الماركسي إسحاق دويتشر (Isaac Deutscher) (١٩٠٧-١٩٦٧) في بولندا عام ١٩٠٧، وانتقل إلىٰ إنجلترا عام ١٩٣٩ حيث عمل لدىٰ صحيفتي (The Economist) و(The Observer). انظر:

Deutscher, "Israel's Spiritual Climate," 30.

الفصل الثالث
تاريخ عنيف

«ألا يجب علىٰ هؤلاء [الفلسطينيين] الذين تم إجلاؤهم أن يحافظوا علىٰ سلامهم ويقبلوا بهدوء ما حل بهم؟ هلّا كفوا عن محاولة استعادة ما أُخذ منهم بالقوة؟ ومن يدري، إذا لم يكفوا عن ذلك، أن يصبحوا هم المدعون والقضاة».
إسحاق إبشتاين (Yitzhak Epstein)، **١٩٠٧**(١)

«أما عن الحرب ضد اليهود في فلسطين . . . فقد كان واضحًا قبل عشرين عامًا أنه سيأتي اليوم الذي يقف فيه العرب ضدنا».
آحاد هعام (Ahad Ha'am)، **١٩١١**(٢)

«السؤال هو: هل نجرؤ علىٰ غزو فلسطين الآن بالحديد والنار كما فعل يوشع في عصره؟».
يهودا ليون ماجنيز (Judah L. Magnes)، **١٩٢٩**(٣)

---

(1) Shatz, Prophets Outcast, 40.

(٢) كتب آحاد هعام (Ahad Ha'am) -بعد زيارة لفلسطين عام ١٨٩١- أن المستوطنين اليهود «يعاملون العرب بعداء وقسوة، ويحرمونهم من حقوقهم، ويسيئون إليهم دون سبب، بل يفخرون بهذه الأعمال، ولا أحد منا يعارض هذا الأسلوب الخسيس والدنيء»:

rejwan, Israel in Search of Identity, 9.

(3) Kushner and Solomon, *Wrestling Zion*, 18.

«يتنبأ المنطق التاريخي بالتفكك النهائي للدولة اليهودية؛ فإن القوىٰ من حولنا عظيمة جدًّا، وهناك إرادة قوية لإبادتنا، وفرصنا في النجاة ضعيفة للغاية».
بيني موريس (Benny Morris)، **٢٠٠٨**(١)

قلة من الصهاينة ينكرون العنف المتصاعد الذي ساعد علىٰ بناء المغتصبات الاستيطانية اليهودية في الشرق الأوسط، لكنهم غالبًا ما يلفتون انتباه العالم إلىٰ أن العرب هم مصدر هذا العنف لرفضهم لإسرائيل، بالإضافة إلىٰ ذلك فهذا الرفض العربي لإسرائيل متجذر في عدائهم الديني القديم ضد اليهود.

ولَّدت الحركة الصهيونية في فلسطين عنفًا متأصلًا بين المستوطنين اليهود والفلسطينيين؛ فمنذ عام ١٩٤٨، كثيرًا ما حرّض هذا العنف إسرائيل ضد الفلسطينيين وجيرانها العرب؛ وكثيرًا ما جرّ المجتمعات الغربية -وخاصة الولايات المتحدة- إلىٰ توسيع وتعميق الصراعات مع العالم الإسلامي، وأطروحة هذا الفصل -وفي الواقع هذا الكتاب- تُبيِّن أن تاريخ هذه الدوائر المتصاعدة باستمرار من الصراع وعدم الاستقرار هي مكوّن أساسي للفكرة الصهيونية نفسها؛ فعدم الاستقرار والعنف جزء لا يتجزأ من الصهيونية؛ إنه يتدفق من منطقها الداخلي، وليس مجرد سمة عارضة لها.

ربما يثير دهشتك العلم بأن قلة من الصهاينة الأوائل قد حذّروا من العواقب الهدامة والمزعزعة للاستقرار التي يحمل بذورَها مشروعُهم الاحتلالي؛ فلم يستطيعوا تجاهل المخاطر الجسيمة الكامنة في المشروع الصهيوني حين انطلقت المقاومة الفلسطينية ضد احتلال أراضيهم، وقد بدأ هذا في وقت مبكر، ومع ذلك، فضّل الصهاينة استبعاد هذه المخاوف مقتنعين بأن «السكان الأصليين» يفتقرون إلىٰ الإرادة والتنظيم والموارد اللازمة لإفساد المخطط اليهودي، وانخرطوا في مناقشات مكثّفة ومركّزة حول مشروعهم الاحتلالي -وتحديدًا حول

---

(1) Horowitz, “Editor’s Notes.”

كيفية إنجاحه-، إلا أنهم لم يطوّروا «نظرية متماسكة للتعامل مع العرب» تقوّم موضوعيًا رد الفعل العربي علىٰ الصهيونية، أو كيفية التعامل معه، وربما شعروا أن هذا غير ضروري. كتب إسحاق إبشتاين (Yitzhak Epstein) عام ١٩٠٧: «إنه لعارٌ أن هذا لم يحدث حتىٰ الآن؛ لم يُقدَّم أي شيء علىٰ الإطلاق في هذا الصدد [مسألة الموقف اليهودي تجاه العرب]؛ حتىٰ الآن لم يكرّس يهودي واحد نفسه لدراسة هذا الموضوع، حتىٰ لكأننا أُميُّون بالكامل تجاه أي شيء يتعلق بالعرب، وكل معرفتنا بهم هي من قبيل الحكمة الشعبية (folk wisdom)»[١]، ويعتقد الصهاينة الأوائل -حسب مقالة آحاد هعام (Ahad Ha'am) في عام ١٨٩١- أن «العرب كلهم ليسوا إلا مجموعة من البدو الهمج الذين يعيشون مثل الحيوانات ولا يفهمون ما يحدث من حولهم»[٢]، لماذا نقلق بشأن هؤلاء «الهمجيين»؟ بالتأكيد سوف يجرفهم التقدّم الحضاري المذهل الذي كان المستوطنون اليهود يقدمونه إلىٰ المنطقة، في مناسبات أخرىٰ -عندما أصبح الصهاينة علىٰ علم بالمقاومة العربية الأولية- فضّلوا تجاهل مخاوفهم بمجرد الأماني؛ واعتبروا أن مقاومة الفلسطينيين ستكون عابرة؛ فبمجرد أن يبدأوا في جني فوائد الاحتلال اليهودي -من ارتفاع أسعار الأراضي وفرص العمل الجديدة- لن يترددوا في الترحيب بالمستوطنين[٣].

---

(1) Shatz, *Prophets Outcast*, 51.

(٢) في رسالة إلىٰ حاييم وايزمان، اشتكىٰ يهوذا ماغنز (Judah Magnes) من أنه «للأسف، لا يزال ما يقرب من نصف عرب فلسطين رعاعًا، وقادتهم هم من ضعاف العقول». انظر:
kushner and Solomon, Wrestling Zion, 18.

(3) Rejwan, Israel in Search of Identity, 7
اتّبع العديد من الصهاينة -بدءًا من تيودور هرتزل- هذا الأسلوب، محاولين التأثير علىٰ العرب أو العثمانيين بالحديث اللطيف عن الفوائد التي لا تقدر بثمن التي ستجلبها لهم الصهيونية إذا سلّموا فلسطين للاحتلال اليهودي. هذا هو الأسلوب الذي يتّبعه البالغون تجاه الأطفال عند محاولة إقناعهم بمقايضة خاسرة أو فرضها عليهم، وخير مثال علىٰ هذا الأسلوب الساذج ظاهريًا هو الذي قدمه إسحاق إبشتاين، فعلىٰ الرغم من أنه يدرك مخاطر انتهاك حقوق الفلسطينيين، إلا أنه كتب =

أراد الصهاينة -بشكل عام- الاعتقاد بأن الفلسطينيين ليسوا شعبًا، ولم يكن لديهم ارتباط بأرضهم، ولا هوية وطنية، ولا تطلعات قومية؛ ومن ثمّ يمكننا أخذ أرضهم منهم، والمفارقة في كل هذا واضحة؛ فاليهود -الذين لم يكونوا شعبًا بعد؛ لأنه لعدم امتلاكهم أرض يمكنهم أن يدعوا أنها أرضهم- أكدوا أن الفلسطينيين -الذين لديهم أرضهم- ليسوا شعبًا. إن هذا الخداع الفجّ ليس له سوىٰ نهاية واحدة؛ يمكن لشعب بدون أرض أن يسرق أرض شعب آخر.

حاول الصهاينة سلوك حل دبلوماسي للتغلب علىٰ المقاومة الفلسطينية؛ فقد طلبوا المساعدة من القوميين العرب الناشئين الذين كانوا يحلمون باستعادة تراثهم المجيد من العصر العباسي، وساوموهم علىٰ التضحية بفلسطين مقابل ترويج القضية العربية في محافل القوىٰ العظمىٰ، وستكون التضحية صغيرة من أجل هدف أسمىٰ وهو إنشاء مملكة عربية تمتد من المغرب إلىٰ العراق، وبيَّن الصهاينة للقوميين العرب أن المراكز التاريخية للحضارة العربية تقع في بغداد ودمشق والقاهرة، وليس في القدس؛ فلماذا يتذمر العرب من خسارة القدس إذا كان هذا سيحقق حلمهم في استعادة الإمبراطورية العربية القديمة؟[1]، وقد لاقت مساعي الصهاينة الأولىٰ بعض النجاح، ففي مؤتمر فرساي عام ١٩١٩ أقنع حاييم وايزمان (Chaim Weizmann) الأمير فيصل -الزعيم الرئيسي للثورة العربية ضد العثمانيين-

---

= «يستطيع هذان الشخصان -العبري والعربي- أن يعوضا نقص بعضهما البعض؛ لأن ما يمكن أن نعطيه للعرب لا يمكنهم الحصول عليه من أي شعب آخر. إن كل أمة تأتي إلىٰ سوريا تحت ستار المنقذ الاقتصادي ستسعىٰ للغزو، والإخضاع، والاستبداد، وهذا ليس ما نسعىٰ إليه؛ نحن شعب بلا جيش وبدون سفن حربية، نحن أبرياء، ليس لدينا هاجس التفكير في القهر وتفكيك الهوية الوطنية لجيراننا؛ وبقلب نقي، نأتي للاستقرار بينهم من أجل تحسين وضعهم من جميع النواحي». وفي أواخر عام ١٩٣٠ -بعد الثورة العربية عام ١٩٢٩- كان بإمكان ألبرت أينشتاين أن يكتب: «أنا مقتنع بأن تفاني الشعب اليهودي وإخلاصه لفلسطين سيعود بالنفع علىٰ جميع سكان البلاد، ليس فقط ماديًا، ولكن أيضًا ثقافيًا ووطنيًا»:

shatz, Prophets Outcast, 48, 62.

(1) Rejwan, *Israel in Search of Identity*, 14-20.

بالتنازل عن فلسطين للصهاينة؛ وعندما اضطر لمواجهة الغضب العربي تجاه هذا التنازل عن الأراضي الإسلامية، جعل الأمير فيصل اتفاقه مع الصهاينة مشروطًا بإنشاء المملكة العربية التي سعىٰ إليها هو وعائلته[١]، وكان هذا الاتفاق المشروط قصير الأجل فقد فسخ الأمير صفقته مع الصهاينة، رضوخًا لضغط القوميين العرب.

لم يتمكّن الصهاينة من التشبث بخيالاتهم في إقامة دولة يهودية في فلسطين دون عنف؛ وأول طعنة في هذا الخيال جاءت من الجناح اليميني للحركة الصهيونية، فقد رفض زاييف جابوتنسكي (Ze'ev Jabotinsky) -في مقاله الذي أرسىٰ فيه أسس التيار الصهيوني الجديد عام ١٩٢٣- الرواية القائلة بأن الفلسطينيين سوف يتنازلون طواعية عن حقوقهم التاريخية في فلسطين، وكتب أن العرب «سيقاومون المستوطنين الأجانب طالما لديهم بصيص أمل في منع تحوّل «فلسطين» لأن تصبح أرض إسرائيل»، ورأىٰ جابوتنسكي أن التغيير في الاستراتيجية الصهيونية المعلنة أمر حتمي، وسيتعين علىٰ الصهاينة -لأجل الانتصار- وأد «بصيص الأمل» العربي؛ وإذا لم يستطع الصهاينة شراء موافقة العرب، فهزيمتهم حتمية، وستستمر عملية الاستيطان -علىٰ حد تعبير جابوتنسكي- «تحت حماية القوة التي لا تعتمد علىٰ رضا السكان المحليين، وسيوضعون خلف جدار حديدي سيكونون عاجزين عن تحطيمه»[٢]، وما فعله جابوتنسكي هو أنه أخرج إلىٰ العلن ما كان متضمنًا دائمًا في الفكرة الصهيونية -وبالتأكيد في تفكير القيادة الصهيونية، فعلىٰ الرغم من موقفهم المعلن، إلا أنهم دائمًا ما كانوا يعرفون ما يدعو جابوتنسكي إلىٰ الاعتراف به علانية.

لم يكن استخدام العنف ضد الفلسطينيين -بالنسبة للصهيونية- خطة بديلة يلجأ إليها عند الحاجة، بل هو الخيار الوحيد المرشّح للنجاح، فكان الصهاينة

---

(1) Rodinson, *Israel*, 54.

(2) Shlaim, *The Iron Wall*, 13.

مستعدين دائمًا لمواجهة الفلسطينيين؛ سواء كان ذلك بدعم أو بدون دعم بريطاني، في السر أو في العلن، وعندما جاءت الفرصة عام ١٩٤٨ حقّق الصهاينة أهدافهم بالكامل تقريبًا؛ فهزموا جيوش خمس دول عربية بدائية، وأنشؤوا دولة يهودية في ٧٨% من فلسطين بعد طرد معظم سكانها العرب، كما استولوا -في أكتوبر ١٩٥٦- علىٰ سيناء في ضربة خاطفة، مستفيدة من التخطيط البريطاني والفرنسي للاستيلاء علىٰ قناة السويس، وفي حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ ألحقت إسرائيل هزيمة ساحقة بثلاثة جيوش عربية، واحتلت بقية فلسطين وسيناء ومرتفعات الجولان؛ وتضاعفت مساحتها في هذه العملية أربع مرات، وكان ذلك بعد مرور أقل من عشرين عامًا علىٰ إنشائها، والأهم من ذلك، أنهم وجهوا ضربة موجعة إلىٰ أوهام ووعود القومية العربية، التي كان يفترض أنها في أوج قوتها، وعلىٰ الأرجح لم يتعافىٰ القوميون العرب من هذا الخزي أبدًا.

لكن بالرغم من هذه النجاحات المدويّة، فشلت إسرائيل في تحقيق الحياة الطبيعية لسكانها؛ فهل من الممكن أن الإسرائيليين لم يلاحقوا حلم الحياة الطبيعية لأن ذلك لا يخدم مصالحهم؟

يعترف العديد من الإسرائيليين الآن صراحة بأن شيئًا ما قد خرج عن السيطرة ولم يعد يسير كما كان مخططًا له؛ فقد انخرط الإسرائيليون في جولتين ضخمتين من عمليات التطهير العرقي في عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧، وألحقوا الهزيمة بالعرب مرارًا وتكرارًا في المواجهات العسكرية في الأعوام ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣، وازداد عدد السكان اليهود في إسرائيل بأكثر من ثمانية أضعاف منذ تأسيس الكيان المحتل في عام ١٩٤٨، وقد أظهروا قدرتهم علىٰ مهاجمة أهداف عربية في الضفة الغربية وغزة والعراق وسوريا ولبنان وتونس دون عقاب، كما حصلوا علىٰ دعم أمريكي غير مشروط لمشروعهم الاحتلالي في الضفة الغربية وقطاع غزة، وهم يواصلون خنق الفلسطينيين في هذه المناطق[1]،

(١) في عام ٢٠٠٥، أجلت إسرائيل المستوطنين اليهود من غزة، وواصلت مراقبة حدودها وشواطئها بالتعاون مع مصر، مما أدىٰ إلىٰ تضييق الخناق علىٰ سكان غزة.

وصمموا أكبر دعم مالي وعسكري مستمر من دولة إلىٰ أخرىٰ في التاريخ، ولديهم واحد من أقوىٰ الجيوش في العالم، مزود بأسلحة حديثة من ترسانة الولايات المتحدة، كما يسيطرون علىٰ أسلحة نووية، وعلىٰ أسطول من الغواصات القادرة علىٰ إطلاق الصواريخ الباليستية، ويحظون بدعم غير مشروط من الشتات اليهودي، أقوىٰ وأكثر تنظيمًا من أي وقت مضىٰ. ومنذ سنوات عديدة وإسرائيل تدفع العرب إلىٰ الحافة وهم مستعدون للاعتراف بإسرائيل والمقايضة بالسلام، ومع ذلك، رفض الصهاينة هذا العرض -بازدراء- مرارًا وتكرارًا، ومع هذه المزايا الهائلة التي يتفوقون بها علىٰ العرب، فإن الإسرائيليين يريدون المزيد، ويسعون لأن تكون إسرائيل الدولة الوحيدة التي لديها قدرة عسكرية في المنطقة، ويبدو أن الإسرائيليين لن يشعروا بالأمان علىٰ الإطلاق ما لم يفكك العرب الأذرع العسكرية لدولهم.

إن الإسرائيليين يخشون السلام أكثر بكثير مما يخشون الحرب؛ إن السلام مع العرب من شأنه أن يهدم مساعيهم الدؤوب لإثبات أنهم «الحليف والأصل الاستراتيجي» الأهم للولايات المتحدة، فلم يشعر الإسرائيليون بالأمان في المكان الذي حلموا به كملاذ آمن ليهود العالم؛ وفي نفس الوقت لا يزال يتعين علىٰ إسرائيل التحرر من الاعتماد شبه الكامل علىٰ القوىٰ الغربية، وبرغم تضييقهم الخناق علىٰ الفلسطينيين، فقد فشل الصهاينة في وأد «بصيص الأمل» الفلسطيني، وعندما اختار الإسرائيليون منظمة التحرير الفلسطينية العلمانية وكلفوها بالإدارة السياسية للضفة الغربية وقطاع غزة، حملت حماس -الأكثر راديكالية- راية النضال الفلسطيني، وإن الجماعات الأكثر نشاطًا من حماس تنتظر الفرصة، وهي مستعدة لتحلّ محلّها إذا ضعفت عزيمتها تحت الحصار الإسرائيلي، ولذلك لا يرىٰ الإسرائيليون نهاية في الأفق لحالة شذوذهم، فمستقبلهم لا يزال محفوف بالمخاطر.

لماذا فشلت انتصارات إسرائيل -ولا أحد يشكك في ضخامة هذه الإنجازات- في بث الثقة في قدرتها علىٰ البقاء علىٰ المدىٰ الطويل؟ لماذا تستمر المجتمعات العربية في حرمان إسرائيل من «الحق في الوجود»؟

لا تزال إسرائيل منخرطة في تدمير جيرانها، بعد أكثر من ستة عقود علىٰ إنشائها -ستة عقود من المكاسب العسكرية والإقليمية والديموغرافية والاقتصادية المثيرة للإعجاب-، وتحاول تجميل طابعها التدميري بحجة تثبيت الأمن في الظاهر، لكن هدفها الحقيقي هو القضاء علىٰ الجيوب الأخيرة من المقاومة ضد هيمنتها، وهي مصرّة علىٰ إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط، وعازمة علىٰ تحويل الدول الحالية إلىٰ دويلات صغيرة غير ذات سيادة، وأكثر تبعية من اعتماد الأوليغارشية (oligarchies) الموجودة في إسرائيل علىٰ القوىٰ الغربية من أجل بقائهم، وتقوم إسرائيل الآن -بعد هزيمة جميع خصومها العرب تقريبًا، وبعد حملة ناجحة لدفع الولايات المتحدة لغزو العراق واحتلاله، وبعد تدمير لبنان في حرب جديدة في يوليو ٢٠٠٦- بحثّ الولايات المتحدة إلىٰ إطلاق آلة الحرب ضد إيران، واستخدام الأسلحة النووية -إذا لزم الأمر- لتدمير منشآتها النووية، كما تستمر إسرائيل في سياسة التطهير العرقي ضد الفلسطينيين ببطء، وتستعد طوال الوقت لبدء جولة نهائية من التطهير العرقي لإنهاء المهمة التي بدأتها في عام ١٩٤٨، وتنظر الشعوب في كل مكان -باستثناء الولايات المتحدة- إلىٰ إسرائيل علىٰ أنها الدولة القمعية والعنصرية، وراعية الفصل العنصري في العالم. وكما قال هوغو بيرجمان (Hugo Bergmann) -الفيلسوف اليهودي الشاب من براغ في عام ١٩١٩- لقد شيّد اليهود دولتهم بخيانة المُثُل اليهودية[١].

باختصار، لم يعالج إنشاء إسرائيل «المسألة اليهودية»، ولم يتغير أي شيء سوىٰ موقعها وشكلها واسمها. لقد تصارع الأوروبيون -منذ فترة طويلة- مع ما أسموه «المسألة اليهودية»؛ وربما نجح النازيون والصهاينة -دون قصد- في تحويل

---

(1) Rejwan, *Israel in Search of Identity*, 11.

«المسألة اليهودية» إلىٰ «المسألة الصهيونية»، وبسبب هذا التحوّل، حلّت «المسألة الصهيونية» العالمية الآن محل «المسألة اليهودية» الأوروبية، وينتظر العالم الآن -بصبر نافذ- أن تقوم إسرائيل بخطوتها التالية المهمة؛ ويترقّب في قلق أن تكون حركتها التالية الكبرىٰ مدفوعة بروح الإنسانية، لا جنون العظمة؛ مما يعني أنها ستعترف بحقوق جميع الفلسطينيين؛ وستُصلح الأخطاء التي ارتكبتها في حقهم بنفس الروح التي سعىٰ بها اليهود وحصلوا علىٰ تعويضات عن الأخطاء التي ارتكبها النازيون في حقهم، ومع ذلك، لا أحد -بناءً علىٰ تقييم رصين للسجل الإسرائيلي- يتوقع أن تكون إسرائيل -في أي وقت قريب- مستعدة لتقديم هذا النوع من التنازلات التاريخية التي فكّكت الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، وحملت السود والبيض في تلك الدول نحو المصالحة والسلام، وقد يجادل البعض أن إسرائيل قد تجاوزت النقطة التي يمكن أن تقدم فيها مثل هذه التنازلات العميقة؛ فقد وقعت في شراك منطقها الهدّام، وغدا حلم نزع استخدام القوة من معادلة حل مشاكلها كابوسًا، والزمن -وحده- هو ما سيحدد إن كان الأمل سيسود أم اليأس، وهل ستختار إسرائيل مسار العقل أم ترتكب نفس الأخطاء الفادحة علىٰ طريق الحروب.

الفصل الرابع
الصهيونية في قشرة جوز

«هناك ظاهرتان مهمتان -من نفس الطبيعة، ولكنهما متعارضتان- تظهران في هذه اللحظة في الغرب الأسيوي العثماني: نهضة القومية العربية، والجهد الحثيث الذي يبذله اليهود لإعادة بناء مملكة إسرائيل القديمة علىٰ نطاق واسع. هذه الحركات مكتوب عليها أن تتقاتل باستمرار حتىٰ تفوز إحداهما».

نجيب عازوري (Najib Azouri)، ١٩٠٥

«إن كل السوء الذي يحدث قد أخبرتُ به بلفور من قبل: إنهم يمهدون [الشرق الأوسط] لجعله ساحة الحرب المستقبلية».

الكولونيل إدوارد ماندل هاوس (Edward Mandell House)، ١٩١٧

«قدرُنا أن نكون في حالة حرب مستمرة مع العرب».

آرثر روبين (Arthur Rupin)، ١٩٣٦

«اليوم الذي نهزم فيه العرب، هو اليوم الذي نزرع فيه بذور كراهية أبدية لا يمكن لليهود أن يعيشوا في ظّلها في ذلك الجزء من العالم لقرون قادمة».

يهودا ليون ماجنيز (Judah L. Magnes)، ١٩٤٧[١]

---

(1) Morris, *Righteous Victims*, 57; Fromkin, *A Peace to End All Peace*, 257; Rejwan, *Israel in Search of Identity*, 11, 12. Col. House was aide to President Wilson.

هناك شبح يحوم حول الشرق الأوسط اليوم، ألا وهو: شبح الصراع المحتدم بين إسرائيل ورعاتها الغربيين وعملائها في الشرق الأوسط ضد التكتلات الإسلامية.

وُضِعت اللبنة الأولىٰ للمشروع الذي بدأ هذا الصراع في اجتماع مغلق في بازل ضم مائتي مندوب يهودي من سبع دول، والتقىٰ هؤلاء المندوبون في أغسطس ١٨٩٧ تحت قيادة الصحفي اليهودي تيودور هرتزل (Theodore Herzl)، لإنشاء منظمة جديدة -عرفت منذ ذلك الحين إلىٰ الآن باسم المنظمة الصهيونية العالمية- من شأنها أن تتزعم الحركة الصهيونية، وكان هدف هذه الحركة -الوارد في الإعلان الصادر في نهاية هذا الاجتماع، والمعروف باسم برنامج بازل (Basel Program)- بسيطًا؛ أعلن البرنامج بعبارات ملطّفة: «تسعىٰ الصهيونية جاهدة من أجل إقامة وطن آمن وعلني وقانوني في فلسطين للشعب اليهودي»[1].

أعلن المندوبون اليهودَ في بازل -إذا تجاوزنا العبارات اللطيفة- عزمهم علىٰ إنشاء دولة استيطانية يهودية نقية عرقيًّا في فلسطين، وفي ذلك الوقت، كانت فلسطين تابعة للإمبراطورية العثمانية، ويقطنها مسلمون ومسيحيون عرب منذ أكثر من ألف عام، ولم يكن برنامج بازل -من بعض النواحي- ينوي بدء مشروع متطرف. وقد استولت دول أوروبية مختلفة علىٰ أجزاء عديدة من أفريقيا خلال معظم القرن التاسع عشر -وخاصة عقوده الثلاثة الأخيرة-، وأحالتها إلىٰ مستعمرات، وفتحتها أمام المستوطنين البيض، فأراد الصهاينة أيضًا الاستيلاء علىٰ فلسطين، وفتحها للمستوطنين اليهود؛ لكن الخطة الصهيونية كانت أكثر طموحًا، فقد أرادوا أرض فلسطين وحدها، ولا حاجة لهم بالسكان الأصليين أو الأيدي العاملة.

(1) Khalidi, *From Haven to Conquest*, 89.

عانت الخطة الصهيونية من قصور من شأنه أن يجهض أي مشروع مماثل[1]؛ فهي تفتقر إلىٰ آلية التنفيذ، حيث لم تكن هناك دولة يهودية عظمىٰ لدعم مشروعهم الاحتلالي؛ ولم يكن لليهود أصلًا دولة خاصة بهم يمكنها الاستيلاء علىٰ فلسطين وفتحها أمام الاحتلال اليهودي؛ كان هذا هو المأزق الصهيوني: كيف سيقيمون دولة استيطانية يهودية في فلسطين مع افتقارهم للقوة العسكرية اللازمة للاستيلاء علىٰ تلك الأراضي والسيطرة عليها؟ ومع ذلك، فقد نجحوا ببراعة، ففي عام ١٩٤٨ -أي بعد نيف وخمسين عامًا علىٰ اجتماع بازل- أنشؤوا دولتهم الاحتلالية الاستيطانية في فلسطين، وبأغلبية يهودية ساحقة، تمامًا كما تخيلها الصهاينة.

وقد نجت إسرائيل أيضًا بطريقة غريبة؛ فهي المستعمرة الوحيدة التي أنشئت في القرن الذي سبق الحرب العالمية الثانية ولا زالت مستمرة في هذا الإنجاز. أنشأت القوىٰ الغربية العديد من مستعمرات الاحتلال في الموجة الثانية من الاحتلال -التي بدأت في العقود الأولىٰ من القرن التاسع عشر- في أفريقيا وآسيا، وبحلول العقود الأولىٰ من القرن العشرين، اجتذبت العديد من هذه المستعمرات -وخاصة تلك الموجودة في أفريقيا- أعدادًا كبيرة من الرواد البيض، حيث بدأ البعض يحلمون بإنشاء دولهم الخاصة، وفي معظم الحالات، أجهضت حركات التحرير الأصيلة أحلامهم؛ ففي عصر أفول الاحتلال العسكري الذي بشرّت به نهاية الحرب العالمية الثانية، تفككت جميع هذه المستعمرات باستثناء ثلاثة فقط: جنوب أفريقيا وفلسطين وجنوب رودسيا، حيث انفصل المستوطنون البيض عن وطنهم الأم لإنشاء دولهم الخاصة. كانت دولة المستوطنين في

---

(١) -الفكرة المركزية لهذا الكتاب هي أن الصهيونية احتوت علىٰ منطق هدام مزعزع للاستقرار من شأنه أن يحرض الغرب حتمًا ضد المجتمعات الإسلامية، وهو الأمر الذي عُرض لأول مرة في كتاب محمد شهيد علم (إسرائيل وتداعيات التفرد "Israel and the Consequences of Uniqueness")، وأعيد طبعه في كتاب المؤلف (تحدي الاستشراق الجديد Challenging the New Orientalism)، ١٠٣-١٦.

روديسيا الجنوبية قصيرة الأجل، فقد تأسست في عام ١٩٦٤ وانحلّت عام ١٩٨٠، ولم تستمر الدولة الخاصة بالبيض في جنوب أفريقيا سوىٰ فترة أطول بقليل، حيث انفصلت عن بريطانيا في عام ١٩١٠ ولم تسلّم السلطة للسود في جنوب أفريقيا حتىٰ عام ١٩٩٤، وحدها إسرائيل -التي أسسها المستوطنون اليهود في عام ١٩٤٨ في فلسطين- بقيت حتىٰ يومنا هذا.

إن خلق إسرائيل وبقاءها هو بحد ذاته شذوذ؛ حتىٰ توقيت نشأتها غريب، حيث ظهرت في وقتٍ كان العالم يدخل عصرًا من إنهاء الاستعمار، يضاف إلىٰ ذلك، أن الصهيونية كانت احتلالًا استيطانًيا يهدف لإقامة دولة نقية عرقيًّا؛ فقد كان هدف المستعمرين اليهود هو إجلاء السكان الأصليين -بطريقة أو بأخرىٰ- عن دولتهم اليهودية؛ حتىٰ أنهم قاربوا أن يحققوا هذا الهدف بعد وقت قصير من قيام إسرائيل من خلال المذابح والتطهير العرقي للفلسطينيين، وعوضًا عن التلاشي والاضمحلال كنظيراتها ازدادت هذه الدولة الاحتلالية قوةً، كما يبدو، وضاعفت من حجم أراضيها بشكل كبير في يونيو١٩٦٧، وزاد عدد سكانها اليهود بأكثر من ثمانية أضعاف في ستين عامًا منذ إنشائها.

وواجهت إسرائيل نوعا آخر من الشذوذ، فلم تواجه أيٍ من المستعمرات الاستيطانية التي أجلت السكان الأصليين عن أراضيهم -مثل الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا- مشكلة مع هؤلاء السكان مرةً أخرىٰ؛ لكن إسرائيل لم تكن محظوظة؛ فبعدما انخرط المستوطنون اليهود في عملية تطهير عرقي واسعة النطاق، لم يتمكنوا من إبادة السكان الأصليين، ونتيجة لذلك استمر كابوس الفلسطينيين في ملاحقة حلم الصهاينة؛ فمع المعاناة والنقص الشديد في العدة والعتاد، وتخاذل غالب الدول العربية، والحصار المستمر، والتعرض المتكرر للهجمات المدمرة والاعتقالات والإذلال والتعذيب إلا أنهم يرفضون الاستسلام، بل يستمرون بلا هوادة في نضالهم، وهم علىٰ استعداد للتضحية بمجموعات

جديدة من المقاومة لتكون بديلًا عن تلك التي قُتلت أو اعتُقِلت، فمع مرور الوقت، ازدادت مشكلة الصهيونية مع السكان الأصليين سوءًا.

لطالما تبجّح الصهاينة بمعجزة إنشاء إسرائيل وانتصاراتها العسكرية المتكررة مصورين إياها كدليل علىٰ مثابرة وبطولة الشعب اليهودي، وقدرتهم علىٰ الانبعاث من رماد الهولوكوست، ولا نرىٰ في هذه الادعاءات الصهيونية أي ذكر للمزايا المتعددة والساحقة التي يحظىٰ المستعمرون اليهود دائمًا في مواجهاتهم مع الفلسطينيين؛ فبمجرد أن ندرك التفاوت الهائل في القوة بين اليهود والفلسطينيين، فإن تلك «المعجزات» الإسرائيلية لن تعدو كونها نتيجة طبيعية ومحتومة للتفاوت الهائل في القوىٰ. من ناحية أخرىٰ، فإن رفض المقاومة الفلسطينية الانحناء أمام القوة الساحقة للمستعمرين اليهود يؤكد علىٰ صمود وقوة الروح الإنسانية في أصعب المواقف.

من المغري الاحتفال بقيام إسرائيل علىٰ أنه نصر عظيم، وربما هو الأعظم في التاريخ اليهودي، وغالبًا ما يُقرأ تاريخ إسرائيل في الغرب باعتباره الملحمة البطولية لشعب تعرّض للإبادة، ثم خرج من معسكرات الموت النازية -أوشفيتز، وبلزيك، وتريبلينكا- لإنشاء دولتهم في عام ١٩٤٨، تلك الجنة التي يأوي إليها كل يهودي، والديمقراطية التي ازدهرت حتىٰ بعدما تعرضت فور إنشائها لعدد من التهديدات والمقاطعات والحروب والهجمات الإرهابية العربية، ولا نحتاج إلىٰ إنكار شيء من معاناة اليهود الأوروبيين لكي نؤكد أن هذه النظرة إلىٰ إسرائيل -بصرف النظر عن إظهارها لأسطورة الحنكة الصهيونية- لا يمكن أن تكون إلا رواية المنتصر المتحيّزة؛ إنها تسعىٰ إلىٰ تبرئة إسرائيل من تهمة الاحتلال المدمّر عبر تزوير التاريخ، وتعمية الديناميات الإمبريالية التي جلبتها إلىٰ الوجود، وذلك لصرف الانتباه عن الحروب الخطرة التي تسعىٰ الصهيونية الآن إلىٰ جرّ الغرب والمجتمعات الإسلامية واليهود للدخول فيها.

عندما نفحص تداعيات قيام إسرائيل، ونفكر في الفظائع الكبرىٰ التي قد تتدفق في المستقبل من منطق الصهيونية؛ تظهر لنا الانتصارات الإسرائيلية بوجه آخر، ونحن مضطرون لفحص هذه الانتصارات بفزع متزايد وشكوك مميتة؛ فإن انتصارات إسرائيل المبكرة -علىٰ الرغم من كونها حقيقية بما فيه الكفاية من وجهة نظر الصهيونية- مُقدَّرٌ لها أن تتحول ببطء إلىٰ دوائر متصاعدة من الصراع تدق جرس الإنذار الآن لتتحول إلىٰ حروب كبرىٰ بين الغرب والمجتمع الإسلامي؛ وعلىٰ الرغم من أن هذا الصراع يستمد وقوده من طموح استعماري معين، فإن الجدلية (dialectics) التي تغذي هذا الطموح قد يمنحه -ببطء- خصائص الحرب الحضارية؛ أو ربما الأسوأ، وهو الحرب الدينية.

إن مأساة إسرائيل ليست مصادفة؛ فقد تمكّن الصهاينة -مستخدمين منطق التاريخ وفن الممكن والدهاء- من وضع أنفسهم بين خصمين تاريخيين: الغرب والإسلام؛ وبتسخير قوة الأول ضد الثاني، أنتجوا صراعًا لا يزيده مرور الزمن إلا شدة. وفي هذا الصراع تبدو انتصارات إسرائيل مؤقتة -والحقيقة أنها وهمية-؛ لأنها تستثير استجابة أعمق وأوسع من المجتمعات التي دمرتها انتصاراتها، وعلىٰ المدىٰ الطويل -أي علىٰ المقياس الزمني للتاريخ- ستضمن إسرائيل من خلال الاستغلال المفرط لقوتها ونفوذها أن خصومها سيبنون الدفاعات التي ستتماشىٰ في النهاية مع القوة العسكرية الإسرائيلية وطموحاتها التوسعية.

يدّعي التأريخ الصهيوني -بلا كلل- أن ظهور دولة يهودية في فلسطين يمثل انتصارًا علىٰ معاداة السامية في أوروبا التي استمرت لقرون، وعلىٰ وجه الخصوص فإن إسرائيل هي أهم تجليات هذا الانتصار في القرن العشرين علىٰ خطة النازيين الشيطانية لاستئصال الشعب اليهودي. ومع ذلك، فهذه القراءة للتاريخ الصهيوني تتغيا حجب الصفقة التاريخية التي قدمتها الصهيونية للغرب، أي تخليص الغرب من اليهود وإخراجهم من العالم المسيحي إلىٰ قلب الحواضر الإسلامية، فعندما عرض الصهاينة «تطهير» الغرب من «اليهود المنبوذين»، كانوا

يعملون في نفس اتجاه معاداة السامية، وليس عكسها، وفي وقت مبكر جدًّا، أشار تيودور هرتزل إلىٰ هذا التكامل [بين الصهيونية ومعاداة السامية] باعتباره حجر الأساس للصهيونية؛ فمن أجل تحقيق النجاح، سيتوجب علىٰ الصهاينة تسخير طاقة معاداة السامية في أوروبا، والحنق الذي تحمله ضد اليهود[١]، ولا يهم أن اليهود ومعاداة السامية كانوا خصمين تاريخيين، وأن اليهود كانوا ضحايا الثأر الديني في أوروبا منذ اعتناق روما المسيحية لأول مرة، فستبدّل الصهيونية هذه العلاقة، وسيدخل اليهود والمعادون للسامية الآن في علاقة جديدة من شأنها أن تعمل لصالح اليهود.

أدىٰ إدخال الفكرة الصهيونية في صلب السياسة الغربية إلىٰ تغيير جذري في العلاقة بين اليهود الغربيين والأغيار[٢]، وكان علىٰ الصهاينة -من أجل النجاح في مشروعهم الاحتلالي- إيجاد خصم مشترك بين الغرب واليهود، وقد اختاروا احتلال فلسطين؛ لأن إنشاء دولة يهودية في أي منطقة أخرىٰ -في أوغندا أو الأرجنتين- سيشكل صعوبة كبيرة في خلق الأساطير التي عرف الصهاينة أنهم بحاجة إليها لإقناع اليهود الغربيين بتبنّي مشروعهم الاحتلالي، كما أن لفلسطين مزايا أخرىٰ أيضًا؛ فباختيارها [أرضًا محتلة] أوجد الصهاينة العدو الذي سيعمق شراكتهم مع الغرب إلىٰ مداها، وليس هناك من شيء يستثير شهوة الدم في العقلية

---

(١) في مقدمة خطته لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، شبَّه هرتزل (الدولة اليهودية، ١٠، ٢٨) معاداة السامية بقوة البخار؛ فإن القوة البخارية للمحرك سوف تساعد علىٰ إنشاء دولته اليهودية؛ وكتب: «أعتقد الآن أن قوة [معاداة السامية] -إذا وُظِّفت بشكل صحيح- فإنها ستكون قوية بما يكفي لتشغيل محرك كبير يمكنه أن يدفع سفينتنا بركابها وبضائعها [إلىٰ فلسطين]»، كما كتب أن «حكومات جميع البلدان التي تعاني من معاداة السامية ستكون مصالحها الخاصة في مساعدتنا في الحصول علىٰ السيادة التي نريدها».

(٢) جنتايل (Gentile) وهي تعني في التراث اليهودي: الأغيار، أي غير اليهود. في معظم الاستخدامات التوراتية يدل اللفظ علىٰ الدول التي تختلف عن إسرائيل؛ وبما أن أكثر الدول وقت نزول التوراة كانوا «وثنيين»، أصبح جنتايل مرادفًا للوثني المشرك، ثم صار علمًا علىٰ كل من هو غير يهودي (المترجم).

الصليبية، ويُذْكي حميّتها البروتستانتية، ويُوقظ هوسها بحروب نهاية العالم، وطموحاتها الإمبريالية؛ مثل دولة يهودية تخوض حروبًا في الشرق الأوسط؛ وإن دولة يهودية في أفريقيا أو أمريكا اللاتينية لن تثير أيًا من هذه الشهوات، علىٰ الأرجح. ومع مرور الوقت، سيؤدي صعود المقاومة العربية -ثم الإسلامية لاحقًا- ضد الدولة اليهودية في قلب العالم الإسلامي إلىٰ خلق خصم مشترك، سيستمر بدوره في تبرير وتعميق الشراكة بين اليهود والأغيار، حتىٰ الذين لا يرون أن هذه الجدلية (dialectics) لم تكن جزءًا من الطموحات الصهيونية الأولىٰ، فإنهم بالكاد ينكرون أنها كانت نتيجة حتمية للنجاح الصهيوني.

كانت إسرائيل -إذن- هي الوليد غير الشرعي لتزاوج تاريخي -يبدو غير ممكن من الوهلة الأولىٰ- بين اليهود الغربيين والغرب المسيحي، وتحديدًا الفصيل الأنجلوساكسوني في العالم الغربي، والذي شارك بشكل مباشر في الترويج للصهيونية(١). إن خبرة الحاوي وخديعة الساحر التي تتمتع بها الفكرة الصهيونية هي ما خطّ عقد هذه الشراكة، وقد امتلك المشروع الصهيوني لإنشاء دولة يهودية في فلسطين ما يكفي من قوة لتحويل الخصمين التاريخيين -اليهود والمسيحيين- إلىٰ حلفاء متّحدين في مشروع إمبريالي مشترك ضد العالم الإسلامي، واستغل الصهاينة الطاقات السلبية للعالم الغربي -معاداة السامية،

---

(١) يبدو هذا التحالف غير محتمل بسبب الاختلافات القوية بين اليهودية والمسيحية؛ حيث ينظر اليهود إلىٰ المسيحية علىٰ أنها هرطقة وابتداع في الدين اليهودي، كما أن المسيح هو مخلص (Messiah) مزيّف، ومن ناحية أخرىٰ، ينظر المسيحيون إلىٰ اليهودية علىٰ أنها ديانة منسوخة بديانتهم. والأهم من ذلك أنه منذ أن اكتسبت المسيحية هيمنة وسلطة علىٰ اليهود في أوروبا -ولفترة من الوقت في الشرق الأوسط- فقد وضعت اليهود علىٰ هامش المجتمع، وأجبرتهم علىٰ العيش في مجتمعات منفصلة، وحرمتهم من مجموعة واسعة من الحقوق المدنية والدينية، وغالبًا ما شنت مذابح ضدهم. لاحقًا -بدءًا من القرن التاسع عشر- عندما مُنح اليهود قدرًا أكبر من المساواة في الحقوق، بدءوا في الازدهار ماليًا ومهنيًا. ومع ذلك، شهدت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ظهور أشكال جديدة من معاداة السامية، والتي جمعت بين الكراهية القديمة والغضب من الازدهار اليهودي، و(خاصة في أوروبا الشرقية) ممزوجة بمخاوف متزايدة من المنافسة الاقتصادية من قبل اليهود.

هوسه الصليبي، تعصبه ضد الإسلام، عنصريته العميقة، وطموحاته الإمبريالية- وركّزها في مشروع استعماري جديد، يسعىٰ لإنشاء دولة غربية بديلة في قلب العالم الإسلامي، وبدا أن هذا المشروع الاحتلالي الجديد يقدّم -بالنسبة للطموحات الإمبريالية الغربية- مجموعة متنوعة من المزايا الاستراتيجية، فستكون إسرائيل في قلب الحواضر الإسلامية، وعلىٰ مفترق الطرق بين آسيا وأفريقيا وأوروبا، كما أنها ستؤمّن بوابة أوروبا إلىٰ المحيط الهندي، ويمكنها مراقبة التطورات في الخليج العربي باحتياطياته الهائلة من النفط. لا يهم إن كانت هذه المزايا مؤقتة -أو أن غالبها متوهّم-؛ لأنها تربو علىٰ كافة التكاليف الاستراتيجية للتحالف بين الصهاينة والقوىٰ الغربية، كما أن الصهاينة يمكنهم التلاعب بالسياسات الداخلية للمجتمعات الغربية الرئيسية، وجعلهم يفكرون أبعد من مصالحهم الاستراتيجية.

لا شك أن الشراكة التي كان الصهاينة يعرضونها -بين القوىٰ الغربية واليهود الغربيين- كانت ضربة حاذق، وبها يستغلون القوة الغربية في قضيتهم؛ فكلما تكشّفت الخطة الصهيونية أكثر، وسببت آلامًا للإسلاميين، وأثارت غضبًا إسلاميًا ضد الغرب واليهود؛ فإن التكامل بين الغرب واليهود سوف يتعمّق، وبمرور الوقت، ستكتشف -أو تخلق- أوجه تكامل جديدة بين السلالتين المتنافستين والمتشابكتين في التاريخ الغربي: المسيحية واليهودية، ففي الولايات المتحدة، شجّعت الحركة الصهيونية البروتستانت -الذين نظروا إلىٰ ولادة إسرائيل كعلامة علىٰ قرب نهاية الزمان-، وذلك لتحويلهم إلىٰ صهيونيين متعصبين. بالإضافة إلىٰ ذلك، فإن الغرب الحديث -الذي يمكن تتبُّع جذور أفكاره المعاصرة ومؤسساته المركزية إلىٰ روما وأثينا، مرورًا بعصر النهضة والتنوير- سيعاد تجميعه وتكوينه باعتباره حضارة يهودية-مسيحية. إن هذا التأطير الجديد للغرب لا يعزز الجذور اليهودية للعالم الغربي فحسب، بل يؤكد أيضًا علىٰ أن الإسلام هو «الآخر»، وهو الخصم.

تدين الصهيونية بكامل نجاحها لهذه الشراكة التي كان من المستبعد وقوعها، فلم يكن بإمكان سفينة المشروع الصهيوني -بمفردها- أن تبحر من الشواطئ الأوروبية وترسو في فلسطين، ولم يكن بإمكان الصهاينة خلق إسرائيل عن طريق الرشوة أو إرغام العثمانيين علىٰ منحهم ميثاقًا لاحتلال فلسطين؛ فعلىٰ الرغم من العروض المستمرة بالإقراض والاستثمارات والتكنولوجيا والخبرة الدبلوماسية، رفض السلطان العثماني تيودور هرتزل مرارًا وتكرارًا، كما أنه كان من غير المحتمل أن يتمكن الصهاينة -في أي وقت- من تعبئة جيش يهودي في أوروبا لغزو واحتلال فلسطين في ظل المعارضة العثمانية والعربية لإنشاء دولة يهودية علىٰ الأراضي الإسلامية.

كانت الشراكة الغربية الصهيونية ضرورية لإنشاء دولة يهودية؛ بل كانت مصيرية لا بد منها ولا بديل عنها، وقد أنتجت هذه الشراكة جدلية جديدة؛ حيث شجّعت إسرائيل -باعتبارها المركز السياسي للشتات اليهودي، والبؤرة الاستيطانية الرئيسية للغرب في قلب العالم الإسلامي- لتصبح أكثر جرأة في مكائدها للعالم الإسلامي وخارجه، ومن ثمّ فعندما أصبح العالم الإسلامي جريحًا مهانًا، ويزداد استياؤه بعد كل هزيمة يتعرض لها من إسرائيل والولايات المتحدة؛ أصبح أكثر إصرارًا علىٰ استعادة كرامته واستقلاله وقوته، يغذيه السعي إلىٰ تعزيز هذه الصحوة بالاعتماد علىٰ قوة الفكر الإسلامي. بالإضافة إلىٰ ذلك، أدت الإهانة التي شعر بها الإسلاميون إلىٰ ظهور فصائل متطرفة -لا تزال بأعداد ضئيلة- قررت استخدام العنف لتحقيق أهدافهم السياسية، وقد زجّ هذا المنطق المُزعِزع للاستقرار بالغرب في مواجهة مباشرة مع العالم الإسلامي، ونحن الآن نحدق إلىٰ الهاوية؛ ومع ذلك، لم يدرك الغرب بعدُ حجم هذه الكارثة الوشيكة، وليس لديه إرادة للتراجع عنها.

سوف تصف فصول **الجزء الثاني** بمزيد من التفصيل أعمال الصهيونية، التي عرضنا حتىٰ الآن خطوطها العريضة فحسب. في المقام الأول، هذا يعني أنه

يجب علينا اكتساب فهم أوضح لأهداف الصهيونية السياسية، ويمكننا أن نبحث عن ذلك في التصريحات العلنية، وأهداف وأنشطة المنظمات الصهيونية، ومحيط تأثيرها، والكتابات الخاصة بالصهاينة، وبمجرد تحديد هذه الأهداف، أو التسلسل الهرمي للأهداف التي حددتها الصهيونية لنفسها، يمكننا أن نبدأ في قراءة تاريخ الحركة الصهيونية، والأساليب والأدوات التي استخدمتها علىٰ أنها مدفوعة بهذه الأهداف، كما يمكننا تحديد الحلفاء الذين سيبحث عنهم الصهاينة، والأعداء الذين سيخلقونهم، والكراهية التي سيستثيرونها، والخداع الذي سيمارسونه، والبدائل التي سيكتشفونها عندما يظهر أن بعض الإجراءات أو الأدوات غير متاحة أو فقدت فعاليتها.

إن الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب هو أنه: بمجرد تحديد أهداف الصهيونية، وفهم التزام الصهاينة المؤسسين بهذه الأهداف، وتكوين تقدير معقول للموارد التي سيطلبها الصهاينة من المجتمعات اليهودية في الغرب، وتحديد القوىٰ الغربية التي يمكن للصهيونية حشدها؛ يمكننا رسم المسار العام الذي ستتخذه الصهيونية. إن الإلمام بتاريخ الصهيونية سيؤكد أن هذا المسار المتوقع قريب جدًّا من المسار الذي سلكته بالفعل.

باعتراف الجميع، لم يكن بالإمكان التنبؤ بالهولوكوست؛ لكن علىٰ الرغم من الادعاءات الصهيونية بأن إنشاء إسرائيل انبثق من هذه الكارثة، فإن هذا الادعاء -الذي ساد في حقبة ماضية- لا يمكنه أن يستمر بعد الفحص الدقيق، فلم تنتشر المعلومات عن الهولوكوست علىٰ نطاق واسع حتىٰ انتهاء الحرب العالمية الثانية، أما البنية التحتية للدولة اليهودية في فلسطين فقد كانت موجودة بالفعل منذ منتصف الثلاثينيات؛ حيث يُذكِّرنا مؤرخ إسرائيلي «أن الصهيونية لم تكن اختراع لاجئين يائسين من الاضطهاد النازي؛ لقد كانت هناك إرادة في

طريقها لتحقيق أهدافها **قبل** الهولوكوست، حيث قُتل معظم من كان من الممكن أن يكونوا من مواطنيها»[1]. [التسويد مضاف].

لم تكن الصهيونية قومية عادية؛ وهذا الكتاب مخصص لاستكشاف جميع الطرق التي حدد بها هذا الشذوذ مسار هذه الحركة القومية، والصراعات العميقة التي خلقتها، والحروب التي ميزت تاريخها، والحروب الجديدة التي تسعىٰ إليها جاهدة حتىٰ الآن، تلك الحروب التي ستضع الولايات المتحدة وإسرائيل وحلفاءها الغربيين في مواجهة ضد العالم الإسلامي؛ إن هذه المآلات لم تأت عرضًا أو بمحض الصدفة؛ إن مأساة الصهيونية مكتوبة في بنيتها الداخلية؛ ونهايتها كانت مع بدايتها.

(1) Lozowick, *Right to Exist*, 306.

الفصل الخامس
العرب يكرهوننا

«معاذ الله أن نؤذي أي شعب، فضلا عن شعب عظيم كراهيته لنا أخطر علينا من أي شيء»
إسحاق إبشتاين (Yitzhak Epstein)، ١٩٠٧

«الشكل الغربي من معاداة السامية -ذلك العداء الكوني والشيطاني لليهود- هو بمثابة العزاء للمشاعر [العربية] الجريحة»
بيرنارد لويس (Bernard Lewis)، ٢٠٠٦

«لماذا يجب علىٰ العرب أن يجنحوا للسلام؟ لو كنتُ زعيما عربيًا ما تصالحتُ مع إسرائيل؛ هذا طبيعي، ببساطة: لقد غصبنا بلادهم»
ديفيد بن غوريون (David Ben-Gurion)، ١٩٥٦[1]

---

(1) Shatz, *Prophets Outcast*, 45; Lewis, "The New Anti-Semitism," 31; Goldman, *The Jewish Paradox*, 99.

يلقي الصهاينة باللائمة في الولادة العنيفة لإسرائيل -وما تلاها من عنف متصاعد- علىٰ الفلسطينيين والعرب، وبغض النظر عما قد يعترفون به في السر، فلا يوجد اعتراف بالذنب اليهودي أو بأي خطأ ارتُكب بحق الفلسطينيين أو العرب؛ فاليهود -وليس العرب- هم الطرف المتضرر.

يُلبس الصهاينة حركتهم زي حركات التحرر الوطني بغرض إخفاء طابعها الاحتلالي؛ وهو مفهوم مشتق من خطابات الشعوب المستعمَرة في القرن العشرين، وهذا الدفاع لا ينبس ببنت شفة حول من هم اليهود أو كيف وصلوا إلىٰ فلسطين، فيبدأ هذا الخطاب بأن اليهود موجودون بالفعل في فلسطين، حيث يتحملون المصاعب ويدافعون عن مجتمعاتهم وقراهم وبلدانهم ضد الهجمات العربية الشرسة، ويكافحون ضد الصعاب الكبيرة لنيل استقلالهم؛ يظهر البريطانيون في هذه المسرحية بدور هزلي باعتبارهم أنصار الفلسطينيين، حيث يؤخرون أو يعرقلون إنشاء دولة يهودية في فلسطين. في هذه اللعبة: العرب هم المعادون للسامية؛ حيث تنبع معارضتهم للدولة اليهودية من دناءتهم؛ فهم يعارضون الصهيونية لأنهم يكرهون اليهود، وعندما أعلنت دولة إسرائيل عن ولادتها في مايو ١٩٤٨، اجتمع الفلسطينيون وإخوانهم العرب معًا وغزوا دولة إسرائيل الوليدة -مدفوعين بغضب عارم-، آملين وأدها لحظة ولادتها، وإلقاء اليهود في البحر.

ومن بين كل الدول الجديدة التي ظهرت في حقبة ما بعد الحرب -حسب ما يزعم الصهاينة- فإن إسرائيل وحدها هي التي واجهت الجيوش الغازية فور ولادتها، فلم يكفّ العرب عن تهديد الدولة الجديدة بالإزالة واليهود بالإبادة الجماعية، ورغم هزيمة إسرائيل للجيوش العربية في عام ١٩٤٨، ومرةً أخرىٰ في عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣، إلا أن العرب لم يتخلوا أبدًا عن حلمهم بتدمير الدولة اليهودية، وهم يواصلون التحضير لحروب جديدة، ويشنون هجمات إرهابية ضد الإسرائيليين في الداخل والخارج، ويفرضون مقاطعات اقتصادية، ويهددون

وجودها باستمرار. إن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي تواجه تهديدات لوجودها، كما أن التهديدات الأمنية التي تواجهها إسرائيل فريدة من نوعها.

هناك نسخة أكثر تطورًا من هذا السرديّة، لكنها توظّف المزيد من السرد التاريخي، حيث تزعم أن اليهود شعب فريد له تاريخ قديم ومصير خاص؛ إنهم شعب الله المختار، إنهم العائدون -بمقتضىٰ الإرادة الإلهية- إلىٰ الأرض التي وُعِد بها أسلافهم في العصور القديمة، وبمجرد أن صار اليهود «الشعب المختار» في الكتاب المقدس اليهودي -والذي هو جزء من المعتقدات الدينية للعديد من اليهود والمسيحيين البروتستانت- أضحىٰ العرب في فلسطين متطفلين، ولا قيمة للمدة التي عاشوا فيها هناك. وبخبث أكبر، يذهب بعض الصهاينة أبعد من ذلك، فلا يرون أي شرعية للفلسطينيين؛ فهم يرون أن معظم العرب دخلوا فلسطين مؤخرًا فقط، بعدما اجتذبتهم فرص العمل التي أتاحها إنشاء المستعمرات اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر(١)، والعرب يتحدون إرادة الله؛ لإصرارهم علىٰ

---

(١) توسعت جوان بيترز في مناقشة هذه الأطروحة في كتابها (من زمن سحيق From Time Immemorial)، وحقّق الكتاب نجاحًا ساحقًا في الولايات المتحدة، ووفقًا لفينكلشتاين (Image and Reality, 21-22)، «تقريبًا كل مجلة لها شعبية ما؛ نشرت مراجعة أو أكثر في غضون أسابيع من إصدار الكتاب. وذكرت مطبعة (Harper & Row) أنه لم يمر ثمانية أشهر من النشر حتىٰ وصل الكتاب إلىٰ طبعته السابعة. وبحسب ما ورد، كان للكاتبة بيترز ٢٥ لقاءً من المقرر عقدهم في نفس العام الذي نشر فيه الكتاب»، حتىٰ شاول بيلو انضم إلىٰ جوقة المديح، وتوقّع أن «ملايين الناس في جميع أنحاء العالم -الذين أغرقهم التاريخ والدعاية الزائفة- سيكونون ممتنين لهذه الرواية الواضحة لأصول الفلسطينيين». ومع ذلك، فقد أظهر فينكلشتاين أن الكتاب كان أيضًا عملية احتيال ضخمة، حيث كتب: «الاحتيال في كتاب جوان بيترز واسع الانتشار وممنهج؛ لدرجة يصعب معها اقتلاع خيط واحد دون التورط في النسيج الملفق بالكامل». وعندما نُشر هذا الكتاب في بريطانيا - كما يقول تشومسكي في كتابه (مصير المثقف الصادق The Fate of an Honest Intellectual) «لا يمكنك التحكم في المجتمع الفكري بهذه السهولة»- تلقّىٰ مراجعات مختلفة تمامًا، وأرسل تشومسكي نسخة مبكرة من نقد نورمان فينكلشتاين لكتاب بيترز إلىٰ بعض المؤلفين وبعض الصحفيين الذين يعرفهم في بريطانيا. كتب نعوم تشومسكي: «بمجرد ظهور الكتاب، ظهر عواره، ومدىٰ التلفيقات التي حواها؛ كل المجلات الرئيسية -الملحق الأدبي للتايمز، ومجلة لندن=

حقوقهم القانونية والوطنية في فلسطين؛ وهذه الجرأة لا يمكن أن تنجم إلا عن كراهية عميقة لليهود. إن الفشل العربي في الاعتراف بحقوق اليهود القديمة، وفشلهم في إعادة الإرث اليهودي إلىٰ أصحابه الشرعيين؛ هو الصورة الجديدة لمعاداة السامية؛ لقد أصبح العرب هم العدو الجديد لليهود.

يطرح الصهاينة روايتين علىٰ الأقل عن أصول معاداة السامية لدىٰ العرب، تؤكد الأولىٰ أنه لطالما كان لدىٰ المسلمين عداء عميق للسامية، إلا أنه أقل ضراوة من نظيره المسيحي، وفي السنوات الأخيرة، قام عدد قليل من الكتاب الصهاينة بتركيب تأريخ جديد لمعاداة السامية في الإسلام، حيث يتتبعون جذورها في القرآن وأحاديث النبي محمد [صلىٰ الله عليه وسلم][1]، ويعيدون كتابة تاريخ المجتمعات اليهودية والمسيحية تحت الحكم الإسلامي. ويقرّ جميع المؤرخين الغربيين تقريبًا -بمن فيهم أولئك الذين يتبنون أسسًا استشراقية- بأن الأقليات المسيحية واليهودية في ظل الإسلام عمومًا تمتّعت بحقوق أكثر مما كان متاحًا للأقليات اليهودية أو المسلمة في العالم المسيحي[2]، وتعمل هذه القراءة [الصهيونية] التحريفية علىٰ استبدال التأريخ الحالي، عبر التركيز الانتقائي علىٰ

= ريفيو، والأوبزرفر، كان لدىٰ الجميع مراجعة تقول: هذا لا يرقىٰ حتىٰ لأن يوصف بأنه هراء؛ إنه لا شيء».

(١) الكتاب المرجعي في هذه المسألة هو كتاب بات ياور (Bat Ye'or)، (Dhimmi and Islam and Dhimmitude)، ومعه أيضًا:

julius , Review of: Nathan Weinstock.

والكاتب الفرنسي نيثان وينستوك (Nathan Weinstock) (Zionism, Histoires de Chiens, and Use si Longue Presénce)، وهو تروتسكي سابق تراجع عن كتابه السابق المناهض للصهيونية عام ١٩٧٩ ليحاجج في عام ٢٠٠٤ أن تلك القومية الفلسطينية مدفوعة بمعاداة السامية. لكن في كتابه لعام ٢٠٠٨، يجادل وينستوك بأن اليهود تلقوا معاملة أفضل في ظل الإسلام مما تلقّوه في أوروبا.

(٢) للاطلاع علىٰ روايات متوازنة عن مكانة المجتمعات غير المسلمة في العالم الإسلامي انظر:

Cohen (Under Crescent and Cross and "The Jews under Islam", Lewis ("The New Anti-Semitism"), and Menocal (The Ornament of the World).

جوانب الشريعة الإسلامية التي لا تتفق مع المنظومة الغربية الحديثة، التي تمنح -ظاهريًا- حقوقًا مدنية وسياسية متساوية لجميع المواطنين، ويبني هؤلاء التحريفيون قضيتهم علىٰ تجميع أمثلة انتقائية للتمييز ضد اليهود والمسيحيين أو اضطهادهم في المجتمعات الإسلامية، كما لو أن الأمثلة المختارة يمكنها أن تختزل تاريخ العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين الذي يمتد لقرابة ثلاثة عشر قرنًا من الحكم الإسلامي.

إن الهدف من هذا النوع الجديد من إعادة الكتابة الصهيونية للتاريخ الإسلامي واضح؛ تسعىٰ هذه القراءة الجديدة إلىٰ اختلاق معاداة إسلامية للسامية لتكون المحرّك الدافع للمعارضة العربية للصهيونية السياسية وإسرائيل؛ كما لخّص إفرايم كارش (Ephraim Karsh): «إن الكثير من الجدل الإسلامي والعربي ضد الصهيونية والعداء واسع الانتشار لدولة إسرائيل هو نتيجة لعداء عميق ودفين تجاه اليهود واليهودية»[1]، وبمجرد قبول الجماهير الغربية لهذا التلفيق، يصبح من السهل إقناعهم بتجاهل الطابع الاحتلالي لإسرائيل، واغتصابها للأراضي العربية، وتطهيرها العرقي للفلسطينيين، وحروبها العدوانية، أو قمعها الوحشي للفلسطينيين؛ كما يمكن بسهولة تجاهل صيحات الفلسطينيين نتيجة وقوعهم تحت وطأة الاحتلال والتطهير العرقي، والنظر إلىٰ كل عمل من أعمال المقاومة الفلسطينية علىٰ أنه تعبير عنيف هدفه الترويج للكراهية المعادية للسامية. ومن ناحية أخرىٰ، سيكون من الأسهل الدفاع عن إسرائيل وتبرير هجماتها علىٰ الفلسطينيين باعتبارها دفاعًا مشروعًا عن النفس ضد خصم مغمور بالكراهية، وهكذا أصبح بإمكان الغرب الزعم بأن العرب يعارضون إسرائيل لكونها يهودية فقط.

---

(1) Karsh, "The Long Train." Also, see Israeli, *War, Peace and Terror*, 61-80; Dalin, *The Myth of Hitler's Pope*, 127-46; and Schoenfeld, *The Return of Anti-Semitism*, 7-56.

وترىٰ الرواية الثانية أن معاداة السامية لدىٰ العرب ظاهرة حديثة العهد، حيث ظهرت في أعقاب الانتصارات العسكرية الصهيونية المتكررة علىٰ العرب، فقد اكتشفوا -كما يقال- في معاداة السامية «متنفسًا»، وتعويضًا عن الخزي والإذلال الذي لحق بهم إثر هزيمتهم علىٰ يد إسرائيل في ١٩٤٨ و١٩٦٧ و١٩٧٣، وكتب برنارد لويس -أحد أكثر المدافعين عن هذه النظرة- أن «الشكل الغربي من معاداة السامية -ذلك العداء الكوني والشيطاني لليهود- هو بمثابة العزاء للمشاعر [العربية] الجريحة»[١]، فلا شيء يمكنه أن يسلّي العرب عن هزائمهم سوىٰ ذلك «العداء الكوني والشيطاني لليهود». وفورًا تبنَّىٰ العرب نسخة أوروبية من الكراهية «الكونية» و«الشيطانية» ضد اليهود، برغم الاختلافات العميقة التي تميزهم عن الأوروبيين في دينهم، وتدينهم، وتاريخ علاقاتهم مع اليهود، ونظرتهم إلىٰ الآخر، وسرعان ما توضح هذه الرواية [الصهيونية] أن معاداة السامية هي التي تغذي -وما زالت- الرفض العربي للتصالح مع إسرائيل وقبولها كعضو كامل في مجتمع دول الشرق الأوسط.

أطلق الصهاينة -مؤخرًا- مجموعة متنوعة من الأساطير الجديدة لصرف الانتباه عن التكاليف الاستراتيجية المتزايدة التي تتحملها الولايات المتحدة في دعم إسرائيل، ومع تنامي غضب الإسلاميين من حروب إسرائيل ضد العرب، والإبادة العرقية للفلسطينيين، والدمار المتكرر للبنان؛ سعىٰ الصهاينة لإقناع الأمريكيين بأن الغضب الإسلامي ضد الأمركة لا ينبع من دعمهم غير المشروط والمستمر والواسع لإسرائيل؛ بل بسبب عقيدة الجهاد الإسلامية، والتي -كما يرىٰ بعض الصهاينة- تدعو إلىٰ حرب متواصلة ضد جميع الكفار[٢]، بمعنىٰ آخر، إذا

---

(1) Lewis, “The New Anti-Semitism.”

(٢) استندت بعض المجتمعات الإسلامية إلىٰ هذا التفسير للجهاد، خاصة في فترة العصور الوسطىٰ، عند شنّ الحروب ضد الدول غير الإسلامية. وهذا لم يمنع فترات الهدنة الطويلة بين الدول الإسلامية وغير الإسلامية. لكن علىٰ مدىٰ القرنين الماضيين، لجأ المسلمون إلىٰ الجهاد بشكل -شبه حصري- في حروب دفاعية، عند مقاومة احتلال القوىٰ الغربية لأراضيهم.

عبّر الإسلاميون عن غضبهم من الولايات المتحدة، فليس ذلك بسبب سياساتها، بل لأنها مسيحية، ولهذه الحجة العديد من الأنصار في صفوف المسيحيين البروتستانت في الولايات المتحدة.

يسعىٰ التفسير الثاني لكراهية المسلمين المتزايدة تجاه الولايات المتحدة لجعلها صورة من صور «صراع الحضارات»؛ ويحاجج برنارد لويس بأن الغرب يستثير «غضبًا» عميقًا بين المسلمين؛ لأنه قوّض حضارتهم التي كانت عظيمة فيما مضىٰ، فقد احتلّ مجتمعاتهم ومنح حقوقًا متساوية للأقليات غير المسلمة، والآن يجتذب شبابهم ونسائهم بسحر الحريات الغربية، ويخلص لويس إلىٰ أنه من الطبيعي «أن يُوجَّه هذا الغضب في المقام الأول ضد العدو الأقدم الذي تعود جذور الصراع معه إلىٰ ألف عام، وأن يستمد قوته من المعتقدات والولاءات القديمة»[1]، وما لن يفسّره برنارد لويس هو السبب الذي جعل المسلمين يوجهون غضبهم بشكل حصري -تقريبًا- إلىٰ الولايات المتحدة -التي لم يكن لها أي صلة بالاحتلال الغربي في الدول الإسلامية قبل الحرب العالمية الثانية-، أو لماذا حظيت الولايات المتحدة بقدر كبير من القبول وافتراض حسن النية في الشرق الأوسط حتىٰ الخمسينيات من القرن الماضي. وفي أوائل التسعينيات، جادل صمويل هنتنغتون بأن المجتمعات الإسلامية وجّهت عدائها للولايات المتحدة؛ لأنها تجسّد الحرية والديمقراطية والمساواة وحقوق الإنسان، وهي قيم معاكسة لروح الإسلام[2]، لقد كان الهدف الرئيسي لأطروحة صدام الحضارات -من خلال تركيز الانتباه علىٰ الصراع المباشر والأبدي بين الغرب والإسلام- تبرئة إسرائيل من العمل كمحرك رئيسي لهذا الصراع؛ وهذا يفسّر -إلىٰ حد كبير- الرواج الهائل الذي حققته هذه الأطروحة في الغرب، خاصة منذ هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فالنجاح الصهيوني في جذب دعم الأمريكيين يدين بالكثير

(1) Lewis, "The Roots of Muslim Rage."

(2) Huntington, *The Clash of Civilizations*.

لتاريخهم المماثل لحركات الاحتلال الاستيطاني. كتب لاري بورتيز (Larry Portis): «يتضمن فهم الولايات المتحدة -في جزء كبير منه- للصراع الإسرائيلي الفلسطيني انعكاسًا لصورة الولايات المتحدة نفسها، وهي الصورة التي أُسقطت أولًا علىٰ المستوطنات الصهيونية، ثم علىٰ دولة إسرائيل»[1]، وهذه المتوازيات تستحضر الأساطير المقدسة -المتجذرة في روايات الفتح التوراتية- والتي استمدت منها كلتا المؤسستين الاحتلاليتين الموافقة الإلهية والإلهام، فقد سعىٰ المحتلون البريطانيون واليهود إلىٰ إضفاء الشرعية علىٰ أعمالهم من خلال الادّعاء بأنهم يسيرون في طريق العبرانيين «المختارين من الإله» الذين دخلوا كنعان أولًا؛ وبما أن يهوه -في روايات الفتح التوراتية- وجّه حملة العبرانيين لطرد وإبادة الكنعانيين القدماء، فإن المحتلين البريطانيين في أمريكا الشمالية والمستعمرين اليهود في فلسطين؛ يمكنهم أيضًا أن يلقوا بالسكان الأصليين في «البرية» بدم بارد.

لم يتوان الصهاينة أبدًا عن استغلال الفرص لكسب الحلفاء، فقد لفتوا الانتباه -بشكل متكرر- إلىٰ تاريخ المستعمرات الأمريكية، فكتب الصهاينة الأوائل -خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي- مقالات عديدة للصحف الأمريكية الكبرىٰ تصف «الرواد» الصهاينة بأنهم النسخة اليهودية من «المستوطنين الشجعان والمتدينين» في أمريكا[2]، وفي مقال ظهر في نيويورك تايمز في يونيو ١٩٢٢، كتب برنارد روزنبلات (Bernard Rosenblatt) -الممثل الأمريكي في اللجنة التنفيذية الصهيونية- أن «الحجاج اليهود . . . يبنون يهودا الجديدة؛ تمامًا مثلما بنىٰ البيوريتان «إنجلترا الجديدة» قبل ثلاثمائة عام؛ هؤلاء المهاجرون إلىٰ فلسطين كانوا في الواقع من اليهود البيوريتان: فما يهودا [مستعمرة يهودية في

---

(1) Portis, “Zionism and the United States.”

(2) Davidson, “Christian Zionism.” Some of the quotes in this paragraph are from the original article in *New York Times*.

فلسطين] والمستعمرات الأخرىٰ سوىٰ رموز النهضة العبرية؛ إنها بمثابة ولايات جيمس تاون وبليموث في بيت إسرائيل الجديد»، إن المستوطنين اليهود هم مثل «أتباع دانيال بون (Daniel Boone) الذي فتح الغرب للمستوطنين الأمريكيين»، حين كانوا «يواجهون مخاطر الحرب الهندية».

ورغم أوجه الشبه بين المستوطنين الصهاينة والأمريكيين الأوائل، إلا أنهما ليستا متطابقين، فلم تعمل الأمراض لصالح الصهاينة وتساعدهم في مهمتهم الاحتلالية، وقد برز مشروع الصهاينة الاستعماري في عصر أقل «بربرية»، وفي وقت كان «الضمير» الغربي أقل حماسًا لدعم إبادة السكان الأصليين، بل كانت حركات التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا -في هذا الوقت تقريبًا- تكتسب زخمًا أيضًا، كما أصبح الاتحاد السوفيتي -بعد الحرب العالمية الثانية- بمثابة قيد إضافي علىٰ جشع القوىٰ الغربية. كل هذا جعل من غير الملائم الاستمرار في ارتكاب التطهير العرقي علىٰ مرأىٰ ومسمع من التاريخ. لقد رأىٰ المستعمرون اليهود -مثل كل المستوطنين البيض من قبلهم- أن الفلسطينيين الذين سعوا إلىٰ تهجيرهم لم يكونوا سوىٰ مجموعة من البدو الرعاع المتوحشين، الذين يقفون عائقًا أمام قطار الحضارة، ومع ذلك، كانت هناك مخاوف من أن التطهير العرقي لن يُستقبل بشكل جيد لدىٰ القوىٰ الغربية، التي كانت علىٰ مشارف فجر الحقبة الجديدة لإنهاء الاستعمار. كما فرضت المصلحة الذاتية قيودًا علىٰ قدرة الصهاينة علىٰ التطبيق العلني للغاية لخطط التطهير العرقي؛ لأنه سيتعين علىٰ اليهود حينها -وكذلك دولة إسرائيل الجديدة- أن يكفّوا عن تقريع الغرب بخطيئة الهولوكوست إذا شاركوا علانية -بعد نجاتهم بوقت قصير- في مذابح وطرد جماعي للفلسطينيين، علىٰ الأقل، سيكون من غير اللائق أن يظهر الناجون من الهولوكوست أمام العالم كمرتكبي جرائم التطهير العرقي، ومع ذلك فلم يكن هناك مفر للصهاينة من التطهير العرقي؛ فقد اعتمد مشروعهم لإنشاء دولة يهودية نقيّة عرقيًا -بشكل جذري- علىٰ إجلاء الفلسطينيين من أرضهم، ومن أجل تفادي اللوم والعار الذي يلحق مرتكبي هذه الجريمة؛ استخدم الصهاينة آلتهم الإعلامية

لإنكارها بقوة؛ وهكذا عُمِّمَت الأسطورة -وسرعان ما أُثبِتت علىٰ أنها «حقيقة» في الروايات الغربية عن إنشاء إسرائيل- التي تقول بأن الفلسطينيين قد تركوا منازلهم بمحض إرادتهم، بناءً علىٰ إلحاح القادة العرب، وذلك حتىٰ لا يقعوا بين الجيوش العربية المتقدمة ومراكز التجمعات اليهودية؛ ونظرًا لأنه لم يكن للفلسطينيين -أو المتعاطفين معهم- أدنىٰ وصول إلىٰ وسائل الإعلام الغربية، فقد كان من السهل نسبيًا علىٰ الصهاينة التأكد من أن الجمهور الغربي سيسمع فقط روايتهم للأحداث؛ تلك الرواية التي تبرئ إسرائيل من أي تهمة تجاه الفلسطينيين في إجلائهم عن أرضهم؛ فهم -ببساطة- قد جلبوا هذا المصير علىٰ أنفسهم.

أظهرت إسرائيل انحطاطًا أخلاقيًا وقانونيًّا مرةً أخرىٰ بحرمان الفلسطينيين من حق العودة؛ ومع تأكيد الإسرائيليون بكل قوة أنهم لم يشاركوا في تطهير عرقي؛ إلا أنهم كانوا مصممين أيضًا علىٰ ضمان نفس النتيجة من خلال منع اللاجئين الفلسطينيين من العودة إلىٰ ديارهم، فردّ الإسرائيليون علىٰ هذه التهمة بالقول أن السماح للفلسطينيين بالعودة يعرّض أمنهم للخطر؛ لأنهم سيستأنفون حربهم من أجل تدمير الدولة اليهودية من داخل حدودها.

علىٰ الرغم من كل مواردها وبراعتها الإعلامية، لم تستطع إسرائيل عزل نفسها تمامًا عن أصولها الاحتلالية الاستيطانية؛ ولم يكفّ الفلسطينيون والعرب والمسلمون -برغم كبت أصواتهم- عن تذكير العالم بهذه الوقائع المشينة، والأهم من ذلك أن إسرائيل لم يكن لديها الخيار في ترك ماضيها وبدء حياتها كدولة طبيعية، فلا يمكن فصل حاضر إسرائيل عن ماضيها، نعم، قد ينسىٰ المشاهدون الغربيون الطابع الاحتلالي لإسرائيل ويتعاطفون معها، بل ويشعرون بالرضا عنها، لكن الفلسطينيين والعرب والمسلمين، بل العالم الثالث قاطبة سوف يتخذون وجهة نظر معاكسة، وسوف يقاومون إسرائيل، ويرفضونها باعتبارها كيانًا محتلًا، ويطالبون بإعادة فلسطين إلىٰ أصحابها الشرعيين (الفلسطينيين). لا يمكن لإسرائيل -ببساطة- أن تترك ماضيها وراءها؛ وإن الأحداث الجارية -الغارات، الأعمال

الانتقامية، التوترات والحروب في الشرق الأوسط- ستستمر في طرح علامات استفهام كبرىٰ وطلب تفسيرات، وستواصل الدول الإسلامية مواجهة إسرائيل والغرب في المحافل العالمية بمطالب إنصاف الفلسطينيين، وقد بدأ الفلسطينيون والعرب والمسلمون -الذين انضم إليهم المتعاطفون معهم في الغرب- تدريجيًا باستخدام العلم لتحدّي هيمنة الرواية الصهيونية في الخطاب الغربي، وسيتعين علىٰ الصهاينة إنتاج وإعادة إنتاج أساطير جديدة -باستمرار- حول إنشاء إسرائيل لمواجهة تزايد البحوث العلمية وضغوط الواقع التي تفنّد روايتهم.

يمكن للولايات المتحدة دفن ماضيها الاحتلالي بالأساطير؛ لأنه لم يبق أحد من ضحاياها الآن، لكن إسرائيل لن تتمتع بهذا الامتياز. لم تستطع إسرائيل -ولو لبرهة- الكفّ عن الدفاع عن ماضيها وحاضرها، الذي بدا منذ ١٩٦٧ مثل ماضيها، وعلىٰ الصهاينة مواصلة تأكيد حقوقهم في فلسطين، ولأن أسطورة واحدة لن تكفي، فيجب عليهم صنع طوفان من الأساطير، بإنتاج أساطير جديدة عندما يظهر فشل الأساطير القديمة، وإعادة إحياء الأساطير القديمة بأشكال جديدة من التلفيقات، أو مع تحوير جديد في منطق التحريف. إن قدر الصهاينة أن يستمروا -بقلق شديد- في شرح حقوقهم الإلهية وارتباطهم التاريخي بفلسطين، وقد واصلوا -دون كلل- حشد الأدلة من التوراة، والتلمود، وعلم الآثار، وعلم الوراثة؛ لإثبات هذه الروابط، ويتابعون صياغة استدلالات داروينية اجتماعية جديدة، لإثبات حقهم في فلسطين، عبر تذكير العالم -دائمًا- بإنجازات إسرائيل العسكرية والاقتصادية والسياسية والعلمية، كما يشدّدون بقوة بشأن مزاعم دفاع إسرائيل عن الغرب، ومدىٰ وقوفها -وحدها- أمام التطرف العربي، أو الأصولية الإسلامية، أو الإرهاب الإسلامي، ولتحول بينه وبين تعطيل المصالح الغربية، وفي الآن نفسه، يحشد الصهاينة التعاطف الغربي بتقديم أنفسهم بوصفهم ضحايا، ومن خلال تصوير فرادة المخاطر التي تتعرّض لها إسرائيل.

وفوق كل هذا الإسراف في الأساطير الصهيونية، ترمي إحداها للنأي بإسرائيل عن أي لوم أو انتقاد، وقد سعىٰ الصهاينة -ونجحوا- في المطالبة بأن يلعب المستعمرون اليهود -الرواد الغربيون الجدد في العالم العربي- «دور الضحية»، ولم يقتصر الأمر علىٰ أن اليهود ذاقوا الأمرين علىٰ أيدي النازيين، بل حتىٰ بعد نجاتهم أحاط الفلسطينيون والعرب بدولتهم الصغيرة وحاصروها وعزموا علىٰ تدمير دولتهم وإلقائهم في البحر. لقد سارعت الآلة الصهيونية لتصوير ضحاياها الفلسطينيين علىٰ أنهم جلاديهم الجدد، فالآن صار الفلسطينيون -وحلفاؤهم المسلمون- هم أعداء السامية الجدد.

سيكون هذا هو الدفاع الأكثر فعالية لإسرائيل، والغطاء المثالي لمشروعها الاحتلالي. لقد أثبت الصهاينة أنهم خبراء في قلب الحقائق، حيث برعوا في تصوير أنفسهم باعتبارهم ضحايا التعنت العربي والحروب العربية والإرهاب، وأقنعوا العديد من الأوروبيين -ومعظم الأمريكيين- بأن حياتهم في خطر دائم من الهجمات العربية، وأن «أحياءهم» السلميّة في الضفة الغربية محاصرة بالسكان الأصليين المفترسين، وبمجرد اكتمال هذا التزييف للحقائق، كان بإمكانهم المطالبة بالاتصال الدائم مع ماضيهم كضحايا لمعاداة السامية.

لقد نجحت إسرائيل في عزل نفسها عن النقد؛ بتكرار القول بأنها دولة ضحايا الهولوكوست؛ كما استخدمت شعار «لن يتكرر مرةً أخرىٰ» لإسكات منتقديها، ومن ثمّ فإن انتقاد إسرائيل هو معاداة مقنَّعة للسامية «وإن لم يكن عن قصد»، لذا يجب منع انتقاد إسرائيل؛ وإلا سيؤدي هذا إلىٰ هولوكوست جديد. إنها -بالتأكيد- إحدىٰ مفارقات التاريخ المُحزِنة، أن تختبئ إسرائيل خلف ستار الهولوكوست، في حين أن «الناجين» من الهولوكوست يستخدمون مأساة أسلافهم لغرض الإفلات من العقاب علىٰ جرائمهم.

الفصل السادس

مسيانية علمانية (A Secular Messianism)

«إن روح العصر تقترب أكثر فأكثر من فرض الهيمنة اليهودية علىٰ الحياة الواقعية».
موسىٰ هيس (Moses Hess)، ١٨٦٢[1]

«قد نحتضر اليوم، لكننا غدًا سنحيا من جديد؛ قد نكون اليوم في أرض غريبة، ولكن غدًا نسكن في أرض آبائنا؛ قد نتحدث اليوم لغات غريبة، لكن غدا سنتحدث العبرية».
ليعيزر بن يهودا (Eliezer Ben-Yehudah)، ١٨٨٠[2]

«يجب أن نبحث عن وطن بكل قلوبنا وأرواحنا ووجداننا».
بيريتز سمولينسكين (Peretz Smolenskin)، ١٨٨١[3]

---

(1) Hertzberg, The Zionist Idea, 39.

(٢) أدىٰ ليعيزر بن يهودا (Eliezer Ben-Yehudah) (١٨٥٨-١٩٢٣) دورًا رائدًا في إحياء اللغة العبرية، لقد كان «أول من تبنّىٰ، وجسد في مهمة كبرىٰ الطابع الـ«الخلاصي» للصهيونية، أي فكرة أنه يجب علىٰ اليهود تتويج تاريخهم الفريد بأن يصبحوا أمة حديثة»:

Hertzberg, The Zionist Idea, 159.

(٣) في البداية، اعتنق بيريتز سمولينسكين (Peretz Smolenskin) (١٨٤٢-١٨٨٥) فكرة التنوير اليهودي، ورأىٰ أن اليهود «أمة روحية»؛ لكنه فيما بعد رفض التنوير والاندماج، وطور عقيدة قومية، وجادل بضرورة الحفاظ علىٰ اليهود وهويتهم بالعودة إلىٰ أرض إسرائيل: المرجع السابق، ص١٤٥.

«إن فلسطين -أولًا وقبل كل شيء- ليست ملجأً ليهود أوروبا الشرقية، بل تجسيد لإحساس متجدد بالتضامن الوطني»
ألبرت أينشتاين (Albert Einstein)، **١٩٢١**[١]

كان للصهيونية آباء كُثُر، حتىٰ قبل أن تؤدي نجاحاتها إلىٰ ظهور آباء جدد، ولطالما فَسّرت الروايةُ الصهيونية السائدة قيامَ إسرائيل علىٰ أنه رد فعل علىٰ معاداة السامية، وترىٰ إحدىٰ صور هذا الادعاء -في مناقضة للتسلسل التاريخي- أن الصهيونية كانت رد فعل علىٰ الهولوكوست، ذلك المظهر الأفظع من مظاهر معاداة الغرب للسامية.

حبكة هذه الرواية الصهيونية بسيطة: بدأ رجوع معاداة السامية في أوروبا الغربية -في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر- يثير قلق بعض اليهود؛ لأن سياسة الاندماج فشلت، وكان القليل من اليهود ينتقدون سياسة الاندماج علىٰ استحياء، حيث زعموا أن الاندماج لن ينجح أبدًا؛ لكون المعادين للسامية يكرهون العرق اليهودي أكثر من كراهيتهم لدينهم، وفي كلمة مدوية لموسىٰ هيس خلص إلىٰ أن الألمان «لا يكرهون معتقدات اليهود الخاصة أكثر من كراهيتهم لأنوفهم الغريبة»[٢]، واستنتج هؤلاء المفكرون اليهود أن الدولة اليهودية هي -فقط- التي يمكنها توفير الأمن لليهود، ويجب انفصال اليهود عن الأغيار الوثنيين؛ وإن تجمُّع كل اليهود في دولة يهودية هو -وحده- ما سينهي معاداة السامية.

تواجه هذه السردية مشكلة في البداية: إنها تفشل في تفسير التعلّق الصهيوني بفلسطين، ولو كان الهدف الصهيوني هو الفصل بين اليهود والأغيار، لكان الصهاينة قد اختاروا المنطقة المقترحة للدولة اليهودية بناء علىٰ سياسة نفعية

---

(1) Simon, About Zionism, quoted in Brenner, 51 Documents, 29.

(2) Hess, Rome and Jerusalem, 58.

(pragmatic) بحتة، بينما في الواقع أكّد ليو بينسكر (Leo Pinsker) في عام ١٨٨٢ علىٰ أن «وجوب العناية في اختيار الأرض التي ستكون وطنًا دائمًا، وتلبي جميع المتطلبات؛ وأن يعرض هذا الاختيار علىٰ لجنة من الخبراء المختارين من زعمائنا»[١]، ولسَهُل الاتفاق علىٰ المتطلبات الإقليمية للدولة اليهودية المقترحة؛ فهناك ثلاثة متطلبات تتبادر إلىٰ الذهن بسرعة: سعة المنطقة، بما يكفي لاستيعاب عدة ملايين من اليهود؛ وتمتعها بدعم قوة عظمىٰ واحدة أو أكثر؛ وأن لا يثير الاستيلاء علىٰ هذه الأرض معارضة كبيرة من أصحابها الحاليين وجيرانهم.

لم تستوف فلسطين أيًا من هذه الشروط، ففي عام ١٩٥٢، اعترف حاييم جرينبيرج (Hayim Greenberg) -وهو مفكر يهودي من نيويورك- بأن «الأرض التي نسميها أرض إسرائيل ليست هي الأفضل [لتكوين دولة جديدة]، وليست الخيار الأنسب من الناحية السياسية، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا لخططنا لهذا التاريخ بعقلانية أكثر، ولاخترنا بلدة أخرىٰ في قارة أخرىٰ تكون هي الخيار الأنسب والأسهل لبناء لإسرائيل؛ ولكن هكذا جرت الأمور»[٢]، ومع ذلك يجب ألا ننسىٰ أن لهذا الاختيار أسبابًا وجيهة؛ فبالنسبة للاستراتيجيين الصهاينة: كانت فلسطين خيارًا عقلانيًا.

كانت فلسطين أصغر من أن تحقق الطموحات الصهيونية لإيواء كل أو معظم يهود العالم، ففي عام ١٩١٤، كان هناك ١٣,٤ مليون يهودي في العالم، منهم ما يزيد قليلًا عن تسعة ملايين يعيشون في أوروبا[٣]، وفي هذا الوقت، كانت الأراضي الفلسطينية التي ستصبح تحت الانتداب البريطاني تضم ٧٣١٠٠٠ عربي و٦٠٠٠٠ يهودي[٤]، أي بعبارة أخرىٰ: كان تعداد اليهود في العالم في ذلك

---

(1) Hertzberg, The Zionist Idea, 197.

(2) Kessner, The Other New York, 39.

(3) Jewish Virtual Library, World Jewish Population.

(4) ProCon.Org, Israeli-Palestinian.

الوقت أكثر بثمانية عشر ضعفًا من سكان فلسطين العرب؛ وبالتكنولوجيا المتاحة في ذلك الوقت، لم يكن من الممكن أن يتوقع الصهاينة أن تزود فلسطين أكثر من جزء صغير من اليهود في العالم بالمياه، وقد يعترض أحدهم بأن الصهاينة كانت لديهم أفكار أكثر توسعية لما يقصدونه بفلسطين، وبالطبع، قد تكون فلسطين الأكثر اتساعًا -والتي يمكن أن تضاهي حدود مملكة داود الأسطورية- كبيرة بما يكفي لاستيعاب يهود العالم[١]، ألا أن تأمين فلسطين الكبرىٰ التي يطمح إليها الصهاينة سيكون أكثر صعوبة.

أعربت بريطانيا وفرنسا -في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر- عن بعض الاهتمام بالصهيونية، لكن الظروف تغيّرت منذ ذلك الحين، وفي هذه الفترة المبكرة -عندما سعت كلتا القوتين للسيطرة علىٰ المحيط الهندي- ساهمت احتمالية إقامة دولة يهودية في فلسطين في الإغراء بتأمين جسر بري يربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر؛ لكن في عام ١٨١٥، حسمت هزيمة نابليون في واترلو هذا التنافس لصالح بريطانيا، وعندما بدأت مصر الحديثة -في عهد محمد علي باشا- بتحدّي الإمبراطورية العثمانية خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر، اقترح بعض القادة البريطانيين إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وهذا بدوره سيمنع المصريين من تهديد الإمبراطورية العثمانية المترنّحة، لكن اختفىٰ هذا التهديد -أيضًا- في أوائل أربعينيات القرن التاسع عشر عندما قامت القوىٰ الأوروبية بتخفيض مساحة مصر. وعندما احتلت بريطانيا مصر في عام ١٨٨٢ كانت بريطانيا في طريقها لتصبح القوة الغربية العظمىٰ المهيمنة علىٰ الشرق الأوسط، كما كان لديها قاعدة عسكرية في عدن، وكانت توفر الحماية للقبائل العربية علىٰ الشواطئ الشرقية للجزيرة العربية، وكان نفوذها علىٰ النظام الملكي

---

(١) انظر للاطلاع علىٰ الأراضي التي تطالب بها المنظمة الصهيونية العالمية، ويشمل ذلك -بالإضافة إلىٰ الانتداب البريطاني علىٰ فلسطين- أجزاء من سيناء، وجنوب لبنان، وجزء من سوريا، وكل الأردن غربي عمان: Laqueur (A History of Zionism, 85).

الإيراني يتزايد، ومن الصعب -في ظل هذه الظروف- تخيّل كيف أن إنشاء دولة يهودية في فلسطين سيخدم أي مصالح بريطانية في المنطقة، بل علىٰ العكس من ذلك، فإن من المؤكد أن قيام دولة يهودية في فلسطين سيحدث أضرارًا جسيمة ودائمة لمكانة البريطانيين في العالم الإسلامي برمّته.

رأىٰ الصهاينة أن الحكّام العثمانيين ضعفاء ومخادعون، ويمكن لحفنة من الأموال أن تقنعهم بالتخلي عن فلسطين، وفي عام ١٨٩٦، سافر تيودور هرتزل إلىٰ إسطنبول لمقابلة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وكان هرتزل واثقًا من قدرته علىٰ التأثير علىٰ السلطان العثماني بعرض مساعدته في ديونه الخارجية؛ لكن السلطان خيّب آمال الأب المؤسس للصهيونية؛ لقد رفض مقابلة هرتزل، وبدلًا عن ذلك أرسل له رسالة مفادها أن علىٰ الصهاينة الانتباه إلىٰ أن «شعبي قد بنىٰ هذه الإمبراطورية بالقتال، وهذه الأرض لا تزال مخضبة بدمائنا، وإننا مستعدون لأن نغمرها مرة أخرىٰ بدمائنا قبل أن نسمح بانتزاعها منا . . . وفّروا ملايينكم»[١] كان السلطان العثماني يعرف -أفضل من غيره- أن رعاياه المسلمين سينفرون من إبرام صفقات مع الصهاينة حول مصير فلسطين.

فلماذا إذن أصرّ معظم الصهاينة علىٰ اختيار فلسطين؟ علىٰ الرغم من أن الصهاينة -من وقت لآخر- كانوا ينظرون في مقترحات إقامة دولة يهودية في مناطق أخرىٰ، إلا أنهم رأوا هذه البدائل مجرد ترتيبات مؤقتة، وقد استكشفوا هذه البدائل فقط لكونها وسيلة لتحفيز الاهتمام اليهودي بالصهيونية، بينما كانوا يعملون علىٰ مخططاتهم لتأمين فلسطين، فقد أيّد الإجماع -خاصة بين الصهاينة من أوروبا الشرقية- بقوة إنشاء دولة يهودية في فلسطين[٢]، وعندما دعا هرتزل

---

(1) Morris, Righteous Victims, 41; Laqueur, A History of Zionism, 100-101, 115-19.

(٢) ربما كان ليو بينسكر (Leo Pinsker) هو الزعيم الصهيوني البارز الوحيد الذي حاجج بأن «هدف مساعينا الحالية يجب ألا يكون «الأرض المقدسة»، بل أرض خاصة بنا»:

shimoni, The Zionist Ideology, 35.

كما كان تيودور هرتزل أيضًا أقل تشددًا في التزامه بأرض إسرائيل.

إلىٰ المؤتمر الصهيوني السادس في أغسطس ١٩٠٣ -بعد فظائع مذبحة كيشينيف (Kishinev) في روسيا في وقت سابق من نفس العام- للنظر في عرض أوغندا، واجه معارضة شديدة من المندوبين الروس؛ ورغم موافقة المؤتمر مبدئيًا -رغم الاعتراضات القوية- علىٰ اقتراح بسيط لإرسال وفد لدراسة العرض الأوغندي، إلا أنه بعد عامين -عندما طُرِح هذا العرض في المؤتمر الصهيوني السابع- رُفض بشكل حاسم، وفي ذلك الوقت، قال تيودور هرتزل الحائر لحاييم وايزمان: «أنا لا أفهم! كان الحبل -ولا يزال- ملفوفًا حول أعناقنا، ومع ذلك نقول «لا»»[١].

لم تؤيد سوىٰ أقلية صغيرة من المندوبين في المؤتمر السادس الموقف القائل بأن فلسطين كانت بعيدة المنال وأقل شأنًا من المواقع البديلة المقترحة لإنشاء دولة يهودية[٢]، وانفصلت هذه الأقلية بقيادة إسرائيل زانجويل (Israel Zangwill) عن التيار الرئيسي للصهاينة لمتابعة ما أصبح يعرف باسم «الصهيونية الإقليمية»، وفي عام ١٩١٢ حصلت الأقلية علىٰ التزام من البرتغال ببناء دولتهم اليهودية في أنغولا؛ لكن بسبب نقص الدعم من التيار الصهيوني السائد، لم يصل هذا المشروع إلىٰ شيء.

من الواضح أن الصهاينة قرروا مبكرًا: إما أن تكون فلسطين هي أرض إسرائيل، أو لا تكون إسرائيل من الأساس؛ ويبدو هذا الموقف متناقضًا من حركة ادّعت أن هدفها الأول والأخير هو إنقاذ يهود أوروبا من المد المتصاعد لمعاداة السامية، وربما لا يمكن الدفاع عنه. لا شك أن إنقاذ أرواح اليهود كان أمرًا مهمًا للصهاينة، لكن لم يكن ذلك كل طموحاتهم، بل إن إنشاء ملاذ يهودي ما هو إلا جزء من رؤية أكبر؛ تهدف لوضع اليهود كلاعبين تاريخيين رئيسيين.



(1) Hertzberg, The Zionist Idea, 579.

(2) Shimoni, The Zionist Ideology, 98-99, 335.

جادل الصهاينة بأن اختيارهم لفلسطين نابع من التوق اليهودي الدائم للقدس؛ كتب مايكل برينر (Michael Brenner): «إن علاقتهم بأرض أجدادهم، والتي استمرت علىٰ مرّ القرون في دعواتهم وقصائدهم وحديثهم وخيالهم، هي ما جعل الصهاينة -بمختلف أطيافهم- يتشبثون بمطالبة اليهود بأراضي فلسطين»[1]، وأكّد تيودور هرتزل أيضًا علىٰ هذه الصلة اليهودية بما سماه «بيتنا التاريخي الذي لا يُنسىٰ أبدًا»؛ فكتب أن «مجرد اسم فلسطين سيبعث في شعبنا قوة لا تضاهىٰ»[2]، ونحن هنا أمام ادعاءين مختلفين؛ من ناحية يؤكد مايكل برينر مركزية فلسطين في التجربة اليهودية، لدرجة أن الصهاينة لم يتمكنوا من اختيار أي منطقة أخرىٰ، ومن ناحية أخرىٰ نرىٰ أن كل الاعتبارات العقلانية التي تجعل فلسطين غير مناسبة للدولة اليهودية طغىٰ عليها التوق اليهودي الذي لا يقاوم إلىٰ جبل صهيون. باختصار: أكد الصهاينة مرارًا أن قيام دولة خاصة بهم هو الواجب اليهودي؛ لأن هذا وحده هو الذي سيؤمن حياة اليهود، ومع ذلك، كانوا مصممين علىٰ إنشاء دولتهم في فلسطين، حتىٰ لو كان ذلك يعرّض نجاح حركتهم ودولتهم -بمجرد إنشائها- للعديد من المخاطر؛ إننا أمام نمط من التفكير أقل ما يمكن أن يقال عنه إنه غارق في السذاجة.

يطرح تيودور هرتزل ادعاءً مختلفًا؛ وهو مستعد تمامًا لفحص مزايا إقامة الدولة اليهودية في الأرجنتين مثلا؛ التي هي من أكثر الدول خصوبة في العالم، وواسعة، وقليلة السكان، وتتمتع بمناخ معتدل، يضاف إلىٰ ذلك اعتقاد الصهاينة أنهم يقدمون صفقة رابحة للأرجنتينيين مقابل التنازل عن جزء من أراضيهم لهم[3]، ولم تقدم فلسطين أيًا من هذه المزايا، لكنها كانت تمتلك قوة أسطورية، أو هكذا ادّعىٰ الصهاينة. يقرّ هرتزل -ضمنيًا- بأن الأرجنتين -علىٰ الرغم من كل

---

(1) Brenner, Zionism, 113.

(2) Herzl, The Jewish State, 12.

(3) Ibid., 12.

مزاياها- لم تكن لتجذب سوىٰ القليل من المستعمرين اليهود؛ لكن يبدو أن هذا القلق يتناقض مع الرواية الصهيونية، وإذا كانت معاداة السامية تمثل تهديدًا خطيرًا لليهود في أوروبا، فمن الغريب أن يرفضوا عرض الملاذ الآمن اليهودي بمزاياه الكثيرة، ومع ذلك، فإن السؤال الأكثر صلة بالموضوع هو ما إذا كان هرتزل محقًّا في زعمه أن فلسطين ستجذب اليهود بـ «قوة لا تضاهىٰ».

علاوة علىٰ ذلك، لا يدعم التاريخ وجود توق يهودي «لا يقاوم» لفلسطين، وتساءل أبراهام ليون (Abraham Leon) في عام ١٩٤٦ «لماذا خلال الألفي سنة الماضية لم يحاول اليهود العودة إلىٰ هذا البلد؟ لماذا كان من الضروري الانتظار حتىٰ نهاية القرن التاسع عشر حتىٰ ينجح هرتزل في إقناعهم بهذه الضرورة؟ لماذا تم التعامل مع كل أسلاف هرتزل -مثل شبتاي تسفي (Sabbatai Zebi)- علىٰ أنهم مُخَلِّصون مزيفون؟[١] لماذا تعرض أتباع تسفي للاضطهاد الشديد من قبل اليهودية الأرثوذكسية؟»[٢]. لقد طوّر اليهود سرديات لاهوتية متعلقة بتلك الألفية التي مضت لتفسير عدم سعيهم للعودة إلىٰ فلسطين، مع صلواتهم لأجل العودة يوميًا؛ ببساطة: كانت هذه تدابير الله، وعندما حان وقت عودتهم، أرسل الله مخلّص حقيقي ليعيد اليهود إلىٰ صهيون.

الأمر الأكثر إثارة للقلق بالنسبة لأطروحة التوق اليهودي إلىٰ جبل صهيون هو وجود عدد كبير من السكان اليهود خارج فلسطين قبل وقت طويل من تدمير

---

(١) المخلّص (Messiah) أو الماشيح في اليهودية هو إنسان مثالي من نسل الملك داود (النبي داود عليه السلام)، يبشر بنهاية العالم ويخلص الشعب اليهودي من ويلاته. والأحداث المتوقعة عند وصول الماشيح حسب اليهودية تشابه أحداث يوم القيامة في الإسلام والمسيحية، وتتشابه النبوءات التي يعتقد بتحققها اليهود مع بعض الأحداث المتوقع حصولها بقدوم المهدي في الإسلام، مع ملاحظة أن مرويات المهدي قد ضعفها عدد من أهل العلم. كما أن انتظار مجيء الماشيح هو أحد مبادئ الإيمان اليهودي حسب «قائمة المبادئ الثلاثة عشر» التي ألفها موسىٰ بن ميمون، وهو من كبار الحاخامات اليهود في العصور الوسطىٰ. (المترجم).

(2) Leon, The Jewish Question.

الهيكل الثاني في عام ٧٠م، كتب لويس برانديز (Louis Brandeis): «علىٰ مر القرون، عندما كان التأثير اليهودي أكبر خلال فترة الإمبراطوريات الفارسية واليونانية والرومانية، لم يعش سوىٰ جزء صغير نسبيًا من اليهود في فلسطين؛ ولم يعد إلا جزء صغير من اليهود من بابل عندما أعيد بناء الهيكل»[١]. بالإضافة إلىٰ ذلك، نلاحظ الغياب شبه التام لليهود في فلسطين خلال العصر الإسلامي، حيث ازدهرت المجتمعات اليهودية في كل مركز حضري رئيسي تقريبًا في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وإسبانيا، وفي ثلاثينيات القرن الخامس عشر، كان يعيش في فلسطين خمسة آلاف يهودي فقط عندما كان عدد سكانها ١٥٧ ألفًا، وفي أواخر القرن السابع عشر، تضاءل الوجود اليهودي إلىٰ ألفين من أصل ٢٣٢ ألف نسمة؛ وفي عام ١٨٠٠ كان هناك سبعة آلاف يهودي فقط من أصل ٢٧٥٠٠٠ نسمة[٢]، وفي القرن السابع عشر، احتوت كل من الجزائر وفاس -والعديد من المدن الإسلامية الأخرىٰ- علىٰ عدد أكبر من السكان اليهود مما كان عليه في فلسطين[٣].

لم تحفّز الصهيونية تدفّق اليهود إلىٰ فلسطين حتىٰ بعد إعلانها رسميًا، وفي حين شهدت جهات غربية تدفقًا لليهود قادمين من أوروبا، فقد وصل إلىٰ فلسطين بين عامي ١٨٨٢ و١٩١٤ حوالي ٧٥٠٠٠ يهودي فقط، مقارنة بـ ١,٧ مليون غادروا إلىٰ الولايات المتحدة خلال الفترة نفسها. علاوة علىٰ ذلك، اختار نصف أولئك الذين وصلوا إلىٰ فلسطين موطنًا دائمًا لهم[٤]، ولم تنتشر الهجرة اليهودية

---

(1) Hertzberg, The Zionist Idea, 518.

(2) DellaPergola, Demography in Israel /Palestine.

(3) Bell, Jews in the Early Modern World, 63.

(٤) بين عامي ١٨٨١ و١٩١٤ هاجر ٣٠٠٠٠٠ يهودي أوروبي آخر إلىٰ المملكة المتحدة، و١٠٠,٠٠٠ إلىٰ الأرجنتين، و٨٠,٠٠٠ إلىٰ فرنسا، و٦٠٠٠٠ إلىٰ كندا، و٥٠٠٠٠ إلىٰ جنوب أفريقيا:
Gur Alroey, The mass Jewish migration from Eastern Europe (1881-1914).
والبيانات المتعلقة بالهجرة إلىٰ إسرائيل مأخوذة من: المكتبة الافتراضية اليهودية «السكان اليهود في العالم».

إلىٰ فلسطين إلا في الثلاثينيات من القرن الماضي، بسبب إغلاق الدول الغربية لأبوابها أمام المهاجرين اليهود في العقود السابقة، فلم تجتذب إسرائيل -منذ تأسيسها في عام ١٩٤٨- سوىٰ عدد قليل من المهاجرين من المجتمعات اليهودية المزدهرة في الدول الغربية وفي الفترة برغم الازدهار المتسارع[1]، وكان معظم اليهود الوافدين إلىٰ إسرائيل -ابتداءً من الخمسينيات من القرن الماضي- يتألفون من مهاجرين لأسباب اقتصادية، ممن لم يتمكنوا من الدخول إلىٰ الدول الغربية[2]، ولا يعني هذا أن أرض إسرائيل ليست مكانًا مقدسًا في الخيال الديني اليهودي، أو أن التاريخ الكتابي المتمركز في أرض إسرائيل لا يحتل مكانًا مهمًا في الروح اليهودية؛ لكن يظهر جليًا من الأدلة التاريخية أن الارتباط اليهودي بإسرائيل باعتبارها مركزًا روحيًا لم يترجم إلىٰ قرار بالهجرة «الدينية» إلىٰ إسرائيل، عندما كان لليهود حرية الاختيار بين وجهات أكثر ازدهارًا وأمانًا.

❋ ❋ ❋

تنظر الرواية الرسمية إلىٰ الصهيونية علىٰ أنها قومية الملاذ الأخير، ومشروع إنقاذ أرواح اليهود بإيجاد ملاذ آمن لهم من العواصف المدمرة والمتكررة من معاداة السامية، ولم يهتم الكتّاب الصهاينة -إلا قليلًا- للدور الذي أدته القومية اليهودية -في حد ذاتها- في إطلاق هذه الحركة؛ وهذا ليس مصادفة، فقد كانت

---

(١) كان موسىٰ هيس قد توقّع هذه المشكلة في عام ١٨٦٢ عندما كتب: «حتىٰ بعد إنشاء دولة يهودية، فإن غالبية اليهود الذين يعيشون في الوقت الحاضر في البلدان الغربية المتحضرة سيبقون -بلا شك- حيث هم»:

Hertzberg, The Zionist Idea, 138.

(٢) تنبّأ بعض مؤسسي الصهيونية بهذه الصعوبة؛ ففي عام ١٨٨١ كتب بيريتز سمولينسكين (Peretz Smolenskin): «لن يذهب كل اليهود إلىٰ هناك، فقط أولئك الذين يعانون من الفقر أو الاضطهاد هم الذين سيبحثون عن مكان يهاجرون إليه»:

Hertzberg, The Zionist Idea, 152.

هناك مكاسب سياسية مهمة وراء وصف إسرائيل بأنها ملجأ للناجين من الهولوكوست.

كانت الصهيونية في المقام الأول نتاجًا للنجاحات اليهودية المتزايدة خلال القرن التاسع عشر، أكثر من كونها ثمرة الشعور المتصاعد بالقهر والظلم. خلال العقود التكوينية الأولىٰ اعتمد الفكر الصهيوني -إلىٰ حدٍّ كبير- علىٰ النجاحات المتزايدة للجاليات اليهودية في الغرب والفرص والإغراءات التي أوجدتها لتحفيز اليهود، وترسيخ قوتهم الاجتماعية والاقتصادية المتنامية في دولة يهودية، وقد ظهرت هذه النزعة القومية -بالفعل- في كتابات الطلائع الصهيونية خلال العقود الأولىٰ والمتوسطة من القرن التاسع عشر، ومن السذاجة بمكان تخيّل أن مؤسسي الصهيونية كانوا قلقين بشأن معاداة السامية في وقت كان فيه التمييز القانوني ضد اليهود يختفي بسرعة، وكانوا يتنقلون بسهولة داخل التيارات الرئيسية السائدة في العديد من المجتمعات الغربية.

ساعد النجاح اليهودي خلال القرن التاسع عشر علىٰ غرس هوية يهودية جديدة، تقوم أساسًا علىٰ العرق. بدأ اليهود يرون في نجاحهم تأكيدًا للادعاءات الكتابية بأنهم شعب متميز، كما رأوا في صعودهم السريع والسهل إلىٰ أعلىٰ مستويات المجتمع -في غضون بضعة عقود من رفع القيود القانونية عليهم- دليلًا علىٰ تفوقهم واستثنائيتهم، ومن المفارقات، أنهم عندما خرجوا من المعازل (الغيتوهات ghettoes)، وتخلّوا عن السمات الخارجية المميزة ليهوديتهم، واندمجوا في ثقافات الأمم؛ بدأوا أيضًا في تنمية الشعور بتميزهم العرقي بوصفه يهودًا، وبدأوا أكثر فأكثر في تعريف يهوديتهم بأنها سمة استثنائية، وتمكّنوا من دعمها بسهولة بالروايات الكتابية التي تؤكد أنهم شعبٌ مختار، ونظرًا لأن الاندماج دفع اليهود ببطء إلىٰ التخلّي عن هوياتهم المحلية، فقد سعوا لاستبدالها بهوية شاملة جديدة تؤكد التفوّق العنصري، فربطوا أنفسهم بالعبرانيين، وبـ«التاريخ» القديم الذي يُحتَفىٰ به في كتبهم المقدسة، كما أخذوا ينظرون إلىٰ

اليهود كجنس، وكعائلة واحدة كبيرة ذات سلالة مشتركة تعود إلىٰ موسىٰ وإسحاق وإبراهيم.

يقدم ماكس نورداو (Max Nordau) شهادة بليغة علىٰ الأطروحة المقدَّمة في هذا الفصل، حيث يعزو صعود الصهيونية إلىٰ «الإكراهات الداخلية لليهودية»، بالإضافة إلىٰ «دافِعَيْن أتيا من الخارج» هما: صعود القومية في أوروبا ومعاداة السامية، ويرىٰ نواردو أن «الصهيونية الجديدة» قد تغذّت أولًا «علىٰ الإكراهات الداخلية لليهودية نفسها، من حماسة اليهود المثقفين المعاصرين لتاريخهم وكتابهم، ومن الوعي اليقظ لصفاتهم العرقية، ومن الطموح لإنقاذ الدم القديم، كما أمّلوا أن يضيفوا إلىٰ إنجازات أجدادهم»؛ وقد تشكّلت هذه «الإكراهات الداخلية» وشُحِذت من خلال «مبدأ القومية الذي حكم فكر وشعور أوروبا وسياسة العالم لمدة نصف قرن»؛ لقد ساعدت التيارات القومية المهيمنة في أوروبا اليهود علىٰ «تذكّر من هم وما مكانتهم، ودفعتهم ليشعروا بأنفسهم كشعب منفصل، وأن يطالبوا لأنفسهم بمصير وطني طبيعي»؛ كما يعترف بأن معاداة السامية «ألهمت أيضًا العديد من اليهود المثقفين طريقَ العودة إلىٰ شعوبهم»، ويضيف «ليس صوابًا القول أن الصهيونية ليست سوىٰ «ردة فعل شرسة»، أو محاولة يائسة ضد معاداة السامية»[1].

هذا هو السياق المناسب لفهم الصهيونية، فعندما اكتسب اليهود وعيًا عرقيًّا -بالانتساب إلىٰ سلف قديم وفريد- استطاعوا أن يخلقوا أيضًا المنظمات المتشابكة التي تستند إلىٰ هذا التميُّز وتعزّزه، ويجب أن يُنظر إلىٰ الصهيونية بوصفها امتدادًا لهذا الاتجاه، فقد سعت إلىٰ تجسيد الشعب اليهودي «الفريد» في دولة قومية، وما استخدموه للتعبير عن قوتهم وتعزيزها وحمايتها هي أدوات لا تتوفر إلا للدولة القومية، وفي الوقت نفسه، تغذت هذه النزعات علىٰ القومية الرومانسية التي أعادت رسم خريطة وسط وشرق أوروبا خلال القرن التاسع

(1) Nordau and Gottheil, Zionism and Anti-Semitism, 17, 19, 20.

عشر؛ هذه القومية الرومانسية التي تمجّد الأمة باعتبارها كيانًا عضويًا واحدًا، تجمعه رابطة الدم واللغة، ولا يمكن لهذا الكيان أن يحقق ذاته ويتفاخر بإنجازاته ويثبت ما يتمتع به من فرادة -وبالطبع أن يخلق تاريخه الخاص- إلا من خلال تجسيد نفسه في دولة.

كان لهذه القومية العضوية الجديدة صدىٰ لدىٰ الصهاينة؛ وبكل فخر، زعموا أن اليهودية كانت القومية الأولىٰ، كما أنها أيضا القومية الأكثر ديمومة، بسبب نجاحها في خلق هوية قائمة علىٰ العرق واللغة والأرض و-قبل كل شيء- علىٰ عقيدة الاختيار الإلهي. بدأ هذا «التعريف القومي لليهودي الحديث» في الظهور في أربعينيات القرن التاسع عشر، عندما تنافست الحركات القومية -القائمة علىٰ رابطة الدم واللغة- مع بعضها البعض لتغيير الخريطة السياسية لشرق ووسط أوروبا[١]، وبما أن اليهود لم يمتلكوا أرضًا بعد، فقد تجسدت قوميتهم في «مسيانية مُعَلْمَنَة (secularized messianism)»؛ ومن هنا وضع الصهاينة الفرادة اليهودية -المبنية علىٰ عقيدة الاختيار- ضمن إطار علماني «للعودة» اليهودية إلىٰ صهيون؛ وعلىٰ عكس التقاليد اليهودية، فإنهم بدأوا هذه العودة اعتمادًا علىٰ الجهد البشري بدلًا من انتظار التدخل الإلهي. إنهم يسعون إلىٰ إعادة بناء القوة اليهودية التي ستجسّد «اختيار الإله لهم» و«تفرّدهم» من خلال إقامة دولة يهودية في فلسطين. أراد الصهاينة أن يعبّر اليهود -الذين أعيد تشكيلهم كدولة قومية في فلسطين- عن عقيدة الاختيار الإلهي، لكن ليس ضمن إطار ديني، بل بمعايير الحضارة الغربية؛ وربما بذلك يجسّدون المثل الغربية لعصر التنوير بشكل كامل أكثر من أي أمة غربية[٢]. ربما يجب علىٰ المؤرخين أن يبحثوا عن أعمق دوافع

(1) Hertzberg, The Zionist Idea, 24.

(٢) كتب هرتزبيرج (Hertzberg) [في كتابه]: «الفكرة الصهيونية» (The Zionist Idea, 18-19): «تتفق الصهيونية الحديثة مع الإيمان الكلاسيكي بأن اليهود مختارون لقيادة العالم، وعلىٰ الرغم من بعض الملاحظات التي تشير إلىٰ عكس ذلك، فإن ثقل الرأي المكتسب من الكتابات الدينية الموثوقة وكل الشعور الشعبي اليهودي كان دائمًا علىٰ يقين من أن فرادة اليهودي واختيار الله له سيستمر إلىٰ الأبد».

الصهيونية في هذه القومية الناشئة، وليس في مجرد كونها رد فعل علىٰ معاداة السامية.

لتأكيد هذه الأطروحة، جاءت إحدىٰ أقدم التصريحات اليهودية عن الصهيونية من الولايات المتحدة، حيث عمل اليهود تحت قيود أقل من تلك التي كانت في أوروبا، فقد أسس مردخاي نوح (Mordecai Noah) -اليهودي الأمريكي البارز في عصره- خطته الصهيونية -بصراحة- علىٰ التركيب الديموغرافي والسلطة اليهودية؛ حيث قال في خطاب ألقاه عام ١٨١٨م: «هناك ما يزيد عن سبعة ملايين يهودي، موجودون في جميع أنحاء العالم، ويمتلكون ثروةً ونشاطًا ونفوذًا ومواهب أكثر من أي أمة علىٰ وجه الأرض؛ هؤلاء الملايين سوف يسيرون منتصرين ليعودوا مرة أخرىٰ إلىٰ سوريا، ويتبوؤون مكانتهم بين حكومات العالم»؛ وبحلول عام ١٨٤٤، كان مردخاي واثقًا من أن وقت هذه العودة قد حان، فقد كتب أن اليهود «في أفضل وضع يمكّنهم من استعادة أرض الميعاد، وتنظيم حكومة حرة وليبرالية»(١)، وبعد تخليه عن خطته السابقة التي تعتمد علىٰ الجهود الذاتية اليهودية، فإنه الآن يحثّ اليهود علىٰ الضغط علىٰ القوىٰ الغربية لاستعادة ملكية فلسطين، وعلىٰ عكس الصهاينة اللاحقين، أقرّ مردخاي بأن اليهود -في وقته- «طائفة وليسوا أمّة»؛ ولكن بمجرد عودتنا إلىٰ فلسطين، «سنكون -بلا شك- آمنين وجديرين بأن نتمتع بجميع حقوقنا الوطنية»(٢). كان مردخاي نوح

---

(1) Grose, Israel in the Mind, 14, 20.

في عشرينيات القرن التاسع عشر حاول مردخاي نوح إنشاء مستعمرة يهودية زراعية - أطلق عليها اسم أرارات -(Ararat) في جزيرة غراند آيلاند في نهر نياجرا في غرب نيويورك، بغية أن تكون أرارات «مدينة ملجأ»، و«قدسًا جديدة» لليهود المضطهدين في العالم، لكن لم يقبل الكثير من اليهود في أي مكان عرضه، وسخرت الصحافة اليهودية الأمريكية من الخطة علىٰ نطاق واسع. انظر:

Dalin, "Jacksonian Jew."

(٢) في عام ١٨٤٥، كتب نوح في كتابه (عودة اليهود Restoration of the Jews): «يجب أن تتم عودتنا اعتمادًا علىٰ الجهود البشرية، ولا يمكن تحقيقها إلا بموافقة ومساندة القوىٰ المسيحية، التي=

طموحًا، ولكنه في نفس الوقت نفعي (pragmatic)؛ فهو لم يطعّم خطته الصهيونية بادعاءات عن الاستثنائية اليهودية، أو رؤىٰ المجد اليهودي.

دخلت تلك الطموحات الكبرىٰ إلىٰ الخطاب القومي اليهودي في كتابات الأوروبيين الأوائل المؤسسين للصهيونية، حيث شعر الصهاينة الأوائل بالارتياح والانسجام في عصر الهيمنة الرأسمالية، والدول القومية، وتنامي حركة الشعوب، ومركزية المعرفة في الاقتصاد، وكما أكّد موسىٰ هيس، فقد كان هذا دائمًا هو العالم الذي اعتاده اليهود[١]. كان الإسرائيليون أول دولة في العالم تظهر في عالم من الإمبراطوريات؛ لقد كانوا أمة فريدة أيضًا -الأداة التي اختارها الله لإنفاذ إرادته-، وأول من يقدِّر الفرد وحريته وضميره. حافظ اليهود -في جيوبهم المنفصلة- علىٰ هذه القيم خلال عصر الإمبراطوريات والإقطاع والظلامية والتعصّب؛ لقد حان الوقت الآن لعودة اليهود إلىٰ فلسطين، والهيمنة علىٰ التاريخ من جديد، والمطالبة بدور رائد في عالم قرر أخيرًا العيش وفقًا للمُثُل اليهودية. كان لليهود -أكثر من أي شعب آخر- أساسًا أعمق في قيم وهياكل العالم الحديث.

من غير المرجح أن تكون معاداة السامية هي الحافز الرئيسي لفكر الصهاينة الأوائل، ففي منتصف القرن التاسع عشر، كان يهود أوروبا الغربية والوسطىٰ يتجهون نحو المساواة القانونية مع باقي الأمم، كما كانوا يتركون بصماتهم في أوروبا علىٰ الصعيد المالي والصناعي والسياسي والعلمي وفي الأوساط الأكاديمية

= تتحكم الآن -نظرًا لما تتمتع به من نهم للغزو- في العالم كله، المتحضر والبربري. لا يمكن أن تتم عودتنا بسلام إلا بموافقتهم ومساندتهم، وإذا تمّ لنا ذلك، فسنكون -دون أدنىٰ شك- آمنين، وجميع حقوقنا الوطنية محميّة».

(١) في عام ١٨٦٢ كتب موسىٰ هيس: «اليهودية ليست مهدّدة -مثل المسيحية- بخطر التطلعات القومية والإنسانية في عصرنا؛ لأن روح العصر -في الواقع- تقترب أكثر فأكثر من التركيز اليهودي الأساسي علىٰ الحياة الواقعية»:

Hertzberg, The Zionist Idea, 125.

والدوائر الفنية والأدبية. في ذلك الوقت، كان اليهود يدركون جيدًا مدىٰ نجاحهم؛ لقد كانوا يكتسبون إحساسًا بقوتهم الاقتصادية والاجتماعية المتنامية[١]، وأراد الصهاينة المؤسسون الاستفادة من هذه القوة -المكتسبة مؤخرًا فقط- للمطالبة بأمة لليهود[٢]؛ ربما لم تكن معاداة السامية بعيدة جدًّا عن أذهان هؤلاء الصهاينة، لكنهم كانوا -في المقام الأول- يسعون للتعبير عن الذات القومية اليهودية، وهي فرصة لليهود ليصبحوا لاعبين مهمين علىٰ مسرح تاريخ العالم.

لم يكن الهدف الأسمىٰ للصهاينة الأوائل هو حماية اليهود من عواصف معاداة السامية؛ بل كانوا يفكرون في إحياء أمجاد عصرهم البطولي، تلك الأمجاد التي احتفلت بها التوراة. تحدث موسىٰ هيس -أحد أوائل الصهاينة- عن «قيم متسامية جديدة» من شأنها أن تصدر عن الدولة اليهودية، كما أشار إلىٰ الدور

---

(١) في عام ١٨٦٢ كتب موسىٰ هيس: «من خلال المساعي الصناعية والتجارية، أصبح اليهود ضروريين ولا غنىٰ عنهم للأمم المتحضرة التي يعيشون في وسطها، وهم خميرة لا غنىٰ عنها لتطور هذه الشعوب في المستقبل. حتىٰ لقد سمعت أنه يتردد -بجديّة تامّة- أن العرق الهندوألماني يحسن جودته من خلال الاختلاط مع العرق اليهودي!»:

Hertzberg, The Zionist Idea, 127.

كما كتب تيودور هرتزل (الدولة اليهودية، ٨) أيضًا: «لقد حققنا -بلا شك- تفوقًا في التمويل؛ لأن ظروف العصور الوسطىٰ دفعتنا إلىٰ ذلك».

(٢) كتب هرتزبيرج («الفكرة الصهيونية» The Zionist Idea, 35): «يدرك [الحاخام] يهوذا القلعي -بشكل خاص- الإمكانيات السياسية الجديدة التي فتحها تحرّر اليهود. لقد استخدم بروز أفراد اليهود في المجتمع الأوروبي، والتشكيل اللاحق في عام ١٨٦٠ للتحالف الإسرائيلي العالمي للدفاع السياسي عن الحقوق اليهودية في جميع أنحاء العالم كحجج داعمة للصهيونية، لقد تعلم اليهودي الآن أن يعامَل علىٰ قدم المساواة علىٰ الساحة الدولية، دعه يتصرف -بكل ما لديه من قوة سياسية واقتصادية- بحرية، من أجل استعادة شعبه». كما كتب باساتشوف (Pasachoff) وليتمان (Littman) في («تاريخ موجز» A Concise History, 212) أيضًا أن الحاخام القلعي والحاخام كاليشر رأيَا تحرر اليهود، والارتقاء غير المسبوق لعدد قليل من اليهود -مثل روتشيلد ومونتفيوري- إلىٰ مراكز قيادة التمويل كعلامات علىٰ الفداء القادم. في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، حث كاليشر رئيس عائلة روتشيلد وموسىٰ مونتفيوري علىٰ شراء فلسطين -أو علىٰ الأقل القدس- من العثمانيين لاستخدامها في الاستيطان اليهودي.

الحضاري الكبير المخطط لهذه الدولة أن تلعبه من بين الدول المتخلفة في الشرق الأوسط. في كتابه «روما والقدس (Rome and Jerusalem)» الذي نُشر عام ١٨٦٢، أيّد هيس النظرة التي قدّمها إرنست لاهاران (Ernest Laharanne) -السكرتير الخاص لنابليون الثالث- حول الهيمنة اليهودية في عام ١٨٦٠، حيث قال «علىٰ اليهود بشكل خاص مهمة عظيمة وهي: أن يكونوا قناة اتصال حية بين ثلاث قارات... يجب أن تكونوا وسطاء بين أوروبا والشرق الأقصىٰ، وذلك لتفتحوا الطرق المؤدية إلىٰ الهند والصين»[١]، وفي عام ١٨٩٦، اقترح تيودور هرتزل مهمة مماثلة للدولة اليهودية في فلسطين حيث «ستشكل تلك الدولة جزءًا من حصن أوروبا ضد آسيا، كما ستكون واحة حضارية في قلب البربرية»[٢].

انضم إلىٰ هذه النزعة المسيانية العلمانية تيار يهودي آخر؛ ففي منتصف القرن التاسع عشر، بدأ بعض اليهود يشعرون بقلق متزايد من احتمال أن تطمس الحداثة والانسجام معالم الدين اليهودي والفرادة اليهودية؛ لقد كانوا خائفين من اندثار الشريعة اليهودية، وفقدان الرابط الذي كان يربط اليهود دائمًا بتاريخهم ونصوصهم المقدسة وببعضهم البعض[٣]، ومن هنا نقف علىٰ ظاهرتين ساعدتا علىٰ بناء جاذبية المسيانية الصهيونية، فمن ناحية كان هناك هذا القلق اليهودي تجاه حركات الانسجام والتماهي الثقافي، فبالنسبة إلىٰ هؤلاء اليهود الذين شعروا بالقلق من الفقدان الوشيك لهويتهم وفرادتهم، كانت الصهيونية هي الأمل في الحفاظ علىٰ تراثهم في دولة يهودية؛ ومن ناحية أخرىٰ كانت روح التميز اليهودي

---

(1) Hertzberg, The Zionist Idea, 133-34.

(2) Herzl, The Jewish State, 12.

(٣) كتب موريس صموئيل (Maurice Samuel) في («أيها الأغيار» You Gentiles, 209): «لا يمكننا الاندماج، إنه أمر مذلّ لنا لدرجة أننا أصبحنا نحتقر أنفسنا بسبب الخضوع لهذه العملية، إنه أمر مزعج للغاية، حتىٰ لو كنا علىٰ استعداد للخضوع، فلن يفيدنا ذلك شيئًا».

-التي قاومت الاندماج- هي التي دفعت لفكرة المسيانية الصهيونية؛ تعددت السبل والنتيجة واحدة.

حذّر بعض النقّاد اليهود الأوائل للصهيونية من أن إنشاء دولة يهودية سيعرّض يهود الشتات لاتهامات بالولاء المزدوج، وقد كانت هذه المخاوف مبرّرة؛ ففي عقودها الأولىٰ ربما أكّدت الصهيونية آراء غير اليهود القائلين بأن ولاء اليهود الأول هو ليهود العالم[1]، لكن بعد إنشاء إسرائيل، وبمجرد إعادة تعريف الغرب «المسيحي» علىٰ أنه غرب «يهودي-مسيحي»، أصبحت المخاوف بشأن الولاء المزدوج مغالطة تاريخية. فشل هؤلاء النقاد -أيضًا- في توقّع التآزر الذي قد ينشأ بين الصهيونية والشتات اليهودي؛ ففي الولايات المتحدة -علىٰ وجه الخصوص- دعمت الحركة الصهيونية اليهود بإنشاء المنظمات الصهيونية، وأقاموا تحالفات مع مجموعات الحقوق المدنية، وأصبحوا أكثر تأثيرًا في السياسة الداخلية؛ كان الهدف من هذا كله كسب دعم الرأي العام الأمريكي، وحشد دعم حكومة الولايات المتحدة خلف الصهيونية. منذ عام ١٩٤٨ أيضًا، ساهم الشتات اليهودي بشكل حيوي في نجاح إسرائيل، والأهم من ذلك أنه عمل علىٰ الحفاظ علىٰ الدعم الاقتصادي والعسكري والدبلوماسي الغربي لإسرائيل؛ ومن هنا لا فرق بين المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة وإسرائيل، فكلاهما ينتميان للحركة نفسها.

توقّع عدد قليل من الصهاينة هذا التبادل؛ ففي وقت مبكر من عام ١٨٩٧، استطاع آحاد هعام (Ahad Ha'am) أن يتخيّل كيف أن:

---

(١) أعرب العديد من اليهود البارزين في الولايات المتحدة -بمن فيهم فيليكس واربورغ (Felix Warburg)- عن قلقهم من أن الصهيونية ستشجع المعادين للسامية علىٰ التساؤل عما إذا كان اليهود الأمريكيون يدينون بولائهم الأول للولايات المتحدة أم لا:

Berman, Nazism, the Jews, 60.

«مجرد وجود دولة يهودية -بحدّ ذاته- سيرفع من هيبة ومكانة من بقوا في المنفىٰ . . . وحتىٰ قبل قيام هذه الدولة، سيعكس مجرد التأمل في احتمالية وجودها راحةً تامةً في وعي [اليهودي الغربي]؛ إنها توفر فرصة للعمل الجماعي وإثارة الحماسة السياسية؛ حيث ستجد عواطفه متنفسًا في مجال نشط لا يخضع لغير اليهود؛ كما سيشعر أنه -بفضل هذه الفكرة المثالية- يقف مرة أخرىٰ منتصبًا شامخًا مستعيدًا كرامته الشخصية، دون الكثير من المتاعب، وبجهوده الذاتية»[1].

في الواقع، كان التآزر العميق بين إسرائيل والشتات اليهودي عاملًا حيويًا في نجاح الصهيونية، حيث استمدّت الصهيونية قوتها من غطاء قوميتها المسيانية. استلهم الصهاينة جرأتهم الفريدة من فكرتهم، التي تمثّلت في شطب ألفي عام من التاريخ اليهودي. لقد تحدّوا اليهود بتغيير كامل تاريخهم منذ التدمير الثاني للهيكل، وتركهم الأراضي التي كانوا قد أطلقوا عليها «وطنهم» لعدة قرون، والتجمع في «فلسطين المدمرة» مرة أخرىٰ وإعادة بنائها لتكون منزلًا يليق باليهود، وجلب كافة اليهود من مختلف الأعراق وصهرهم في أمة واحدة؛ بالتأكيد سيكون هذا مشروعًا فريدًا من نوعه، ولم يسبق له مثيل.

كانت الصهيونية -أيضًا- مشروعًا محفوفًا بالمخاطر، حتىٰ منذ أن كانت مجرد خيال. كان الصهاينة يقترحون إطلاق مشروعهم الاستيطاني الاحتلالي دون الاستعانة بـ «دولة أم»، من المستبعد أن يكون هذا مشروعًا يرمي إليه ضعاف القلوب أو ضعيفي الإرادة، لا يمكن أن يُقدِم علىٰ ذلك إلا رجالٌ تحدوهم رؤىٰ العظمة والمجد وإعادة اليهود إلىٰ التاريخ، والارتقاء بهم إلىٰ لاعبين سياسيين رئيسيين. لم يكن هذا من عمل شعب مهزوم هارب من الاضطهاد، أو ثلة من اللاجئين يبحثون عن مأوىٰ. في الواقع، اختار عدد قليل جدًّا من اليهود الفارين من الاضطهاد الذهاب إلىٰ فلسطين، أو إسرائيل (لاحقًا) عندما توفرت أمامهم وجهات أكثر أمانًا. إن الصهيونية حركة دشّنها فصيل من اليهود المتحمسين؛ ومنذ

---

(1) Hertzberg, The Zionist Idea, 265.

بدايتهم كان هؤلاء اليهود علمانيين في الغالب، لكنهم -بعد ذلك- استغلّوا واستخدموا بشكل متزايد فكرة الخلاص الديني.

من ناحية أخرىٰ، فسّرت أهداف الصهيونية -التي تبدو مستحيلة- الصعوبات الأولية التي واجهتها. يمكن للصهيونية أن تروق فقط للنخبة التي تحمل رؤىٰ العظمة اليهودية، حتىٰ أنه من المستحيل قراءة كتابات مؤسسي الصهيونية ورموزها -مثل موسىٰ هيس، وتيودور هرتزل، وآحاد هعام، وفلاديمير جابوتينسكي، وديفيد بن غوريون- دون الشعور بأن هؤلاء الرجال مدفوعون بشعور عارم بأنه مقدّر لليهود أن يقودوا العالم، كما أنهم فهموا الهياكل العميقة للتاريخ، واستلهموا من رؤىٰ الهيمنة اليهودية. لقد أظهروا ثقةً هائلة، وعزمًا لا ينثني، واقتناعًا راسخا بقدرتهم علىٰ التدخّل في شؤون القوىٰ العظمىٰ. عرف الصهاينة أن اليهود يفتقرون إلىٰ المكوّنين اللذين يصنعان أي أمة: الأرض واللغة؛ لكن هذا لم يردعهم، ورأوا أن «جذوة حميتهم القومية» كفيلة بإنضاج هذه المكونات المفقودة[1].

هذا الدافع القومي للتعبير عن الذات اليهودية يفسر -أيضًا- تركيزهم علىٰ فلسطين، فلم ينبع التركيز علىٰ فلسطين من أي توق يهودي دائم للمّ شملهم مع جبل صهيون، وقد ناقشنا هذا من قبل. بالإضافة إلىٰ أن هذه الحجة تصبح أضعف إذا تذكرنا أن القليل من القادة الصهاينة الأوائل كان لديهم نوازع دينية قوية، بل -في الواقع- كان بعضهم يهودًا غير مبالين بالدين. علينا أن نسأل: هل أصرّ الصهاينة علىٰ فلسطين لأنهم فهموا مزايا موقعها؟ إن قيام دولة يهودية في فلسطين من شأنه أن يعزز سعيهم للسلطة أفضل من أي أرض بديلة، فمن المشكوك فيه أن دولة يهودية في شرق أفريقيا، أو أنغولا، أو الأرجنتين، أو أستراليا، أو حتىٰ أوروبا؛ ستوفر الأهمية الاستراتيجية التي توفرها دولة يهودية

---

(1) Ibid., 15.

في فلسطين[1]، وقد كان هذا صحيحًا حتىٰ في القرن التاسع عشر، أي قبل أن يصبح نفط الشرق الأوسط عاملًا حيويًا في الجغرافيا السياسية.

إن دولة يهودية في فلسطين يمكنها بسهولة أن تلعب دورًا رئيسيًا في الشؤون العالمية، وهذا في الغالب بسبب موقع فلسطين، علىٰ الرغم من أن النفط العربي ساهم لاحقًا في جاذبية فلسطين كدولة يهودية. يمكن لدولة احتلالية غربية تقع في ملتقىٰ قارات ثلاث أن تفرض هيمنتها علىٰ الشرق الأوسط وشرق وشمال أفريقيا، ومن خلال رفع شعار أنها «امتداد للحضارة الغربية في قلب الحواضر الإسلامية»، عرف الصهاينة أنهم يستطيعون الاعتماد -شبه المستدام- علىٰ مجموعة متنوعة من المشاعر والمصالح الغربية؛ لدعم مشروعهم الاحتلالي التوسعي، وستسعىٰ إسرائيل لكسب دعم اليمين المسيحي في الغرب من خلال التعهد بإبقاء الإسلام -خصمه التاريخي- تحت السيطرة، وإذا كان من الممكن جذب عشرة ملايين يهودي إلىٰ إسرائيل، فقد يحققون حتىٰ النبوءة التوراتية بإقامة دولة يهودية تمتد من النيل إلىٰ الفرات[2].

كان المحتلون اليهود -في فلسطين- يحظون بانتباه العالم أجمع؛ لأن هذه أرض الأنبياء والبطاركة اليهود، وهي أيضًا الأرض المقدسة بالنسبة للمسيحيين، حيث سار المسيح وصُلِب[3]؛ وعليه، فإن فلسطين تقع في منطقة مثقلة بطبقات

---

(١) في يونيو ١٩١٢، عرضت البرتغال إنشاء «مستعمرة تتمتع بالحكم الذاتي علىٰ غرار جنوب أفريقيا البريطانية أو كندا» في أنغولا، قُدّم هذا العرض من قبل الحكومة البرتغالية لإسرائيل زانغويل في لشبونة: Telegraph, "Angola Is Offered," 8.

(٢) لم يكن من الممكن أن تكون هذه فكرة رائعة في عام ١٩٠٠ كما تبدو اليوم، نظرًا للاختلافات الهائلة بين عدد السكان النسبي ليهود العالم وسكان الشرق الأوسط العرب. في عام ١٩٠٠، بلغ تعداد اليهود في العالم ١٠,٦ مليون، وعلىٰ الأرجح، كان إجمالي عدد سكان الولايات العثمانية في سوريا والعراق والحجاز في ذلك الوقت أقل بكثير من الإجمالي العالمي لليهود: Jewish Virtual Library, World Jewish Population.

(٣) كما يزعم النصارىٰ، وهو زعم باطل؛ قال تعالىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. (المحرر).

من التاريخ القديم، وقد حكمتها إمبراطوريات لازالت أسماؤها تتردد في الوعي الأوروبي، ومن خلال الاستحواذ علىٰ فلسطين، والهيمنة علىٰ هذه المنطقة الحيوية من العالم القديم، يمكن لإسرائيل أن تدّعي «مركزية» لن تمتلكها أبدًا في أي منطقة أخرىٰ، وبمجرد إنشائها علىٰ هذه الأسس، يمكن لإسرائيل أن تحلم بتقليد إمبراطوريات العالم القديم؛ ولا يستبعد أن يطمح أمثالهم إلىٰ أن يصبحوا مصدر حضارة جديدة.

انغمس مؤسسو الصهيونية في أحلام المجد اليهودي، ولا يبدو أن طموحاتهم أو خططهم كانت متواضعة أو مقتصرة علىٰ إنشاء وكالة إغاثة وطنية وظيفتها الوحيدة بناء ملجأ لليهود المضطهدين. يتحدث موسىٰ هيس (Moses Hess) -أكثر الحالمين الصهاينة الأوائل تميزًا، حسب آرثر هرتزبيرج (Arthur Hertzberg)- بشكل أشبه بالوجد الصوفي عن القيم السامية الجديدة التي ستصدر من أرض صهيون بعد استعادتها، وعن أمة يهودية جديدة تقوم بدور «الوصي» علىٰ ثلاث قارات، وتقوم بدور المعلم لشعوب الشرق الناعسة؛ أي أنه يتخيّل دورًا مميزًا -لم يضع له حد- سيقوم به اليهودي لتأدية الرسالة الحضارية للغرب الآخذ في التوسع[1]. كتب ماكس نورداو (Max Nordau) -وهو زميل مقرب من تيودور هرتزل- أن الصهاينة كانوا «ذاهبين إلىٰ فلسطين لتوسيع نطاق القيم الأوروبية حتىٰ نهر الفرات»[2]. لم يكن الصهاينة ليقبلوا الاستقرار المُهمَّش في جزء صغير في الأرجنتين أو شرق أفريقيا أو أنغولا أو بعض الأراضي الواقعة علىٰ حافة أوروبا وأمامهم فرصة أن يصبحوا القوة المهيمنة في الشرق الأوسط. كتب آرثر هرتزبيرج (Arthur Hertzberg) أنه كان من الواضح لآحاد هعام (Ahad Ha'am) أن «استعادة صهيون ستعني بالتأكيد للبشرية أكثر مما عناه استقلال ألبانيا عن الدولة العثمانية»[3].

---

(1) Hertzberg, The Zionist Idea, 19.

(2) Brown, "Iron and a King," 7.

(3) Hertzberg, The Zionist Idea, 20.

لم يكن اليهود «أمة» بالمعنىٰ العادي للمصطلح؛ فحتىٰ دون ارتباطهم بأرض مشتركة، اكتسب يهود الغرب إحساسًا قويًّا بهوية الجماعة. كتب بيريتس سمولينسكين (Peretz Smolenskin): «لقد عاش الشعب اليهودي أكثر من كافة الشعوب الأخرىٰ؛ لأنه كان يعتبر نفسه دائمًا شعبًا وأمة روحية»(١)، وهذا الوعي اليهودي بأنفسهم -كشعب متميز- دعمته اليهودية، التي خصتهم ووضعتهم فوق كل الأمم. تاريخيًّا، حافظ اليهود علىٰ هويتهم من خلال العيش في اتصال وثيق مع التوراة، والالتزام بالشريعة اليهودية، وإحياء ذكرىٰ انتصارات ومآسي التاريخ اليهودي في أعيادهم، كما تعزّز الشعور بالتميّز اليهودي بفعل ظروف تشتّتهم، كما ساهم في تنامي هذا الإحساس: أعدادِهم الصغيرة غير المستقرة التي أنتجت إحساسًا بالحصار؛ والتنقل الذي اكتسبوه من مهنهم كتجار وحرفيين وصائغي ذهب وأطباء غير مرتبطين بالأرض والجيش والحكومات. علاوة علىٰ ذلك، ففي القرن التاسع عشر عندما بدأ اليهود المندمجون في النأي بأنفسهم عن هويتهم الدينية، بدأوا في تعريف أنفسهم علىٰ أساس العرق المشترك، أي كشعب ينحدر من العبرانيين القدماء.

كانت حالة اليهود الغربيين مثالًا علىٰ التناقض؛ فمع غياب الأرض، واللغة المشتركة، والاختلافات الإثنية؛ اكتسب اليهود مكانة بارزة، وإحساسًا متزايدًا بكونهم شعبًا مميزًا وفريدًا من نوعه في النظام العالمي الرأسمالي المتطور. كان طموح الصهاينة هو تعميق هذه المفارقة من خلال التأكيد علىٰ التميّز والتفوق اليهودي، والتأكيد علىٰ «العرق» كأساس للهوية اليهودية. في الواقع، كانوا يدّعون أن اليهود كانوا بالفعل «أمّة»، لكنها أمّة «استثنائية» لأنه لم يكن لديهم أرض، أو دولة خاصة بهم. علىٰ الرغم من أن قلة من اليهود كانوا مستعدين للاستقرار في فلسطين، إلا أنه في نهاية المطاف جرىٰ إقناع معظمهم بدعم القضية الصهيونية، وبمجرد تحفيز أعداد متزايدة من اليهود حيال قضيتهم، سيستخدم

---

(1) Ibid., 145.

الصهاينة مواردهم المالية والفكرية والسياسية الكبيرة لتأمين دعم الحكومات الغربية لحركتهم. كان الصهاينة مقتنعين بأن قضيتهم تاريخية عالمية، وأن حياة العرب «الرعاع» التافهة لا يمكن السماح لها بالوقوف في طريق طموحهم الكبير في إقامة أمة ودولة يهودية. كان الصهاينة مصممين علىٰ الظهور كقوة تاريخية عالمية: وسوف يحشدون موارد اليهود الغربيين والغرب كله لضمان ألا يمنعهم أي شيء من الوصول إلىٰ هذا الهدف.

الفصل السابع
شعب بلا أرض

«اليهود هم أمة كانت يومًا ما بذرة العالم الاجتماعي، واليوم مقدر لها أن تُبعث مع بقية الأمم المتحضرة»
موسىٰ هيس (Moses Hess)، ١٨٦٢

«امنحونا فقط السيادة علىٰ جزء من الكرة الأرضية كبير بما يكفي لتلبية المتطلبات المعقولة لأمتنا؛ والباقي سندبره بأنفسنا»
تيودور هرتزل (Theodore Herzl)، ١٨٩٦

«نحن جيل من المستوطنين، وبدون الخوذة الفولاذية وفوهة البندقية لن نتمكن من زرع شجرة، أو بناء منزل».
موشيه ديان (Moshe Dayan)، أبريل ١٩٥٦

«تتألف الصهيونية من الاعتقاد بأن اليهود «أمة»، ومن ثمّ فإن لهم الحق في تقرير المصير مثل جميع الأمم الأخرىٰ».
إيمانويل أوتولينغي (Emanuele Ottolenghi)، ٢٠٠٣[١]

---

(1) Hess, *Rome and Jerusalem*, 49; Herzl, *The Jewish State*, 11; Shlaim, *The Iron Wall*, 101; Ottolenghi, "Anti-Zionism."

اعتمدت الصهيونية في المقام الأول على «مُسَلَّمة» هي أن اليهود أمة، وأنهم كانوا دائمًا كذلك؛ وما كان ينقصهم لقرون عديدة هو دولة خاصة بهم، دولة يهودية، لكن الصهيونية تكفلت بعلاج هذا العجز[1].

في الوقت الذي انطلقت فيه الحركة الصهيونية، لم يكن من الممكن الوقوف أمام هذه الفرضية؛ كان اليهود مجموعة عرقية، يشتركون في بضعة أشياء، ولديهم درجات مختلفة من الارتباط باليهودية، وكانت هذه السمة -بالنسبة إلىٰ تيودور هرتزل- مع وجود «عدو مشترك» كافيين لجعل اليهود «أمة»[2]، ومع ذلك -كما هو مفهوم بشكل عام- لم يكن اليهود أمة؛ لأنه لم يكن هناك مجتمع يهودي كبير يشكل أغلبية في أي منطقة. في عام ١٨٨٢، أقرّ ليو بينكسر -وهو من أوائل المؤيدين المتحمسين للصهيونية- بأن الشعب اليهودي يفتقر إلىٰ «معظم تلك الصفات التي تعتبر سمات أساسية لأي أمّة؛ إنه يفتقر إلىٰ تلك الحياة الوطنية المميزة، التي لا يمكن تصورها بدون لغة، وعادات مشتركة، وأرض»[3].

---

(١) غالبًا ما يُنسب الشعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» إلىٰ إسرائيل زانجويل (Israel Zangwill)، ولكنه استخدم لأول مرة من قبل إيرل شافتسبري (Earl of Shaftesbury)، أحد كبار المسيحيين الصهيونيين، في أربعينيات القرن التاسع عشر. انظر:

Garfinkle, "On the Origins."

(٢) في جلسات الاستماع التي عقدتها اللجنة الملكية لهجرة الأجانب في عام ١٩٠٢، قال هرتزل: «الأمة -في رأيي- هي مجموعة تاريخية من الرجال يتمتعون بتلاحم واضح، ويجمعهم عدو مشترك؛ هذه هي الأمة في رأيي. ثم إذا أضفت إلىٰ ذلك كلمة «يهودي» فستحصل علىٰ ما أقصده بالأمة اليهودية»: Raisin, A History of the Jews, 411.

(3) Hertzberg, The Zionist Idea, 183.

في عام ١٩٠٠، كتب كارل كراوس (Karl Kraus)، وهو أحد أوائل منتقدي الصهيونية: «بعد كل شيء، ما هو الرابط المشترك الذي يمكن أن يوحد مصالح اليهود الألمان والإنجليز والفرنسيين والسلافيين والأتراك في كيان سياسي واحد؟»: Brenner, Zionism, 45.

يمكن القول إن بينسكر يخطئ في إنكار وجود «عادات مشتركة» بين اليهود؛ ففي أواخر القرن التاسع عشر، كانت العادات اليهودية -المتمحورة حول الهالاخاه[1]، والشعائر، وتقديس التوراة، والاحتفال بالأعياد المقدسة- تحمل وزنًا كافيًا بين اليهود لوصفهم كجماعة دينية، ومع كونهم لا يمتلكون لغة منطوقة مشتركة، إلا أن العبرية لا تزال تحتل مكانة مركزية كافية في الحياة الدينية اليهودية، تكفي -علىٰ الأقل- لتكون قوةً تجمع اليهود معًا؛ ويمكن لليهود أيضًا إحياء هذه اللغة -كما فعلوا في الأندلس- كلغة للخطاب الأدبي، ومع ذلك، فإن إحياء العبرية وحدها لن يُكسب اليهود لقب «أمّة».

مع بدء الاندماج، أخذ المفكرون اليهود -ابتداءً من القرن التاسع عشر- بإعادة تعريف الهوية اليهودية استنادًا إلىٰ العِرْق؛ وقد عوَّض ذلك جزئيًّا عن الخسارة التدريجية للسمات الدينية التي كانت تميزهم حتىٰ الآن عن الأغيار الوثنيين، ومن خلال هذا التعريف الجديد للهوية اليهودية، تحصّل اليهود علىٰ أحد المكونين الرئيسيين -العرق والأرض- لمحددات الهوية في الفكر القومي، الذي كان يكتسب زخمًا في شرق ووسط أوروبا. وبالتزامن مع ذلك، اكتسبت أسطورة جديدة عن الشتات اليهودي رواجًا أيضًا، وهي أن جميع الجاليات اليهودية المنتشرة في العالم تنحدر من بني إسرائيل القدماء الذين أجبرهم الرومان علىٰ الخروج من القدس في القرن الثاني الميلادي، وبهذا يستغلّ اليهود شعار معاداة السامية القائل بأن اليهود المنحدرين من العبرانيين القدماء هم جنس «غريب».

---

(١) الهالاخاه (Halacha): تعني -حرفيًّا- «طريق السير»، والمقصود بها الشريعة اليهودية التي تنظم طريقة عيش اليهودي، وتجمع القوانين والتقاليد والإرشادات الدينية التي يتوجب علىٰ اليهودي التمسك بها، وتشمل ٦١٣ وصية، وتعاليم التلمود والتعاليم الحاخامية التي تعرف بالميتزفا. (المترجم).

كان اليهود يفتقرون إلىٰ وطن حقيقي وموجود؛ لكن يمكنهم المطالبة بفلسطين كوطن لهم. كان لفلسطين ميزة حيوية لم توجد في الوجهات البديلة للدولة اليهودية، فقد كان استخدام القوة الأسطورية لأرض إسرائيل هو فرصة الصهيونية الوحيدة للتغلب علىٰ اللامبالاة اليهودية تجاه مشروعهم، كما أن الارتباط اليهودي بأرض إسرائيل سيجعل من السهل تبرير «سرقة» الأرض التي اقترحها الصهاينة، ففلسطين هي الوطن اليهودي الأبدي، ولا يملّ الصهاينة من تكرار تلك الأساطير علىٰ مسامع العالم، فهي لهم لأن الرب (يهوه) قد وهبها لآبائهم إلىٰ الأبد، وهي لهم لأن أسلافهم عاشوا هناك، وكذلك لأن اليهود لم يتوقفوا أبدًا عن التوق إليها أثناء وجودهم في «المنفىٰ»[1]. وفوق ذلك، فإن هذه الحجج ستنسجم جيدًا مع العقلية البروتستانتية؛ لأنهم تربّوا أيضًا علىٰ نفس المعتقدات. لقد وفّر الصهاينة -ببراعة- المكوّن الثاني للأمة اليهودية: فقد حصلوا علىٰ أرض، لكنها لا تزال «افتراضية»، والوطن «الافتراضي» لن يجعل من اليهود أمّة، بل يجب أن يكون وطنًا حقيقيًّا إذا كان اليهود يريدون أن يصبحوا أمة علىٰ خريطة العالم. سيتعين علىٰ اليهود الاستيلاء علىٰ فلسطين، وسيتعين عليهم احتلالها، وامتلاكها، وجعلها حكرًا علىٰ يهود العالم؛ وقد كانت تلك نواة البرنامج الصهيوني.

كانت هناك طريقتان لوضع الأساس الإقليمي للدولة اليهودية: يمكن للصهاينة -أولًا- الحصول علىٰ تلك الأراضي بالقوة، أو إيجاد أغلبية يهودية هناك من خلال الاحتلال، أو عبر الزيادات الطبيعية في عدد السكان اليهود والتطهير العرقي، أو المزج بين هذه الثلاثة، كما يمكنهم السعي لإنشاء أغلبية يهودية في بلد ما -و في منطقة ما داخل الدولة- من خلال الهجرة، أو عبر

(١) كتب ماكس نورداو في عام ١٩٠٥: «منذ تدمير الهيكل الثاني من قبل تيتوس، ومنذ تشتت الأمة اليهودية في جميع البلدان؛ لم يكفّ هذا الشعب عن الأمل بشدة في العودة إلىٰ أرض آبائهم»:
nordau and Gottheil, Zionism and Anti-Zionism, 10-11.

الزيادات الطبيعية في عدد السكان اليهود، أو مزيج من الاثنين، وبمجرد إيجاد أغلبية واضحة، يمكن للمحتلين اليهود الانفصال، وتشكيل دولتهم الخاصة، أو الاستيلاء علىٰ الدولة القائمة بقوة الديموغرافيا.

يقينًا سيتضمن كلا السيناريوهين ممارسة العنف؛ ففي السيناريو الأول، ستكون هناك حاجة للعنف في البداية لتأمين وفتح منطقة للمغتصبات اليهودية؛ كما أنه سيستمر طالما أن السكان الأصليين لم يتوقفوا عن القتال لاستعادة أراضيهم، وفي السيناريو الثاني، قد يحدث الاحتلال -في حد ذاته- دون استخدام القوة إذا كان يمكن أن يتقدّم تدريجيًا، وبطريقة غير محسوسة، ومن دون إثارة شكوك السكان الأصليين المخطط تهجيرهم؛ لكن إخفاء مثل هذا المشروع غير ممكن أبدًا؛ لأن الهدف الصهيوني لإقامة دولة يهودية في فلسطين كان معلنًا، ولأن الصهاينة -أيضًا- كانوا في عجلة من أمرهم لخلق أغلبية يهودية. كان السكان الأصليون -بمجرد أن ثارت شكوكهم- يسعون إلىٰ قطع الطريق أمام المحتلين اليهود؛ ومن هنا يمكن للمحتلين اليهود البقاء والنمو -فقط- إذا طوّروا القدرة علىٰ استخدام العنف.

في عام ١٨٩٦، حذّر تيودور هرتزل من أن الطريقة الثانية «التسلل التدريجي» -إذا ما استُخدمت في فلسطين والأرجنتين- ستؤدي في النهاية إلىٰ نتائج عكسية؛ «إنها ستستمر فقط إلىٰ لحظة لا مفر منها، وهي عندما يشعر السكان الأصليون بأنهم مهددون، ويجبرون الحكومة علىٰ وقف تدفق المزيد من اليهود»؛ وبوضوح فريد، خلص هرتزل إلىٰ أنه غالبًا ما تكون «الهجرة غير مجدية ما لم تستند إلىٰ **سيادة راسخة**»[1] [التسويد مضاف]، ومن هنا يمكن للصهاينة

---

(١) نتيجة لذلك، في مفاوضاته مع العثمانيين، لم يكتف هرتزل (الدولة اليهودية، ٢٩-٣٠) بطلب الإذن لليهود بالهجرة بحرية، بل طلب من السلطان «منح» فلسطين لليهود؛ كتب هرتزل: «لنفترض أن جلالة السلطان سوف **يعطينا فلسطين**؛ يمكننا في المقابل أن نتعهد بتنظيم الشؤون المالية لتركيا بالكامل» [التسويد مضاف].

فقط اتباع السيناريو الأول، ولذا تعيّن عليهم احتلال منطقة ما، قبل أن يتمكنوا من تكوين أغلبية يهودية.

انطلاقًا من واقع الشتات اليهودي، لا يمكن إنشاء دولة يهودية إلا من خلال غزو يليه احتلال. باختصار: حقيقة الصهيونية أنها كانت حركة احتلالية استيطانية؛ وبغض النظر عن مدىٰ صعوبة إخفاء ذلك -وبعيدا عن الاحتجاجات علىٰ إعلان الرغبة في مشاركة فلسطين مع العرب أو الوعد بالفوائد التي سيجلبها الاحتلال اليهودي للعرب- فقد فهم مؤسسو الصهيونية هذا المنطق منذ البداية، ونظرًا لعدم وجود دولة يهودية راعية تتبنىٰ مشروعهم؛ فقد استنتجوا سريعًا أنه سيتعين عليهم الاعتماد علىٰ بدائل للقيام بالغزو نيابة عنهم؛ سيتعين علىٰ الصهاينة أن ينتصروا علىٰ واحدة، أو أكثر من القوىٰ الغربية للاستيلاء علىٰ فلسطين والاحتفاظ بها، وفتحها أمام الاحتلال اليهودي، والسماح للصهاينة أو مساعدتهم في إنشاء البنية التحتية للدولة اليهودية، لكن في مرحلة ما، تجاوز الصهاينة البلد الأم، واستخدموا القوة لطرد السكان الأصليين.

❀ ❀ ❀

من الضروري إلقاء نظرة فاحصة علىٰ الروابط والتداخلات بين اتجاهين في الصهيونية: الحركة القومية، والمشروع الاستيطاني الاحتلالي.

نحن بحاجة إلىٰ استكشاف المسارات التي حوّلت الصهيونية -بسرعة كبيرة- من مشروع قومي يهودي إلىٰ حملة احتلالية استيطانية يهودية؛ ومن السعي إلىٰ بناء وطن يهودي إلىٰ الطموح بتحقيق سيادة يهودية؛ ومن «تحرير» اليهود إلىٰ التطهير العرقي للفلسطينيين؛ ومن «شذوذ» مفتعل -«تشرّد» اليهود في أوروبا- إلىٰ «استثنائية» من نوع آخر، أي كونها الدولة الاستعمارية الاستيطانية الوحيدة في القرنين العشرين والحادي والعشرين، والحامية اليهودية المدججة بالسلاح المزروعة في قلب العالم الإسلامي.

ظهر الرأي المؤيد للصهيونية السياسية لأول مرة مع حركة الإصلاح الديني؛ ففي اللاهوت الكاثوليكي، لم يعد اليهود أهلًا لعهد الله بمجرد أن رفضوا الإيمان بالمسيح، وإبّان هذا الجحود انتقل العهد الإلهي إلىٰ الكنيسة الكاثوليكية، التي أصبحت القوة التنفيذية لإرادة الله في الأرض، ومن ناحية أخرىٰ، أدىٰ خروج البروتستانت علىٰ الكاثوليكية إلىٰ إعادة شرعية العهد الإلهي مع اليهود، ومن ثمّ عادت حقوقهم الأبدية في فلسطين، وأدىٰ ذلك -شيئًا فشيئًا- إلىٰ مطالبة بعض البروتستانت بـ «عودة» اليهود لفلسطين، وإنشاء دولة يهودية في فلسطين.

ومن رحم هذه التموجات خرجت فكرة أن هذه العودة يمكن -بل يجب- إتمامها بمساعدة القوىٰ الأوروبية. في القرن التاسع عشر، اتخذت فكرة العودة اليهودية منعطفًا جديدًا ينذر بالسوء لدىٰ بعض الدوائر البروتستانتية في بريطانيا، والتي انتقلت لاحقًا إلىٰ الولايات المتحدة. أفضت القراءة البروتستانتية الجديدة للكتاب المقدس إلىٰ عقيدة مؤداها أن عودة اليهود هي بمثابة «مقدمة» ضرورية للمجيء الثاني للمسيح[١]، واكتسبت هذه الفكرة زخمًا سياسيًّا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وذلك عندما سعت بريطانيا وفرنسا للسيطرة علىٰ بلاد الشام كونها جسرًا بريًا للمحيط الهندي. قليلون من يعرفون أنه في عام ١٧٩٩، أصدر نابليون -أثناء حصاره لعكا في فلسطين- إعلانًا يدعو اليهود لاستعادة فلسطين[٢]، وعلىٰ مدار القرن التاسع عشر، أعرب عدد قليل من القادة البريطانيين -من ذوي الميول البروتستانتية- عن مبادرات متفرقة من حين لآخر لتوطين اليهود في فلسطين[٣]، إلا أن اليهود رفضوا هذه المبادرات، مع استثناءات قليلة.

---

(١) ستناقش هذه الأفكار -باستفاضة- في الفصل الثالث عشر، عندما نناقش الروابط بين الصهيونية المسيحية والحركة الصهيونية.

(2) Sokolow, *History of Zionism*, 63.

(3) Ould-Mey, "Geopolitical genesis," 4-5.

ومن المفارقات أن الاهتمام اليهودي النشط بفكرة العودة ظهر في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أي بعد فترة طويلة من فقدان الفكرة جاذبيتها في المناخ السياسي الأوروبية. إن التنافس علىٰ السيطرة علىٰ فلسطين -كجسر بري للمحيط الهندي- حُسِم لصالح بريطانيا[١]، ومن ثمّ فإن العرض البريطاني في عام ١٩٠٣ بإقامة دولة اليهود في شرق أفريقيا -بدلًا من فلسطين- يشهد علىٰ غياب الاهتمام البريطاني بتوطين اليهود في فلسطين في ذلك الوقت؛ ولو قبل اليهود بهذا العرض، لربما اتبعت الدولة اليهودية في هذا الجزء من العالم مسارًا مختلفًا تماما؛ لكن لم تكن عواقب هذا المشروع لتكون أقل مأساوية بالنسبة لأبناء شرق أفريقيا، وبالتأكيد كل أفريقيا سوف تعارضه؛ كما أنه سيلقىٰ معارضة شديدة من الأمريكيين الأفارقة في الولايات المتحدة، مما سينتج عنه احتكاكات بينهم وبين اليهود الأمريكيين؛ بالإضافة إلىٰ أن دولة يهودية في أفريقيا لن تستثير أوهام وأحلام البروتستانت الأمريكيين بنهاية العالم[٢]. بالإضافة إلىٰ ذلك، لا يمتلك شرق أفريقيا أي موارد يمكن لليهود مقايضة الدعم الأمريكي بها؛ لأنها حيوية لاقتصاد الولايات المتحدة، وللمرء أن يتساءل أي أساطير سيخترعها اللوبي اليهودي في سبيل تحويل هذه الدولة اليهودية في أفريقيا إلىٰ حليف استراتيجي لأمريكا؟

تفسّر عدة عوامل الاهتمام اليهودي المتأخر بالصهيونية، وهو سؤال سنتناوله في الفصل السادس. باختصار: خُلِقَت ظروف ظهور القومية اليهودية خلال القرن

---

(١) حُسم التنافس بين بريطانيا وفرنسا علىٰ الهيمنة العالمية لصالح بريطانيا بهزيمة نابليون عام ١٨١٥. وفي عام ١٨٤٠، استطاعت بريطانيا إجهاض المشروع التوسعي الذي تولاه محمد علي باشا. علاوة علىٰ ذلك -نظرًا للتفوق الساحق لقواتهم البحرية- فإن السيطرة الفرنسية علىٰ قناة السويس لم تكن سوىٰ مصدر إزعاج بسيط للبريطانيين، وبحلول عام ١٨٨٢، قُضي علىٰ هذا الإزعاج تمامًا عندما احتل البريطانيون مصر.

(٢) تؤمن فئة خاصة من المسيحيين -اعتمادًا علىٰ نصوص في العهد الجديد- بنهاية الحياة وقيام القيامة الموعودة خلال ألف سنة أو أكثر بقليل. (المترجم)

التاسع عشر، عندما كانت الحواجز القانونية ضد اليهود تختفي في معظم أنحاء أوروبا؛ عندها اندمج اليهود في النسيج المجتمعي، وترقّوا، واكتسبوا مكانة بارزة في المجتمعات الأوروبية، وبدأوا في تكوين هوية يهودية جديدة تستند أساسًا إلىٰ العرق، وفي الوقت نفسه، تسبّب الاندماج في شعور بعض اليهود بقلق متزايد من فقدان الأصالة اليهودية التي كانت تظهر أشد ما تظهر في الهالاخا. إن النجاح والقلق اليهودي -معززين بالهوية العرقية الجديدة- أقنعا بعض اليهود بأنهم أمة، وأنهم يستحقون دولة خاصة. في أواخر القرن التاسع عشر، استغل الصهاينة ظهور معاداة السامية -خاصة في أوروبا الشرقية- لخلق دعم للصهيونية، وعندها سعىٰ الصهاينة إلىٰ حشد دعم المعادين للسامية، وكذلك ضحاياهم اليهود.

انبثقت خطط الصهاينة عن تحليلهم للوضع «الاستثنائي» لليهود في أوروبا، أي: المسألة اليهودية. كان اليهود أمّة بدون أرض أو دولة خاصة بهم؛ كانوا بلا مأوىٰ؛ وكان تشردهم «العيب الأساسي في الوضع اليهودي»، كما أنه كان سببًا لاستطالة معاداة السامية[1]، وعلىٰ عكس الاندماجيين من اليهود، أكّد الصهاينة أن اليهود أمة فريدة، وليسوا مجرد جماعة دينية. في الواقع، كانت اليهودية -كما يقولون- مرتبطة بالوجود القومي لليهود، ولا يمكن فصلها عنه[2]، فقد أعلن تيودور هرتزل في بيانه الصهيوني -بوضوح- أن اليهود «شعب؛ شعبٌ واحد»؛ علاوة علىٰ ذلك، فإن «الروح القومية المميزة لليهود لا يمكن ولن يتم القضاء عليها ولا تدميرها»؛ ويترتب علىٰ ذلك أن المسألة اليهودية كانت أساسًا «مسألة قومية» وليست اجتماعية أو دينية[3]، وعليه فيجب حلّ المسألة اليهودية

---

(1) Shimoni, *The Zionist Ideology*, 34.

(٢) كان هذا هو القاسم المشترك بين جميع الحركات الصهيونية، أي: الاعتقاد بأن «اليهود كيان واحد مميز، يمتلك سمات قومية وليست دينية فقط. وهذا الفهم لطبيعة الكيان اليهودي ميز أتباع الصهيونية بشكل حاسم عن أولئك الذين رفضوا السمات القومية للكيان اليهودي وأيدوا فاعلية حركات الاندماج». Shimoni, The Zionist Ideology, 85.

(3) Herzl, *The Jewish State*, 2, 4.

بشكل جماعي، واعتمادًا علىٰ الاعتراف بأن اليهود كانوا -ولا يزالون- أمة فريدة تأبىٰ الاندثار؛ هذه هي العقيدة، والفرضية الأساسية التي تأسست عليها الصهيونية.

إن المطلب الصهيوني بإقامة دولة يهودية ينبع مباشرة من تشخيصهم للمسألة اليهودية؛ فإذا كان الشتات اليهودي هو سبب «شذوذهم» الأوروبي، فلا يمكن إنهاؤه إلا بجمع وتركيز اليهود في بلد ما يمكنهم تسميته ببلدهم، وفوق ذلك، أصرّ الصهاينة علىٰ أن هذا التجمع لن يوفر الأمن لليهود؛ إلا إذا أدىٰ في النهاية إلىٰ إنشاء دولة يهودية؛ هذا هو سبب وجود الصهيونية.

لم يضيّع تيودور هرتزل -في كتابه «الدولة اليهودية»- وقتًا كثيرًا في تحديد هذا الهدف، كما لو كان بدهية لا تقبل النقاش، بل لا تحتاج إلىٰ إيضاح وعرض؛ حيث يقول في الجملة الافتتاحية من كتابه: «إن الفكرة التي طورتها في هذا الكتيب هي فكرة قديمة جدًّا، إنها ببساطة: استعادة الدولة اليهودية»، وفي وقت لاحق -عندما وصف آليات إنشاء الدولة اليهودية- أوضح قائلًا: «امنحونا فقط السيادة علىٰ جزء من الكرة الأرضية كبير بما يكفي لتلبية المتطلبات المعقولة لأمتنا؛ والباقي سنتدبره بأنفسنا»(1). لم ينفرد هرتزل في تحليله واستنتاجاته، بل سبقه العديد من المفكرين اليهود -بما في ذلك مردخاي نوح، وتسفي كاليشر، وموسىٰ هيس، وليو بينسكر، وآخرون- ممن كتبوا بإسهاب حول المسألة اليهودية وحلها الصهيوني.

كانت الصهيونية قومية طوباوية للغاية، إذ كان عليها أن تخلق المكونات الأساسية للأمة؛ فلم يكن لدىٰ الشعوب اليهودية في أوروبا وطن قومي بعد، ولا يتشاركون نفس اللغة؛ وإذا نظرنا إلىٰ تلك الثلة القليلة من اليهود الأوروبيين الذين اختاروا الهجرة إلىٰ فلسطين قبل الثلاثينيات من القرن الماضي، فسيبدو

---

(1) Ibid., ix, 11.

جليًا أن «الأمة» اليهودية لم تكن تريد حتىٰ أن تُدعىٰ إلىٰ الوجود، ويظهر من اختيار الأغلبية وجهات غربية متنوعة دون فلسطين، أن التحول إلىٰ دولة ليس من أولويات اليهود. صحيحٌ أن اليهود المندمجين في أوروبا الغربية والأمريكيتين دعموا الصهيونية في نهاية المطاف بأموالهم وأقلامهم وأصواتهم، لكن كانت هذه الأدوار الوحيدة التي كانوا مستعدين لها في بناء الدولة اليهودية، فهم لم يريدوا أن يصبحوا محتلين في فلسطين(١).

كان الصهاينة بصدد خلق الأمة اليهودية التي لم تكن موجودة إلا في مخيلتهم(٢)، وقد أنجزوا ذلك المشروع بقوة التزامهم، وطاقتهم النيتشوية، وجرأتهم، وآلتهم الإعلامية، مستغلين رؤىٰ الهيمنة اليهودية، وإحياء المجد الأسطوري لمملكة داود، كما أعادوا إحياء لغتهم القديمة شبه الميتة، ودشنوا مشروعًا احتلاليًا استيطانيًا في فلسطين تحت رعاية القوىٰ الغربية؛ لقد كانوا يضعون أسس دولة يهودية في فلسطين عبر إنشاء تكتلات وبلدات ومنظمات عمالية وبنوك ومراكز تعليم يهودية، وبالتأكيد جيش يهودي. كان الصهاينة -في فلسطين- يقيمون دولة يهودية من خلال حروب لا نهاية لها، وعبر الشيطنة المستمرة للفلسطينيين؛ كما عملوا -دون كلل- علىٰ إدامة الحروب مع العرب، وفرضوا الخدمة العسكرية الإجبارية، ومنحوا الجنسية الإسرائيلية لجميع يهود الشتات. لقد كانوا يطوعون الأركيولوجيا وعلم الوراثة لمساعدتهم في تأكيد صحة التاريخ الكتابي والتأسيس لأسطورة نقاء العرق اليهودي.

---

(١) في عام ١٩١٩، اشتكىٰ سوكولوف (تاريخ الصهيونية History of Zionism, 296) من أن «الجالية اليهودية الرسمية [في بريطانيا]، بنظرتها الضيقة إلىٰ حدٍ ما، بدت متشككة في الصهيونية، وحتىٰ السنوات الأخيرة، كان أولئك الذين تبعوا هرتزل أقلية تكافح بشدة ضد قدر هائل من التحيز واللامبالاة».

(٢) كتب ليو بينسكر: «إن العلاج المناسب والوحيد [لتشرّد اليهود] هو **خلق جنسية يهودية** لشعب يعيش علىٰ أرضه، والتحرر الذاتي لليهود -تحررهم كأمة بين الأمم- يجب أن يكون من خلال الحصول علىٰ وطن خاص بهم» [التسويد مضاف].

shimoni, The Zionist Ideology, 34.

ظهرت إسرائيل بوصفها دولة قومية، لكن ليس بالطريقة التي كانت مألوفة في القرن العشرين؛ فلم يتم الأمر كما لو كان اليهود موجودين بالفعل في فلسطين -وطنهم المزعوم- لكن تحكمه نخبة أجنبية فلا بد من طردهم لإنشاء دولة يهودية[1]، بل قامت إسرائيل في فلسطين بمصادرة ممتلكات العرب الفلسطينيين. لم تبلغ «الأمة» اليهودية هدفها ما لم تحصل علىٰ الأرض أولًا؛ وبما أن الأرض التي كانت تطمع فيها لم تكن أرضًا «خلاء» -لا توجد أرض خلوٌ من أي حقوق علىٰ الإطلاق، إلا في خيال المحتلين- كان علىٰ اليهود أن يأخذوها من أولئك الذين يمتلكونها الآن؛ بعبارة أخرىٰ: إسرائيل وليدة حركة احتلالية استيطانية.

❁ ❁ ❁

لم يسعَ الصهاينة -في البداية- لإخفاء الطابع الاحتلالي لحركتهم عن جمهورهم الغربي؛ حيث لم يكن الإخفاء ضروريًا في عصر الإمبريالية العالمية والعنصرية الطاغية؛ لكن بمجرد بدء حركات التحرر الوطني في المستعمرات، كان عليها تغيير جلدها.

كانت النخب الغربية -في النصف الأخير من القرن التاسع عشر- مقتنعة بأن لديها الحق -أو ربما عليها واجب- في احتلال الأراضي التي ما زالت «خالية» في أفريقيا وآسيا، والتعامل مع السكان الأصليين بما يرونه مناسبًا[2]، حتىٰ الدول الأصغر في أوروبا الغربية -مثل البرتغال وهولندا وبلجيكا- استطاعت أن تحصل

---

(١) كتب هانز كون (Hans Kohn): «من الصعب الإجابة عن سؤال: ممن «تحررت» الأرض؟ أمن البريطانيين الذين كانت إدارتهم وحدها هي التي جعلت نمو الاستيطان اليهودي ضد إرادة الغالبية العظمىٰ من الفلسطينيين ممكنًا؟ أم من سكانها الأصليين الذين -علىٰ الرغم من احتلالهم من قبل إمبراطوريات أجنبية- كانوا يحرثون ويمتلكون الأرض لقرون عديدة؟»: Kohn, "Zion and the Jewish," 209.

(٢) يكشف سفين يندكفسيت (Sven Lindqvist) في مقاربته السرديّة للتاريخ [في كتابه]: («إبادة الهمج» Exterminate All the Brutes) العنصرية الفجة والإبادة الجماعية التي هيمنت على المواجهات الغربية مع «الآخر» خارج أوروبا.

علىٰ مستعمرات في آسيا وأفريقيا، كما كان من الممكن أيضًا تحويل المستعمرات إلىٰ إقطاعيات شخصية، ففي أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر، أنشأ ملك بلجيكا «ليوبولد» إقطاعية شخصية شاسعة هي ولاية الكونغو الحرة، وخلال العقود التي استمر فيها وجودها -من ١٨٨٤ إلىٰ ١٩٠٨- قتل النظام الوحشي الذي أحكم قبضته علىٰ هذه المستعمرة ما بين خمسة إلىٰ خمسة عشر مليون كونغولي، وشرد ملايين آخرين[١]، وردًّا علىٰ ذلك، كرّم الزعماء الأوروبيون الملك ليوبولد باعتباره رجل الإنسانية العظيم، الذي يسعىٰ إلىٰ «تمدين» الكونغوليين.

في هذه البيئة، لم يكن يساور الصهاينة أي قلق بشأن أخلاقيات خطتهم؛ ومع دخول القرن العشرين، أصبح من الصعب تمرير الانتهاكات الصارخة لحقوق «غير البيض» دون نقد وتنديد، ومع تنامي نفوذ حركات التحرير في المستعمرات، لم ترغب أيٌّ من القوىٰ الأوروبية أن يُنظر إليها علىٰ أنها تنتهك حقوق السكان الأصليين. بالإضافة إلىٰ ذلك، وُضعت الإمبراطوريات الاستعمارية في موقف دفاعي عندما أعلن الرئيس وودرو ويلسون (Woodrow Wilson) حق تقرير المصير؛ ففي عام ١٩١٨، أبلغ الكونغرس أن «حق تقرير المصير ليس مجرد كلمة نقولها؛ إنه مبدأ حتمي، وعلىٰ من سيتجاهله من الزعماء أن يتحمل المسؤولية من الآن فصاعدًا»[٢]، كان هذا -من ناحية ما- في مصلحة الولايات المتحدة، التي كانت تمتلك مستعمرات قليلة، ولكنها كانت تتوقع تحقيق مكاسب كبيرة من جراء تفكيك الإمبراطوريات الاستعمارية. لم يكن بإمكان بريطانيا -علىٰ وجه الخصوص- الحفاظ علىٰ هيمنتها العالمية بدون مستعمراتها الشاسعة.

أقضَّ ظهور حركات التحرر الوطني في المستعمرات خلال النصف الأول من القرن العشرين إلىٰ مضجع الصهاينة؛ لقد تقدّمت الحركة الصهيونية في عصر

(1) Hochschild, *King Leopold's Ghost*.

(2) Meyer, "Editorial Notebook."

انتصار وهيمنة الإمبريالية الأوروبية، والتي ضربت عنصريتها العميقة بحقوق الشعوب الأخرىٰ من غير البيض عرض الحائط. في الواقع، سعىٰ الصهاينة -علانية- إلىٰ أن يصبحوا جزءًا من هذه الحركة الاستعمارية، وكانت خطتهم هي حجز مقعد في عربة الإمبريالية الأوروبية، وإنشاء دولتهم في فلسطين علىٰ حساب العرب «المتخلّفين». علىٰ أية حال، اكتشف الصهاينة شيئًا فشيئًا أنهم -كجزء من التوسع الإمبريالي- أصبحوا الآن في موقف المتَّهمين، وأن وقود الإمبريالية بدأ ينفد؛ لقد أدرك الصهاينة أنهم يمكن أن يفقدوا استعلاءهم الأخلاقي علىٰ الفلسطينيين؛ لقد ركبوا العربة الخطأ في قطار التاريخ!

سعىٰ الصهاينة -من أجل كسب الوقت والشرعية- لإخفاء قرابتهم مع المستعمرين الأوروبيين، وعملوا -بدعم من آلاف الأيديولوجيات- علىٰ إعادة تشكيل حركتهم، وتغيير جلدها. بكل بساطة، سوف يسعون إلىٰ إعادة صياغة الصهيونية وإلباسها زيّ حركات التحرر الوطني، وكانوا يستعملون -بحماقة فجَّة- الحجة القائلة بأن اليهود شعب مضطهد، وأنهم ضحايا قرون من كراهية معاداة السامية، ويكافحون من أجل تحرير أنفسهم في فلسطين. إن الفصيل اليهودي الأوروبي، الذي احتلّ فلسطين تحت رعاية الإمبراطورية البريطانية، سيتنكّر -من الآن فصاعدًا- في زي حركة لتحرير اليهود.

لكن يظلّ علىٰ الصهاينة أن يشرحوا لماذا فلسطين بالذات، إذ أن هذه الأرض ملك لشعب آخر. في أي مكان آخر، قد يجادل الأيديولوجيون الصهاينة، سوف يستدعون الآن -بإصرار أكثر من ذي قبل- الأساطير القديمة لشعب الله المختار، والعهد الإلهي الذي قطعه الرب مع «أسلافهم»، والذي منح بموجبه هذه الأرض لبني إسرائيل إلىٰ الأبد، كما لعبوا علىٰ ارتباطهم القديم بفلسطين، وزعموا أن آبائهم قد دفنوا هناك، وأنهم لم يتخلّوا أبدًا عن آمالهم في استعادة هذه الأرض والعودة إليها، كما ادّعوا أن اليهود حافظوا دائمًا علىٰ وجودهم

-مهما كان صغيرًا- في فلسطين، ومن ثمّ، فإن حقوق ملكيتهم الحالية في فلسطين لا تزال سارية.

استخدم الصهاينة خلافاتهم مع البريطانيين -دولتهم الأم- لتزيين فكرة أنهم حركة تحرير. ظهرت هذه الخلافات في وقت مبكر، لكنها لم تصبح خطرة حتىٰ عام ١٩٣٩. لم يكف الصهاينة عن النواح عندما قام البريطانيون في عام ١٩٢٢ بترسيم حدود شرق الأردن -التي كانت جزءًا من انتدابهم في فلسطين- وجعلها منطقة حكم ذاتي وأغلقوها أمام المستوطنين اليهود[١]، تلا ذلك المزيد من خيبات الأمل، حيث كان رد فعل البريطانيين علىٰ المقاومة الفلسطينية المتصاعدة علىٰ غير ما كان يطمح فيه الصهاينة، حيث اتخذت بريطانيا إجراءات لإبعاد أنفسهم عن الأهداف الصهيونية. أخيرًا، حرصًا علىٰ تأمين الدعم العربي للحرب الوشيكة مع ألمانيا، أصدر البريطانيون الكتاب الأبيض (White Paper) في مايو ١٩٣٩[٢]، وأعلنوا فيه قيودًا جديدة مشدّدة علىٰ هجرة اليهود إلىٰ فلسطين خلال

---

(١) كما ترفض إسرائيل الآن تعيين حدودها، تجنب الصهاينة الأوائل أيضًا تحديد حدود دولتهم المتوقعة. طرحت العديد من الادعاءات المختلفة سرًّا حول الحدود المقترحة للدولة اليهودية، وبعضها أكثر طموحًا من البعض الآخر. وفي عام ١٩١٨ وصف ديفيد بن غوريون وإسحاق بن تسفي -في كتاب مكتوب باللغة اليديشية- دولة يهودية تمتد (علىٰ حد تعبير بني موريس Benny Morris) «من نهر الليطاني في جنوب لبنان، وسفوح جبل الشيخ ووادي الأعوج (جنوب دمشق مباشرة) في الشمال، إلىٰ خليج العقبة (إيلات) في الجنوب، وفي الغرب تصل إلىٰ العريش في سيناء، وفي الشرق ستمتد إلىٰ خط وعر بين العقبة وعمان»: Morris, Righteous Victims, 75.

(٢) الكتاب الأبيض أو الوثيقة البيضاء لسنة ١٩٣٩، ويُعرف أيضًا بمرسوم ماكدونالد -نسبة إلىٰ مالكوم ماكدونالد وزير المستعمرات البريطاني آنذاك- هي وثيقة سياسية أصدرها ماكدونالد تحت سلطة الحكومة البريطانية، تخلّت فيها بريطانيا عن فكرة تقسيم فلسطين إلىٰ دولتين إحداهما يهودية والأخرىٰ فلسطينية، وتعهدت بإيجاد وطن قومي لليهود في دولة فلسطينية مستقلة تكون محكومة من قبل العرب الفلسطينيين واليهود بناء علىٰ نسبة كل منهما لإجمالي سكان فلسطين خلال ١٠ سنوات. كما تعهدت بتحديد عدد اليهود المسموح لهم بالهجرة إلىٰ فلسطين في السنوات الخمس اللاحقة بـ ٧٥٠٠٠ ألفًا (١٩٤٠-١٩٤٤)، بحيث يتم قبول هجرة ١٠٠٠٠ يهودي سنويًا، ويتم زيادة هذا العدد ليصل إلىٰ ٢٥٠٠٠ سنويًّا. وبعد سنة ١٩٤٤ تصبح هجرة اليهود مقرونة =

السنوات الخمس المقبلة؛ وبعد هذه المدة، ستعتمد الهجرة علىٰ موافقة الفلسطينيين، وكانت هذه ضربة موجعة لتوقعات الصهاينة الذين أدانوا تلك التصريحات باعتبارها خيانة، وقرّروا معارضتها بكل الوسائل. رفض التيار الصهيوني السائد ذلك المرسوم سرًّا، في حين أن الجماعات الأصغر والأكثر ميلًا نحو العنف أطلقت حملة إرهاب ضد البريطانيين بمجرد انتهاء الحرب.

لم يخرج الصهاينة من «الكتاب الأبيض» خاليي الوفاض؛ فقد خلق لهم فرصة أفضل للتنكّر في صورة حركة تحرير، وبما أنها تسعىٰ الآن إلىٰ طرد بريطانيا الاستعمارية من فلسطين، فقد اكتسبت الصهيونية تشابهًا «سطحيًا» مع حركات التحرير. كان المستوطنون اليهود يصرّون علىٰ أنهم ضحايا قوة استعمارية؛ ولمنح حركتهم جوًّا من المصداقية، فإنهم استبعدوا الفلسطينيين من خطاباتهم. كانت هذه استراتيجية ذكية؛ لأن الصهاينة كانوا واثقين تمامًا من قدرتهم علىٰ إجبار البريطانيين علىٰ الانسحاب. في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي، نما عدد المستوطنين اليهود في فلسطين (ييشوف Yishuv)[١] ليصل إلىٰ نسبة ٣٠% من سكان فلسطين. بالإضافة إلىٰ ذلك، لم يواجهوا مقاومة شديدة من الفلسطينيين، فقد استُنْزِفت المقاومة الفلسطينية -بشكل خطير- بعد انتفاضتهم الفاشلة في أواخر الثلاثينيات، وأصبح قادتها ما بين مقتول، ومسجون، ومختفٍ أو منفي.

= بموافقة الأغلبية العربية الموجودة في فلسطين. كما كانت هذه الوثيقة تحتوي علىٰ قيود علىٰ حقوق اليهود في شراء الأراضي من العرب. رفض العرب هذه الوثيقة، كما رفضها اليهود علىٰ الفور؛ ولم ينفذ شيء منها، أولًا لمعارضة تشرشل لها، وثانيًا لقيام الحرب العالمية الثانية. (المترجم).

(١) الييشوف (Yishuv): مصطلح يُطلق في الكتابات الصهيونية علىٰ التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين قبل قيام الكيان الصهيوني. وقد تطور الييشوف بسرعة أثناء فترة الانتداب البريطاني علىٰ فلسطين بعد أن منحه هذا الانتداب نوعًا من الاستقلال الذاتي والإدارة الذاتية، حيث سُمِح لمؤسسات الييشوف بالإشراف علىٰ المؤسسات الصحية والتعليمية اليهودية، وجباية الضرائب من اليهود، للإنفاق علىٰ الخدمات العامة وشؤون الييشوف الأخرىٰ. كما أقام الييشوف أجهزة أخرىٰ مثل نقابات العمال (الهستدروت). (المترجم).

لقد غيّر الصهاينة الآن جلدهم، وتحولوا إلىٰ نبرة جديدة، فالييشوف هم الملاك الشرعيون لفلسطين، وهم الآن يقاتلون ضد قوة استعمارية من أجل حريتهم[١]، وأصبح هذا -منذ ذلك الحين- جزءًا من الرواية الرسمية للصهيونية. كتب آفي شلايم (Avi Shlaim) -وهو صهيوني ليبرالي- «إن الصهيونية هي حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي، ودولة إسرائيل هي هيكلها السياسي»[٢]، ادّعىٰ الصهاينة الآن أنهم إخوة الهنود والإندونيسيين والفيتناميين والفلبينيين والمصريين في الكفاح، فقد شاركت هذه الدول المحتلة معًا في صراع مشترك ضد استبداد القوىٰ الاستعمارية الغربية.

فضّل الصهاينة عدم وضع كل أساطيرهم في سلة أيديولوجية واحدة؛ لقد استخدموا استراتيجية مطّاطة لصرف الانتباه عن طابعهم الاستعماري، وشدّدوا علىٰ التناقضات -الحقيقية والمفتعلة- بينهم وبين العرب، حتىٰ أن العديد من هذه التناقضات قد تقرّر بمرور الوقت، ففي العقود التي سبقت إنشاء إسرائيل -كما في العقود الأولىٰ من تاريخ إسرائيل- أكّد الصهاينة علىٰ طابعهم التقدمي والاشتراكي في مقابل الطابع القبلي والإقطاعي للمجتمع العربي. يمكن للصهاينة أن يشيروا إلىٰ المفكرين الاشتراكيين في صفوفهم -مثل بير بوروشوف (Ber Borochov) وآرون ديفيد جوردون (Aaron David Gordon)- الذين حلّلوا الصهيونية بلغة ماركسية، مشيرين إلىٰ الصراع الطبقي، وزعموا أن الصهيونية هي حركة

---

(١) ظاهريًا، يبدو أن الصهاينة علىٰ حق. كيف يمكن ألا تكون الصهيونية حركة تحرير في ظل الكفاح المسلح الذي كان علىٰ اليهود خوضه ضد قوة احتلالية كانت تحتل فلسطين؟ قدّم المؤرخ الماركسي إسحاق دويتشر (Isaac Deutscher) ردًّا موجزًا علىٰ المنطق الخادع لهذا الادّعاء حيث كتب: «حقيقة أن الجالية اليهودية في فلسطين قاتلت البريطانيين بعد ذلك ليست دليلًا علىٰ أنها ليست نبتة استعمارية أكثر من كون الحروب المماثلة للمستعمرين البريطانيين ضد الدولة الأم من الثورة الأمريكية إلىٰ روديسيا. في حالة فلسطين -كما هو الحال في صراعات أخرىٰ- تعرضت الدولة الأم للهجوم لأنها أظهرت اهتمامًا أكبر بالأغلبية من السكان الأصليين الأمر الذي لم يكن مستساغًا بالنسبة للأقلية المستعمِرة». Kushner and Solomon, Wrestling Zion, 30.

(2) Shlaim, "Why Zionism Today."

للبروليتاريا اليهودية تسعىٰ إلىٰ تأسيس مجتمع لا طبقي في فلسطين، ودعمًا لطابعهم الاشتراكي، لفتوا الانتباه إلىٰ الكومونات اليهودية في فلسطين، التي كانت قائمة علىٰ أخلاقيات احترام العمل، والعمل المشترك، والحياة المجتمعية. كانت هيمنة حزب العمل في الحركة الصهيونية -وفي السياسة الإسرائيلية لعدة عقود- تأكيد آخر علىٰ روح الاشتراكية في الطابع الصهيوني. علىٰ الأقل، بدا أن السوفييت أيضًا صادقوا علىٰ الادعاءات الاشتراكية للصهاينة عبر تقديم دعم دبلوماسي حاسم لهم في الأمم المتحدة في عام ١٩٤٧، ليصبحوا أول دولة تعترف قانونيًّا بإسرائيل، كما أصدرت تعليمات لتشيكوسلوفاكيا بتزويدها بالأسلحة الثقيلة والطائرات العسكرية خلال السنوات الحاسمة من عام ١٩٤٧ إلىٰ عام ١٩٤٩. كان المستوطنون اليهود في فلسطين -كما يشير ماكسيم رودنسون (Maxine Rodinson)- يؤسسون مجتمعًا «تتخلّله الروح الاشتراكية بعمق»[١]، كيف يمكن لأي شخص إذن أن يتّهم الصهاينة بأنهم إمبرياليون أو استعماريون؟

لتلميع أوراق اعتمادهم لدىٰ القوىٰ الغربية، لا يتوقف الصهاينة أبدًا عن لفت الانتباه إلىٰ الفارق الشاسع بين «ديمقراطيتهم» والأنظمة الاستبدادية العربية، ويشيرون إلىٰ أنه علىٰ العكس من ديمقراطية إسرائيل، فإن العالم العربي مليء بأنظمة استبدادية -ملكية عائلية، وحكم أقلية ديكتاتورية ينتقل فيها الحكم إلىٰ الأبناء- وبمرور الوقت، وسّع الصهاينة قائمة هذه التناقضات، وما سردناه هنا ما هو إلا قليل من كثير؛ لدىٰ إسرائيل احترام عميق للحياة البشرية، وتمنح حقوقًا متساوية للمرأة وللشواذ جنسيًّا، بخلاف العرب. يجب أن يلاحظ المرء أن هذه القائمة مبنية بالكامل علىٰ رواية من جانب واحد؛ ففي الولايات المتحدة علىٰ وجه الخصوص، يسمع المرء فقط عن إيجابيات إسرائيل وسلبيات العرب. لقد نجحت إسرائيل بشكل شبه كامل في تركيز انتباه الأمريكيين علىٰ مدىٰ تقدّم إسرائيل، ومدىٰ تخلّف العرب.

---

(1) Rodinson, *Israel: A Colonial Settler State*, 30.

يتقن القادة الصهاينة خلق ونشر الأساطير حول الصهيونية وإسرائيل، وهم أذكياء جدًّا لدرجة أنهم لا يمكنهم الانخراط في تصديق أكاذيبهم، وستكون ضربة قاصمة للمؤسسة الاستعمارية إذا بدأ أولئك الذين خططوا لها ونفذوها يأخذون أساطيرهم علىٰ محمل الجد[1]. يجب علىٰ الاحتلال الاستيطاني الإقصائي إذا كان مخططًا له أن ينجح -وقد يكون الفشل مكلفًا للغاية- أن يفعل ما يجب القيام به دون شفقة. يجب طرد المواطنين، وعليها أن تزيد من الضغط عليهم كل يوم لتدفعهم للمغادرة، وإذا لم يغادروا طواعية، فيجب طردهم بالقوة؛ وأولئك الباقين داخل حدودهم يجب وضعهم في ضاحية المجتمع الاستيطاني. لم يظهر الصهاينة ولو القليل من التعاطف مع ضحاياهم العرب، وبالفعل فإن الصهاينة لا يألون جهدًا في تقريع القلة من اليهود -داخل إسرائيل أو خارجها- الذين يتجاوزون الخط الأحمر، ويحثون علىٰ مراعاة حقوق الفلسطينيين، ويُنظر إليهم علىٰ أنهم خونة، ويهود يكرهون أنفسهم. لا تخرج آراء المعارِضين من اليهود داخل إسرائيل -وخاصة في الولايات المتحدة- إلىٰ النور أبدًا.

---

(١) في محادثة مع نعوم غولدمان (Nahum Goldmann) عام ١٩٥٥ أعلن بن غوريون «لماذا يجب علىٰ العرب أن يجنحوا للسلام؟ لو كنتُ زعيما عربيًّا ما تصالحتُ مع إسرائيل؛ هذا طبيعي، ببساطة: لقد غصبنا بلادهم. من المؤكد أن الله قد وعدنا بذلك، لكن ماذا يعني ذلك بالنسبة إليهم؟ إلهنا ليس إلههم. لقد جئنا من إسرائيل، لكن قبل ألفي سنة، ماذا يفترض أن يعني ذلك لهم؟ كل ما حدث ما هو إلا نتاج صور مختلفة لمعاداة السامية: النازيون، هتلر، أوشفيتز؛ لكن هل كان هذا خطؤهم؟ إنهم يرون شيئًا واحدًا فقط: أننا جئنا إلىٰ هنا واغتصبنا بلادهم، لماذا عليهم إذن أن يقبلوا ما حل بهم؟ ربما ينسون ما حدث بعد جيل أو جيلين، لكن لا توجد فرصة لذلك في الوقت الحالي. لذا، الأمر بسيط: علينا أن نبقىٰ أقوياء، ونحافظ علىٰ جيشنا قويًّا؛ وإن لم تكن سياستنا هي الحاكمة؛ فسوف يمحونا العرب»:

Goldmann, The Jewish Paradox, 99.

الفصل الثامن
أرض بلا شعب

«بمجرد أن يكون لدينا مستوطنة كبيرة هنا، سنستولي علىٰ الأرض، وسنصبح أقوياء؛ وبعد ذلك سنوجه اهتمامنا للضفة الغربية [لنهر الأردن]؛ سنطردهم من هناك أيضًا . . . فليعودوا إلىٰ حيث جاؤوا».
مستوطن يهودي، ١٨٩١

«يجب أن نكون مستعدين إما لطرد القبائل [العربية] المجاورة لنا بالسيف -كما فعل أجدادنا- أو أن نواجه أزمة العيش مع عدد كبير من سكان أجانب، معظمهم من المسلمين الذين اعتادوا علىٰ كرهنا لقرون».
إسرائيل زانجويل (Israel Zangwill)، ١٩٠٥

«يجب أن تكون فلسطين يهودية تمامًا مثلما أن إنجلترا إنجليزية، وأمريكا أمريكية».
حاييم وايزمان (Chaim Weizmann)، ١٩١٩

«أنا أدعم الترحيل الإجباري للفلسطينيين . . . ولا أرىٰ فيه شيئًا غير أخلاقي».
ديفيد بن غوريون (David Ben-Gurion)، ١٩٣٨

«ما كان لدولة يهودية أن تقوم هنا دون اجتثاث الفلسطينيين».

بيني موريس (Benny Morris)، ٢٠٠٤[١]

إليك بعض التواريخ والأرقام التي تشهد علىٰ التحول الديموغرافي الذي أحدثه الصهاينة في فلسطين خلال النصف الأول من القرن العشرين:

في بداية القرن التاسع عشر، كان هناك ٧٠٠٠ يهودي يعيشون في فلسطين العثمانية، أي ما يعادل ٢,٥٪ فقط من سكانها[٢]، وبحلول نهاية هذا القرن في عام ١٨٨٢، ارتفع عددهم إلىٰ ٢٤٠٠٠ لتزداد نسبتهم من إجمالي عدد السكان إلىٰ ٨٪. في عام ١٩١٨ -بعد ٣٦ عامًا من الجهود المنظمة لإنشاء مستعمرات يهودية- نما عدد السكان اليهود في فلسطين إلىٰ ٦٠٠٠٠؛ لكن لم تتجاوز نسبتهم ٩,١٪ من السكان، وعلىٰ مدىٰ العقود الثلاثة التالية -بعد وعد بلفور عام ١٩١٧- تسارع معدل نمو السكان اليهود بشكل كبير؛ ففي عام ١٩٤٦، زاد عدد السكان اليهود إلىٰ ٥٤٣٠٠٠، أي تسعة أضعاف ما كان في عام ١٩١٨، وخلال نفس الفترة، زادت نسبتهم من إجمالي السكان أيضًا بأكثر من ثلاثة أضعاف لتصل إلىٰ ٣٠٪، وفي عام ١٩٤٩، ارتفع عدد السكان اليهود في إسرائيل -الذين استولوا علىٰ ٧٨٪ من فلسطين التي كانت تحت الانتداب البريطاني- ليصل إلىٰ ١,٠١٤,٠٠٠؛ بالمقابل، انخفض عدد السكان العرب في هذه المناطق إلىٰ ١٦٠٠٠٠؛ لتكون نسبة اليهود والعرب في إسرائيل الآن ٨٦,٤٪ و١٣,٦٪ علىٰ الترتيب[٣]، في وقت قصير جدًّا: أصبح الفلسطينيون «أقلية» في ٧٨٪ من أرضهم.

---

(1) Masalha, Expulsion of the Palestinians, 9-10; Hirst, The Gun and the Olive Branch, 161; Morris, The Birth of the Palestinian, 50; Shavit, "Survival of the Fittest."

(2) DellaPergola, Demography in Israel /Palestine.

(3) Jewish Virtual Library, Jewish and non-Jewish Population of Palestine-Israel.

في عام واحد -١٩٤٨- انخفض عدد السكان العرب في الأراضي التي احتلتها إسرائيل من رقم قريب من المليون إلىٰ ١٥٩,٠٠٠[1]، أين ذهب كل هؤلاء العرب؟ هل ذهبوا في تطهير عرقي -تحت ستار حرب ١٩٤٨- من قبل الجيش الإسرائيلي والجماعات اليهودية المسلحة الأخرىٰ؟ أكّد الصهاينة مرارًا -في روايتهم الرسمية للأحداث- أنهم لم يطردوا السكان العرب من إسرائيل، ولم تكن هناك مذابح ولا اغتصاب ولا نهب لممتلكات العرب؛ لقد غادر العرب طواعيةً بناء علىٰ نصيحة قادتهم، حتىٰ لا يقفوا في طريق الجيوش العربية المنتصرة التي كانت تتقدم في فلسطين. هذه إحدىٰ الأساطير الراسخة التي خلقتها الصهيونية بعد حرب ١٩٤٨.

لم تسمح إسرائيل للعرب الفلسطينيين بالعودة إلىٰ ديارهم داخل إسرائيل[2]، حيث ترىٰ إسرائيل أن العرب لا يمكنهم العودة لأنهم ببساطة قد غادروا «طواعية»؛ لقد أظهروا بمغادرتهم «طواعية» نوايا عدائية تجاه إسرائيل، وإذا عادوا، فإنهم سيسعون لتقويض إسرائيل من الداخل. نفت إسرائيل أنها شاركت في تطهير عرقي لسكانها العرب؛ ومع ذلك، فقد ضمنت نفس النتيجة بمنع عودتهم. تريد إسرائيل أن تلعب علىٰ الجانبين؛ حيث تريد التنصل من تهمة التطهير العرقي، وفي نفس الوقت تضمن نفس النتيجة من خلال منع عودة الفلسطينيين.

---

(١) في عام ١٩٩٤، قام إيليا زريق «(اللاجئون الفلسطينيون» "Palestinian Refugees," 11) بمسح التقديرات المختلفة لأعداد الفلسطينيين المطرودين من إسرائيل: تتراوح هذه التقديرات من ٧٠٠٠٠٠ إلىٰ ٨٠٠٠٠٠؛ لكن سلمان أبو ستة (النكبة الفلسطينية، The Palestinian Nakba, 14) يؤكد أن عدد المطرودين بلغ ٩٣٥,٠٠٠.

(٢) كما مُنع العديد من العرب الذين أجبروا على الفرار من ديارهم عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩ من العودة إلى ديارهم، وأصبحوا لاجئين داخل إسرائيل. Masalha، Catastrophe Remembered

هذه واحدة من العديد من الأساطير الصهيونية التي يتم تداولها ک «تاريخ حقيقي» في الغرب؛ فبحسب «الرواية» الصهيونية الرسمية: لطالما أراد اليهود في فلسطين العيش بسلام مع العرب، وسعوا إلىٰ تقاسم الأرض معهم بشكل منصف، ألم يقبلوا خطط التقسيم التي اقترحتها لجنة بيل والأمم المتحدة؟[١] لكن العرب هم من رفض التعايش؛ لقد هاجموا إسرائيل عشية استقلالها، عازمين علىٰ تدمير الدولة الناشئة حديثًا واستئصال اليهود. لقد انتصرت إسرائيل في حرب عام ١٩٤٨ فقط بالعون الإلهي وبفارق ضئيل، ومنذ ذلك الحين أُجبرت علىٰ خوض العديد من الحروب التي فرضها عليها العرب. قامت إسرائيل بالعديد من مبادرات السلام منذ عام ١٩٤٨، لكن العرب رفضوها. من المعقول أن تحظىٰ أساطير كل أمة بتأييد داخل هذه الأمة؛ إلا أن الأساطير الإسرائيلية تحظىٰ بمصداقية ترفعها إلىٰ درجة الوقائع التاريخية في كل دولة غربية.

بدأت معارضة أسطورة المغادرة الفلسطينية الطوعية من قبل أربعة مؤرخين إسرائيليين في أواخر الثمانينيات. وبالاعتماد علىٰ الأرشيفات الرسمية التي أتيحت مؤخرًا للجمهور، قدموا سردًا جديدًا لتاريخ إسرائيل المبكر يتعارض بشكل كبير مع الروايات الرسمية[٢]، والأهم من ذلك، أن هؤلاء المؤرخين -الذين ينظر إليهم علىٰ أنهم تحريفيون- قد وضعوا الأمور في نصابها الصحيح فيما يتعلق

(١) تعرف رسميًّا باسم «اللجنة الملكية لفلسطين»، وقد كانت لجنة تحقيق ملكية بريطانية نظمت لاقتراح تغييرات علىٰ الانتداب البريطاني علىٰ فلسطين في أعقاب اندلاع الثورة العربية في فلسطين ١٩٣٦-١٩٣٩. كان يرأسها الإيرل بيل. في ١١ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٣٦ وصلت اللجنة فلسطين للتحقيق في الأسباب وراء الانتفاضة، وجاء في تقرير اللجنة الذي نشر في ٨ يوليو ١٩٣٧ اقتراحًا بإنشاء ثلاثة أقاليم في فلسطين: إقليم تحت الانتداب البريطاني يضم بيت لحم والناصرة، ودولة يهودية، ويتحد الجزء الباقي مع شرق الأردن ويكونا دولة عربية. (المترجم).

(٢) يحدد آفي شلايم (Avi Shlaim) (The Iron Wall, xiii) أربعة أعمال نُشرت جميعها في أواخر الثمانينيات مع بداية ظهور هذه الكتابات التاريخية الجديدة:

Flapan, The Birth of Israel; Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-49; Pappé, Britain and Arab-Israeli Conflict; and Shlaim, Collusion across the Jordan.

ثم تبع هذه الكتابات كتابات أخرىٰ:

pappé, The Ethnic Cleansing of plastine; and Morris, 1948: A History.

بقضية اللاجئين الفلسطينيين عام ١٩٤٨؛ فلم يغادر الفلسطينيون طواعية، بل طُردوا بالقوة من قبل الإسرائيليين وفقًا لخطّة مسبقة؛ وخلال هذه العملية، ارتكب الجيش الإسرائيلي والجماعات اليهودية المسلحة الأخرىٰ عشرات المذابح بحق المدنيين الفلسطينيين، وارتكبوا المئات من عمليات الاغتصاب. ليس من المستغرب ألا ينجح هذا التاريخ الذي خرج إلىٰ النور مؤخرًا في زعزعة أسطورة المغادرة الطوعية للفلسطينيين؛ بل ما حدث هو خروج كتابات جديدة مخصصة لتشويه ودحض هذه السردية التاريخية الجديدة ورمي أصحابها بالهرطقة[١].

❁ ❁ ❁

لطالما رأىٰ التيار الصهيوني الرئيسي أن تهجير الفلسطينيين -بطريقة أو بأخرىٰ- ضروري لإتمام مهمتهم؛ لكنهم آثروا إبقاء هذا طي الكتمان.

كانت الخطة الصهيونية لإقامة دولة يهودية في فلسطين طموحًا جذريًا بكل المقاييس؛ فقد أرادوا دولة يهودية لليهود وباليهود في فلسطين، وستكون تلك الدولة دولة احتلالية استيطانية تستأصل كل من يقف في طريقها؛ إنها ستعيد تمثيل تاريخ الولايات المتحدة وأستراليا، اللتين أبادتا غالبية السكان الأصليين وحاصرت بقاياهم في المعسكرات. لم يرغب الصهاينة في وجود أي عربي في دولتهم، ولا حتىٰ كعمالة رخيصة؛ إنهم لا يريدون إلا الأرض.

استمد الصهاينة بعضًا من سمات القومية الرومانسية في القرن التاسع عشر، التي اعتبرت أن الأمة ما هي إلا شعب تجمعه رابطة الدم والنسب والتاريخ والأرض؛ وكيّف الصهاينة هذه المكونات بما يتناسب مع اليهودية فأضافوا مكونًا آخر هو: عقيدة الاختيار[٢]، وبما أنها ستكون أداةً، وكيانًا سياسيًّا وتاريخيًّا للأمة اليهودية، ستتألف الدولة اليهودية من اليهود فقط وتمثّل إرادتهم؛ وإذا كان لابد من استيعاب العرب الفلسطينيين -لأسباب لا مفرّ منها- داخل حدود الدولة

---

(1) Karsh, Fabricating Israeli History.

(2) Finkelstein, Image and Reality, 8.

اليهودية، فلن يتمكّنوا من التمتّع بحقوق متساوية مع اليهود، بل سيتعين طردهم -في وقت معين-، فلا يمكن أن تنتمي الدولة اليهودية إلا إلىٰ اليهود.

من حيث المبدأ: يمكن للصهاينة إنشاء أغلبية يهودية كبيرة في فلسطين دون طرد السكان الأصليين، فقد تحدّث حاييم وايزمان في عام ١٩١٩ عن خلق مثل هذه الظروف في فلسطين حيث «إنه مع تطور البلاد، يمكننا ضخّ عدد كبير من المهاجرين، وأخيرًا سنتمكن من إنشاء مثل هذا المجتمع في فلسطين، بحيث تكون فلسطين يهودية تمامًا، مثلما أن إنجلترا إنجليزية، وأمريكا أمريكية»[1]، ومع ذلك، لم يكن هذا اقتراحًا عمليًّا، ولم يكن بإمكان الصهاينة أن يتوقعوا اجتذاب ملايين اليهود إلىٰ فلسطين -بما يكفي لتحويل الفلسطينيين إلىٰ أقلية صغيرة-، في الوقت الذي كان عليهم فيه إنشاء دولة يهودية؛ لقد كان الصهاينة في سباق حاد ضد القوميين العرب الذين كانوا يتقدّمون بسرعة؛ وللفوز بهذا السباق، لم يكن بإمكان الصهاينة انتظار وصول الملايين من المستعمرين اليهود؛ لأن هذا سيتطلب أكثر من بضعة عقود؛ فقط من خلال طرد السكان الأصليين، كان من الممكن أن يتوقع الصهاينة خلق أغلبية يهودية كبيرة في فلسطين، وكانت هذه الأغلبية شرطًا لا غنىٰ عنه للدولة اليهودية.

وكان يمكن للصهاينة -بدلًا عن ذلك- اختيار إنشاء دولة يهودية دون أغلبية يهودية؛ فعبر الاستعانة بقوتهم كدولة سيكون لديهم الوقت لجذب ملايين المهاجرين اليهود، ومن ثمّ خلق أغلبية يهودية دون اللجوء إلىٰ التطهير العرقي للسكان الأصليين، لكن علىٰ الرغم من الجاذبية الظاهرية لهذا الاقتراح، إلا أنه لن يكون عمليًّا، حيث إنه سيجبر الدولة اليهودية علىٰ أن تبدو «سلطوية»؛ لأنهم لا يستطيعون إعطاء حق التصويت لليهود إلا إذا منعوه عن العرب. إن الفصل العنصري العلني في إسرائيل -في هذه المرحلة- يمكنه أن يجرّ إسرائيل إلىٰ مصافّ العالم الثالث، وحينها ستفقد إسرائيل بريقها أمام الجماهير الغربية؛ وفي

(1) Hirst, The Gun and the Olive Branch, 161.

ظل هذه الظروف، سيجد الفلسطينيون أنه من الأفضل المطالبة بحقوق متساوية في الدولة الجديدة، وإذا اختار الفلسطينيون -إضافة إلىٰ ذلك- الكفاح المسلح لمقاومة الفصل العنصري الإسرائيلي -بدعم من الدول العربية المجاورة-؛ فسيكون من الصعب الاستمرار في جذب المستعمرين اليهود، بل قد يختار بعض المستوطنين اليهود الانتقال إلىٰ مواقع أكثر أمانًا، لذا، سارع الصهاينة في تكوين أغلبية يهودية في أول فرصة أتيحت لهم: حرب ١٩٤٨.

كان إنشاء دولة احتلالية استيطانية إقصائية مبرَّرًا -بالنسبة إلىٰ الصهاينة- بتهديد معاداة السامية. لقد جادل مؤسسو الصهيونية بأن معاداة السامية سببها الأساسي تواجد اليهود بين الأغيار، وإن هذه المعاداة تصل إلىٰ ذروتها عندما يصل اليهود إلىٰ مكانة اجتماعية واقتصادية مرموقة، أو عندما يضطر الأغيار إلىٰ التنافس مع اليهود في سباق التقدّم في التجارة والصناعة والمهن والأوساط الأكاديمية[١]. وإذا كانت الدولة اليهودية ستقدّم ملاذًا آمنًا ضد معاداة السامية، وستحمي اليهود من معاداة السامية؛ فهذا يعني أنها ستضطر إلىٰ عزلهم عن الأغيار (الوثنيين)؛ وأغلبية يهودية ساحقة وحدها هي ما يمكنها ضمان ذلك؛ ومن هنا نفهم ما كتبه إسرائيل زانجويل: «إنها لحماقة كبرىٰ أن نجعل فلسطين دولة لشعبين، لن نجني من وراء هذا إلا المشاكل»[٢].

---

(١) وفقًا لهرتزل (الدولة اليهودية، ١٠) فإن «السبب المباشر «لمعاداة السامية» هو إنتاجنا المفرط للمفكرين السطحيين، الذين لا يستطيعون إيجاد حلول فعالة للمسألة اليهودية، فعندما نطمس قدراتنا، نصبح بروليتاريا ثورية، وضباطًا تابعين للحزب الثوري. لكن عندما نرتقي، تظهر القوة الرهيبة للعقل اليهودي».

(٢) اقترح إسرائيل زانجويل طرد الفلسطينيين؛ ففي وقت مبكر من عام ١٩٠٥ أعلن أنه «[يجب] أن نكون مستعدين إما لطرد القبائل العربية بقوة السيف، كما فعل أجدادنا، أو نكون علىٰ استعداد للتصدي لمشاكل وجودنا بين عدد كبير من السكان الأجانب، معظمهم من المسلمين الذين اعتادوا علىٰ كرهنا لقرون». انظر: Masalha, Expulsion of the Palestinians, 10.

جادل الصهاينة العلمانيون بأن الوجود العربي الكبير فيما يعدونه «أرض إسرائيل» يهدد هدفهم في إنشاء مركز للقوة اليهودية. إن الأمر لا يقتصر علىٰ كون العرب -بدينهم وثقافتهم وتاريخهم- يعارضون مشروع الدولة اليهودية، بل يشكّلون تهديدًا داخليًا لأمنها. في كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧، وعند مراجعة التركيب السكاني للدولة اليهودية التي اقترحتها خطة التقسيم المقدمة من الأمم المتحدة؛ وُجد أن الفلسطينيين العرب يشكلون ٤٢% من سكانها، حينها قال ديفيد بن غوريون للجنة المركزية للهستدروت[١]: «لا يمكننا الحديث عن دولة يهودية قوية ومستقرة طالما أن أغلبيتها اليهودية تمثل ٦٠% فقط»[٢]. لم يكن إيجاد أغلبية يهودية غاية في حد ذاته؛ بل كان شرطًا مسبقًا لتحقيق الأهداف الأكثر طموحًا للصهيونية، كما يرىٰ بن غوريون أن «إيجاد أغلبية ليس سوىٰ مرحلة علىٰ طريقنا، وهي مرحلة مهمة وحاسمة بالمعنىٰ السياسي، فمن هناك يمكننا المضي قدمًا في أنشطتنا في جو من الهدوء والثقة وسط حشود الجماهير من شعبنا في هذا البلد ***وما حوله***»[٣] [التسويد مضاف]. فمن أجل متابعة طموحاتهم في «ثقة وهدوء»؛ يجب علىٰ الصهاينة ضمان أغلبية يهودية كاسحة في دولتهم.

كما حثّت طبقة العمال الصهاينة علىٰ خلق شعب متجانس عرقيًا في فلسطين، وكان رأيهم أن غياب الطبقة اليهودية العاملة في الشتات قد شوّه الشخصية اليهودية؛ فبعد استبعادهم من مهام الزراعة والجيش والحكومة، أُجبر اليهود علىٰ أن يصبحوا تجارًا وأصحاب متاجر ومرابين[٤]. ومن أجل إعادة الأمة

---

(١) الهستدروت (Histadrut): الاتحاد العام لنقابات العمال الإسرائيلية، تأسس في حيفا في ديسمبر ١٩٢٠ كنقابة عمال يهودية تحت الانتداب البريطاني علىٰ فلسطين، وهو الآن مؤسسة نقابية في إسرائيل. (المترجم).

(2) Ibid., 176.

(3) Finkelstein, Image and Reality, 8-9.

(4) Ibid., 9; Sternhell, The Founding Myths, ch. 2.

اليهودية إلىٰ الكمال الذي يحققه العمل في الأرض وفي المصانع؛ كانت الطبقة العاملة الصهيونية ملتزمة بخلق طبقة عاملة يهودية في المستعمرات، والأهم من ذلك: أن هذا يعني أن الشركات اليهودية لن توظف أي عمال عرب، وبإصرارهم علىٰ تكوين طبقة عاملة يهودية، ستساهم هؤلاء الصهاينة من طبقة العمال في إنشاء مجتمع لا مكان فيه للعرب، ولا حتىٰ كطبقة من العمال المستغَلين. لقد ضمنت أهداف الصهيونية العمّالية أن المجتمع اليهودي -علىٰ عكس الفصل العنصري في جنوب أفريقيا- لن يعود بأي فائدة علىٰ العمّال المحليين؛ ومن المفارقات: أن «الاشتراكيين» -أكثر من أي اتجاه سياسي آخر في الصهيونية- قدموا أقوىٰ الحجج والتسهيلات لإقامة دولة استعمارية استيطانية إقصائية في فلسطين[١].

عارض عدد قليل من الصهاينة إقصاء العرب، لكنهم بقوا علىٰ هامش الحركة الصهيونية؛ نذكر منهم علىٰ وجه الخصوص مجموعتين صغيرتين: بريت شالوم (Brit Shalom) -التي توقفت عن العمل في أوائل الثلاثينيات- والإيهود (Ihud) -التي ظهرت في عام ١٩٤٢-، وقد دعتا إلىٰ التعايش مع العرب في دولة ذات ثنائية قومية، وحذرتا من الصعوبات -والكوارث- التي ستجلبها الرؤية الصهيونية التي تستبعد العرب من فلسطين، ومع أن هذا الفصيل من الصهيونية ضمّ بعض الأسماء البارزة -مثل يهوذا ماغنيس (Judah Magnes) ومارتن بوبر (Martin Buber)- إلا أن آراءهم ظلت علىٰ هامش خريطة السياسة الصهيونية[٢].

---

(١) تأتي الدول الاستعمارية الاستيطانية في ثلاثة أشكال علىٰ الأقل؛ الأول: ينتهي الأمر بالمستوطنين الأجانب في المستعمرة بتشريد أو إبادة جميع «السكان الأصليين» أو غالبيتهم، وتعرف هذه بمستعمرة المستوطنين الإقصائية. وفي الشكل الثاني، يستولي المستوطنون علىٰ أفضل الأراضي ويستخدمون السكان النازحين كاحتياطي من العمالة الرخيصة، وتعرف تلك بمستعمرة المستوطنين المختلطة. في الشكل الثالث، يستبدل المستوطنون في المستعمرة السكان الأصليين المنقرضين -الذين قتلوا بسبب الأمراض، أو وحشية المستعمرين، أو كليهما- بالعبيد المستوردين أو العمال بعقود؛ وتعرف بمستعمرة المستوطنين المصطنعة. انظر: Fieldhouse, Colonial Empires, 11-12.

(2) Masalha, Expulsion of the Palestinians, 27.

من المفهوم أن يسعىٰ الصهاينة لإخفاء نيتهم المبيّتة لخلق أغلبية يهودية في فلسطين، بعمليات التطهير العرقي للفلسطينيين العرب أو بدونها؛ لقد ناقشوا هذه الأمور منفردين، كما صاغوا أفكارهم في مذكرات ورسائل شخصية، أما في العلن فقد واصل الصهاينة -في الأربعينيات من القرن الماضي- إصرارهم علىٰ أن هناك مكانًا في فلسطين لكلا الشعبين(١). وبالفعل، استمروا في تذكير العرب بالفوائد التي لا تقدر بثمن التي سيجلبها لهم الاستيطان اليهودي.

يقدم تيودور هرتزل مثالًا مبكرًا علىٰ هذه الازدواجية في رسالة كتبها في مارس ١٨٩٩ إلىٰ يوسف ضياء الدين الخالدي، رئيس بلدية القدس وعضو البرلمان العثماني. شرح هرتزل للخالدي -بلطفٍ جمٍّ- كل الطرق التي سيعود بها الاستعمار اليهودي بالنفع علىٰ الدولة العثمانية، وعلىٰ العرب في فلسطين، ولما كتب له رئيس البلدية خطابًا يعبر فيه عن قلقه من عزم اليهود علىٰ تهجير العرب من فلسطين، كتب هرتزل بحماس: «من قال أننا سنطردهم؟ إن رفاههم وثروتهم ستزداد أضعافًا عندما تمتزج مع ثرواتنا»، وأضاف أن فلسطين «هي وطنهم التاريخي»(٢)، لكن قبل ذلك، في عام ١٨٩٧، كرّس الصهاينة -بقيادة تيودور هرتزل- أنفسهم لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، ولنا أن نتساءل: هل يمكنهم أن يفعلوا ذلك دون الإطاحة بالعرب؟

---

(١) «ظلّ التعليم العام الصهيوني -في مطلع القرن العشرين وحتىٰ الأربعينيات- يؤكد علىٰ أن هناك مساحة كافية لكلا الشعبين في فلسطين، وأنه لا داعي لأن يكون هناك تهجير للعرب لإفساح المجال للمهاجرين الصهاينة أو الدولة اليهودية. لم تكن هناك حاجة لتهجير العرب ولا يجب بأي حال من الأحوال دمج هذه الفكرة في البرنامج السياسي الأيديولوجي للحركة»:

morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited, 43.

(٢) كان رئيس بلدية القدس قد كتب إلىٰ كبير حاخامات فرنسا، رسالة ينصح فيها اليهود بأنه -علىٰ حد تعبير هرتزل- «من الأفضل لهم الذهاب إلىٰ مكان آخر»: Khalidi, From Haven to Conquest, 91-92.

ليس هذا كل شيء؛ فقد كان حلم التطهير العرقي يراود خَلَد تيودور هرتزل قبل عدة سنوات من رسالته إلىٰ رئيس بلدية فلسطين[١]، ففي عام ١٨٩٥ أفصح في مذكراته: «يجب أن نصادر -بلطف- الممتلكات الخاصة في الدولة التي ستكون لنا؛ سنحاول إثارة روح السكان المفلسين ليعبروا الحدود من خلال توفير فرص عمل لهم في بلدان أخرىٰ، مع منعهم من العمل في بلدنا»[٢]، وفي عام ١٩٠١ صاغ هرتزل ميثاقًا لجمعية الاحتلال اليهودي العثماني في فلسطين -والذي رفض العثمانيون التوقيع عليه- يطالب فيه بمنح الجمعية الحق في الحصول علىٰ أراضٍ في فلسطين مقابل أراضٍ في مقاطعات أخرىٰ من الإمبراطورية، وسيعاد توطين سكان الأراضي التي حصلوا عليها في فلسطين -بمساعدة الجمعية- في المقاطعات العثمانية الأخرىٰ[٣]، ومن الواضح أن الصهاينة كانوا يعملون علىٰ مخططات لترحيل الفلسطينيين منذ الأيام الأولىٰ من حركتهم.

لقد كان القناع الزائف الذي يخفي تحته الصهاينة رغباتهم ينزلق من حين لآخر، ليفضح سريرتهم أمام العامة؛ فها هو حاييم وايزمان -الدبلوماسي المحنك في صفوف الصهاينة- لم يستطع دائمًا أن يحافظ علىٰ ثبات قناعه؛ فبعد عامين من وعد بلفور، أعلن للجمهور في لندن أن الصهاينة خططوا لجعل فلسطين «يهودية تمامًا مثلما أن إنجلترا إنجليزية، وأمريكا أمريكية»[٤]، وفي عام ١٩٢١ رددت صحيفة (The Jewish Chronicle of London) -الجريدة اليهودية الأسبوعية

---

(١) قد يكون من الجدير بالذكر أن هرتزل (الدولة اليهودية، ١١) أبدىٰ اهتمامًا كبيرًا بكتابة كل أنواع التفاصيل التي يعتقد أنها ستضمن نجاح خطته لدولة يهودية. حيث يخصص فقرة كاملة حول كيفية تخليص فلسطين من «وحوشها البرية»، وبدلًا من ملاحقتهم بالحربة والرماح البدائيين، يجب إبادتهم بـ «قنابل الميلنيت»، ومع ذلك، لا يوجد ذكر للعرب في صفحات الدولة اليهودية، وكأن فلسطين فارغة حقًا.

(2) Morris, Righteous Victims, 21-22.

(3) Khalidi, "The Jewish-Ottoman Land Company," 44; Hirst, The Gun and the Olive Branch, 138-39.

(4) Hirst, The Gun and the Olive Branch, 161.

الرائدة في ذلك الوقت- نفس الأفكار؛ ففي مقالها الرئيسي، أوردت الجريدة أنه ينبغي منح اليهود «تلك الحقوق والامتيازات في فلسطين التي ستمكنهم من جعلها يهودية مثلما أن إنجلترا إنجليزية، وكندا كندية؛ وهذا هو السبيل الوحيد المعقول -أو بالأحرىٰ الممكن- لبناء وطن قومي يهودي»[١]. لا جدال في أن فكرة التطهير العرقي دائمًا ما كانت تراود الصهاينة؛ لم يكن هذا سرًّا، علىٰ الرغم من مراوغاتهم.

حتىٰ الخطاب الصهيوني كان يخالف نواياهم المبيّتة، ومن المشهور جدًّا أن الصهاينة لخّصوا جوهر حركتهم في شعارهم «أرض بلا شعب - لشعب بلا أرض»[٢]، ومثل المحتلين البيض الآخرين، رأوا أن فلسطين «فارغة»، حتىٰ اعتبر البعض تلك الكلمة صحيحة حرفيًا، ومع ذلك، كان مقصدهم -في كثير من الأحيان- أن هذا يعني أن سكان فلسطين الأصليين ليسوا شعبًا؛ فلم يكن لهم أي ارتباط بأرضهم. في عام ١٩١٤، تحدث حاييم وايزمان بانتشاء عن إنشاء دولة يهودية علىٰ أنه «زواج» بين شعب «ليس له وطن» و«أرض بلا شعب»، كان الأمر بسيطًا تمامًا، فلم يكن يتجاوز تركيب ترس (اليهود) في آلة (فلسطين)، ولإتمام هذا «الزواج»، احتاج الصهاينة فقط إلىٰ موافقة الأتراك، أصحاب «الآلة»[٣]، وفي عام ١٩٢٠ أوضح إسرائيل زانجويل أن الفلسطينيين ليسوا شعبًا لأنهم لم يكونوا «يعيشون في اندماج حميم مع دولتهم، ولم يكونوا يستغلّون مواردها بما يضفي عليها انطباعًا مميزًا، إنها في أحسن الأحوال: مخيم عربي، ويمكن للصهاينة إقناع الفلسطينيين -بلطف- بالرحيل إلىٰ الخارج»؛ وعلىٰ أية حال، إنهم

---

(1) Ibid., 171.

(٢) ينسب إيلون (الإسرائيليون (The Israelis, 149)) هذه العبارة إلىٰ إسرائيل زانجويل. في عام ١٩٠٣، كتب زانجويل: «فلسطين بلد مدمر واليهود شعب محطم، وكلاهما بحاجة إلىٰ الآخر من أجل التعافي؛ فلسطين بحاجة لشعب، وإسرائيل بحاجة إلىٰ دولة». انظر:

simon, Speeches, Articles, 80.

(3) Masalha, Expulsion of the Palestinians, 5-6.

ثلة من البدو، ديدنهم هو «طيّ خيامهم» و«الرحيل بصمت»[1]، ومن هنا، كانت فلسطين -بالنسبة إلىٰ الصهاينة- «فارغة» فعلًا؛ لأنه كان من السهل إفراغها من سكانها.

كان لدىٰ السياسيين البريطانيين أيضًا فهم واضح للتداعيات الديموغرافية للمشروع الصهيوني؛ ففي مراجعة للشؤون الفلسطينية في أكتوبر ١٩١٩، كتب ونستون تشرشل (Winston Churchill) -وهو من أشدّ المؤيدين للصهيونية- أن اليهود «يعتبرون أن إجلاء السكان المحليين لتحقيق رغبتهم؛ أمرًا بدهيًّا مسلّمًا به»[2]، لكن قبل عامين من وعد بلفور، أكد البريطانيون للعالم «أنه لن تتخذ أي خطوة من شأنها المساس بالحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين»، لكن في مذكرة سريّة إلىٰ مجلس الوزراء البريطاني، كتب اللورد بلفور (Balfour) أن الصهيونية «سواءً كانت صحيحة أو خاطئة، جيدة أو سيئة؛ فإن تقاليدها القديمة، واحتياجاتها الحالية، وتطلعاتها المستقبلية؛ أهم بكثير من رغبات وتحيزات ٧٠٠٠٠٠ عربي يسكنون الآن تلك الأرض القديمة»؛ كما يقرّ اللورد بلفور بأنه «فيما يتعلق بفلسطين، لم تُصدِر القوىٰ الكبرىٰ أي إعلان لسياسة لم تكن تنوي انتهاكها دائمًا»[3]. كان القادة البريطانيون يتواطؤون مع الصهاينة لخداع «السكان الأصليين».

ومع تحفظهم الجزئي في خطابهم العام، إلا أن الصهاينة لم يتمكّنوا من إخفاء «الحقائق» التي كانوا يخلقونها علىٰ أرض الواقع، فمنذ السنوات الأولىٰ استبعدت المنظمات الصهيونية في فلسطين -بلدياتها الزراعية ونقاباتها العمالية والبنوك والمدارس والمستشفيات وحتىٰ الصحف- الفلسطينيين العرب بشكل

---

(1) Zangwill, The Voice of Jerusalem, 104, quoted in Masalha, Expulsion of the Palestinians, 6, 14.

(2) Masalha, Expulsion of the Palestinians, 15.

(3) Hirst, The Gun and the Olive Branch, 162-63.

صارم؛ لقد سعوا لفرض مقاطعة للاقتصاد العربي، حتىٰ وصل الأمر إلىٰ مهاجمة ربّات البيوت اليهوديات اللاتي يشترين من المزارعين العرب، وهاجموا المزارع العربية ودمروا محاصيلها، كما حظروا إعادة بيع الأراضي للعرب، وتذرّعوا بأنهم لا يريدون استغلال العمالة العربية من أجل تمرير تحريم الكيبوتس[١] «الاشتراكية» توظيف العمال العرب[٢]. بالإضافة إلىٰ ذلك، كان الصهاينة يعملون علىٰ بناء اقتصاد من شأنه -أيضًا- حرمان العرب من استخدام بنيتهم التحتية -القطارات والخدمات البريدية والموانئ وحتىٰ الطرق[٣]، وإذا لم يكن من الممكن طرد العرب علىٰ الفور، فيجب استبعادهم من المشاركة في الاقتصاد والمجتمع اليهودي، وقد كان لهذا الاستبعاد ميزة تكتيكية أخرىٰ؛ فهو سيضمن أن طرد العرب -متىٰ ما أمكن ذلك- لن يتسبب في تعطيل اقتصاد الدولة اليهودية.

❀ ❀ ❀

لطالما عرف الصهاينة أن إنشاء دولة يهودية في فلسطين يستلزم «تهجير» سكانها العرب؛ لكن في العقود الأولىٰ من حركتهم، لم تكن هذه هي المشكلة الأكثر إلحاحًا.

---

(١) الكيبوتس (kibbutz): تجمع سكني تعاوني يضم جماعة من المزارعين، أو العمال اليهود الذين يعيشون ويعملون سويًا، ويبلغ عددهم ما بين ٤٠ و١٥٠٠ عضو. ويعد الكيبوتس من أهم المؤسسات استندت إليها الحركة الصهيونية، والتي أثرت علىٰ الحياة السياسية والاجتماعية في إسرائيل حتىٰ بداية الثمانينات. وهي مؤسسة مقصورة علىٰ المجتمع الصهيوني، وتعتمد الحياة في الكيبوتس علىٰ الاشتراكية التامة في الإنتاج والاستهلاك والتعاون المتبادل بين أعضاء الكيبوتس. (المترجم).

(2) Ibid., 184-85.

(٣) في عام ١٩٣٧، عندما اعترض أعضاء (Hashomer Hatza'ir) (اتحاد الكيبوتس الذي دافع عن دولة ثنائية القومية) علىٰ إنشاء «دولة عبرية نقية عرقيًا»؛ لأن هذا من شأنه أن يخلق حواجز بين اليهود والعرب، رد يوسف باراتز (Yosef Baratz) -زعيم حزب ماباي- «ألم يكن هذا الحاجز موجودًا دائمًا في البلاد؟ أليس كل ما نبنيه من محطات قطارات، ومكاتب بريدية وحكومية، وموانى بحرية وطرق، وعامة ما نبنيه في الاقتصاد أليس كله لليهود، **ولليهود فقط؟**» [التسويد مضاف] انظر:

masalha, Expulsion of the Palestinians, 75.

كان التحدي الصهيوني الأول هو تأمين دعم واحدة أو أكثر من القوىٰ العظمىٰ لمشروعهم الاحتلالي، وبمجرد أن تحقق ذلك في عام ١٩١٧، حوّلوا انتباههم إلىٰ زيادة تدفق المستعمرين اليهود إلىٰ فلسطين؛ ومع زيادة أعدادهم، اتجّهوا إلىٰ وضع حجر الأساس لدولة يهودية في فلسطين. وخلال العشرينيات من القرن الماضي، بدأ الصهاينة يولون اهتمامًا أكبر لمشكلة السكان الأصليين، لكن الدعوة للتطهير العرقي خلال هذا العقد ظلّت -علىٰ حد تعبير بيني موريس- «مترددة، وفي حدود ضيقة، وعابرة بشكل كبير»؛ لكن بحلول أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي «بدا أن هناك بين قادة الحركة إجماعًا شبه كامل علىٰ فكرة التطهير العرقي؛ وكل نوبة عنف عربية كبيرة كان يقابلها اهتمام صهيوني متجدد بفكرة الترحيل»[١]، وقبل انتهاء هذا العقد، التزم معظم أعضاء الهيئة التنفيذية للوكالة اليهودية (الحكومة الافتراضية لليishوف Yishuv) «بترحيل إجباري للفلسطينيين، مفضلين بالطبع أن ينفذه البريطانيون وليس اليishوف»[٢].

بعد الثورة العربية عام ١٩٣٦، أدرك الصهاينة أن البوابة التي سيخرج منها مشروعهم إلىٰ الوجود تنغلق بسرعة؛ ونتيجة لذلك، عندما عرضت لجنة بيل عليهم دولة يهودية في ٢٠% من فلسطين -مع توصية بـ«ترحيل» خمسي سكانها العرب- صوّت الصهاينة لصالح الاقتراح. وقد اعتبر بن غوريون أن هذا العرض كان «هبة من السماء»؛ لأن البريطانيين كانوا يعرضون عليهم دولة استعمارية استيطانية إقصائية، وهو ما أرادوه من البداية؛ لا يهم أنهم حصلوا علىٰ أقل مما كانوا يتوقعون، فبمجرد أن يضعوا حجر الأساس لدولتهم سيلتهمون فلسطين كلها[٣].

---

(1) Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 44.

(2) The quotes in this paragraph are from Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 44, 50.

(3) Ibid., 47-48.

يعكس التحوّل في موقف القيادة الصهيونية نحو الترحيل الإجباري القدرة المتزايدة لليشوف علىٰ فرض إرادتها علىٰ الفلسطينيين. في أغسطس ١٩٣٧، أخبر بن غوريون الكونغرس الصهيوني العشرين في زيورخ أنه سيتعين عليهم الآن اتخاذ «مسار مختلف تمامًا» في سياسة الترحيل، يختلف عن عمليات الترحيل الصغيرة في الماضي؛ وأضاف أن الأمر الأهم هو أن «القوة اليهودية المتنامية ستزيد أيضًا من إمكانياتنا لتنفيذ الترحيل علىٰ نطاق واسع»، وفي يونيو ١٩٣٨، أعلن بن غوريون دعمه المطلق للتطهير العرقي، وصرّح قائلًا: «أنا أدعم الترحيل الإجباري، لا أرىٰ فيه أي شيء غير أخلاقي». في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٠، كتب يوسف ويتز (Yosef Weitz) -مدير دائرة الأراضي التابعة للصناديق القومية اليهودية- في مذكراته: «لا مكان في البلاد لكلا الشعبين»، كان ويتز يفكر في طرد جميع السكان الأصليين من فلسطين، حيث كتب «يجب ألا نترك قرية واحدة، ولا حتىٰ أصغر قبيلة بدوية»[١]. لقد تغذىٰ طغيان وجموح الفكر الصهيوني علىٰ قوتهم التي كانت تنمو باطّراد.

اتفقت جميع فصائل الحركة الصهيونية -باستثناء القليل منها- علىٰ أن الدولة اليهودية في فلسطين يجب أن تحتوي علىٰ أقل عدد ممكن من العرب، ويفضّل أن تخلو منهم، وفي يونيو ١٩٣٨، صرّح مناحم أوسيشكين (Menahem Ussishkin) -أحد قادة الصهاينة البارزين- بإيجاز: «لا يمكننا أن نشيد دولة يهودية نصف عدد سكانها من العرب ... إن مثل هذه الدولة لا يمكن أن تستمر ولو ساعة. إن الترحيل هو الشيء الأكثر أخلاقية الذي يمكننا القيام به ... وأنا مستعد للدفاع عن ذلك أمام الله»[٢]. وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧، تحدث بن غوريون إلىٰ كبار أعضاء حزبه «ماباي (Mapai)»، موضحًا لهم أن مقترح الدولة اليهودية التي يشكل اليهود ٤٠% فقط من سكانها -كما حددته خطة

(1) Ibid., 48, 50, 54.

(2) Ibid., 50.

التقسيم من الأمم المتحدة- غير مقبول؛ وأعلن أن «أقل ما نطلق عليه «دولة» هو أن يكون ٨٠٪ علىٰ الأقل من سكانها من اليهود، وتلك هي الدولة الوحيدة القابلة للحياة والاستقرار»[1]. لقد حمل الشعار الصهيوني «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» بذور العواقب التي ستنتج عن هذا المشروع الاحتلالي.

لم يكن الطموح الصهيوني الجريء في غير محله؛ ففي غضون عام واحد -١٩٤٨- كاد الصهاينة أن يحققوا أهدافهم الجامحة: إنشاء دولة يهودية في ٧٨٪ من فلسطين، مع طرد معظم سكانها العرب إلىٰ خارج حدود إسرائيل. لا ينبغي افتراض -كما يؤكد البعض- أن هذه النتيجة المفاجئة جاءت من ظروف غير متوقعة، مثل هجوم العرب المجاورين علىٰ الدولة اليهودية، أو الاضطهاد النازي لليهود في ألمانيا، فقد بدأ التخويف والتهديدات بالقتل والهجمات ضد القرىٰ الفلسطينية -حتىٰ قرىٰ لبنان وسوريا- من قِبل القوات اليهودية في ديسمبر ١٩٤٧، أي قبل عدة أشهر من هجوم الجيوش العربية علىٰ الدولة اليهودية[2]، وحتىٰ لو لم يهاجم العرب في عام ١٩٤٨، كان الإسرائيليون سيجدون بسرعة طرقًا لاستفزازهم للهجوم. وبالمثل، فإن الإجماع الصهيوني علىٰ ضرورة التطهير العرقي للعرب في فلسطين لم يكن فكرة متأخرة، أنضجتها أهوال الهولوكوست، بل كان هذا الإجماع موجودًا قبل فترة طويلة من بدء هذه المأساة. إن التطهير العرقي للفلسطينيين جاء مباشرةً من القرار الصهيوني بإنشاء دولة يهودية في فلسطين.

---

(1) Pappe, The Ethnic Cleansing of Palestine, 48.

(2) Ibid., 55-60.

الفصل التاسع
العوامل اليهودية في النجاح الصهيوني

«هناك ما يزيد عن سبعة ملايين يهودي في جميع أنحاء العالم، ويمتلكون ثروةً ونشاطًا ونفوذًا ومواهب أكثر من أي أمة علىٰ وجه الأرض؛ ستسير هذه الملايين منتصرين ليعودوا مرةً أخرىٰ إلىٰ الشام، ويتبوؤون مكانتهم بين حكومات العالم»
مردخاي نوح (Mordecai Noah)، ١٨١٨

«في أجزاء كبيرة من أوروبا الشرقية [خلال العقود الأولىٰ من القرن العشرين]، كانت «الطبقة الوسطىٰ» بأكملها تقريبًا يهودية».
يوري سليزكين (Yuri Slezkin)، ٢٠٠٤[١]

ما العوامل اليهودية في النجاحات الصهيونية؟ وبشكل أكثر تحديدًا: كيف نجح اليهود في تجنيد كل القوىٰ الغربية العظمىٰ تقريبًا وفي أوقات مختلفة لقضيتهم؟

سيكون من السهل تحديد خصائص المجتمعات اليهودية في الغرب -من حيث التوزيع الجغرافي، والثروة، والموارد الفكرية، والفعالية التنظيمية، والنشاط

(1) Grose, Israel in the Mind, 14; Slezkin, The Jewish Century, 50.

السياسي- التي أعطتهم نفوذًا وهيمنة علىٰ سياسات المجتمعات الغربية. ومع ذلك، فإن مثل هذا العرض يحدد فحسب المصادر القريبة للتأثير اليهودي علىٰ الرأي العام والسياسة في المجتمعات الغربية؛ لكن يظل من الضروري إلقاء نظرة أعمق علىٰ هذا السؤال. بالعودة إلىٰ الوراء، نحتاج إلىٰ فحص الأصول التاريخية للتأثير اليهودي حتىٰ نتمكن من استعراض تاريخ الصهيونية ونجاحاتها كجزء من سلسلة متصلة تسبق ظهورها الرسمي علىٰ مسرح التاريخ.

لم يفُت علىٰ الصهاينة استعمال التاريخ أيضًا لشرح أصولهم وتبرير دافعهم لإنشاء دولة يهودية؛ حيث نراهم يتحدثون عن تاريخ المواجهات اليهودية مع معادي السامية الأوروبيين[1]، كان هذا التأريخ «المأساوي» مفيدًا جدًّا للصهاينة، فقد ساعد علىٰ إثارة الإحساس بانعدام الأمان لدىٰ اليهودي، ووجوب الحفاظ عليه، وذلك في وقت خرجت فيه أعداد كبيرة من اليهود الغربيين من الحصار لتحقيق مستوىٰ من الازدهار والأمن لم يشهده معظمهم في القرون السابقة، كما شدّدت تلك السردية التاريخية علىٰ استغلال معاداة السامية لتعمل لصالح الصهاينة، لا يمكننا عدم ملاحظة التكامل بين هذين الشقّين. بالإضافة إلىٰ ذلك، كان للصهاينة اهتمام بحشد الدعم الغربي للصهيونية من خلال تذكيرهم بوزر معاداة السامية، فقد أثارت تلك السردية المأساوية للتاريخ ضمير الغرب، وحمّلتهم مسؤولية تعويض اليهود عن قرون من معاداة السامية عبر دعم الصهيونية. أخيرًا، بمجرد شعور الغرب بالذنب، فإن ذلك سيحدّ من انتقادهم للأعمال الصهيونية، خشية أن يُنظر إلىٰ هذا النقد علىٰ أنه نابع من معاداة

---

(١) يرىٰ ألبرت ليندمان (Albert S. Lindemann) في كتابه (Essau's Tears, 14, 15) أن التأريخ اليهودي لتقمصه دور الضحية قد ركّز -بإفراط- علىٰ العنف المعادي للسامية في تاريخ اليهود الأوروبيين، وعلىٰ معاداة السامية بوصفها إيديولوجيا سيطرت علىٰ التفكير الغربي في العصور الوسطىٰ والحديثة. كما يقترح أن هذا التأريخ -جزئيًا- يعمل كـ «أيديولوجية انتقام» من الوثنيين/ الأغيار هدفها الأساسي هو الحد من معاناة اليهود «من خلال كشف الطبيعة الفاسدة لمجتمع الأغيار ومسؤوليته عن المعاناة اليهودية».

السامية، وهكذا، عزّز الصهاينة حقيقة أن كل منتقد للصهيونية هو -بالضرورة- متّهم بمعاداة السامية.

إن ادّعاء الصهاينة بأن حركتهم كانت -ولازالت- مدفوعة بضرورة الهروب من معاداة السامية؛ هو ادعاء مضلّل، وتزييف لتاريخ اليهود وتاريخ أوروبا، من خلال تجاهل المساهمات الحيوية التي قدّمها اليهود لثقافة وتاريخ المجتمعات الأوروبية، خاصة منذ أوائل القرن التاسع عشر. إنّ هذا الادّعاء يتجاهل الحقيقة المتمثلة في أن هذه كانت فترة فريدة في التاريخ اليهودي، وذلك عندما انتقلوا بسرعة إلىٰ التيار الرئيسي للمجتمعات الأوروبية، وسرعان ما تولّوا مناصب قيادية في قطاعات مهمة من الحياة الأوروبية، وفي غضون بضعة أجيال، ترك اليهود وراءهم وجودهم الهامشي -إلىٰ حد كبير-في الأحياء اليهودية للدخول في فترة من الازدهار الاقتصادي والإبداع الثقافي لم يسبق لهم أن عاشوها من قبل في أوروبا المسيحية. إن الدافع الصهيوني لمحو هذه الفترة المهمة من التاريخ اليهودي واضح تمامًا؛ لقد أرادوا التأكيد علىٰ أن اليهود لطالما كانوا «ضحايا»، وذلك من أجل إخفاء الدور الحيوي الذي لعبه ازدهار اليهود وقوتهم وطموحاتهم في نشأة حركتهم ونجاحها، لقد أصابوا في إدراكهم أنه عند تقديم الصهيونية علىٰ أنها حركة لدعم ومساندة اليهود المضطهدين، وسعيًا للهروب من القارة التي عذبتهم لما يقرب من ألفي عام؛ ستروج أفضل وأسرع. إن هذا التحريف للتاريخ يستحق التصحيح.

❋ ❋ ❋

خلال حقبة القرون الوسطىٰ الطويلة، ظل السكان اليهود في أوروبا علىٰ هوامش المجتمعات المسيحية المهيمنة، فقد احتقرهم المسيحيون، وعزلوهم، كما تعرّضوا -بشكل دوري- للاضطهاد والترحيل؛ وأُجبر معظم اليهود الأوروبيين علىٰ كسب لقمة العيش من العمل كمرابين وتجار دوليين وجامعي ضرائب وحرفيين وباعة جوّالين.

لقد تغيّر كل هذا جذريًا بحلول القرن التاسع عشر؛ حيث كان اليهود ينتقلون بسرعة من هوامش المجتمع الأوروبي إلىٰ مركزه، وبحلول نهاية هذه الفترة، حظوا بمراكز مرموقة -وهيمنة- في الطبقات الحضرية الجديدة في أوروبا التي كانت تقود تحوّلها الرأسمالي. لقد عزّز الصعود اليهودي السريع إلىٰ مناصب القيادة إحساسًا قويًا بالفرادة اليهودية، وهو إحساس كان متجذرًا -سابقًا- في الادّعاءات الدينية، ولكنه أصبح الآن مبنيًّا -بشكل متزايد- علىٰ أسس عرقية. بالتزامن مع هجرة كبيرة لليهود باتجاه الغرب؛ شهدت هذه الفترة -علىٰ الأقل- زيادة سريعة في عدد السكان اليهود في الغرب، مما أدىٰ إلىٰ تكوين عدد كبير من السكان اليهود في كل دولة غربية رئيسية تقريبًا بما في ذلك الولايات المتحدة.

لننظر أولًا في التغييرات الديموغرافية: لقد كانت الزيادة في حجم يهود العالم مثيرة للغاية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث أطلق عليها بعض العلماء لقب «المعجزة الديموغرافية» اليهودية[١]. استقر عدد اليهود في العالم ما بين عامي ١٥٠٠ و١٧٠٠م عند حوالي مليون نسمة، لكن في عام ١٨٠٠ -أي بعد قرن واحد فقط- تضاعف عدد اليهود ليصل إلىٰ ٢,٥ مليون يهودي، وخلال القرن التالي تسارع هذا النمو ليبلغ عدد اليهود في العالم عام ١٩٠٠: ١٠,٦ مليون[٢]، وعلىٰ مدىٰ قرنين -من ١٧٠٠ إلىٰ ١٩٠٠- زاد عدد سكان العالم بمقدار ٢,٧ مرة، ونما عدد سكان أوروبا بمقدار ٣,٣ مرة، إلا أن

---

(١) كتب بن ساسون (Ben-Sasson) في (A History of the Jewish People, 790): «كان معدل الزيادة اليهودية أسرع بمرتين من معدل زيادة السكان غير اليهود، ويتحدث العديد من العلماء عن «المعجزة الديموغرافية» اليهودية في القرن التاسع عشر». لكن استنادًا إلىٰ تقديرات جديدة للسكان اليهود في هولندا، ومقاطعة بوزين البولندية، وألمانيا، خلص ستراتن (Straten) وسنيل (Snel) ("The Jewish 'Demographic Miracle") إلىٰ أن الادعاءات بوجود معجزة ديموغرافية يهودية في القرن التاسع عشر مبالغ فيها، وقد كان هدف هذه المبالغة هو التقليل من حجم السكان اليهود في عام ١٨٠٠.

(2) Dowty, Israel/Palestine, 27; Rottenberg, Finding Our Fathers, 43.

عدد السكان اليهود شهد زيادة بأكثر من عشرة أضعاف[١]، ومن اللافت للنظر أن عدد السكان اليهود في العالم قد وصل إلىٰ ١٦,٧ مليون في عام ١٩٣٩، أي بزيادة قدرها ٥٨٪ تقريبًا منذ عام ١٩٠٠[٢]. من الواضح أن الآفاق الديموغرافية لحركة قومية يهودية في عام ١٩٣٩ أو ١٩٠٠ كانت واعدة بشكل أكبر مما كانت عليه في عام ١٨٠٠ أو ١٧٠٠، ومن العجيب أن هذه الديموغرافيا الملائمة للطموح اليهودي لم تحظ إلا باهتمام ضئيل في الأدبيات الضخمة التي تتحدث عن الصهيونية.

من ناحية أخرىٰ، كانت التغييرات في التوزيع الجغرافي للسكان اليهود في العالم بين عامي ١٨٠٠ و١٩٣٠ مهمة بنفس القدر في التأسيس للنجاح الصهيوني، ففي عام ١٧٠٠ كان حوالي ١٦٪ فقط من يهود العالم يعيشون في غرب ووسط أوروبا وامتداداتها الخارجية، وهي المناطق التي أصبحت فيما بعد مراكز الرأسمالية العالمية علىٰ مدىٰ القرنين التاليين، في ذلك الوقت كان ٤٩٪ من السكان اليهود في العالم يعيشون في أوروبا الشرقية و٣٥,٥٪ في الحواضر الإسلامية[٣]. وقد عولج هذا الضعف الديموغرافي بشكل كبير في العقود الوسطىٰ من القرن العشرين، ويرجع ذلك أساسًا إلىٰ الهجرة المتزايدة لليهود إلىٰ وجهات غربية؛ ففي عام ١٩٣٩، انخفضت حصة أوروبا من السكان اليهود في العالم إلىٰ ٥٧٪، بينما زادت حصص الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وجنوب أفريقيا بشكل كبير[٤]، والأهم من ذلك، أن عدد السكان اليهود في بريطانيا قد ازداد من ١٢٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ في أوائل القرن التاسع عشر إلىٰ ٣٠٠٠٠٠ بحلول

---

(1) Roupp, Teaching World History, 121.

(2) Dellapergolla, “An Overview,” 62; Rottenberg, Finding Our Fathers, 43.

(٣) وفقًا لتقديرات سابقة لدىٰ إتنجر (Demographic Changes,” 792)، كانت حصة أوروبا الغربية والوسطىٰ من السكان اليهود في العالم ١١٪.

(٤) وفقًا لتقديرات سابقة لدىٰ إتنجر (Demographic Changes,” 792)، عاش ٣٧٪ من يهود العالم في العالم الإسلامي، وانخفضت حصتهم إلىٰ ١٠٪ في عام ١٨٨٠.

عام ١٩١٤، ويرجع ذلك في الغالب إلىٰ هجرة اليهود من أوروبا الشرقية منذ أوائل القرن التاسع عشر[1]، كما كان نمو السكان اليهود في الولايات المتحدة أكثر إثارة للدهشة، حيث ارتفع من ٢٥٠٠ في عام ١٨٠٠ إلىٰ مليون في عام ١٩٠٠ ثم إلىٰ ٣,٦ مليون في عام ١٩٢٠[2].

خلال القرن التاسع عشر، أصبح التركيز السكاني الأكبر لليهود في المدن الكبرىٰ، وبحلول عام ١٨٠٠ كانت ثلاث أو أربع مدن فقط تضم أكثر من ١٠٠٠٠ يهودي، وبحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان هناك العديد من المدن -بما في ذلك وارسو وفيينا وأوديسا وبودابست ونيويورك وبرلين- تجاوز عدد سكانها اليهود ٥٠٠٠٠ نسمة، وفي عام ١٩٠٠ كان عدد السكان اليهود في وارسو ٢٢٠ ألفًا، واحتوت أوديسا علىٰ ١٤٠ ألف يهودي[3]. لقد أصبح التركيز الحضري لليهود أكثر دراماتيكية في عام ١٩١٤، حيث أصبح هناك ١,٣٥ مليون يهودي في مدينة نيويورك، و٣٥٠ ألفًا في وارسو وشيكاغو، و٢٠٠٠٠٠ في بودابست، و١٧٥ ألفًا في فيلادلفيا، و١٦٠ألفًا في فيينا ولودز وأوديسا، و١٥٠ ألفًا في لندن[4]. وقد أدىٰ ظهور هذه التجمعات الكبيرة من السكان اليهود إلىٰ خلق فرص لليهود لتطوير المؤسسات التعليمية والثقافية والدينية التي تدعم الأنشطة المجتمعية؛ كما أتاح موقع هذه التجمعات السكانية اليهودية الكبيرة في المدن الغربية المهمة الفرصة لمراقبة المجتمع الأممي والمشاركة والتأثير فيه، وفي الوقت نفسه، أعطىٰ وجود مجتمعات يهودية كبيرة ومزدهرة في قلب المجتمع

---

(1) Endelman, The Jews of Britain, 41, 130.

(٢) حسب (Jewish Virtual Library, World Jewish Population) ازدادت حصة الأمريكيتين من عدد السكان اليهود في العالم بشكل كبير من ٠,٣% عام ١٨٢٥ إلىٰ ١١% عام ١٩٠٠. وعلىٰ العكس من ذلك، انخفضت نسبة السكان اليهود في العالم في إفريقيا وآسيا من ١٦,٥% عام ١٨٢٥ إلىٰ ٦,٧% عام ١٩٠٠. انظر: Engelman, The Rise of the Jew, 103.

(3) Ettinger, "Demographic Changes," 793; Gelvin, The Israeli-Palestinian Conflict, 42.

(4) Elazar and Cohen, The Jewish Polity, 242.

الأممي قوة دفع لشكل جديد من معاداة السامية، شكل جديد يتغذّىٰ علىٰ المنافسة والحسد.

إن القرون الطويلة التي أزيح خلالها اليهود إلىٰ هامش المجتمع الإقطاعي في أوروبا جعلتهم مستعدين للعب دور مهيمن في العصر الرأسمالي بمجرد رفع القيود القانونية التي كانت تحد من طاقاتهم. لقد تعاملت أوروبا المسيحية بشكل عام مع يهودييها علىٰ أنهم غرباء منبوذون؛ لأن رفض اليهود ليسوع المُخلِّص أزعج اللاهوت المسيحي وخدش كبرياءه، ولأنهم كانوا مستبعدين من الأنظمة الإقطاعية المعمول بها في أوروبا، كان اليهود يكسبون عيشهم من العمل كمرابين وتجار دوليين وجامعي ضرائب وحرفيين فقط بالقدر الذي يسمح به القانون؛ كما أقام أنجح اليهود علاقات وثيقة مع الحكام أثناء عملهم مرابين وأطباء؛ ثم استخدموا هذه الروابط ليصبحوا جباة ضرائب، ودخلوا سلك إدارة الإمدادات العسكرية للحكام، وتأمين تصاريح تشغيل المناجم، ومعامل التقطير، وصك العملة، وفي بعض الأحيان وصلوا إلىٰ إدارة المزارع[1]، بعبارة أخرىٰ: أصبح يهود أوروبا مدنيين ومهرة ورأسماليين ولديهم علاقات وثيقة مع الطبقات الحاكمة؛ كما كانوا أيضًا يتنقلون بسلاسة عبر الحدود القومية؛ لأن أصولهم الرئيسية كانت محمولة معهم أينما حلُّوا. من المفارقات إذن أن السياسات التمييزية في أوروبا منحت اليهود -بشكل غير متناسب- تلك الأصول التي من شأنها أن تمنحهم مزايا حيوية في المجتمعات الرأسمالية الناشئة في أوروبا.

شهد القرن التاسع عشر تحولًا جذريًا في وضع يهود أوروبا، لا سيما في أوروبا الغربية والوسطىٰ، وأدىٰ التآكل البطيء للنظام الإقطاعي خلال القرون السابقة -والذي أعقبته الثورة الفرنسية وإزالة أو تخفيف القيود المفروضة علىٰ

---

(١) في تقييمه للمجتمع اليهودي الأوروبي من القرن السادس عشر إلىٰ القرن الثامن عشر، كتب كاتز (Tradition and Crisis, 55): «نحن أمام مثال كلاسيكي لأقلية اجتماعية تعرضت للإخضاع والعزل بما جعلها تتناسب بشكل مثالي مع النشاط الاقتصادي».

اليهود في معظم أنحاء أوروبا- إلىٰ تمهيد الطريق أمام الصعود المدويّ لرأس المال اليهودي، والطبقة الوسطىٰ اليهودية، والمثقفين اليهود في عدة دول أوروبية. لقد ساعدت القرون الطويلة من تمرّس اليهود بالتمويل والتجارة وإدارة العقارات والحرف اليدوية علىٰ تأهيلهم بشكل أفضل من معظم غير اليهود للنجاح كتجار دوليين ومصرفيين ومضاربين وصناعيين وسماسرة في الاقتصادات الرأسمالية الناشئة في أوروبا. كتب برنارد لازار (Bernard Lazare) في عام ١٨٩٤: «لقد كان [اليهود] عرقًا مكونا من التجار ومقرضي الأموال؛ ربما يكونون قد تدهوروا بسبب الممارسة التجارية الإقطاعية التي كانت تستبعدهم، ولكن بفضل هذه الممارسة بالذات، كانوا مجهّزين -أفضل من غيرهم- بصفات أصبحت هي السائدة في النظام الاقتصادي الجديد»[١]، وفي الوقت نفسه، عندما تحوّلت المهارات الفكرية -التي صقلتها دراسة التلمود- إلىٰ المساعي العلمانية، سرعان ما حصل اليهود علىٰ مناصب قيادية في الأوساط الأكاديمية والإعلامية والمهنية؛ وبمرور الوقت، أدىٰ الصعود الاقتصادي لليهود إلىٰ إثارة حقد الأغيار، وخاصة المهاجرين إلىٰ المدن الذين اضطروا إلىٰ التنافس مع اليهود لدخول الحرف وتجارة التجزئة والكليات والمهن. وهكذا وُضِع أساس جديد لمعاداة السامية؛ ربما لا زالت بعض الأساطير القديمة الموروثة من العصور الوسطىٰ حاضرة، لكن هذه المرة ستكون معاداة السامية مدفوعة بالمنافسة الاقتصادية المتزايدة بين اليهود والأغيار.

وقد وثّق يوري سلزكين (Yuri Slezkin) -بالاعتماد علىٰ مجموعة متنوعة من المصادر- النجاح اليهودي في عدة دول أوروبية[٢]، ففي أوائل القرن التاسع عشر، امتلكت العائلات اليهودية ٣٠ مصرفًا من أصل ٥٢ مصرفًا خاصًّا في

(1) Lazare, Anti-Semitism, 108.

(٢) كتب لازار (المرجع نفسه، ١٠٩) «في بداية التطور الصناعي الكبير، بعد عام ١٨١٥، عندما تشكلت شركات المناجم والتأمين، كان اليهود من بين أكثر الفئات نشاطًا في الترويج للتوليفة الرأسمالية».

برلين؛ وفي فيينا، لم يكد القرن التاسع عشر ينتهي إلا و«كان ٤٠٪ من مديري المصارف العامة من اليهود أو من أصل يهودي، وكانت جميع المصارف -باستثناء مصرف واحد- يديرها اليهود»، ووفقًا لإيتينجر (Ettinger)، كان المصرفيون اليهود في ذلك الوقت قد «أنشؤوا فروعًا في جميع أنحاء أوروبا، وكان لهم نفوذ كبير في جميع العواصم الهامة»، أما في أوائل القرن العشرين، فكانت البورصة في فيينا وبودابست تتألف في الغالب من اليهود بنسبة ٧٠٪ و٨٨٪ علىٰ التوالي. كما تسرّبت الهيمنة اليهودية من التمويل إلىٰ الصناعة أيضًا، حيث قامت المصارف خلال هذه الفترة بتمويل ومراقبة الاستثمارات في الصناعات الثقيلة في العديد من البلدان الأوروبية. ليس من المستغرب أن هذه التطورات قد تُرجمت إلىٰ حضور يهودي قوي بين النخبة الثرية في أوروبا[(١)]. كما أسس اليهود -أيضًا- قاعدة متينة في الطبقات المهنية الناشئة حديثًا، بما في ذلك المحامين والمحاسبين والأطباء والأكاديميين والعلماء والفنانين، ففي فيينا، علىٰ سبيل المثال، حوالي عام ١٩٠٠ كان «٦٢٪ من المحامين و٥٠٪ من الأطباء وأطباء الأسنان و٤٥٪ ممن التحقوا بكلية الطب و٢٥٪ من إجمالي أعضاء هيئة التدريس كانوا من اليهود، كما كان شكلوا نسبة تتراوح بين ٥١,٥٪ و٦٣,٢٪ من الصحفيين المحترفين»[(٢)]. أخيرًا -وفقًا لستيفن بيلر(Steven Beller)- «في العصر الذي كانت فيه الصحافة هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلىٰ الجماهير -علىٰ الصعيد الثقافي وغيره- كانت الصحافة الليبرالية في أوروبا عبارة عن صحافة يهودية إلىٰ حدٍ كبير»[(٣)].

---

(1) Slezkin, The Jewish Century, 47-48; Ettinger, "Demographic Changes," 796.

(٢) «في عام ١٩١٢ كان ٢٠٪ من جميع أصحاب الملايين في بريطانيا وبروسيا من اليهود؛ وفي ١٩٠٨-١٩١١، كان اليهود في ألمانيا ككل يشكلون ٣١٪ من أغنىٰ العائلات؛ وفي عام ١٩٣٠، كان حوالي ٧٠٪ من أغنىٰ دافعي الضرائب المجريين من اليهود؛ وبالطبع هناك عائلة روتشيلد، التي كانت -بفارق كبير عن غيرها- أغنىٰ عائلة في القرن التاسع عشر». Slezkin, The Jewish Century, 48.

(3) Ibid., 50.

كما لعب المصرفيون والمقاولون اليهود دورًا مهمًّا، وفرضوا سيطرتهم علىٰ تمويل تطوير مشاريع السكك الحديدية في جميع دول أوروبا باستثناء بريطانيا؛ حيث موّلت عائلة روتشيلد شبكات السكك الحديدية الرئيسية في فرنسا وبلجيكا والنمسا وإيطاليا. وبالمثل، فإن شبكات السكك الحديدية في إسبانيا وتونس أنشأها الأخوان بيرير (إميل وإسحاق)، وبنىٰ البارون موريس دي هيرش السكك الحديدية في البلقان والإمبراطورية العثمانية؛ وفي روسيا، بُنيت شبكات السكك الحديدية بتمويل من مقاولين يهود، وهم من قاموا بتشغيلها أيضًا إلىٰ أن اشترتها الحكومة الروسية. في الولايات المتحدة أيضًا، لعبت البنوك اليهودية دورًا مهمًا في تمويل بناء السكك الحديدية[1].

وفي بريطانيا حقق اليهود مكاسب هائلة في جميع مجالات الحياة. في أوائل القرن التاسع عشر، كان معظم اليهود البريطانيين مهاجرين «فقراء، وذوي تعليم ضعيف، ويعتمدون علىٰ التجارة في الشوارع وغيرها من المهن ذات المكانة المتدنية اجتماعيًّا، وأشكال أخرىٰ من التجارة الصغيرة، والتي دائمًا ما كانت مرتبطة بالجريمة والعنف والخداع، وكان يُنظر إليها علىٰ نطاق واسع علىٰ أنها سيئة السمعة ومثيرة للريبة»، لكن بحلول عام ١٨٨٠، كان أكثر من ٨٠% من يهود لندن ينتمون إلىٰ الطبقة الوسطىٰ (بدخل عائلي سنوي يتراوح بين ٢٠٠ و١٠٠٠ جنيه إسترليني)، وكان ١٥% آخرين جزءًا من الطبقة المتوسطة العليا والنخب الثرية (حيث دخل الأسرة السنوي ١٠٠٠ جنيه إسترليني أو أكثر)، أما بالنسبة إلىٰ عموم سكان إنجلترا وويلز، فقد حصل أقل من ٣% من العائلات علىٰ دخل قدره ٧٠٠ جنيه إسترليني أو أكثر؛ وأقل من ٩% استطاعوا الحصول علىٰ دخل يتراوح بين ١٦٠ و٧٠٠ جنيه إسترليني[2]. بالنظر إلىٰ بدايتهم البائسة، يبدوا أن يهود لندن قد أبلوا بلاءً حسنًا.

---

(1) Beller, Vienna and the Jews, 40, quoted in Slezkin, The Jewish Century, 51.

(2) Ettinger, "Demographic Changes," 797-8.

مرّت أوروبا -منذ القرن السادس عشر- بعدّة تحولات عميقة غيّرت العلاقات بين اليهود والأغيار؛ فمن ناحية: أدت حركة الإصلاح الديني، والظهور المدوي للدول القومية، وتأميم المسيحية إلىٰ تصديع وحدة أوروبا المسيحية التي كانت تحت هيمنة الكنيسة الكاثوليكية، ومن ناحية أخرىٰ: فإن تنامي رأس المال اليهودي العابر للدول خلال عصر الرأسمالية التجارية جعل أعضاء النخب اليهودية في اتصالات متكررة مع بعضهم البعض، مما حفّز بينهم شعورًا متناميًا بأنهم يشكلون مجتمعًا يتجاوز الانتماءات المحلية، وخلال القرن التاسع عشر، اكتسبت هذه الاتجاهات زخمًا، حيث دخلت أعداد متزايدة من اليهود إلىٰ الطبقات الوسطىٰ، وبدأت في التفكير في الوضع اليهودي، وعبّروا عن ذلك في كتاباتهم. وفي المقابل: أثار ازدهارهم حسد الأغيار -والأسوأ من ذلك- أدىٰ إلىٰ موجة جديدة من معاداة السامية عززت بدورها أواصر الوحدة اليهودية، ونتيجة لذلك، بعد انقسام أوروبا المسيحية خلال القرون التي تلت حركة الإصلاح الديني، بدأت شريحة من اليهود تشعر تدريجيًّا أنهم الأشخاص الوحيدون الذين يتمتعون بـ «كينونة» و«انتماء» عابر للقارات، وأنهم -بالإضافة إلىٰ ذلك- قد بدأوا في اكتساب هوية عرقية تتجاوز الحدود الوطنية لأوروبا[1].

لقد كان للاندماج الاقتصادي لليهود في المجتمعات غير اليهودية خلال القرن التاسع عشر تداعيات ثقافية مهمة؛ فقد أدّىٰ دخول اليهود إلىٰ التيار الرئيسي للمجتمع غير اليهودي مباشرة إلىٰ تشجيع الاندماج الثقافي؛ ومن أجل الاستفادة من الفرص الجديدة التي أتيحت أمامهم، خرج اليهود من الأحياء اليهودية والقرىٰ النائية، وبدأوا في تحدّث لغات الأغيار، وارتداء ملابسهم.

كما دفع بعض اليهود هذه العملية إلىٰ الأمام من خلال السعي إلىٰ مواءمة المعتقدات اليهودية مع أفكار التنوير، مما أدىٰ إلىٰ ظهور «اليهودية الإصلاحية»[2]

---

(1) Endelman, The Jews of Britain, 81, 92.

(٢) الحركة الإصلاحية اليهودية (Reform Judaism) أصل نشأتها في القرن الثامن عشر الميلادي. =

كدين لليهود المندمجين؛ بينما سعىٰ يهود آخرون لإكمال عملية الاندماج عن طريق التحوّل إلىٰ المسيحية.

لكن الاندماج اليهودي في التيار السائد في مجتمعات غير اليهود لم يكن خاليًا من العوائق؛ فبسبب الخوف من فقدانهم هويتهم وثقافتهم وتاريخهم المميزين، ابتعد بعض اليهود عن الاندماج، وبدأوا في استعادة اليهودية، والتأكيد علىٰ هويتهم اليهودية، وبدأوا في الدفاع عن قضية الحفاظ علىٰ القيم اليهودية. في الواقع، هذا من شأنه أن يخلق دافعًا لإعادة تكوين اليهود وتحويلهم إلىٰ أمة، نظرًا لتيار القومية الرومانسية الذي كان يجتاح المشهد في أوروبا الشرقية. لقد شجَّعت هذه القوميةُ الرومانسيةُ القوميةَ اليهودية بطرق غير متوقعة أيضًا؛ فقد رفعت العوائق أمام الاندماج اليهودي. لقد كان بإمكان اليهودي أن يتحدث الألمانية، ويدرس ويكتب الأدب الألماني، ويتحلّىٰ بكل ما هو ألماني، لكنه لا يستطيع أن ينحدر من أصل ألماني؛ ففي عصر كانت القومية العرقية في أوج ازدهارها، لا يمكن حتىٰ لليهودي المندمج أن يصبح ألماني أو مجري أو بولندي «الأصل»، ومن هنا كان الاندماج الكامل ممتنعًا، حيث إن هذه القومية التي تأسست علىٰ مزاعم النسب الذي ينحدر منه الشخص، لم ترغب في ضمّ اليهود الذين كان يُنظر إليهم علىٰ أنهم أجانب، ومن ناحية أخرىٰ، أعطت هذه القومية دفعة جديدة لمعاداة السامية. ومن هنا لم يكن أمام بعض اليهود المندمجين بدّ من

= يقول المسيري في مقال له: «يوجد إذن جانبان في اليهودية: واحد إنساني يقبل الآخر ويحاول التعايش معه وهو جانب أقل ما يوصف به أنه كان هامشيًا، وجانب آخر غير إنساني عدواني يرفض الآخر تمامًا. ولكن في القرن التاسع عشر ظهرت حركة الاستنارة اليهودية واليهودية الإصلاحية التي أكدت الجانب الإنساني وعمقته وحذفت من الصلوات اليهودية أية إشارات لإعادة بناء الهيكل والعودة إلىٰ الأرض المقدسة». وقد تأسست علىٰ يد موسىٰ مندلسون (بن مناحم)، الذي ولد في ديسوي بألمانيا في ٦ سبتمبر سنة ١٧٢٩، ومات في برلينوكان، وقد كان شعاره (الاستجابة للعادات وأعراف المجتمع العصرية، مع المحافظة والإخلاص لدين الآباء). (المترجم)

العودة إلىٰ هويتهم اليهودية، وأصبح معظم اليهود أكثر استعدادًا لقبول الأساس العرقي لهويتهم[1].

كان بعض المفكرين اليهود -في العقود الوسطىٰ من القرن التاسع عشر- ينادون بالصهيونية السياسية كحلّ لمعاداة السامية ومخاطر الاندماج اليهودي، وكان الافتراض السائد أن هذا من شأنه أن ينقذ الأرواح اليهودية والهوية اليهودية، لكن في تسعينيات القرن التاسع عشر، اكتسبت هذه الأفكار صياغة عملية تحت قيادة تيودور هرتزل، لقد كانت القومية اليهودية أكثر طموحًا بكثير من القومية البولندية أو المجرية؛ حيث كان عليها صنع الأساس الإقليمي للدولة التي تسعىٰ إلىٰ إنشائها. من غير المحتمل أن يكون لدىٰ الصهاينة هذه الجرأة علىٰ الترويج لمشروعهم الوطني الفريد -القائم علىٰ الاستيلاء علىٰ الأراضي والتطهير العرقي- دون أن يكونوا قد تشرّبوا تلك الثقة المتعالية بقدراتهم التي ولّدها نجاحهم؛ لقد كان باستطاعة المرء أن يشمّ رائحة هذه الثقة وذلك الكبر تفوح من كتابات الآباء المؤسسين للصهيونية. لقد استند المشروع الصهيوني إلىٰ قدرة اليهود علىٰ التأثير في سياسات القوىٰ العظمىٰ، وذلك لدفعهم في اتجاهات قد لا تتوافق مع مصالحهم الاستراتيجية.

سعىٰ العديد من اليهود إلىٰ البحث عن حل لمشكلة معاداة السامية في الحركات الثورية التي سعت إلىٰ القضاء علىٰ الطبقة والأمة -علىٰ حد سواء- لصالح البروليتاريا؛ وكان الانجذاب اليهودي للحركات المتطرّفة أقوىٰ ما يكون في أوروبا الشرقية، حيث كانت المذابح ضد اليهود في ازدياد، وكان سكانها اليهود يتدفقون علىٰ المدن هربًا من الاضطهاد مستفيدين من الفرص الجديدة التي خلقتها لهم مشاركتهم في التجارة والصناعة والمهن. كان هناك سبب آخر لانجذاب اليهود إلىٰ الماركسية: ربما يكون المجتمع المثالي الذي سعىٰ اليهود

---

(١) كان الغجر جماعة أخرىٰ عابرة للحدود في أوروبا، لكن أعدادهم كانت أقل، والأهم من ذلك أنهم لم يتمكنوا من تجاوز وجودهم الهامشي في المجتمعات الأوروبية.

إلىٰ إنشائه قد صدم البعض؛ لأنه بدلا من انتظار المسيا المخلّص الذي سيعيد بناء مملكة اليهود، فإنها تُبنىٰ الآن بسواعد علمانية. في كل دولة أوروبية تقريبًا، كان لليهود حضور كبير ولا سيما في طليعة الحركات الثورية. لقد شكّلوا النسبة الكبرىٰ من منظّري وقادة ونشطاء الأحزاب الماركسية في أوروبا[1].

بالإضافة إلىٰ الهجرة الداخلية لليهود في أوروبا -من المدن الصغيرة والمراكز الريفية إلىٰ المدن، ومن أوروبا الشرقية إلىٰ وجهات في وسط وغرب أوروبا- كان هناك هجرة بنفس الحجم من جميع أنحاء أوروبا -وبشكل خاص من مواقع في أوروبا الشرقية- إلىٰ العالم الجديد وخاصة الولايات المتحدة. لقد عبر اليهود المحيط الأطلسي حاملين معهم جذوة الحركة الصهيونية. وبسبب هذه الهجرات، لم تمر ثلاثة عقود من القرن العشرين حتىٰ أصبحت الولايات المتحدة موطنًا لأكبر تجمع لليهود في العالم[2]. بعد فترة وجيزة -عندما بدأ هؤلاء المهاجرون الجدد في اللحاق اقتصاديًّا باليهود الأكبر سنًّا- قاموا معًا بإنشاء شبكة من المنظمات اليهودية، ونظّروا للنشاط السياسي الذي من شأنه أن يضعهم في مركز النظام السياسي الأمريكي، وفي النهاية، خرجت الصهيونية إلىٰ الوجود

---

(١) في عام ١٩١١ كتب لوسيان وولف (Lucien Wolf) -وهو ناشط يهودي بارز- «بابتعادها عن أذية اليهود، فقد منحت معاداة السامية الانفصال العنصري اليهودي فرصة جديدة للحياة، وساعدت علىٰ نقل التضامن اليهودي من أساس ديني إلىٰ عرقي».

lindemann, Essau's Tears, 330.

(٢) كان النشطاء اليهود بالفعل قوة مهمة في مختلف الحركات غير الماركسية الراديكالية في روسيا خلال ١٨٧٠ و١٨٨٠. «في سنوات الذروة ١٨٨٦-١٨٨٩ [في مسيرة حزب إرادة الشعب]، كان اليهود يمثلون ما بين ٢٥ و٣٠ في المائة من جميع النشطاء، وما بين ٣٥ و٤٠ في المائة من هؤلاء في جنوب روسيا». علاوة علىٰ ذلك، ومع «صعود الماركسية، أصبح دور اليهود في الحركات الثورية الروسية أكثر بروزًا . . . ضمت المجموعة الأولىٰ المكونة من ٢٩ [منفيًا] التي وصلت مع لينين ١٧ يهوديًّا (٥٨,٦%). وفي المؤتمر السادس للحزب (البلشفي) في يوليو وأغسطس ١٩١٧ كانت نسبة اليهود حوالي ١٦% من الإجمالي العام و٢٣,٧% من اللجنة المركزية». Slezkin, The Jewish Century, 151-52.

بعدما أصبح لليهود ممثلين رئيسيين في كل دولة غربية تقريبًا، وامتد نفوذهم من روسيا إلىٰ الولايات المتحدة. في عقودها الأولىٰ، تنافست الصهيونية مع اتجاهين آخرين -أقدم من الصهيونية- لجذب انتباه اليهود باعتبار كل منهم هو رد الفعل المناسب علىٰ معاداة السامية: هذان الاتجاهان هما حركة الاندماج واليسار المتطرف. قدّم هذا الثالوث من القوىٰ اليهودية -إلىٰ جانب علاقتهم بالمجتمعات الغربية التي تضمّ المعادين للسامية والبروتستانت- العديد من الخيارات المثيرة للاهتمام لتعزيز القضية الصهيونية.

❁ ❁ ❁

كان ينظر إلىٰ الصهيونية السياسية -في سنواتها الأولىٰ- بريبة عميقة من قبل جميع شرائح الرأي العام اليهودي تقريبًا، ومع ذلك -وفي غضون عقود قليلة- انتقل الصهاينة من الهامش إلىٰ مركز الخطاب اليهودي؛ وسرعان ما حظوا بدعم من جميع شرائح الرأي اليهودي تقريبًا، من اليهود المندمجين والمحافظين والمتطرفين علىٰ حدٍ سواء.

كان من السهل فهم معارضة اليهود المندمجين للصهيونية؛ وذلك لأنها تتحدىٰ فرضيتهم وتمحو إنجازاتهم؛ لقد كان الصهاينة يقرعون أسماع المندمجين بإشارتهم المستمرة إلىٰ عودة معاداة السامية في أوروبا الغربية خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر، مما يعني أن الاندماج لم ينجح. بالإضافة إلىٰ ذلك، قرر الصهاينة أن الاندماج ما كان له أن ينجح أصلًا لأن اليهود كانوا أمة، ولا يمكنهم -ولا ينبغي لهم- دمج هويتهم مع أعراق أوروبية مختلفة[١].

كما توجس اليهود المندمجون أيضًا من أن الصهيونية قد منحت الأمم المتحدة سببًا وجيها لاتهام اليهود بانقسام الولاءات، ومن ناحية أخرىٰ، كان

---

(١) «كان هناك تيار من حوالي مليوني ونصف من يهود أوروبا الشرقية إلىٰ الولايات المتحدة، مما شكل أكبر جالية يهودية بعد الحرب العالمية الأولىٰ». Brenner, Zionism: A Brief History, 68.

الصهاينة حريصين علىٰ تسخير قوة معاداة السامية لحركتهم[١]. إذا ما ظلت الصهيونية تنفخ في رماد معاداة السامية، فهذا يعني ضمان وجودها علىٰ المسرح العالمي، ويعني أن الحركة يمكن أن تتوقع دعمًا هائلًا من أحد حلفائها الرئيسيين؛ ففي ظل وجود هذه الكراهية الشديدة بين الاتجاهين، يبدو أن الصهاينة لم يكن لديهم سوىٰ أمل ضئيل في الفوز بالثروة والموارد الفكرية واستغلال التأثير السياسي للمؤسسة اليهودية لصالحهم، لكن التركيز علىٰ الاختلافات التي لا يمكن التوفيق بينها يخفي عنا حقائق أخرىٰ؛ فهناك عوامل أخرىٰ عملت علىٰ تهدئة المعارضة بين المعسكرين. كان اليهود المندمجون قلقين بشأن العودة البطيئة لمعاداة السامية الجديدة، حتىٰ في الأماكن التي كانت تتراجع فيها لفترة طويلة، وكانوا يعرفون أيضًا أن معاداة السامية الجديدة كانت تغذّيها الهجرة السريعة لليهود الأفقر من حواري أوروبا الشرقية البائسة إلىٰ المدن في كل من أوروبا الشرقية والغربية، حيث تنافسوا علىٰ الوظائف والأسواق والإسكان مع الأغيار الفقراء؛ كما ساعدت الجالية الأنجلو-يهودية في بريطانيا المهاجرين اليهود وشجعتهم علىٰ العودة إلىٰ أوروبا الشرقية[٢]، وحرصًا منهم علىٰ وقف هذا التدفق للمهاجرين، خلُص بعض الزعماء اليهود إلىٰ أن الصهيونية وحدها هي القادرة علىٰ وقف هذا المدّ المتصاعد لمعاداة السامية الذي يقذف عليهم يوميًا آلافًا من الصعاليك؛ حيث إن تحويل وجهة اليهود من أوروبا الشرقية إلىٰ فلسطين -بعيدًا عن أوروبا الغربية- قد يساعد علىٰ تجفيف المنبع الرئيسي لمعاداة السامية الجديدة في أوروبا.

---

(١) كتب ليندمان (Essau's Tears 320) أن الصهيونية «يمكن اعتبارها أيضًا توكيدًا -من قبل القادة اليهود- علىٰ التهمة التي روجتها معاداة السامية بأن هناك شيئًا عميقًا في الوعي اليهودي يمنع اليهود من الاندماج الكامل في الهوية القومية الحديثة».

(٢) شبّه هرتزل (The Jewish State, x) معاداة السامية بقوة البخار التي «إذا تم توظيفها بشكل صحيح، فستكون قوية بما يكفي لدفع سفينة مشروعنا بكامل ما فيها إلىٰ فلسطين».

كان للصهيونية أيضا نسخة أكثر سيولة ألا وهي: الصهيونية الثقافية لآحاد هعام (Ahad Ha'am)، التي استطاعت أن تخترق صفوف اليهود الليبراليين المندمجين. وبما أن هذه النسخة من الصهيونية تؤكد علىٰ تطوير فلسطين كمركز للثقافة والتعلم اليهودي، فمن المرجح أن تثير مخاوف أقل بشأن الولاءات المنقسمة. بالإضافة إلىٰ ذلك، سمحت الصهيونية الثقافية لليهود الليبراليين بدعم المشاريع -مثل إنشاء مجتمعات يهودية في فلسطين، وإحياء اللغة العبرية، وإنشاء الجامعات والمعاهد الدينية في فلسطين- التي لم تكن تمثل تهديدًا للفلسطينيين ولا تستهدف طردهم. وعلىٰ الرغم من أن مروجي هذه النسخة من الصهيونية لم يسعوا إلىٰ إنشاء دولة يهودية في فلسطين، إلا أن أنشطتهم ساهمت بشكل حيوي في تأسيس البنية التحتية الديموغرافية والاقتصادية والتعليمية لهذه الدولة.

وبمرور الوقت، تغلّبت الصهيونية السياسية -أيضًا- علىٰ اعتراضات «اليهود المحافظين» حول تفسيرها السياسي [العلماني] لـ «عودة» اليهود. من ناحية، كان بعض يهود التيار الإصلاحي يطورون قراءة جديدة للمسيانية (messianism) اليهودية؛ حيث لم تكن المهمة اليهودية هي مجرد العودة إلىٰ جبل صهيون، بل فرض مُثُل وقيم مملكة صهيون علىٰ العالم. لقد تشتت اليهود بين الأغيار -كما قالوا- حتىٰ يتمكّنوا من جعل نور صهيون يسطع علىٰ العالم أجمع. عارض اليهود الأرثوذكس الصهيونية السياسية؛ لأنها سعت إلىٰ عودة يهودية علمانية اعتمادًا علىٰ القدرات البشرية؛ لأنه قد تقرر لدىٰ المحافظين أن مخلّصًا يهوديًا (Jewish Messiah) هو من سيحقق ذلك، كجزء من الخطة الإلهية لنهاية العالم، ومع ترويج الصهيونية السياسية لرؤيتهم للعودة اليهودية، وتنظيمهم لكافة الإجراءات، وتمكنهم من الوصول إلىٰ رجال الدولة الغربيين البارزين، ومع اكتساب الحركة الصهيونية أرضية راسخة في السياسة الغربية؛ أصبح من الصعب علىٰ الإصلاحيين والمحافظين الاستمرار في معارضة الصهيونية، كما أصبح الحفاظ علىٰ معارضة الصهيونية أكثر صعوبة بسبب ضغط الصهاينة السياسيين علىٰ رمزية صهيون في الخيال اليهودي، وإثارتهم آمال عودة اليهود إلىٰ «أرض

الميعاد»، ورفعهم توقعات جمهور اليهود بتأسيس أمة في دولة خاصة بهم، تلك الدولة التي ستكون كقوة حضارية مهيمنة في الشرق الأوسط. لقد كانت الأهداف القومية للصهيونية جذابة للغاية، ووجد معظم اليهود صعوبة في التراجع عن دعمهم للصهيونية، وحتىٰ لو لم يريدوا ذلك، فقد كان صمتهم كافيًا؛ ولم يتبق سوىٰ ثلة صغيرة من اليهود الأرثوذكس التي استمرت في معارضة الصهيونية باعتبارها ردّة عن الدين القويم.

يعتقد الراديكاليون في أوروبا -من اليهود وغيرهم علىٰ حد سواء- أن الصهيونية كانت ردة فعل مبالغ فيها، حتىٰ أنها حادت عن الهدف الأساسي المتمثل في خلق مجتمع لا طبقي؛ فهم لا يعتقدون أن اليهود كانوا أمة؛ ورغم أنهم كانوا لاعبين مهمين في التحول الرأسمالي لأوروبا، فقد كان مصيرهم الاندماج في مجتمعات الأغيار[1]. في أوروبا الشرقية، كتب حاييم وايزمان إلىٰ تيودور هرتزل في عام ١٩٠٣: «إن الجزء الأكبر من جيل الشباب المعاصر معادٍ للصهيونية، ليس لأنهم يرغبون في الاندماج كما هو الحال في أوروبا الغربية، بل بسبب مبادئها الثورية»، وفي الواقع، فإنهم «ينفرون من القومية اليهودية، ويتضخم هذا النفور أحيانًا حتىٰ يصل إلىٰ كراهية متطرفة»[2]. سيتعين علىٰ الصهاينة معالجة هذه الكراهية الشديدة لحركتهم في اليسار اليهودي؛ لأن نجاحها قد يعتمد علىٰ جذب تيار متزايد من المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية، كما سيتعين عليهم بناء الجسور التي تصل بين حركتهم وبين الاشتراكية، وذلك لجعل الصهيونية جذابة للشباب اليهودي الذي تحركه المُثُل الاشتراكية للعدالة والمساواة.

طوّر صهاينة اليسار -نحمان سيركين (Nahman Syrkin)، بير بوروشوف (Ber Borochov)، آرون دافيد جوردون (Aaron David Gordon)، بيرل كاتسنلسون

(1) Slezkin, The Jewish Century, 166-70.

(2) Ibid., 149-50.

(Berl Katznelson)، وديفيد بن غوريون وآخرون- مجموعتين من الحجج التي تبرر دمج الاشتراكية مع الأهداف الصهيونية[١]. جادل البعض بأن اليهود يمكن أن يساهموا بشكل أكثر فاعلية في تأسيس ودعم الاشتراكية فقط ضمن الإطار الصهيوني، وذلك يتحقق بأن يتولّىٰ العمال اليهود زمام المبادرة في إنشاء دولة اشتراكية في فلسطين، ودعا آخرون إلىٰ تمجيد جديد للعمل اليدوي لعكس تآكل الفضائل اليهودية بسبب قرون من التخصص في المهن الخدمية -مثل الباعة الجائلين والتجار والخياطين والمرابين والمصرفيين-، وجادلوا بأن اليهود يمكنهم استعادة فضائلهم القديمة بالعمل في الأرض بأيديهم، وقد تطلّب هذا استبعاد العمالة العربية من المستعمرات اليهودية. وتحت تأثير هذه الأفكار، أنشأ جيل جديد من المهاجرين من يهود أوروبا الشرقية -العليا الثانية[٢]- مستوطنات يهودية -تُعرف باسم «الكيبوتس (kibbutzim)»- علىٰ أساس مبادئ الملكية الجماعية وتقاسم العمل والمسؤوليات؛ وأسسوا في عام ١٩٢٠ «الهستدروت (Histadrut)»، أي اتحاد العمال اليهود، وكان يقدم مزايا وخدمات حصرًا لليهود؛ كما أنشأ المصارف والمصانع والمدارس، وسرعان ما أصبح أكبر متحكم في قطاع الأعمال في فلسطين. باختصار: فور وصول هذه الصهيونية العمّالية استطاعت أن ترسخ نفسها كقوة مهيمنة بين اليهود الأقدم هجرة؛ كما أصبح لدىٰ الحركات الاشتراكية في الغرب -وخاصة أعضاءها اليهود- الآن سبب جديد لدعم الصهيونية، فقد كان الصهاينة يضعون أسس المجتمع الاشتراكي في فلسطين.

لقد أدّىٰ الدعم المتزايد للصهيونية بين اليهود الغربيين إلىٰ فتح العديد من فرص الاستفادة من القوة اليهودية لتعزيز القضية الصهيونية؛ فعندما تأكّدت القوىٰ

---

(1) Hertzberg, The Zionist Idea, 329-90; Shimoni, The Zionist Ideology, ch. 5.

(٢) عُلْيَا (بالعبرية: עליה) تعني: الصعود؛ وهو مصطلح عبري صهيوني، يشير إلىٰ الهجرة اليهودية إلىٰ «أرض الميعاد/ فلسطين»، والعليا الثانية تعد أهم الهجرات اليهودية لفلسطين وأكثرها تأثيرًا، واستغرقت الفترة ما بين ١٩٠٤ و١٩١٤، وخلال هذه المدة تدفق ما يقرب ٤٠,٠٠٠ يهودي إلىٰ فلسطين العثمانية، معظمهم من روسيا وبولندا، وبعضهم من اليمن. (المترجم)

العظمىٰ من الدعم اليهودي المتزايد للصهيونية، سعت إلىٰ الوقوف بجانب الصهاينة من أجل كسب اليهود إلىٰ صفّهم؛ ونظرًا لما تعرَّضت له القوىٰ العظمىٰ من تهديد متزايد من قبل الحركات الراديكالية، فقد سعت إلىٰ الاستفادة من الدعم اليهودي لهذه الحركات من خلال تشجيع الصهيونية. في المقابل، أغرىٰ الصهاينة القوىٰ العظمىٰ بالوعد بحشد الدعم اليهودي لها، أو استخدام النفوذ اليهودي لمواءمة السياسات في بلد ما لتناسب مصالح دولة أخرىٰ. في الواقع، لم يسعَ الصهاينة لاستخدام النفوذ اليهودي فحسب، بل روّجوا لصورة مبالغ فيها عن السلطة والنفوذ الذي يمتلكه اليهود، وسنتناول هذه المسائل في الفصلين التاليين. وبمجرد أن تبنّىٰ البروتستانت القضية الصهيونية، فقد انضم نفوذهم إلىٰ الترسانة الصهيونية، وهو الموضوع الذي سنتناوله في الفصل الثالث عشر.

❀ ❀ ❀

لا يألوا الصهاينة جهدًا في التنصّل علنًا من امتلاكهم القوة والنفوذ -أو استخدامهما- لجعل سياسات القوىٰ الغربية في انسجام أوثق مع المصالح الإسرائيلية في الشرق الأوسط، وهذا التنصّل يفتقر إلىٰ المصداقية. لقد درسنا بالفعل المنطق الذي نجح الصهاينة من خلاله في دفع مشروعهم -بعدما كان مهمّشًا- إلىٰ مركز الخطاب اليهودي في العقود الأولىٰ من حركتهم، وبمجرد أن بدأت الصهيونية في الحصول علىٰ دعم كبير من المجتمعات اليهودية في الغرب، ومن مراكز النفوذ اليهودي -في التمويل والصناعة والسياسة والإعلام والأوساط الأكاديمية- لا يمكننا أن نتوقع شيئًا غير أن تستخدم هذه المجتمعات اليهودية نفوذها -بشكل متزايد- لحشد دعم الحكومات الغربية لصالح الصهيونية. وبمرور الوقت -ومع تعمّق انتمائهم للصهيونية- يمكننا أن نتوقع أن تقوم مراكز الهيمنة والنفوذ اليهودية بتطوير هياكل مجتمعية جديدة لتعزيز الأهداف الصهيونية بفعالية أكبر. ومن هنا يصعب التوفيق بين التنصل من فعالية الضغط اليهودي، وبين الموارد المتزايدة التي تُسخَّر لدعم هذا النشاط.

لم يخف الصهاينة أبدًا -حتىٰ في مداولاتهم المبكرة- قناعتهم بأن القوىٰ الغربية وحدها هي التي يمكنها رعاية وتنفيذ مشروعهم. ونتيجة لذلك، ركّز القادة الصهاينة جهودهم علىٰ استخدام النفوذ اليهودي لدفع القوىٰ الغربية إلىٰ الاقتراب أكثر فأكثر من وجهة النظر الصهيونية؛ لذا نرىٰ أن الضغط الصهيوني علىٰ القوىٰ العظمىٰ بدأ في وقت مبكر، ويتجلّىٰ هذا بشكل أفضل في الوظائف التي كان يشغلها بعض أنجح دعاة الصهيونية -بما في ذلك تيودور هرتزل، وحاييم وايزمان، ولويس برانديز (Louis Brandeis)، وناحوم سوكولو (Nahum Sokolow)، وأبا سيلفر (Abba Silver). لقد نمت قوة اللوبي الصهيوني بمرور الوقت، وخاصة في الولايات المتحدة؛ ولا نبالغ لو قلنا إنه حتىٰ بعد تأسيس إسرائيل، لم يتوقف الصهاينة للحظة عن صقل براعتهم في الضغط بأقصىٰ قدر ممكن.

إن الفحص السريع للمسار المهني القصير لتيودور هرتزل -مؤسس الحركة الصهيونية- يوضح بشكل مقنع الأهمية المركزية للضغط في السعي لتحقيق الأهداف الصهيونية. إليك قائمة بالشخصيات العامة التي استمعت إلىٰ تيودور هرتزل خلال السنوات الثماني بين انطلاق الحركة الصهيونية في بازل عام ١٨٩٧ ووفاته عام ١٩٠٤، وقد كانت قائمة مثيرة للإعجاب حقًّا؛ ففي فترة وجيزة تمكّن هرتزل من الوصول إلىٰ كل من: السلطان العثماني، القيصر فيلهلم الثاني (Kaiser Wilhelm II)، دوق بادن الأكبر، ملك إيطاليا فيكتور إيمانويل الثالث (King Victor Emanuel III)، البابا بيوس العاشر(Pope Pius X)، وزير المستعمرات الإنجليزي جوزيف تشامبرلين (Joseph Chamberlain)، اللورد كرومر (Cromer)، وزير الداخلية الروسي فياتشيسلاف بليهيف (Vyacheslav Plehve)، ووزير المالية الروسي الكونت سيرجي ويت (Sergei Witte)[1]، وفي عام ١٩٠٢، أدلىٰ هرتزل بشهادته في لندن أمام اللجنة الملكية لهجرة الأجانب، وهو امتياز من النادر أن يُمنَح لأجنبي، يعتقد والتر لاكوير (Walter Lacqueur) أن قدرة هرتزل

(1) Lacqueur, A History of Zionism, 84-135.

علىٰ إقامة علاقات مع القادة الأوروبيين وكسب دعمهم كانت «معجزة»؛ لأنه -في البداية- «لم يكن يمثّل أحدًا إلا نفسه، ثم فيما بعد لم يكن يمثّل سوىٰ أقلية تشغلها قضية ما، ولكنها غير مؤثرة بين المجتمعات اليهودية»[١]. إن «معجزة هرتزل» لم تكن ممكنة خارج سياق الثروة اليهودية والنفوذ والنشاط السياسي الذي تمتعوا به خلال القرن التاسع عشر، صحيح أن الصهاينة حتىٰ ذلك الوقت لم يكونوا قد نجحوا بعد في تجنيد أثرياء بني جلدتهم لقضيتهم، لكن لم يكن يعلم بذلك سوىٰ قلة من الناس خارج الدائرة الداخلية للقادة الصهاينة؛ وبمزيج من الثقة والفخر، تمكّن هرتزل من إقناع محاوريه بأنه يستطيع بالفعل حشد الثروة والنفوذ اليهودي للوفاء بوعوده المغرية؛ فقد وعد بإعفاء العثمانيين من الديون، وذلك أنه إذا استطاع انتزاع تنازلات مهمة من السلطان، فإن ذلك سيساعده علىٰ إقناع الممولين اليهود الأثرياء إلىٰ الوقوف بجانبه[٢]، وإذا تطلب الأمر، كان بإمكانه أيضًا أن يلعب علىٰ مخاوف رجال الدولة الأوروبيين من الثوريين الاشتراكيين، الذين كان العديد من قادتهم بين صفوف اليهود[٣]، كما أثار اهتمام رجال الدولة الأوروبيين بالدولة اليهودية المقترحة بعرضه أن تكون تحت حمايتهم، أو الادعاء بأن إنشاء دولة يهودية سيوقف تدفق اليهود من روسيا؛ وبمجرد أن اكتسب دعم زعيم أوروبي واحد، لعب علىٰ المنافسات بين الدول علىٰ المصالح الاستراتيجية للوصول إلىٰ دعم منافسيه. وأخيرًا، لا ينبغي أن ننسىٰ أن الصهاينة -حتىٰ في هذه المرحلة المبكرة من حركتهم- كثيرًا ما كانوا يجدون مساعدة من اليهود الذين وصلوا إلىٰ مراكز مرموقة[٤].

---

(1) Ibid., 97-98

(2) Ibid., 101.

(3) Ibid., 109.

(٤) علىٰ سبيل المثال، تمكّن هرتزل من الوصول إلىٰ السلطان العثماني من خلال خدمات أرمينيوس فامبيري (Arminius Vambery) -المستشرق والرحّالة وصديق السلطان- وهو من أصل يهودي مجري. Lacqueur, A History of Zionism, 111-12. وفي كانون الثاني/ يناير ١٩١٥، قدّم هربرت =

يصرّ الصهاينة علىٰ أن إنجازاتهم لم تكن إلا حظًا استراتيجيًا؛ وأن الدعم الغربي للصهاينة ليس نتاجًا للضغط، بل لتقارب المصالح الغربية والصهيونية في الشرق الأوسط؛ فللغرب والصهاينة مصالح استراتيجية مشتركة في قمع الاستقلال وتمزيق الوحدة العربية، والغرب يدعم إسرائيل لأن إسرائيل القوية تلغي حاجة الولايات المتحدة إلىٰ نشر قواتها في الشرق الأوسط أو شن حروب ضد العالم العربي والإسلامي. بعبارة أخرىٰ، إسرائيل مجرد أداة استراتيجية تُسْتَغَل وليست فاعلة بنفسها.

مثل هذه الأطروحة ضعيفة التأسيس؛ فإذا كان الدعم البريطاني أو الأمريكي لإسرائيل ينبع من مصالحهما الاستراتيجية المشتركة، فسيكون من الصعب تفسير وجود ترسانة من نقاط الضغط واسع ومتعدد الطبقات رهن إشارة الصهاينة، خاصة في الولايات المتحدة، ومن غير المنطقي قيام إسرائيل والشتات اليهودي باستثمار هائل لمواردهما -من الوقت، والفكر، والتنظيم، والمال- دون أن يكون لهم في بعض المراكز الحيوية أعوان سيخدمون المشروع الصهيوني. كما أن الدعم المالي الذي تحشده المنظمات الصهيونية من المجتمعات اليهودية صغير -نسبيًا- مقارنة بالدعم المادي الذي قدمته الولايات المتحدة وحدها لإسرائيل. من المؤكد أن الشبكة المعقدة والمتشابكة للمنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة -وتفاعلاتها المعقدة والمكثفة مع قطاعات مختلفة من النظام السياسي الأمريكي- ليست وظيفتها توجيه الدعم المالي من اليهود الأمريكيين لإسرائيل فقط.

= صموئيل (Herbert Samuel) -مدير مكتب البريد، وهو يهودي- «أول اقتراح بريطاني لغزو فلسطين» في مذكرة مفصلة قُدمت إلىٰ مجلس الوزراء البريطاني. Segev, One Palestine Complete, 33. بالإضافة إلىٰ ذلك، كان اثنان من المقربين من الرئيس وودرو ويلسون -الحاخام ستيفن وايز (Stephen Wise) ولويس برانديز (Louis Brandeis)- من اليهود.

أخيرًا، لنفترض مشروعًا استعماريًا علىٰ غرار المشروع الصهيوني، لكن دون ترسانة من نقاط الضغط؛ فإذا كان الغجر في أوروبا قد أرادوا احتلال إقليم في الهند -بدعوىٰ وجود روابط تاريخية مع ذلك البلد- فمن المرجح أن يعتمدوا أيضًا علىٰ قوتين؛ فمن ناحية: يجب أن تكون الدول الأوروبية ذات الوجود الغجري حريصة علىٰ دعم مخطط احتلالي يعد بتخليص بلدانها من السكان الذين كانوا يعتبرونهم دائمًا أجانب وغير مرغوب فيهم؛ ومن ناحية أخرىٰ: مع تزايد مطالبات الهند بالاستقلال خلال أوائل القرن العشرين، ربما كان البريطانيون ليقتنعوا بأن دولة احتلالية للغجر -في السند وبلوشستان علىٰ سبيل المثال- يمكن أن تقدم مصالح استراتيجية مهمة، حيث يمكن لدولة غجرية علىٰ الحدود الغربية للهند أن تكون بمثابة حاجز -أكثر فعالية من أفغانستان- بين مستعمراتهم وممتلكاتهم في الهند وبين الطموحات الروسية. يمكن أيضًا استخدام مثل هذه الدولة لإبراز الهيمنة البريطانية علىٰ إيران. ومع ذلك، فإن المشروع الاستعماري الغجري لم يكن لديه فرصة تُذْكر ليحظىٰ بدعم من البريطانيين أو أي قوة غربية أخرىٰ، حيث افتقر الغجر إلىٰ الموارد الثقافية والفكرية والمالية اللازمة ليكون لمشروعهم آذان في الخطاب السياسي الغربي؛ وبدون مساحة لعرض مشروعهم علىٰ النخب الغربية؛ لم يكنِ لمشروع «استقلال» الغجر -ولا أي مشروع احتلالي آخر- أن يعدو كونه خيالًا جامحًا.

الفصل العاشر
وفرة من الدول الراعية

«سيتحقق الخلاص بأسباب أرضية وبالجهود البشرية وبإرادة الحكومات لمَّ شمل إسرائيل المشتتة في الأرض المقدسة».
الحاخام كاليشر (Kalischer)، ١٨٣٦

«لقد اعتبرتُ أنه من الواجب أن ألفت نظر هذا الشعب الحر في هذا البلد [الولايات المتحدة] إلىٰ أنه من الحكمة -في موقفنا الحالي- أن يبذلوا جهودًا لمساعدتنا علىٰ العودة إلىٰ أرضنا».
مردخاي نوح (Mordecai Noah)، ١٨٤٥

«فرنسا -الحليف الحميم- ستلعب دور المنقذ الذي سيعيد شعبنا إلىٰ مكانته في التاريخ العالمي».
موسىٰ هيس (Moses Hess)، ١٨٦٢

«منذ اللحظة الأولىٰ التي التحقت فيها بالحركة، كانت عيني موجهة نحو إنجلترا، لأنني رأيت فيها -بسبب الوضع العام آنذاك- الوتد الذي يمكنه أن يقيم مشروعنا».
تيودور هرتزل (Theodore Herzl)، فبراير ١٨٩٨

«ربما ستصادف إنجلترا قطعة أرض خالية بحاجة إلىٰ سكان بيض، وربما يصادف أن يكون اليهود هم هؤلاء البيض . . .»

حاييم وايزمان (Chaim Weizmann)، ١٩١٤[1]

لم تخلُ الصهيونية يومًا من المفارقات؛ وما كان تحويلها العوائق التي من شأنها أن تُجهِض مشروعًا احتلاليًا آخر قبل أن يوجد إلىٰ أعظم نقاط قوتها؛ سوىٰ صورة واحدة من تلك المفارقات. لقد رسمت الصهيونية طموحها بإقامة دولة استيطانية يهودية في وقت لم تكن فيه دولة يهودية عظمىٰ يمكنها رعاية وحماية هذا المشروع؛ وإن السهولة التي استطاع بها الصهاينة إيجاد بدائل لتلك الدولة الحاضنة هي نتيجة تزاوج غريب -في العصر الحديث- بين اتجاهين متنافسين داخل الحضارة الغربية: المسيحية واليهودية؛ وإن خصوصية المشروع الاحتلالي الصهيوني، واستمراريته وقدرته علىٰ توليد دوائر صراع متسعة؛ تنبع بقدر كبير من الطريقة التي عزّز بها -ولا يزال- هذا الاتحاد غير المحتمل بين عدوين تاريخيين.

ما كان للصهاينة أن ينفذوا مشروعهم الاحتلالي بدون دعم من قوة غربية كبرىٰ أو أكثر؛ فمن أجل إنشاء دولتهم الاستيطانية الاحتلالية الإقصائية، كان عليهم أولًا انتزاع فلسطين من العثمانيين، ثم تأكيد الهيمنة بعملية ثانية أكثر جرأة: أي اغتصاب فلسطين من أصحابها العرب الذين عاشوا فيها لقرون؛ وحدها القوة العظمىٰ هي ما يضمن تقدم هذه الخطة الجامحة. من المستحيل إقامة دولة يهودية خلسة من خلال التسلل البطيء للمستعمرين اليهود إلىٰ فلسطين؛ كما حذر هرتزل في عام ١٨٩٦ من أن «التسلل البطيء سيستمر فقط إلىٰ لحظة لا مفر منها عندما

(1) Hertzberg, The Zionist Idea, 109-110; Schuldiner and Kleinfeld, The Selected Writings, 126; Hertzberg, The Zionist Idea, 133; Sokolow, History of Zionism, 295; Hertzberg, The Zionist Idea, 576.

يشعر السكان الأصليون بأنهم مهددون، ويجبرون الحكومة علىٰ وقف تدفق المزيد من اليهود؛ فالهجرة غير مجدية ما لم تستند إلىٰ **سيادة راسخة**»[1] [التسويد مضاف]، فما كان يمكن للصهاينة أن يضعوا خطتهم قيد التنفيذ ما لم يستولوا علىٰ فلسطين أولًا.

لقد اعتمد إنشاء كافة مستعمرات المستوطنين البيض تقريبًا في الأمريكيتين علىٰ دعم القوىٰ الأوروبية؛ هل يمكن لليهود وهم في الشتات الغربي الاستيلاء علىٰ فلسطين دون دعم من أية دولة؟ زعم مردخاي نوح -أحد الصهاينة الأمريكيين الأوائل- في عام ١٨١٨ أن ذلك ممكن، وقال «إن هناك ما يزيد عن سبعة ملايين يهودي، موجودون في جميع أنحاء العالم، ويمتلكون ثروةً ونشاطًا ونفوذًا ومواهب أكثر من أي أمة علىٰ وجه الأرض؛ هؤلاء الملايين سوف يسيرون منتصرين ليعودوا مرة أخرىٰ إلىٰ سوريا، ويتبوؤون مكانتهم بين حكومات العالم»؛ وأكد نوح لجمهوره أن «هذه ليست أوهامًا»؛ لأن اليهود «يهيمنون الآن علىٰ رؤوس الأموال، ويمكنهم استخدام السيف، وإذا تطلب الأمر: يمكنهم جلب ١٠٠٠٠٠ رجل إلىٰ الميدان في الحال»[2]، إلا أن تأكيده علىٰ أنها ليست أوهامًا لا يغني شيئا عن حقيقة أن خطة الاعتماد علىٰ الذات هذه خرجت من نسج الخيال وإليه تعود، والدليل أن الصهاينة الجادّين لن يرددوها مرة أخرىٰ. وفي الواقع، عندما عاد نوح إلىٰ هذا الموضوع في عام ١٨٤٤ اقترح أن المدافعين اليهود عن «العودة» يجب أن يحشدوا دعم المجتمعات الغربية، وتوقّع أن تقدم الدول المسيحية هذه المساعدة، وعلّق آماله علىٰ اثنين منها علىٰ وجه الخصوص: الولايات المتحدة وبريطانيا[3].

---

(1) Herzl, The Jewish State, 12.

(2) Grose, Israel in the Mind, 14.

(٣) كتب مردخاي نوح أنه بما أن اليهود -بمفردهم- لا يستطيعون الاستيلاء علىٰ سوريا، فإن الدول المسيحية التي «تتحكم الآن في مصائر العالم، يجب أن تُستدعىٰ لتنفيذ هذا المشروع الحيوي»، =

كان القادة الصهاينة علىٰ رأي رجل واحد بشأن الحاجة إلىٰ تجنيد قوة غربية واحدة أو أكثر لتلعب دور الدولة الأم في مشروعهم الاستيطاني الاحتلالي؛ ففي عام ١٨٦٢، دعا موسىٰ هيس إلىٰ بناء مؤسسة عامة لتمويل «العودة» اليهودية، ولأنه -عمليًا- كان يعلم أن هذا لا يمكن تحقيقه دون تدخل قوة عظمىٰ، وقال: «فرنسا -الحليف الحميم- ستلعب دور المنقذ الذي سيعيد شعبنا إلىٰ مكانته في التاريخ العالمي»[١]، وكان ليو بينسكر -وهو شاب معاصر لهيس- له نفس الرأي، وكتب عام ١٨٨٢ أنه «من الواضح أن إنشاء وطن يهودي لا يمكن أن يحدث أبدًا دون دعم الحكومات [الغربية]»[٢].

كان لدىٰ هرتزل خطة أكثر طموحًا، فقد سعىٰ إلىٰ وضع القوة والهيمنة الأخلاقية للعالم الغربي وراء المشروع الصهيوني، ففي عام ١٨٩٦ قرّر بأن الحلّ الصهيوني للمسألة اليهودية لا يمكن أن ينجح إلا من خلال تحويلها إلىٰ «قضية سياسية عالمية، تناقشها وتفصل فيها **دول العالم المتحضرة في مجالسهم**»، وأن المشروع الصهيوني يجب إتمامه «في توافق مطلق مع القانون» [التسويد مضاف]. وبعبارة أخرىٰ: فإن السرقة المقترحة لأراضي الفلسطينيين يجب أن تُمنح شرعية في القانون الدولي، وذلك بموافقة القوىٰ العظمىٰ؛ سيتطلب ذلك بالطبع «تدخلًا ودّيًا من الحكومات المهتمة، تلك الحكومات التي ستجني من وراء هذا المشروع

= وتوقّع أن يتولىٰ البريطانيون -تحديدًا- هذه المهمة. كما توقّع نوح أن تحتل بريطانيا مصر لتأمين الوصول إلىٰ ممتلكاتها في الهند. وبمجرد حدوث ذلك، يمكن لدولة يهودية في فلسطين أن تكون بمثابة حاجز موثوق به بين البريطانيين في مصر والروس. علاوة علىٰ ذلك، فإن اليهود مستعدون -ولديهم القدرة- للقيام بهذه المهمة العظيمة، ووفقًا لمردخاي نوح فإن «الشعب اليهودي كله علىٰ قدر هائل من الذكاء والتعليم والصناعة والمشاريع غير المجزأة والعلوم والفنون والاقتصاد السياسي والثروة؛ يمكنه من تبني الخطوات الأولية في تنظيم حكومة حرة في سوريا».

schuldiner and Kleinfeld, The Selected Writings, 139, 141.

(1) Hertzberg, The Zionist Idea, 133.

(2) Pinsker, Auto-Emancipation, 96, quoted in Hirst, The Gun and the Olive Branch, 41.

فوائد جمة»[1]. لم يكن الصهاينة منظّرين في أبراج عاجية عاطلين عن العمل، فبعد عقدين فقط من إطلاقها رسميًا نجحوا في تحويل خطتهم الاحتلالية «اليتيمة» إلىٰ مشروع غربي جماعي مدعوم بالسلطة الأخلاقية والدبلوماسية لجزء كبير من العالم الغربي[2]، وفي غضون ثلاثة عقود أخرىٰ، كان لديهم دولتهم الاحتلالية اليهودية؛ ولم تقترب أي دولة احتلالية استيطانية في القرون الأخيرة من مطابقة هذا الرقم القياسي.

❀ ❀ ❀

علىٰ أية حال، كانت مهمة تجنيد دولة راعية بديل مهمة شاقة، فلماذا تقوم أي دولة برعاية مشروع استعماري لا يكون المستفيدون الرئيسيون فيه من مواطنيها؟ ومع ذلك، نادرًا ما أبدىٰ الصهاينة شكوكًا جديّة حول قدرتهم علىٰ تجنيد مثل هذا البديل. علىٰ العكس من ذلك، فقد أظهروا ثقةً مخيفةً في قدرتهم -في نهاية المطاف- علىٰ حشد الدعم الذي يحتاجون إليه. كان مجال الوكلاء المحتملين كبيرًا جدًّا لدرجة أن المفكرين الصهاينة لم يكونوا دائمًا متفقين علىٰ أفضل مرشح ينبغي عليهم توجيه جهودهم إليه. عمليًّا: لقد سعوا وراء عدة مرشحين في وقت واحد، علىٰ أمل كسب دعم الجميع أو تعظيم فرصهم في الفوز

---

(١) هرتزل، (الدولة اليهودية، The Jewish State, 2, 6). في رسالة كتبها عام ١٨٩٩ إلىٰ ضياء الخالدي -رئيس بلدية القدس- أكد هرتزل أن «اليهود لم يصطحبوا معهم قوة حربية»، و«أنه لا داعي علىٰ الإطلاق للخوف من هجرتهم». ومع ذلك، أمضىٰ هرتزل السنوات القليلة الماضية في محاولة دؤوب لتأمين دعم مثل هذه «القوة الحربية».

khalidi, From Haven to Conquest, 91-92.

بالإضافة إلىٰ ذلك، تضمنت مسودة ميثاق شركة الأراضي اليهودية العثمانية (JOLC) التي أراد هرتزل أن يوافق عليها العثمانيون خططًا لإنشاء جيش وبحرية يهودية تحت سيطرة هذه الشركة.

khalidi, "The Jewish-Ottoman Land Company," 46.

(٢) سُجّلت مصادقة الحكومات التالية علىٰ وعد بلفور في سجل الكونغرس الأمريكي في أبريل ١٩٢٢: فرنسا، إيطاليا، هولندا، اليونان، صربيا، الصين، سيام، واليابان. Zionist Organization of America, The American War Congress, 151-54.

بدعم واحد علىٰ الأقل؛ وفي أوقات مختلفة، ركّز الصهاينة أنظارهم علىٰ الإمبراطورية العثمانية وروسيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة[1]. لماذا كان الصهاينة واثقين جدًّا من قدرتهم علىٰ إقناع قوة غربية واحدة أو أكثر برعاية مشروعهم؟

كانت الثقة الصهيونية نابعة من قوة وتنوع القوىٰ الموالية للصهيونية التي كانت موجودة بالفعل في نهاية القرن التاسع عشر. لقد أدىٰ الاندماج اليهودي والهجرة الغربية لليهود خلال القرن التاسع عشر إلىٰ إنشاء مجتمعات مهمة من اليهود المندمجين، والذين غالبًا ما كانوا يتركزون في المدن التجارية الرئيسية للقوىٰ الغربية الكبرىٰ، أما في أوروبا الشرقية، فقد شكّل اليهود غالبية طليعة حركاتها الثورية؛ كما كانت معاداة السامية في ازدياد بشكل ملحوظ في شرق أوروبا عنها في وسط وغرب أوروبا. كما استطاعت عدوىٰ البروتستانتية -التي أظهرت حماسًا متزايدًا لإعادة اليهود إلىٰ أرضهم- من بريطانيا إلىٰ الولايات المتحدة. وأخيرًا، أدىٰ النمو الهائل لعدد السكان اليهود، وتركّزهم في المدن الكبرىٰ، ووصولهم إلىٰ أعلىٰ المستويات في المجتمع الغربي؛ إلىٰ خلق اتصالات متكررة بين زعمائهم عبر الحدود الوطنية، وحفّزت هذه الاتصالات تنسيقًا متزايدًا حول المخاوف اليهودية، والآمال في وحدة يهودية أقوىٰ، تقوم بالأساس علىٰ أسطورة النقاء العرقي. وباختصار، قدّمت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر -أكثر من أي فترة سابقة- فرصًا متعددة لنمو ونجاح الحركة الصهيونية.

أتاح التشتت والانتشار الجغرافي لليهود -بحلول نهاية القرن التاسع عشر- للصهاينة نقاطًا متعددة للدخول إلىٰ السياسة في كل بلد غربي كبير تقريبًا، كما أدت هجرة اليهود إلىٰ الغرب -وميلهم إلىٰ التواجد في المراكز التجارية والمالية الرائدة- إلىٰ خلق مجتمعات يهودية مؤثرة في كل من البلدان المحورية في

---

(١) كان للصهاينة الإقليميين قائمة مختلفة من «الدول الراعية» التي تشمل القوىٰ الأوروبية الأصغر، مثل البرتغال، مع مستعمراتها في أفريقيا.

الغرب، بما في ذلك بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة وفرنسا. يمكن للصهاينة أيضًا الاستفادة من دعم الجاليات اليهودية الكبيرة في هولندا وإيطاليا وكندا وأستراليا وجنوب أفريقيا والأرجنتين والمكسيك. بالإضافة إلىٰ ذلك، استطاعت الثورة البلشفية أن تضع اليهود في مناصب قيادية مهمة في الاتحاد السوفيتي، وبعد الحرب العالمية الثانية -عندما أصبحت السلطة في يد الأحزاب الشيوعية في أعقاب الغزو السوفيتي- وسع اليهود أيضًا نفوذهم علىٰ العديد من دول أوروبا الشرقية.

يمكن للحضارة الغربية -ككل- أن تتعاون مع الصهيونية لثلاثة أسباب علىٰ الأقل. إن دولة يهودية في فلسطين تعد بتحقيق حلم المعادين للسامية بإخلاء اليهود في أوروبا ومنافستهم لهم في المناصب؛ كما فضّلت مخيلة البروتستانت سيطرة اليهود علىٰ سيطرة المسلمين علىٰ فلسطين، فرغم كونهم مكروهين، إلا أنهم في النهاية يشتركون معهم في جزء من الكتاب المقدس، ومن ثمّ فهم أفضل من المسلمين «الكفار»[1]. لقد كان الغرب المسيحي -أثناء معاركه الدائمة ضد المجتمعات الإسلامية- يعتبر كل انتصار صهيوني ضربة موجعة لأكثر خصومه كراهية. بالإضافة إلىٰ ذلك، يمكن إقناع الجماهير الغربية بالاعتقاد بأن دولة يهودية في الشرق الأوسط ستكون معقلًا غربيًا، يعكس قيم وتأثير الغرب في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

---

(١) في بولندا، كان يُنظر إلىٰ ضحايا النظام الشيوعي الجديد وكذلك الأعضاء العاديين في الحزب الشيوعي اليهود في الحزب علىٰ أنهم «خدام لستالين وخونة للشيوعية القومية». Naimark, "Revolution and Counter-Revolution," 76-77. في الحركات الثورية التي سعت إلىٰ الاستيلاء علىٰ السلطة في أعقاب انهيار إمبراطوريات هوهنزولرن ورومانوف وهاسبورغ بعد الحرب العالمية الأولىٰ، «أدىٰ اليهود أدوارًا مهمة». كان لليهود دور رائد في الثورة المجرية عام ١٩١٩، بقيادة بيلا كون (Bela Kun)، وهو يهودي ترانسيلفاني [روماني]، بالإضافة إلىٰ ذلك، كان ثمانية عشر من أصل تسعة وعشرين عضوًا في المجلس الثوري السوفيتي المجري من اليهود. كما مارس اليهود «أدوارًا رئيسية في الاضطرابات الثورية في برلين وميونيخ». Brustein, Roots of Hate, 272.

ومع ذلك، فإن وجود أوجه تكامل بين الصهيونية والأمزجة الغربية المختلفة لم يُترجم تلقائيًا إلىٰ سياسات موالية للصهيونية؛ فقد كان علىٰ الكُتاب الصهاينة العمل علىٰ تحويل المشاعر المؤيدة للصهيونية إلىٰ أفكار سياسية، كما كان علىٰ المنظمات الصهيونية أن تعمل علىٰ دمج هذه الأفكار في برامج الأحزاب السياسية. في بعض الحالات، قد يكون التكامل -مثلًا- بين المصالح الاستراتيجية للقوىٰ الغربية والصهيونية- عابرًا، أو وهميًا؛ إذا كان ثمة عواقب سلبية تعود علىٰ القوىٰ التي قد تدعم الصهيونية؛ فيجب جعل هذه التكاملات المتخيّلة أو المؤقتة تبدو حقيقية ودائمة؛ ومن هنا كان دور جماعات الضغط (lobby) الصهيونية -التي نُظِّمت ودُعِمت بشكل أساسي من قبل الشتات اليهودي- في خلق هذه التصورات؛ دورًا محوريًا.

من الواضح أن القدرة الصهيونية علىٰ تشكيل التصورات والمعتقدات الغربية هي إحدىٰ نقاط قوتهم الرئيسية. ومرةً أخرىٰ: تنبع هذه القوة -في جزء كبير منها- من نمط التشتت والانتشار اليهودي عبر العالم الغربي. لقد كان النفوذ اليهودي علىٰ الاقتصاد والسينما والإعلام والأوساط الأكاديمية في البلدان الغربية الرئيسية؛ أقوىٰ أصول الحركة الصهيونية. ومن الواضح أن الضغط اليهودي لدعم الأهداف الصهيونية كان أكثر فاعلية في بعض البلدان منه في بلدان أخرىٰ. ومع ذلك، لا يمكن في أي دولة غربية ذات سيادة تجاهل قوة جماعة الضغط اليهودي وسلطانه علىٰ وسائل الإعلام والسياسيين والأكاديميين والكُتّاب. وبمرور الوقت، كانت قدرة هذا الشتات اليهودي علىٰ العمل جنبًا إلىٰ جنب مع القيادة الصهيونية -داخل وخارج إسرائيل- تزداد بشكل مطّرد.

لقد ارتبط الصهاينة -بما في ذلك اليشوف- والشتات اليهودي ببعضهم البعض برابطة قوية تعتمد علىٰ المصالح المتبادلة؛ فمن ناحية، اعتمد نمو اليشوف علىٰ المهاجرين والدعم المالي القادم من الشتات؛ وفي المقابل، جلب كل توسع لليشوف المزيد من الدعم المالي من الشتات؛ وبمجرد أن نالت

الصهيونية دعم الغرب (الأغيار) في عام ١٩١٧، انجذب المزيد من يهود الشتات إلىٰ الصهيونية؛ ومع تزايد المطالب الصهيونية من يهود الشتات، نظّموا أنفسهم بفاعلية للضغط علىٰ حكوماتهم لدعم المطالب الصهيونية. في مرحلة ما من هذه العملية التراكمية، ومع تزايد أعداد اليشوف وقوتهم التنظيمية، كان قادتهم يسعون إلىٰ الحصول علىٰ دور أكثر فاعلية في قرارات المنظمات الصهيونية في الشتات اليهودي؛ ومع مرور الوقت، ظهر تآزر مستمر بين اليشوف وصهاينة الشتات مع استمرار هؤلاء الصهاينة في لعب دور مهيمن في حشد دعم اليهود في الشتات والغرب لليشوف، لكن مع قيام دولة إسرائيل، تولت الدولة اليهودية الدور القيادي في توجيه الأنشطة الصهيونية لليهود في الشتات.

لقد عمل صهاينة الشتات -بجدّ- لتأمين أقوىٰ التزام غربي بأهدافهم؛ لقد شجّعوا كل تلك الاتجاهات في الغرب التي كانت داعمة للأهداف الصهيونية - بما في ذلك المسيحية الصهيونية، والتعصّب ضد الإسلام، والعنصرية ضد العرب-، وعندما تطلب الأمر أقاموا تحالفات سياسية مع مجموعات استمدّت قوتها من هذه الاتجاهات؛ حتىٰ أنهم في بعض الأحيان كانوا علىٰ استعداد للتعاون مع الأنظمة المعادية للسامية[(١)]. وعلىٰ مستوىٰ آخر، دبّرت المنظمات الصهيونية الرئيسية أنشطة الجماعات غير اليهودية الموالية للصهيونية لحثّ الحكومات الغربية علىٰ دعم أهدافها. وعلىٰ نحو متزايد، عمل اليهود والأغيار معًا -مع تنامي النفوذ الصهيوني- لتأمين صدارة الأهداف الصهيونية في سياسات الحكومات الغربية الرئيسية. كان إنشاء إسرائيل تتويجًا للنجاح الصهيوني في الاستيلاء علىٰ الدعم الاقتصادي والعسكري والدبلوماسي للولايات المتحدة.

---

(١) تجدر الإشارة إلىٰ أنه ليس كل المسيحيين يفضّلون الصهيونية لأسباب دينية. كتب المراسل الخاص لصحيفة بريطانية: «إنه أمر مثير للاشمئزاز، أن بلدًا مسيحيًّا مثل بريطانيا يسعىٰ إلىٰ تسليم هؤلاء العبيد من اليهود الأرض المقدسة يرتعون فيها كما يشاؤون؛ إن أجدادنا شنوا الحروب الصليبية، أما رجال الدولة لدينا يسلمون بلاد المُخلّص للكفار أمثال ريتشارد كور دي ليون».

kerekes, Masked Ball, 272.

لكن في غياب المصالح الاستراتيجية الملحّة؛ سرعان ما سينفد دعم الدولة الراعية لمستعمراتها؛ كما أنه ليس من الممكن أن يستمر دعم المستوطنين طويلًا مع ارتفاع التكاليف -من الدماء والأموال- التي يتكبدونها لدعمهم ضد المقاومة المحليّة؛ ومع تصاعد الضغوط المحلية في البلد الأم، سيؤدي ذلك إلىٰ التخلّي عن المستوطنين إنْ عاجلًا أو آجلًا. كانت هذه الضغوط فاعلة خلال الفترة التي سبقت عام ١٩٤٨ عندما عملت بريطانيا بنفسها كدولة راعية، مستخدمة قواتها وأفرادها للاحتفاظ بفلسطين نيابة عن اليشوف، لكن بمجرد حصولهم علىٰ دولة خاصة، لم يكن علىٰ البلد الراعي الجديد -الولايات المتحدة- القيام بأية التزامات عسكرية مباشرة للدفاع عن المستعمرات اليهودية؛ أما الدعم الاقتصادي والدبلوماسي للولايات المتحدة لإسرائيل؛ فيمكن إخفاؤه -علىٰ الرغم من كونه مكلّفًا للغاية- لدرجة لا تثير سخطًا محليًّا، ولذلك كانت أقل عرضةً للضغوط الديمقراطية، وقد كان لهذا العامل الثاني خصوصًا دورًا مهمًّا في الحفاظ علىٰ دعم الولايات المتحدة لدولة الاستيطان اليهودية. تستمد إسرائيل دعمها الأساسي في الولايات المتحدة من الشتات اليهودي الذين ترتبط هويتهم، وكبرياؤهم، وتوقّعاتهم المسيانية، ونفوذهم، وآمالهم في العثور علىٰ ملجأ في حال قيام حملة أخرىٰ لمعاداة السامية، وقد كان هذا الارتباط وثيق الصلة بنجاح الدولة الاحتلالية اليهودية. وبينما يتمتع الشتات اليهودي في الولايات المتحدة بكل هذه المزايا، فهو لا يتحمل سوىٰ جزء صغير جدًّا من تكاليف دعم أبناء عمومتهم المحتلين، حيث يتحمّل دافعو الضرائب من غير اليهود الكفل الأكبر من التكاليف المالية لدعم إسرائيل؛ ونتيجة لذلك، من غير المرجح أن تؤدي التكاليف المتصاعدة للمشروع الصهيوني -التي يتكبّدها الأمريكيون- إلىٰ إضعاف القاعدة الأساسية لدعمهم في الولايات المتحدة.



إن غياب دولة راعية يهودية قد كان منحة للصهاينة، فقد استعاضوا عنها بشيء أفضل بكثير؛ فنظرًا لوجود الجاليات اليهودية في المجتمعات الغربية الرئيسية، والتأثير الذي مارسته علىٰ مجتمعاتهم «المضيفة»، ووجود الجماعات والميول غير اليهودية المتوافقة مع الصهيونية؛ كان للصهاينة ميزة تجنيد واحدة أو أكثر من البلدان الراعية.

لقد كانت هذه الميزة هي الورقة الرابحة للصهيونية كحركة احتلالية استيطانية؛ فبدلًا من أن تكون عالقةً مع بلدٍ راعٍ واحد -انظر مثلًا إلىٰ مصير المستعمرين الفرنسيين في الجزائر والمغرب، أو المستعمرين البريطانيين في كينيا وروديسيا- يمكن للمحتلين اليهود الانتقال من دولة راعية إلىٰ أخرىٰ تخدم مصالحهم علىٰ أفضل وجه؛ فإذا بدأت إحدىٰ الدول الراعية في فقدان الاهتمام بالمشروع الصهيوني، يمكن للصهاينة استبدالها علىٰ الفور، أو تعزيزها بمجموعة من الدول الأخرىٰ. بالإضافة إلىٰ ذلك، كان بإمكان الصهاينة -في أي وقت- الاعتماد علىٰ الدعم السياسي الذي تقدمه شرائح مؤثرة من السكان في جميع البلدان الغربية تقريبًا. والنتيجة: تمتّعت المؤسسة الصهيونية بمجموعة واسعة من الخيارات لتلبية احتياجاتها المالية والتكنولوجية والعسكرية والدبلوماسية؛ فإذا رفضتها دولة ما، فيمكنها تقديم نفس المطالب للعديد من البلدان الأخرىٰ، والمشروع الاستيطاني الصهيوني هو الوحيد الذي تمتع بهذا النوع من المرونة.

سعىٰ المشروع الصهيوني -بعمل دؤوب امتد لأكثر من قرن من الزمان- إلىٰ الحصول علىٰ دعم من مجموعة متنوعة من الدول الغربية وقد حصل عليه. إنها لقائمة طويلة تلك التي تضم جميع الدول الغربية التي قدمت دعمًا أخلاقيًّا أو سياسيًّا أو دبلوماسيًّا أو ماليًّا أو عسكريًّا أو تكنولوجيًّا أو استخباراتيًّا للمشروع الصهيوني منذ انطلاقه في عام ١٨٩٧، ولكن من المتفق عليه عمومًا أن بريطانيا والولايات المتحدة -الأولىٰ قبل عام ١٩٤٨ والثانية بعده ذلك الحين- قد دعمتا المشروع الصهيوني علىٰ مدىٰ فترات طويلة، وبطرق كانت لا غنىٰ عنها لنجاحه،

وتستحق هذه القوىٰ العظمىٰ -أكثر من أي دولة أخرىٰ- لقب الدولة الراعية للمستوطنين اليهود في فلسطين.

لقد حصل الصهاينة علىٰ دعم حيوي من مصدر غير متوقع خلال الفترة الحرجة قبل وبعد قيام إسرائيل؛ ففي تحدٍ صارخ لموقفه المناهض للإمبريالية والاستعمار، انضم الاتحاد السوفيتي إلىٰ الولايات المتحدة في دعم إنشاء دولة احتلالية استيطانية في فلسطين؛ حيث ساعد السوفييت -جنبًا إلىٰ جنب مع حلفائهم في أوروبا الشرقية- الولايات المتحدة في تأمين ثلثي أصوات الجمعية العامة للأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٤٧ اللازمة للموافقة علىٰ خطة تقسيم فلسطين، ومن المهم أن نلاحظ أيضًا أنه بدون التدفق الهائل والمستمر للأسلحة الثقيلة -بما في ذلك الطائرات- من تشيكوسلوفاكيا خلال المواجهة العربية الإسرائيلية الأولىٰ، ربما كانت الهزيمة لتلحق بالجيش الإسرائيلي في عام ١٩٤٨، الأمر الذي من شأنه القضاء علىٰ المشروع الاحتلالي الصهيوني مبكرًا[١].

تلقّت إسرائيل في العقدين الأولين من وجودها دعمًا حيويًّا من دولتين غربيتين رئيسيتين إلىٰ جانب الولايات المتحدة؛ ففي الوقت الذي لم ترغب فيه الولايات المتحدة أن ينظر إليها العرب علىٰ أنها تدعم إسرائيل، تدخلت فرنسا لتأخذ دور المورّد الرئيسي للأسلحة الثقيلة لإسرائيل، كما زوّدت فرنسا إسرائيل بالتكنولوجيا النووية التي استخدمتها بعد ذلك في تطوير الأسلحة النووية، وابتداءً من عام ١٩٥٣ -وبموجب اتفاقية دولية- أمدّت ألمانيا إسرائيل بسلع وخدمات بقيمة ثلاثة مليارات مارك علىٰ مدىٰ اثني عشر عامًا، وبموجب هذه الاتفاقية، استحوذ الإسرائيليون علىٰ محطات توليد الطاقة، والسكك الحديدية، ومرافق الموانئ المحسّنة، والسفن، ومناجم النحاس، والآلات لـ ١٣٠٠ مصنع بما في

(1) Brenner, Zionism in the Age and 51 Documents; Black, The Transfer Agreement; Hecht, Perfidy.

ذلك مصانع الصلب، وأكثر من ذلك[١]. لم تتلق أي دولة نامية مساعدة مالية وتكنولوجيا بهذا الحجم من أي دولة متقدمة. وبموجب برنامج سرّي استمر من عام ١٩٥٨ حتىٰ اكتشافه في عام ١٩٦٥، زوّدت ألمانيا إسرائيل بالأسلحة الثقيلة، بالإضافة إلىٰ قرض ميسّر بقيمة ٥٠٠ مليون دولار تم تقديمه في عام ١٩٦٠ لتعمير صحراء النقب[٢]، ومن المشكوك فيه أن تتمكّن إسرائيل من تحقيق الانتصار المذهل في حرب يونيو ١٩٦٧ بدون المساعدة المالية والتكنولوجيا والمعدات العسكرية التي قدمتها فرنسا وألمانيا منذ أوائل الخمسينيات. علىٰ مدىٰ القرن الماضي، قدّمت كل من القوىٰ الغربية الخمس الكبرىٰ -من وقت لآخر- الدعم الذي كان لا غنىٰ عنه لنجاح المشروع الصهيوني؛ وإن هذا سجل فريد لم يحققه أي مشروع استعماري آخر.

لقد أظهر الغرب -أفرادًا وجماعات- دعمه الكامل للصهيونية في نوفمبر ١٩٤٧ عندما طُرِح اقتراح تقسيم فلسطين للتصويت أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة. في الواقع، كان التصويت علىٰ التقسيم تصويتًا لاقتطاع دولة يهودية من الأراضي التي يملكها الفلسطينيون؛ وكانت شروط التقسيم جائرة أيضًا، ورغم أن المستوطنين اليهود في عام ١٩٤٨ كانوا يمتلكون أقل من ٧٪ من الأرض، فإن اقتراح الأمم المتحدة منحهم ٥٥٪ من فلسطين[٣]. بالإضافة إلىٰ ذلك، مُنِحت الدولة اليهودية إمكانية الوصول إلىٰ نهر الأردن، وبحيرة طبريا، والبحر الأحمر،

---

(١) بدأت تشيكوسلوفاكيا بتزويد إسرائيل بالأسلحة في كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨، وبحلول أواخر صيف العام نفسه كانت قد زودتها بـ «٨٤ طائرة مقاتلة، و٢٢ دبابة، و١٦ قطعة مدفعية، و٦٠٠٠٠ سلاح خفيف، وعشرات الملايين من طلقات الذخيرة».

sachar, Israel and Europe, 56-57.

(2) Lewan, "How West Germany Helped," 41-43.

في نهاية عام ٢٠٠٠ بلغت القيمة الإجمالية للتعويضات الألمانية عن اضطهادها لليهود ٥٥ مليار يورو، وقد ذهب ٤٠٪ من هذا المبلغ إلىٰ إسرائيل أو المستفيدين في إسرائيل.

(3) Safran, Israel, 376.

والبحر الأبيض المتوسط، وخليج العقبة بصورة غير مسبوقة[1]. ومن أجل السماح للدولة اليهودية بالوصول إلىٰ خليج العقبة، قطعت خطة الأمم المتحدة الرابط البري الوحيد المستمر بين الأجزاء الشرقية والغربية من العالم العربي؛ كما أن جغرافيا الدولتين الجديدتين -إسرائيل وفلسطين العربية- التي اقترحتها خطة التقسيم التي وضعتها الأمم المتحدة كانت عديمة الجدوىٰ؛ حيث تتألف كل دولة من ثلاث قطع من الأرض، متصلة فقط بممرات برية ضيقة، ومع ذلك، صوّتت جميع الدول الغربية -تقريبًا- لصالح خطة الأمم المتحدة للتقسيم، بينما صوتت اليونان ضد الخطة، وامتنعت بريطانيا ويوغوسلافيا عن التصويت كما امتنع العديد من دول أمريكا اللاتينية[2]. ومن الواضح أن التصويت في الأمم المتحدة عام ١٩٤٩ أظهر أن الصهيونية كانت مشروعًا غربيًّا من الأساس؛ فمن بين البلدان الثلاثة عشر التي صوتت ضد الخطة، كان عشرة منها يقع في العالم الإسلامي. وحتىٰ في هذا التاريخ المبكر، كانت الحركة الصهيونية قد رسمت الخطوط العريضة للمعركة بين الغرب والعالم الإسلامي . . . فهل كان هذا نذير لما هو آتٍ؟

(1) Kamrava, The Modern Middle East, 79.

(2) Yaacobi, Breakthrough, 184.

الفصل الحادي عشر
الصهيونية والمصالح البريطانية

«دكتور وايزمان . . .ها قد أوتيت سؤلك!»
السير مارك سايكس (Mark Sykes)، ٣١ أكتوبر/١٩١٧[1].

في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩١٧، تعهّد البريطانيون ببذل «أقصىٰ ما في وسعهم» لإنشاء «وطن قومي للشعب اليهودي» في فلسطين؛ يُعرف هذا الالتزام التاريخي باسم وعد بلفور (Balfour Declaration)، وقد نُقل هذا الالتزام التاريخي في رسالة من اللورد بلفور -وزير الخارجية البريطاني- إلىٰ اللورد روتشيلد (Rothschild)، أحد رجالات المجتمع اليهودي في بريطانيا، وهو صهيوني نشط وصديق مقرب لحاييم وايزمان.

أعطىٰ وعد بلفور الصهاينة كل ما كانوا يحلمون به تقريبًا؛ حيث أعلنت أعظم قوة في العالم آنذاك أنها ستكون الدولة الراعية لمشروعهم الاحتلالي،

---

(١) هكذا استقبل السير مارك سايكس، سكرتير مجلس الوزراء البريطاني الحربي عام ١٩١٧، حاييم وايزمان بنبأ موافقة مجلس الوزراء البريطاني علىٰ بيان دعم الصهيونية، المعروف باسم وعد بلفور.
Fromkin, A Peace to End All Peace, 297.

[وقد ترجم أسعد كامل إلياس الكتاب إلىٰ العربية بعنوان «سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤-١٩٢٢»، وصدر عن دار رياض الريس للكتب والنشر، ط١ ١٩٩٢م].

وبعد فترة وجيزة -وبمقتضىٰ هذا الالتزام- منح البريطانيون المحتلين اليهود وصولًا غير محدود إلىٰ فلسطين؛ وقد كان هذا الإعلان بالنسبة إلىٰ اليهود الغربيين والمسيحيين البروتستانت -علىٰ حدٍ سواء- يعني أن المشروع الصهيوني لم يكن خيالًا جامحًا. بإمكان الصهاينة الآن أن يتأكدوا من أن حركتهم تسير علىٰ طريق النجاح السريع، الذي لا رجعة فيه. لقد عمل الصهاينة ضمن مصفوفة من القوىٰ والميول التاريخية التي يمكن ربطها بعربة طموحاتهم الاحتلالية، حيث تضمنت القوات الموالية للصهيونية المحدّدة في الفصول السابقة: يهود الشتات، ومعاداة السامية، والصهيونية المسيحية، والعنصرية والتعصب الأعمىٰ المعادي للإسلام، والطموحات الصليبية، والمصالح الغربية الحقيقية والمفترضة في الشرق الأوسط، وتنافس القوىٰ الغربية علىٰ تلك المصالح. ومع ذلك، بقي يهود الغرب هم أقوىٰ المدافعين عن الصهيونية؛ فغالبًا ما كان هؤلاء اليهود منتشرين في المراكز الاستراتيجية التي تشكّل سياسة المجتمعات الغربية، وهي مواقع يمكنهم من خلالها حشد القوىٰ المؤيدة للصهيونية في المجتمعات الغربية الرئيسية، والاستفادة من قوتهم لتشكيل السياسات الغربية بما يتلاءم مع أطماع الصهيونية.

إلا أن الصهاينة في خطابهم العلني دائمًا ما اختاروا التأكيد علىٰ القيمة الاستراتيجية التي يمثّلها مشروعهم الاحتلالي للقوىٰ الغربية، سواءً عندما سعوا للحصول علىٰ الدعم الغربي، أو عندما يبرّرون الدعم الذي قدّمته القوىٰ الغربية -بيدٍ سخيةٍ- إلىٰ الصهيونية منذ نشأتها. يستخدم القادة الغربيون أيضًا نفس الخطاب؛ لا ينبغي لهذا أن يثير دهشتنا؛ فالصهاينة وكذلك القادة الغربيين -انصياعًا لرغبات اللوبي الصهيوني وأهدافه- لديهم مصلحة متساوية في التستر علىٰ هذا الضغط؛ فلا يرغب الصهاينة في أن يُنظر إليهم علىٰ أنهم المهندسون الحقيقيون للسياسات الغربية تجاه الشرق الأوسط، تلك التي فرضت تكاليف استراتيجية واقتصادية كبيرة علىٰ القوىٰ الغربية؛ كما لا يريد القادة الغربيون أيضًا أن يرىٰ العالم كيف تُقَيّد سلطات صنع القرار لديهم تحت ضغط اللوبي الصهيوني.

هناك عوامل أخرىٰ أيضًا دعمت الأسطورة القائلة بأن إسرائيل هي الأصل الاستراتيجي لأمريكا في الشرق الأوسط؛ فالمفارقة العجيبة هي أن العديد من الكتاب اليساريين في الولايات المتحدة قد ألقوا تبعة الحروب والسياسات القمعية لإسرائيل علىٰ الإمبريالية الأمريكية. تدعم الولايات المتحدة إسرائيل، وتمنحها تفويضًا مطلقًا لقمع الفلسطينيين؛ لأنها تُبقي الشرق الأوسط تحت السيطرة؛ بالإضافة إلىٰ ذلك، فإن الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة -بجميع مكوناتها- قد راكمت قوة ردع كافية لإبعاد انتقاد إسرائيل عن الخطاب العام، فحياة المرء يمكن أن تنتهي سريعًا إذا أصرّ علىٰ الإشارة إلىٰ ذلك الشيء الذي يعرف الجميع وجوده ويغضون الطرف عنه(١) . . إنه اللوبي الإسرائيلي.

بدأ الصهاينة يلعبون علىٰ القيمة الاستراتيجية لمشروعهم في وقت مبكر جدًّا؛ كتب موسىٰ هيس في عام ١٨٦٢ أنه كان بإمكانه توقع تفكيك الإمبراطورية العثمانية مع تنامي قوة الحركات القومية في أراضيها؛ وعندما يحدث ذلك، كان يأمل في إنشاء دولة يهودية في فلسطين من قبل القوىٰ الغربية التي تتوقع الاستفادة من وجودها في الشرق الأوسط(٢). علّق موسىٰ هيس آماله الاستعمارية علىٰ شراكة مع الطموحات الإمبريالية للفرنسيين؛ فبمجرد أن تغزوها فرنسا -نبوخذ نصر العصر الحديث- ستقتنع بأن مصالحها وسياستها «تقتضي توسيع عملها الفدائي ليشمل الأمة اليهودية أيضًا. من مصلحة فرنسا أن ترىٰ أن الطريق المؤدية

---

(١) استخدم المؤلف هنا عبارة (the elephant in the room) وهو تعبير مجازي معروف؛ يستخدم للإشارة إلىٰ حقيقة أو مشكلة كبيرة وواضحة للجميع؛ ويتعمد المعنيون تجاهلها وترك الحديث عنها. (المحرر)

(2) Morris, Righteous Victims, 15.

في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني الأول، ذكر تيودور هرتزل أن «آسيا هي المشكلة الدبلوماسية في العقد القادم، لنتذكر بكل تواضع أننا نحن الصهاينة قد توقعنا هذا التطور للمنافسة الأوروبية [حول فلسطين] قبل عدة سنوات». Straus, The Congress Addresses, 13.

إلىٰ الهند والصين يجب أن يقوم علىٰ تعبيدها شعب مخلص لقضية فرنسا حتىٰ النهاية»[١].

شدّد هرتزل -أيضًا- علىٰ القيمة الاستراتيجية المفترضة للمشروع الصهيوني في بيانه الصادر عام ١٨٩٦، وكتب أن إسرائيل «ستشكل جزءًا من حصن أوروبا ضد آسيا، وواحة حضارية وسط صحراء البربرية؛ يجب علينا -كدولة عازلة- أن نظل علىٰ اتصال مع كل أوروبا، وهو الأمر الذي من شأنه أن يضمن وجودنا»[٢]. باختصار: حدّد هرتزل طبيعة إسرائيل؛ ففي ظل عدم وجود دولة راعية يهودية، يجب أن تقوم دولة الاستيطان اليهودية بسواعد القوىٰ الأوروبية، التي ستجد أيضًا أنه من الضروري لمصالحها «ضمان» وجودها ضد مقاومة السكان الأصليين.

❋ ❋ ❋

أبدت بريطانيا وفرنسا بعض الاهتمام بخلق دولة يهودية في بلاد الشام منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتىٰ منتصف القرن التاسع عشر؛ لكن قرب نهاية القرن التاسع عشر، كانت جذوة حماسهم لهذا المشروع قد خَبَت.

في القرن الثامن عشر، كانت القوىٰ الأوروبية تتنافس مع بعضها البعض لتأمين -وتوسيع- وجودها في المحيط الهندي والصين، ورأوا في بلاد الشام جسرًا بريًّا حيويًّا يوفّر وصولًا سريعًا ومباشرًا إلىٰ المحيط الهندي؛ ومع استمرار تراجع واضمحلال الهيمنة العثمانية والصفوية، سعت بريطانيا وفرنسا وروسيا -القوىٰ الأوروبية العظمىٰ آنذاك- إلىٰ كسب موطئ قدم لها في الشرق الأوسط

---

(1) Hess, Rome and Jerusalem, 167.

(2) Herzl, The Jewish State, 12 ..

الجملة الثانية من هذا الاقتباس غير موجودة في الطبعة المشار إليها في ثبت المراجع، لكنها موجودة في طبعات أخرىٰ.

قلتُ: هذه العبارة موجودة في نسخة عام١٩١٧، وموجودة في الترجمة العربية التي أصدرتها مؤسسة الأبحاث العربية، لكتاب هرتزل بعنوان «دولة اليهود» ص٥٦. (المترجم).

من خلال انتزاع الامتيازات لتجّارها، والدخول في تحالفات مع الأقليات غير المسلمة في المنطقة؛ فتسللت فرنسا الكاثوليكية عبر وضع الموارنة تحت جناحها، بينما روّج الروس لأنفسهم علىٰ أنهم حماة المسيحيين الأرثوذكس؛ وحدها إنجلترا البروتستانتية لم يكن لديها عملاء أصليون في المنطقة ليتسللوا تحت مسمىٰ حمايتهم، فحاولوا تعويض هذا النقص من خلال الدفاع عن قضية اليهود، وأحيانًا الدروز في سوريا(١).

خلال هذه الفترة: رأىٰ بعض القادة في بريطانيا وفرنسا بأن مصالح هذه القوىٰ في المحيط الهندي يمكن تعزيزها من خلال إقحام دولة يهودية في بلاد الشام؛ ففي أبريل ١٧٩٩ أثناء حصار عكا، دعا نابليون يهود أوروبا إلىٰ إقامة دولة يهودية في فلسطين عاصمتها القدس. إن تحرّك نابليون لم يستوحَ من نبوءات الكتاب المقدس، كما أنه لم يتوقّع أن يهرع يهود أوروبا إلىٰ فلسطين للقبول بعرضه؛ بل كان هدفه هو التأثير علىٰ يهود أوروبا للوقوف إلىٰ جانبه. علىٰ أي حال، لم تلقَ هذه الدعوة صدًى كبيرًا منذ أن اضطر نابليون إلىٰ رفع حصاره عن عكا، والعودة إلىٰ فرنسا علىٰ عجل. ومع ذلك، تكشف هذه الحادثة -بشكل واضح- الأهمية التي أولاها زعيم أوروبي كبير -حتىٰ في هذا التاريخ المبكر- لكسب دعم يهود أوروبا في تأمين طموحاته الإمبريالية.

كانت بريطانيا -أيضًا- تتحرّك في نفس الاتجاه؛ فبعد أن اتخذت يهود الشرق تكأة لتجد لها مكانًا في الشرق الأوسط، شرعت بريطانيا عام ١٨٣٩ في فتح أول قنصلية أوروبية في القدس(٢)، وبعد عام واحد، كتب وزير الخارجية البريطاني اللورد بالمرستون (Palmerston) إلىٰ السفير في إسطنبول أن عودة اليهود إلىٰ فلسطين «تحت رعاية وحماية السلطان، ستكون بمثابة كاشف لأي مخططات شريرة مستقبلية لمحمد علي أو خلفائه»؛ ومن هذه النقطة فصاعدًا، نواجه

---

(1) Stein, The Balfour Declaration, 8.

(2) Kayyali, "Zionism and Imperialism," 100.

صياغات متكررة من قبل كبار المسؤولين البريطانيين فيما يتعلق بالأهمية الاستراتيجية للشرق الأوسط بالنسبة للطموحات البريطانية. لقد أيقن بعض هؤلاء المسؤولين -أيضًا- أن الوجود اليهودي في بلاد الشام يخدم -بشكل فريد- المصالح البريطانية؛ ومن اللافت للنظر أنه في عام ١٨٧٦ كتب اللورد شافتسبري (Shaftesbury) أنه من المفيد للمصالح البريطانية «تعزيز قومية اليهود ومساعدتهم علىٰ العودة كقوة كامنة لبلدهم القديم»[١].

لكن مع اقتراب العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، فقدت القوىٰ العظمىٰ اهتمامها بمخططات ترسيخ الوجود اليهودي في بلاد الشام، وكان هناك ثلاثة تطورات مسئولة عن هذا التغيير: أولًا، حُسِم التنافس بين بريطانيا وفرنسا لصالح الأولىٰ، بعد هزيمة نابليون النهائية في واترلو عام ١٨١٥. ثانيًا، بحلول عام ١٨٤٠ كان التهديد الذي مثله محمد علي -حاكم مصر الطموح- للإمبراطورية العثمانية -ومن ثمّ للمصالح الغربية في الإمبراطورية العثمانية- قد تراجع بقوة. أخيرًا، عندما احتل البريطانيون مصر في عام ١٨٨٢ -بما في ذلك قناة السويس- جعل هذا بريطانيا قادرةً تمامًا علىٰ حماية مصالحها في الشرق الأوسط وتعزيزها بنفسها، دون طلب المساعدة من اليهود؛ فبحلول هذا الوقت، كانت بريطانيا قد أوجدت بالفعل موطئ قدم لها في عدن، وسرعان ما جذبت عُمان ورؤساء القبائل العربية علىٰ طول الشواطئ الشرقية للجزيرة العربية إلىٰ شبكة حمايتها.

❁ ❁ ❁

ما زالت الأسئلة المتعلقة بالدوافع والقوىٰ والشخصيات والأحداث التي لعبت دورًا رئيسيًا في صياغة وعد بلفور تدفعنا إلىٰ توليد مجموعة متنوعة من الإجابات.

---

(1) Jabbour, Settler Colonialism, 22-23.

من خلال انتزاع الامتيازات لتجّارها، والدخول في تحالفات مع الأقليات غير المسلمة في المنطقة؛ فتسللت فرنسا الكاثوليكية عبر وضع الموارنة تحت جناحها، بينما روّج الروس لأنفسهم علىٰ أنهم حماة المسيحيين الأرثوذكس؛ وحدها إنجلترا البروتستانتية لم يكن لديها عملاء أصليون في المنطقة ليتسللوا تحت مسمىٰ حمايتهم، فحاولوا تعويض هذا النقص من خلال الدفاع عن قضية اليهود، وأحيانًا الدروز في سوريا[١].

خلال هذه الفترة: رأىٰ بعض القادة في بريطانيا وفرنسا بأن مصالح هذه القوىٰ في المحيط الهندي يمكن تعزيزها من خلال إقحام دولة يهودية في بلاد الشام؛ ففي أبريل ١٧٩٩ أثناء حصار عكا، دعا نابليون يهود أوروبا إلىٰ إقامة دولة يهودية في فلسطين عاصمتها القدس. إن تحرّك نابليون لم يستوحَ من نبوءات الكتاب المقدس، كما أنه لم يتوقّع أن يهرع يهود أوروبا إلىٰ فلسطين للقبول بعرضه؛ بل كان هدفه هو التأثير علىٰ يهود أوروبا للوقوف إلىٰ جانبه. علىٰ أي حال، لم تلقَ هذه الدعوة صدًى كبيرًا منذ أن اضطر نابليون إلىٰ رفع حصاره عن عكا، والعودة إلىٰ فرنسا علىٰ عجل. ومع ذلك، تكشف هذه الحادثة -بشكل واضح- الأهمية التي أولاها زعيم أوروبي كبير -حتىٰ في هذا التاريخ المبكر- لكسب دعم يهود أوروبا في تأمين طموحاته الإمبريالية.

كانت بريطانيا -أيضًا- تتحرّك في نفس الاتجاه؛ فبعد أن اتخذت يهود الشرق تكأة لتجد لها مكانًا في الشرق الأوسط، شرعت بريطانيا عام ١٨٣٩ في فتح أول قنصلية أوروبية في القدس[٢]، وبعد عام واحد، كتب وزير الخارجية البريطاني اللورد بالمرستون (Palmerston) إلىٰ السفير في إسطنبول أن عودة اليهود إلىٰ فلسطين «تحت رعاية وحماية السلطان، ستكون بمثابة كاشف لأي مخططات شريرة مستقبلية لمحمد علي أو خلفائه»؛ ومن هذه النقطة فصاعدًا، نواجه

---

(1) Stein, The Balfour Declaration, 8.

(2) Kayyali, "Zionism and Imperialism," 100.

صياغات متكررة من قبل كبار المسؤولين البريطانيين فيما يتعلق بالأهمية الاستراتيجية للشرق الأوسط بالنسبة للطموحات البريطانية. لقد أيقن بعض هؤلاء المسؤولين -أيضًا- أن الوجود اليهودي في بلاد الشام يخدم -بشكل فريد- المصالح البريطانية؛ ومن اللافت للنظر أنه في عام ١٨٧٦ كتب اللورد شافتسبري (Shaftesbury) أنه من المفيد للمصالح البريطانية «تعزيز قومية اليهود ومساعدتهم علىٰ العودة كقوة كامنة لبلدهم القديم»[١].

لكن مع اقتراب العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، فقدت القوىٰ العظمىٰ اهتمامها بمخططات ترسيخ الوجود اليهودي في بلاد الشام، وكان هناك ثلاثة تطورات مسئولة عن هذا التغيير: أولًا، حُسِم التنافس بين بريطانيا وفرنسا لصالح الأولىٰ، بعد هزيمة نابليون النهائية في واترلو عام ١٨١٥. ثانيًا، بحلول عام ١٨٤٠ كان التهديد الذي مثله محمد علي -حاكم مصر الطموح- للإمبراطورية العثمانية -ومن ثمّ للمصالح الغربية في الإمبراطورية العثمانية- قد تراجع بقوة. أخيرًا، عندما احتل البريطانيون مصر في عام ١٨٨٢ -بما في ذلك قناة السويس- جعل هذا بريطانيا قادرةً تمامًا علىٰ حماية مصالحها في الشرق الأوسط وتعزيزها بنفسها، دون طلب المساعدة من اليهود؛ فبحلول هذا الوقت، كانت بريطانيا قد أوجدت بالفعل موطئ قدم لها في عدن، وسرعان ما جذبت عُمان ورؤساء القبائل العربية علىٰ طول الشواطئ الشرقية للجزيرة العربية إلىٰ شبكة حمايتها.

❀ ❀ ❀

ما زالت الأسئلة المتعلقة بالدوافع والقوىٰ والشخصيات والأحداث التي لعبت دورًا رئيسيًا في صياغة وعد بلفور تدفعنا إلىٰ توليد مجموعة متنوعة من الإجابات.

---

(1) Jabbour, Settler Colonialism, 22-23.

من بين كل البيانات الرسمية التي تقرر سياسة خارجية لدولة ما -التي عادةً ما تكون مصحوبةً بالنزاعات والمناوشات وتعتمد التلاعب بالكلمات- لم تحظ -ولو جملة واحدة منها- بتلك السمعة السيئة التي حظي بها وعد بلفور بين عدد أكبر من الأحزاب. ومع ذلك، قُدِّم هذا البيان إلىٰ العالم -علىٰ حد تعبير جوزيف ماري جيفريز (J. M. Jeffries)- «باعتباره صناعة بريطانية لا تعبّر إلا عن إرادة بريطانية **بالكامل**» [التسويد مضاف]؛ لم تكن معظم الجماهير البريطانية أو الغربية أو اليهودية أو العربية علىٰ علم بأن «الصهاينة من جميع الجنسيات قد شاركوا» في نص الإعلان، أو أنهم «كتبوا معظمه»[1]، لكن حتىٰ بعد معرفة تلك الحقيقة في وقت متأخر لم تكن مفاجئة؛ فمنذ عام ١٨٩٧ انخرط قادة الصهاينة -في ضغطٍ مكثّفٍ- في كل عاصمة أوروبية كبرىٰ -ولا ننسىٰ العواصم العثمانية والعربية أيضًا- للترويج لمشروعهم الاحتلالي، وهذا يفسّر أيضًا سبب تقديم الإعلان إلىٰ العالم باعتباره «يعبّر عن إرادة بريطانية بالكامل»؛ ففي خضم الحرب، ستُقرأ أي مؤشرات علىٰ عكس ذلك علىٰ أنها علامات علىٰ الضعف البريطاني في مواصلة الحرب.

قُدمت العديد من النظريات لتفسير وعد بلفور؛ ففي أوقات مختلفة: فُسِّر الإعلان علىٰ أنه نتاج التعاون الدبلوماسي الصهيوني -والقوة اليهودية- ومصالح بريطانيا الاستراتيجية في الشرق الأوسط؛ أي أنه كان صفقة بين بريطانيا -المعرّضة للخطر- واليهود ذوي النفوذ، حفزها المسيحيون الصهاينة في بريطانيا والولايات المتحدة من أجل التعويض عن الأخطاء التاريخية التي ارتكبها الأوروبيون بحق اليهود؛ أو أنها كانت نتيجة أوهام معاداة السامية حول مدىٰ قوة ونفوذ اليهود. ومما يحيله العقل أن ديفيد لويد جورج (David Lloyd George) -الذي أصدرت حكومته الإعلان- زعم في مذكراته أن وعد بفلور كان بمثابة رسالة شكر إلىٰ حاييم وايزمان لاكتشافه عملية جديدة لتصنيع الأسيتون -وهو

(1) Jeffries, "Analysis of the Balfour Declaration," 173.

مكون حيوي في صنع المتفجرات-[1]. في المقام الأول، سوف يفنّد هذا الفصل ذلك الزعم؛ فلم يتبنَّ البريطانيون الأهداف الصهيونية لأنها ستعزز مصالحهم الحيوية والدائمة في الشرق الأوسط. والأطروحة الأقرب للعقل أنه خلال مرحلة ضعفهم في الحرب عام ١٩١٧، عرض الصهاينة مساعدة البريطانيين من خلال حشد الدعم اليهودي لقضيتهم -خاصة في الولايات المتحدة- وتلقّوا وعد بلفور كمقابل لهذه الخدمة.

بمجرد أن أصبح واضحًا عدم إمكان رشوة العثمانيين، أو الضغط عليهم للتخلي عن فلسطين، ركّز الصهاينة علىٰ انتزاعها بالقوة. وكان معظم الصهاينة البارزين -حتىٰ أثناء عملهم علىٰ خلق إجماع غربي علىٰ مشروعهم- مقتنعين بأن بريطانيا هي أفضل خيار لهم لتأمين السيطرة علىٰ فلسطين، فقد كانت مزايا هذا الخيار مقنعة تمامًا؛ حيث كانت بريطانيا مجهّزة بشكل أفضل من أي قوة عظمىٰ أخرىٰ للسيطرة علىٰ فلسطين، ولم تكن وحدها القوة العظمىٰ في العالم آنذاك، بل كان لها بالفعل حضور نافذ في الشرق الأوسط، مع وجود قواعد عسكرية في قبرص ومصر وعدن حول الأجنحة الجنوبية للإمبراطورية العثمانية؛ كما أنها استطاعت أن تنفرد بالإدارة السياسية للخليج العربي، كما أدخلت جنوب إيران في دائرة نفوذها. كان بعض الفئات من الطبقات العليا في بريطانيا لديهم شعور قوي بأنه مُقدَّر لبريطانيا أن تعيد اليهود إلىٰ فلسطين؛ كما أدرك الصهاينة -أيضًا- أن بإمكانهم استخدام نفوذهم علىٰ الولايات المتحدة -وهي وحدها غير قادرة علىٰ رعاية مشروعهم آنذاك- من أجل الضغط علىٰ بريطانيا إذا ترددت أو تراجعت عن دعمها للصهيونية.

علىٰ مدىٰ سبعة عشر عامًا منذ إطلاق الصهيونية عام ١٨٩٧، قطع الصهاينة خطوات كبيرة في كسب دعم الجاليات اليهودية في جميع أنحاء العالم؛ وعلىٰ

(1) Hirst, The Gun and the Olive Branch; Laqueur, A History of Zionism, 203; Levene, "The Balfour Declaration," 54.

الرغم من أن الصهاينة لم يكسبوا دعم غالبية اليهود الغربيين في عام ١٩١٤، إلا أنهم نجحوا في إنشاء شبكة من المنظمات مع ممثلين ذوي نفوذ في كل مجتمع يهودي تقريبًا؛ لقد استحوذوا علىٰ مجموعة متزايدة من النشطاء اليهود لدعم قضيتهم، وجندوا بعض اليهود الموهوبين للغاية من الدول الغربية الكبرىٰ لقيادتهم، ووضعوا أو اختاروا حلفاء لهم في مناصب عليا في العديد من العواصم الغربية، وتنقّلوا في كل العواصم الغربية حاملين جذوة الصهيونية إلىٰ الزعماء غير اليهود. «ولكن . . .» -علىٰ حد تعبير والتر لاكوير (Walter Laqueur)- «علىٰ الرغم من حشد دعم الجماعات اليهودية، والعمل الثقافي والدعائي المكثف، وحماس النخبة ومثابرة الأفراد ودعم القادة؛ بدا تحقيق أهداف الصهيونية في عام ١٩١٤ بعيدًا كما كان دائمًا»[١].

جذبت الصهيونية اهتمام رجال الدولة البريطانيين لأول مرة -خلال هذه الفترة- عندما زادت المخاوف المحلية بشأن تزايد الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية، وساعد هرتزل في تركيز هذا الاهتمام عندما أوضح أمام اللجنة الملكية لهجرة الأجانب في يوليو ١٩٠٢ أن إنشاء دولة يهودية سيوقف تدفق المهاجرين اليهود إلىٰ بريطانيا، وبعد بضعة أشهر -في أكتوبر ١٩٠٢- أدت هذه الفكرة التي زرعها هرتزل في عقول القادة إلىٰ ترتيب لقاء بينه وبين وزير المستعمرات البريطانية جوزيف تشامبرلين (Joseph Chamberlain)، وفي هذا الاجتماع، حدّد هرتزل ثلاث مستعمرات بريطانية كمواقع محتملة لدولته اليهودية: قبرص والعريش وسيناء؛ لم تكن فلسطين علىٰ قائمته لأنها -في ذلك الوقت- لم تكن مستعمرة بريطانية. ولم يكن بإمكان تشامبرلين مناقشة أي مقترح سوىٰ قبرص؛ لأنه -كوزير للمستعمرات- لم يكن لديه سلطة قضائية علىٰ المنطقتين الأخريين في مصر؛ لكن في نفس الوقت لم يكن بالإمكان التمسّك بقبرص لأن الأغلبية اليونانية المسيحية لا يمكن استبدالها باليهود. ومع ذلك، ساعد تشامبرلين هرتزل في ترتيب لقاء مع

---

(1) Laqueur, A History of Zionism, 162.

وزير الخارجية -اللورد لانسداون (Lansdowne)- الذي كان له سلطة قضائية علىٰ العريش وسيناء.

فشل هرتزل في إقناع البريطانيين بالتخلّي عن أي من هاتين المنطقتين في مصر؛ فلم يهتم لانسداون كثيرًا باقتراح هرتزل بإنشاء مستعمرة يهودية في العريش، لكنه وافق علىٰ تقديمه إلىٰ اللورد كرومر -المندوب السامي البريطاني في مصر-، إلا أن كرومر رفض استقبال هرتزل، فقد كان يخشىٰ أن يؤدي الاحتلال اليهودي للعريش إلىٰ تأجيج المشاعر المصرية. في هذه المرحلة، عاد هرتزل إلىٰ تشامبرلين -الذي عرض عليه قطعة أرض في كينيا- فيما أصبح يعرف باسم خطة أوغندا (Uganda Plan)؛ رفض الصهاينة هذه الخطة في المؤتمر السادس للمنظمة الصهيونية العالمية في أغسطس ١٩٠٣[1]، وبعد مباحثات صهيونية، قدم لويد جورج -مرةً أخرىٰ- اقتراحًا إلىٰ الحكومة البريطانية للسماح بالاحتلال اليهودي لسيناء، ولكن -كسابقيه- دون جدوىٰ[2].

يُظهر تردد تيودور هرتزل بين المسؤولين البريطانيين بشكل قاطع أن البريطانيين -في هذا الوقت- لم يكن لديهم مصلحة في إقامة دولة يهودية في أي مكان في الشرق الأوسط. كان البريطانيون يسيطرون علىٰ مصر منذ عام ١٨٨٢، وعلىٰ قبرص منذ عام ١٨٧٨، بالإضافة إلىٰ أنهم كانوا سادة الخليج العربي. علاوة علىٰ ذلك، فإن البريطانيين -الذين حموا لفترة طويلة الإمبراطورية العثمانية من التفكك- لم يتوقعوا أي تهديد عثماني لمصالحهم في الشرق الأوسط؛ ومن هنا لم يكن لدولة يهودية في بلاد الشام أن تخدم -بأي شكل من الأشكال- أيًا من المصالح الاستراتيجية لبريطانيا؛ بل من المؤكد أن مثل هذا الفعل سيؤدي إلىٰ

---

(١) المعلومات الواردة في هذه الفقرة والفقرة السابقة مأخوذة من:

British Embassy, Vienna, Herzl in England: UK and Austria, Bilateral Relations.

http//:www.britishebassy.gov.uk/servlet/Front?pagename=OpenMarket/Xcelerate/ShowPage&c=Page& cid=1107298483043

(2) Fromkin, A Peace to End All Peace, 274.

تأليب السكان الأصليين ضد الدولة اليهودية ورعاتها البريطانيين في المنطقة بأسرها، لذلك ليس من المستغرب أن يعرض البريطانيون نقل الدولة اليهودية إلىٰ مكان غامض في شرق أفريقيا، علىٰ مسافة آمنة من فلسطين؛ فإذا قبل الصهاينة هذا العرض فإنه يفي بالغرض، أي أنه سيسهم في تخفيف تدفق المهاجرين اليهود إلىٰ بريطانيا.

لقد قيل إن الحقائق الجديدة التي أوجدتها الحرب العالمية الأولىٰ -وعلىٰ وجه الخصوص القرار العثماني في أكتوبر ١٩١٤ بالانضمام إلىٰ دول المحور- منحت المشروع الصهيوني أهمية جديدة في الخطط الاستراتيجية البريطانية. في مقال كتبه هربرت سايدبوثام (Herbert Sidebotham) قبل وعد بلفور -وهو أنجلوصهيوني وأحد مهندسي وعد بلفور- قال بشيء من المبالغة: أن التحالف بين ألمانيا والإمبراطورية العثمانية «يكاد أن يجعل -لأغراض عسكرية- تركيا هي ألمانيا»، وفي ضوء هذا الواقع الجديد -وبسرعة كبيرة- خلص سايدبوثام إلىٰ أن الدفاع عن مصر يتطلب الآن إنشاء دولة عازلة بين مصر وسوريا العثمانية؛ وجادل بأن الطريقة الأقل إرهاقًا لإنشاء مثل هذه الدولة العازلة ستكون بتأسيسها كمستعمرة استيطانية؛ وفي قفزة أخرىٰ مذهلة، استنتج أن هذه الدولة العازلة يجب أن تُقام كمستعمرة يهودية، «فالمستعمرون الوحيدون المحتملون لفلسطين هم اليهود»؛ حيث يمكن لليهود وحدهم إنشاء دولة حليفة لبريطانيا «تقوم علىٰ حماية مصالحها من الشرق المعادي، وتكون وسيطًا بينها وبيننا، وحضارة متميزة عن حضارتنا لكنها مشبعة بأفكارنا السياسية، وفي نفس المرحلة من التطور السياسي، وستبدأ حياتها الثانية كأمة مدين بالامتنان لهذا البلد كأبيها الثاني»[1].

لم يكن لحجة هربرت سايدبوثام لإنشاء دولة يهودية في فلسطين أي ميزة تذكر؛ صحيحٌ أن البريطانيين في مصر لديهم مصلحة الآن في توسيع حدودهم الحالية لتشمل فلسطين؛ لأن هذا سيزيد المسافة بين الهجوم البري العثماني وقناة

---

(1) Sidebotham, "British Interests in Palestine," 128-33.

السويس[١]، لكن لم يكن من المعقول القول بأن اليهود يمكنهم السيطرة علىٰ فلسطين، وجلب بضعة ملايين من اليهود، واحتلالها، وتطويرها، وبناء جيش، وإقامة دولة يهودية كاملة -بين ليلة وضحاها- من شأنها أن تكون عازلًا ضد هجوم العثمانيين علىٰ مصر. إن أشد ما يظهر حمق هذه الحجة هو أن خطة إنشاء دولة يهودية قوية يجب أن تعرض في غضون بضعة أشهر -بل في أقصر مدة ممكنة- إذا كانت تلك الدولة ستؤخر غزوًا عثمانيًّا وشيكًا؛ وغني عن القول إن سايدبوثام لم ينبس ببنت شفه عن التكاليف الاستراتيجية لاقتراحه؛ فقد تجاهل في صمت العداء العميق الذي سيثيره إنشاء دولة يهودية في فلسطين ضد بريطانيا في كل الشرق الأوسط وما وراءه.

بالإضافة إلىٰ أن مصير مبادرة هربرت صمويل (Herbert Samuel) لإقناع زملائه في مجلس الوزراء البريطاني بتبنّي المشروع الصهيوني؛ يوضح أن الحرب لم تغيّر المواقف البريطانية تجاه الصهيونية. في يناير ١٩١٥، قدم هربرت صموئيل -وهو أول يهودي في مجلس الوزراء البريطاني- مذكرة إلىٰ رئيس الوزراء هربرت أسكويث (Herbert Asquith)، يحثه فيها علىٰ إنشاء مستعمرة بريطانية في فلسطين وفتحها أمام الهجرة اليهودية، وهي خطوة قال إنها ستساهم في تعزيز قوة الإمبراطورية البريطانية. في مراسلاته الشخصية، كتب اللورد أسكويث: «أعترف بأنني لست منجذبًا لهذه المسؤولية الإضافية المقترحة»؛ وبعد شهرين وُزعت نسخة منقّحة من مذكرة هربرت صموئيل علىٰ المجلس، ولكن صُوّت عليها بالرفض أيضًا من قبل كل أعضاء مجلس الوزراء باستثناء لويد

---

(١) في آخر عام ١٩١٤ سأل اللورد كتشنر (Kitchener) سكرتيره في القاهرة عن رأيه في أهمية فلسطين فيما يتعلق بالوجود الفرنسي أو الروسي في الشمال، كتب مرة أخرىٰ، «إن دولة عازلة [في فلسطين] هي أمر مرغوب فيه للغاية، ولكن هل يمكننا ذلك؟» وقال إن قيام دولة يهودية في فلسطين غير ممكن لأن اليهود يشكلون سدس السكان فقط. وبدلًا من ذلك، اقترح دمج فلسطين مع مصر.

Fromkin, A Peace to End All Peace, 142-43.

جورج، وهو صهيوني متحمس تم تعيينه كمحامٍ من قبل تيودور هرتزل في عام ١٩٠٣ لإقناع اللورد كرومر بتسليم العريش للصهاينة[١].

إذا تأملنا المفاوضات الشاقّة التي جرت لتحديد شروط اتفاقية سايكس بيكو السريّة، لن نرىٰ أن بريطانيا أو فرنسا كانتا تعتزمان تضمينها الخطط الصهيونية لفلسطين. في الواقع، أرادت كل من بريطانيا وفرنسا السيطرة علىٰ فلسطين؛ وكحل وسط: منحت الاتفاقية بريطانيا السيطرة علىٰ عكا وحيفا ومساحة من الأراضي تسمح لها ببناء خط سكة حديد إلىٰ العراق، وكان من المقرر وضع بقية فلسطين تحت السيطرة الدولية التي تُركت شروطها دون تحديد؛ أما سائر الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية خارج فلسطين فقد أسندت للعرب الذين سيُسمح لهم بتشكيل دولة أو أكثر تحت رعاية بريطانيا وفرنسا. لم تقدم اتفاقية سايكس بيكو أي وعود للصهاينة، حيث لم تتضمن أي خطط لإنشاء دولة يهودية في فلسطين. وعلىٰ حد تعبير لويد جورج -رئيس الوزراء البريطاني في الفترة من كانون الأول/ديسمبر ١٩١٦ إلىٰ كانون الثاني/يناير ١٩١٩- فإن فلسطين بموجب اتفاقية سايكس بيكو «كان من المقرر تفكيكها وتقسيمها، بحيث لن يبقىٰ هناك شيء يُدعىٰ فلسطين، وأما عن سكانها فكان من المقرر إخراجهم وإيواؤهم في مكان آخر»؛ وأضاف لويد: «إلا أن عام ١٩١٧ شهد تغيرًا كاملًا في موقف الدول تجاه هذه الأرض التاريخية»[٢]. بعد رفضهم مطالب الصهيونية لما يقرب من عشرين عامًا -ولأكثر من ثلاث سنوات بعد بدء الحرب- أعلن مجلس الوزراء البريطاني في الثاني من نوفمبر ١٩١٧ دعمه لإنشاء «وطن قومي للشعب اليهودي» في فلسطين؛ لقد كان هذا تحولًا جذريًا في السياسة البريطانية، ومن تلك اللحظة بدأ تحالف جديد بين اليهود والغرب، ذلك التحالف الذي لا تزال تداعياته تتبدّىٰ من خلال دوائر الصراع المتنامية في الشرق الأوسط.



---

(1) Ibid., 269-71.

(2) Lloyd George, Memoirs, 721.

فكيف لنا -إذن- أن نفسّر هذا التحوّل في السياسة البريطانية الذي أُعلن عنه في نوفمبر ١٩١٧؟

لم يكن من المتصور قبل عام ١٩١٤ أن تتبنّىٰ بريطانيا -أو أي قوة عظمىٰ- دعم الأهداف الصهيونية في بلاد الشام؛ فمن المؤكد أن مثل هذا الدعم كانت نتيجته الحتمية هي دخول بريطانيا في حرب ضد العثمانيين، وتلك الحرب ستجذب بدورها القوىٰ الأوروبية العظمىٰ الأخرىٰ -الفرنسيين والألمان والروس. ومن المحتمل جدًّا أن يتصاعد هذا إلىٰ صراع كبير يشمل كل هذه القوىٰ المتحالفة مع العثمانيين أو ضدهم. وبعبارة أخرىٰ: فإن دعم الصهيونية آنذاك كان يعني إعلان الحرب، ولم يكن لهذه الحرب سوىٰ القليل من المزايا التي يمكنها أن تعوض ما ستكبّده بريطانيا من خسائر.

تغيّر كل شيء عندما قرر العثمانيون الانضمام إلىٰ دول المحور في نوفمبر ١٩١٤. عكس البريطانيون علىٰ الفور سياستهم السابقة، وهم الآن يفحصون مقترحات مختلفة لتقسيم الإمبراطورية العثمانية. كان للبريطانيين مصلحة في إبقاء فلسطين تحت سيطرتهم أو في أيدي حليف أمين، يبقيها حاجزًا ضد محاولة العثمانيين احتلال قناة السويس، ومع ذلك، لم تكن إقامة دولة عازلة يهودية في فلسطين اقتراحًا عمليًّا بسبب قلة عدد سكانها اليهود. بالإضافة إلىٰ ذلك، فإن إنشاء دولة عازلة يهودية سيجعل من الصعب علىٰ البريطانيين كسب العرب في صفهم أثناء الحرب، ولقد كان هذا هدفًا بريطانيا مهمًا في ذلك الوقت؛ كما حرص البريطانيون علىٰ تجنب استثارة عداوة المسلمين في الهند. فإذا كان البريطانيون حريصين علىٰ حماية قناة السويس، فإنهم كانوا يفضلون كثيرًا ضمّ فلسطين إلىٰ مصر بدلًا من جعلها دولة عازلة يهودية[1].

مع دخول الحرب عامها الرابع دون حل يلوح في الأفق، بدأت الحسابات البريطانية تتبدّل؛ سعىٰ البريطانيون الآن إلىٰ إنهاء هذا الجمود من خلال تجنيد

---

(١) انظر الهامش ما قبل السابق.

الولايات المتحدة إلىٰ جانبها. ومن ناحية أخرىٰ، كان لألمانيا مصلحة معاكسة في إبقاء الولايات المتحدة خارج الحرب؛ فأدىٰ ذلك إلىٰ نشوء منافسة بين بريطانيا وألمانيا علىٰ كسب دعم الشتات اليهودي في الولايات المتحدة، حيث عرف كلاهما حق المعرفة أن الشتات اليهودي يمكنه أن يسرع أو يؤخر دخول أمريكا في الحرب. والأهم من ذلك، كانت كل من بريطانيا وألمانيا حريصة علىٰ مغازلة الصهاينة باعتبارها الطريقة الأكثر فعالية لكسب دعم أمريكا اليهودية؛ نظرًا لأن يهود أمريكا كانوا ميّالين أكثر إلىٰ الصهيونية[١]؛ ونتيجة لهذا اكتسب الصهاينة نفوذًا علىٰ بريطانيا وألمانيا بسبب مغازلتهم يهود أمريكا. كتب والتر لاكوير (Walter Laqueur): «إن الأخبار المتعلقة بالمحادثات بين الممثلين الألمان والصهاينة كانت ذائعة في لندن وباريس، وكذلك كانت المقالات المؤيدة للصهيونية في الصحافة الألمانية»[٢]. كان هناك تنافس مماثل بين قوتي الحلفاء -بريطانيا وفرنسا- وألمانيا فيما يتعلق بروسيا؛ حيث سعت بريطانيا إلىٰ إبقاء روسيا في الحرب، بينما سعت ألمانيا إلىٰ خروجها. كما استفاد الصهاينة من التنافس بين بريطانيا وفرنسا -الحليفتين في الحرب- لتأمين السيطرة علىٰ فلسطين، فقد كانت كلتا القوتين الآن علىٰ استعداد تام لاستخدام الصهيونية عباءة لطموحاتهما في فلسطين. وبشكل تراكمي: ساعدت هذه المنافسات علىٰ زيادة قوة اللوبي الصهيوني في لندن وبرلين.

أثار اهتمام الغرب بالصهيونية تطورًا آخر؛ ألا وهو التهديد المتزايد للحركات الثورية في شرق ووسط أوروبا، ومن المعروف أن قادة ونشطاء

---

(١) أعرب اللورد بلفور -في اجتماع لمجلس الوزراء في أكتوبر ١٩١٧- عن وجهة النظر البريطانية بشكل جيد للغاية: «الغالبية العظمىٰ من اليهود في روسيا وأمريكا، كما هو الحال في جميع أنحاء العالم، يبدون الآن مؤيدين للصهيونية، وإذا تمكنّا من إصدار إعلان مؤيد لهذه الطموحات، فيجب أن نكون قادرين علىٰ القيام بدعاية م للغاية في كل من روسيا وأمريكا». Morris, Righteous Victims, 74.

(2) Laqueur, A History of Zionism, 177.

الحركات المتطرفة موزعين -بنسب متفاوتة- بين السكان اليهود، وأكد الصهاينة علىٰ هذا الارتباط عندما ضغطوا علىٰ الحكومات الغربية لدعم قضيتهم، فدعمهم من شأنه أن يصرف اليهود عن دعمهم للحركات الثورية؛ وباعتراف الجميع: لم تستضف بريطانيا وألمانيا أحزابًا شيوعية قوية؛ ومع ذلك، كان لجميع القوىٰ الغربية مصلحة قوية في منع وصول الشيوعيين إلىٰ السلطة في أوروبا الشرقية.

اشتدّت المنافسة بين القوىٰ العظمىٰ علىٰ دعم الصهاينة في عام ١٩١٧؛ ففي يونيو من ذلك العام، أصدر المدير العام لوزارة الخارجية الفرنسية جول كامبون (Jules Cambon) إعلانًا ينصّ علىٰ أن الحكومة الفرنسية «لا يسعها إلا أن تشعر بالتعاطف مع القضية الصهيونية، وإن انتصارها لشديد الصلة بانتصار الحلفاء»[١]. استخدم الألمان -من جانبهم- نفوذهم وعلاقتهم مع العثمانيين؛ لتخفيف الضغوط علىٰ المستعمرات اليهودية في فلسطين، ومع ذلك، لم يتمكنوا من تقديم دعم مباشر للصهاينة بسبب معارضة حلفائهم العثمانيين للصهيونية؛ إلا أن الصهاينة قد استمروا في الضغط علىٰ الحكومة الألمانية، حتىٰ لو كان ذلك لزيادة الضغط علىٰ بريطانيا فقط[٢]. من يستطيع الادّعاء أن هذه الضغوط -مع تراكمها- لم تلعب دورًا مهمًا في دفع بريطانيا نحو تبنّي الخطة الصهيونية؟

كان هناك تطوران إضافيان في عام ١٩١٧ أعطيا دفعة للقضية الصهيونية في بريطانيا. استمر تدهور الحلفاء في الحرب خلال عام ١٩١٧[٣]، وكانت الجيوش

---

(1) Morris, Righteous Victims, 74.

(٢) «بينما أبدىٰ الدكتور أ. هانكت (Dr. A Hankte)، وكورت بلومنفيلد (Kurt Blumenfeld)، وريتشارد ليختهايم (Richard Lichtheim) (وهم قادة صهاينة في ألمانيا) إعجابهم بعلاقاتهم في برلين، وتوقعهم بأن إنجلترا علىٰ وشك إصدار إعلان هام مؤيد للصهيونية، استخدم وايزمان الحجة العكسية في تعاملاته مع مجلس الوزراء البريطاني ووزارة الخارجية البريطانية: ما لم يسارع البريطانيون، ستنهض دول المحور أولًا وتستحوذ علىٰ هذه الميزة المهمة». Laqueur, A History of Zionism, 177.

(3) Morris, Righteous Victims, 73.

المتصارعة لا تزال غارقة في هزائمها على الجبهة الغربية، مما زاد الضغط على بريطانيا من أجل تحقيق انتصار ساحق في الشرق الأوسط. وبحسب لويد جورج، فإن الجيش الفرنسي «كان منهكًا»، وعانى الإيطاليون من «هزيمة ساحقة» في كابوريتو، كما أن «الغواصات الألمانية أغرقت ملايين الأطنان من سفننا البحرية»؛ وعلى الجبهة الشرقية أصيب الروس بالإحباط بعد تعرضهم للعديد من الهزائم، مما أثار مخاوف البريطانيين من انسحابهم من الحرب. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة قد دخلت الحرب في أبريل ١٩١٧، إلا أنها لم تقدم بعدُ للحلفاء مساهمة تُذكر. في ظل هذه الظروف، كانت القيادة البريطانية مقتنعة بأن للصهاينة فائدة أكثر من أي وقت مضى؛ فعلى حد تعبير لويد جورج: «كان لدينا في ذلك الوقت كل الأسباب للاعتقاد بأن خطوة واحدة تجاه اليهود -صداقة أو عداوة- في أي من البلدين [الولايات المتحدة وروسيا] قد تُحدث فرقًا كبيرًا»[١].

كان مجلس الوزراء البريطاني الذي تولى منصبه في ديسمبر ١٩١٦ أكثر تعاطفًا مع المزاعم الصهيونية؛ وعلى الأقل كان هناك خمسة من أعضائه -رئيس الوزراء: اللورد بلفور وزير الخارجية، واللورد ميلنر (Milner) وزير الحصار، واللورد سيسيل (Cecil) وزير الدولة لشؤون الذخائر، ووينستون تشرشل (Winston Churchill)-؛ كانوا صهاينة مخلصين. رغم المذكرات المفصّلة والبليغة التي قدمها هربرت صامويل، لم تستطع الدعوة الصهيونية إحراز أي تقدم كبير خلال فترة هربرت أسكويث، رئيس الوزراء السابق؛ لكن مع قيادة لويد جورج لبريطانيا، كان لدى الصهاينة جمهور أكثر تعاطفًا، وربما عن طريق الصدفة، خلال عام ١٩١٦، تحوّل ثلاثة من مساعدي أهم الوزراء «سريعًا إلى الصهيونية»؛ وخلال العامين الأخيرين من الحرب، ارتقى الصهاينة -أو من اعتنقوا الصهيونية مؤخرًا- إلى مناصب رفيعة في وزارة الخارجية. ومن واشنطن كانت تتم مراقبة

(1) Lloyd George, Memoirs, 724.

«التحويل الصهيوني الصاعد للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط» وكتب -خلال عام ١٩١٧ بقلق متزايد- الكولونيل إدوارد ماندل هاوس (Edward Mandel House) -مساعد الرئيس ويلسون- «إن كل السوء الذي يحدث قد أخبرتُ به بلفور من قبل: إنهم يمهدون [الشرق الأوسط] لجعله ساحة الحرب المستقبلية»[(١)].

كان القرار البريطاني بإعلان دعم الصهيونية في تشرين الثاني/ نوفمبر١٩١٧ نتاجًا لتزامن عدة ظروف مرتبطة بالحرب؛ فقد كان هناك تنافس ثلاثي -بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا- علىٰ الدعم اليهودي للتأثير علىٰ توجّه الولايات المتحدة وروسيا إزاء الحرب؛ كما اكتسب الصهاينة نفوذًا بسبب الزخم الذي أعطته الحرب للحركات الثورية، وهذا بدوره حدىٰ القوىٰ العظمىٰ إلىٰ الترويج للصهيونية كوسيلة لإبعاد اليهود عن دعم الثورات الاشتراكية في أوروبا. خرجت المركزية اليهودية إلىٰ النور في عام ١٩١٧ عندما عرضت بريطانيا رعاية الصهيونية مقابل الحصول علىٰ دعم يهود الشتات؛ وربما كان تولّي لويد جورج -وهو صهيوني متحمس- زمام السلطة في كانون الأول/ ديسمبر١٩١٦؛ صدفة؛ لكنه -علىٰ أية حال- قد أكمل الضلع الناقص لمربع الظروف التي أوقعت فلسطين في براثن الصهاينة.

خلف هذه القوىٰ -علىٰ مستوىٰ أعمق- كانت هناك قوىٰ أخرىٰ آخذة في النمو لعقود، إن لم يكن لقرون. أهمها: تنامي النفوذ اليهودي في المراكز الحسَّاسة للحضارة الغربية، وظهور المسيحية الصهيونية، وظهور الحركات الثورية، ولم تكن تلك العوامل منفصلة عن بعضها البعض؛ ورغم أن مساهمتها لم تكن مباشرة إلا أنها لا تقل أهمية عن العوامل الأخرىٰ في النجاح الصهيوني. إذا كانت الصهيونية قد نجحت -وقد كان- فذلك لأن مؤيديها -بقليل من الحظ

---

(١) المساعدون الثلاثة في وزارة الحرب هم: السير مارك سايكس (Mark Sykes) ووليام أورمسبي-غور (William Ormsby-Gore) وليوبولد إس (Leopold S).

Amery. Morris, Righteous Victims, 72-73.

وكثير من التصميم- قد وضعوا أنفسهم بذكاء في موقع يمكنهم من الاستفادة من حركة التاريخ، وحتىٰ من تاريخ مآسيهم.

❀ ❀ ❀

إذا كان البريطانيون قد أصدروا وعد بلفور لأنهم توقعوا أن تخدم دولة يهودية في فلسطين مصالحهم الاستراتيجية في الشرق الأوسط الجديد، فإن الأحداث اللاحقة لا تؤكد ذلك؛ يؤكد والتر لاكوير أنه «بحلول عام ١٩٢١، كانت الخطوط العريضة لأحداث سنوات عديدة قادمة قد حُدِّدت، حيث بدأت عملية رفع الانتداب مبكرًا، وببطء»[١].

بدأ تراجع البريطانيين عن وعد بلفور بعد فترة وجيزة من انتهاء الحرب؛ ففي مارس ١٩٢١، لم يلتفت البريطانيون إلىٰ الاعتراضات الصهيونية وفصلوا شرق فلسطين -سمي فيما بعد بشرق الأردن- ومنحوا حمايتهم للأمير عبد الله، سليل عائلة الشريف[٢]. وبعد مسلسل من المقاومة الفلسطينية العنيفة في مايو ١٩٢١، «تخلّت الإدارة البريطانية في فلسطين عن مسلكها في تعزيز الأطر السياسية العربية لتتواءم مع أغراض المؤسسات الصهيونية»[٣]؛ وسرعان ما اتخذ البريطانيون خطوات إضافية للقضاء علىٰ الطموحات الصهيونية في فلسطين. وفي يونيو ١٩٢٢، أوضحت الوثيقة البيضاء لتشرشل أن بريطانيا «لم تفكر في تحويل فلسطين «ككل» إلىٰ وطن قومي يهودي، بل يجب إنشاء مثل هذا الوطن في جزء من فلسطين»، كما أوضحت أن «الوطن القومي اليهودي» لن يكون إلا «مركزًا يمكن أن يتشارك فيه الشعب اليهودي ككل -علىٰ أساس الدين والعرق- المصلحة والانتماء». والأهم من ذلك، وضعت الوثيقة البيضاء معايير اقتصادية تقيِّد الهجرة اليهودية، كما اقتُرح إنشاء هيئات تشريعية في فلسطين علىٰ أساس التمثيل النسبي

(1) Laqueur, A History of Zionism, 456.

(2) Smith, Palestine, 64.

(3) Morris, Righteous Victims, 103.

وليس التساوي كما طالب الصهاينة، وحُظِرت المستوطنات اليهودية من شرق الأردن[1].

نجح الصهاينة في تعطيل العديد من التحركات البريطانية التي من شأنها عرقلة مشروعهم الاحتلالي خلال الثلاثينيات، وفي مارس ١٩٣٠، بعد عام من العنف العربي في القدس، ألقىٰ تقرير شو (the Shaw Report) باللائمة في هذا العنف علىٰ مخاوف العرب من أن يكونوا «تحت الهيمنة الاقتصادية لليهود»، ولتهدئة هذه المخاوف أوصىٰ بتشديد تنظيم الهجرة اليهودية، والاستحواذ علىٰ الأراضي. وعندما لم يتمكّنوا من تنفيذ هذه التوصيات -بسبب المعارضة الصهيونية- نقلت الحكومة البريطانية المسؤولية إلىٰ لجنة تحقيق أخرىٰ برئاسة السير جون هوب سيمبسون (John Hope-Simpson) التي بدورها أيّدَت استنتاجات تقرير شو. وبالإضافة إلىٰ ذلك، أكّدت أن السياسات الصهيونية العنصرية بشأن العمل والأرض -حرمان العرب من العمل وجعل الأراضي التي حصلوا عليها غير قابلة للتصرف- تنتهك شروط الانتداب. أدرجت هذه التحليلات والتوصيات في الكتاب الأبيض لباسفيلد في أكتوبر ١٩٣٠، وقد واجهت معارضة شديدة من الصهاينة. وتحت وطأة التهديد بالضغط علىٰ الولايات المتحدة لفرض عقوبات اقتصادية علىٰ بريطانيا، استسلم رئيس الوزراء ماكدونالد (MacDonald)؛ وكتب رسالة أملاها حاييم وايزمان، يلغي فيها رئيس الوزراء الكتاب الأبيض باسفيلد[2]. كان هذا نصرًا صهيونيًّا مهمًّا من شأنه أن يبقي فلسطين مفتوحة أمام الهجرة اليهودية خلال عقود الثلاثينيات الحاسمة عندما تسارع تدفّق المهاجرين.

تزايدت شدّة الصراع بين المصالح الاستراتيجية لبريطانيا والمشروع الصهيوني خلال ثلاثينيات القرن الماضي، مما أدىٰ في النهاية إلىٰ قرار بريطاني بالانفصال عن تبنّي الأهداف الصهيونية. كان هناك تطوران يقودان هذا التغيير:

---

(1) Shlaim, The Iron Wall, 10; Morris, Righteous Victims, 103-4.

(2) Smith, Palestine, 90-92.

أولًا -وهو الأهم-، تميّزت الثلاثينيات بالتوترات المتزايدة بين بريطانيا ودول المحور، مما أوجد شعورًا -شبه يقيني- بوقوع حرب عالمية أخرىٰ. بالإضافة إلىٰ ذلك، اندلع الغضب الفلسطيني في انتفاضتين متتاليتين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٧، مما خلق مخاوف من أن هذا قد يقنع العرب بوضع قوتهم تحت تصرّف دول المحور. وفي تموز/يوليو ١٩٣٧، اقترحت لجنة بيل -التي شُكلت بعد اندلاع الانتفاضة الأولىٰ- التقسيم كحل للمشكلة الفلسطينية، حيث يذهب ٢٠% من فلسطين إلىٰ الصهاينة، لكن ذلك لم يؤد إلا إلىٰ انتفاضة عربية ثانية أكثر عنفًا بدأت في سبتمبر ١٩٣٧.

علىٰ الرغم من قمع هذه الانتفاضة أيضًا، إلا أن البريطانيين أصبحوا أكثر قلقًا بشأن تكاليف دعم المشروع الصهيوني. في يناير ١٩٣٩، أعلن الاستراتيجيون البريطانيون أن الإخفاق في «التهدئة الكاملة للرأي العربي في فلسطين والدول المجاورة» عند اندلاع الحرب؛ من شأنه أن يدفع الدول العربية إلىٰ معسكر دول المحور[1]. حينها أدرك البريطانيون أن تكاليف الانفصال عن الصهاينة وإسكاتهم ستكون ضئيلة، ورغم تدهور الحال في أواخر الثلاثينيات -نظرًا للسياسات العدوانية النازية المعادية للسامية- إلا أنه لم يكن هناك أي خطر يُذكر من تخلّي يهود العالم عن البريطانيين لصالح الألمان المعادين للسامية.

المسرح الآن مهيأ لبريطانيا للتنصّل من وعد بلفور؛ ففي يناير ١٩٣٨، انتصرت وزارة الخارجية البريطانية علىٰ لجنة وودهيد (Woodhead) لمراجعة جدوىٰ التقسيم؛ وعندما رفض الصهاينة مخططات التقسيم التي اقترحتها هذه اللجنة، أصدرت الحكومة الكتاب الأبيض في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨ معلنةً أن التقسيم «غير عملي»، ودعت القادة اليهود والعرب إلىٰ مؤتمر في لندن لتسوية خلافاتهم. وعندما فشل هذا المؤتمر، خلص البريطانيون إلىٰ أنهم لا يستطيعون تهدئة العرب في وقت كانت الحرب الكبرىٰ وشيكة.

---

(1) Ibid., 103.

أعلن الكتاب الأبيض الصادر في مايو ١٩٣٩ -في تحوّل دراماتيكي- أن «حكومة جلالته تعتقد أن واضعي الانتداب الذين خرج وعد بلفور بأيديهم لا يمكن أن يقصدوا تحويل فلسطين إلىٰ دولة يهودية رغمًا عن إرادة العرب سكان البلد»، وعلىٰ مدىٰ السنوات الخمس التالية، قلّصت بريطانيا هجرة اليهود إلىٰ ٧٥٠٠٠ كحد أقصىٰ، وبعد ذلك ستتطلب الهجرة موافقة العرب الفلسطينيين، كما ستقتصر عمليات شراء الأراضي اليهودية علىٰ مناطق محددة علىٰ طول الساحل. بالإضافة إلىٰ ذلك، ستُمنح فلسطين -ذات الأغلبية العربية- استقلالها في وقت ما خلال السنوات العشر القادمة[١]، إلا أن مقتضيات الحرب العالمية الأولىٰ أقنعت البريطانيين بالتضحية بحقوق الفلسطينيين لصالح المشروع الاحتلالي الصهيوني، لكن -بعد حوالي ٢٢ عامًا- وتحسّبًا لحرب عالمية أخرىٰ، بدا أن البريطانيين يرتدون علىٰ أدبارهم.

يؤكد هذا التراجع في السياسة البريطانية تجاه المشروع الصهيوني -الذي تم رغم المعارضة الصهيونية- أن الضغط اليهودي -بحد ذاته- لم يكن العامل الأساسي وراء صدور وعد بلفور في نوفمبر ١٩١٧. إذا كان اللوبي الصهيوني قد كان له من النفوذ الكثير عام ١٩١٧، فإن هذا كان نتيجة مجموعة متنوعة من الظروف -وُصفت سابقًا- والتي لن تتكرر. بعد الحرب العالمية الأولىٰ، ومع انتصار الحلفاء الكامل وبسط السيطرة البريطانية علىٰ جزء كبير من الشرق الأوسط، كان الصهاينة أقل فاعلية في منع تخلّي البريطانيين العلني عن الصهيونية. وعلىٰ النقيض من ضعف اللوبي الصهيوني في بريطانيا -كما سنبين في الجزء الثالث- نرىٰ النفوذ الصهيوني يتصاعد في الولايات المتحدة. كان التأثير اليهودي علىٰ النظام السياسي في الولايات المتحدة أقوىٰ بشكل كبير، حيث

(1) Ibid., 102-5.

شكّل ضغطًا علىٰ مستويات متعددة -من خلال النقابات العمالية، ووسائل الإعلام، والكونغرس، ومكتب الرئيس، والشراكة المتنامية مع المسيحيين الصهاينة. سنعود إلىٰ هذا الموضوع في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

الفصل الثاني عشر
الصهيونية ومعاداة السامية

«إن نضال اليهود من أجل الوحدة والاستقلال من شأنه أن يجذب تعاطف أناس لا نكن لهم سوىٰ كل بغضاء -بحق وبغير حق».

ليو بينسكر(Leo Pinsker)

«سوف يصبح المعادون للسامية أصدقاءنا الذين يمكن الاعتماد عليهم،
وستكون الدول المعادية للسامية حلفاء لنا»

تيودور هرتزل (Theodore Herzl)

«إذا سمحنا بالفصل بين مشكلة اللاجئين وقضية فلسطين؛
فإننا نجازف بوجود الصهيونية»

ديفيد بن غوريون (David Ben-Gurion)، ١٩٣٨

«إذا سُئِلتُ: هل يمكنك تقديم أموال من جمعية (الإغاثة اليهودية الموحدة UJA)
لإنقاذ اليهود؟ فسأقول لا؛ أكرر: الإجابة هي (لا)»

إسحاق جرينباوم (Itzhak Greenbaum)، ١٩٤٣

«لحسن الحظ، لم تعد معاداة السامية مشكلة في الولايات المتحدة؛ لقد أثيرت تلك المشكلة لأن الأشخاص ذوي النفوذ يريدون التأكد من أن لديهم سيطرة كاملة -وليس سيطرة بنسبة ٩٨٪ فقط- علىٰ الموقف، كما يريدون التأكد من أن السياسات التي تدعمها الولايات المتحدة (ويدعمونها بأنفسهم) في الشرق الأوسط ستمرّ دون نقد»

نعوم تشومسكي (Noam Chomsky)، ٢٠٠١[١]

لطالما ادّعىٰ الصهاينة -منذ فترة طويلة- أن حركتهم لم تكن إلا رد فعل لحلّ مشكلة معاداة السامية؛ وهم يفضّلون هذا التفسير لأنه يوفّر غطاءً أخلاقيًّا مناسبًا لمشروعهم الاحتلالي؛ حيث يصوّرهم كضحايا دائمين لاضطهاد الأغيار، مما يمنح اليهود حقًّا غير مشروط في أن تكون لهم دولتهم، وهذا التفسير داحضٌ. بشكل عام، ظهرت ثلاثة استجابات لمعاداة السامية خلال القرن التاسع عشر: الاندماج، والثورة، والصهيونية السياسية، وكانت الصهيونية السياسية آخر ما ظهر علىٰ الساحة، بل كانت الأضعف بين الثلاثة حتىٰ بداية الحرب العالمية الأولىٰ.

إن المقاربة التي نرىٰ أنها مفيدة في النظر إلىٰ الصهيونية -وهو منهجي العام في هذا الكتاب- هو النظر إليها باعتبارها حركة ولدت من رحم النجاح والطموحات اليهودية وتأسست عليها[٢]. في البداية، لم يفكر معظم اليهود

(1) Avishai, The Tragedy of Zionism, 28; Patai, The Complete Diaries, quoted in Friedman, Germany, Turkey, Zionism, 55; Quigley, Flight into the Maelstrom, 167; Seidman, Socialists and the Fight, 26; and Chomsky, "Anti-Semitism, Zionism."

(٢) وفقًا لكاتز ("The Jewish National Movement", 273)، فإن أوائل الشخصيات القومية مثل الحاخام القلعي (١٧٩٨-١٨٧٨) والحاخام كاليشر (١٧٩٥-١٨٧٤) «هي نتاج إعادة تفسير التقليد المسياني (Messianic) القديم في علىٰ ضوء التجارب التاريخية الجديدة. ففي ضوء التطورات اللاحقة، من الجيد أن نتذكر أن **معاداة السامية الحديثة لم تكن من بين هذه التجارب** التي أشعلت الاتجاه القومي اليهودي». [التسويد مضاف]، كما طوّر الحاخامان نظرياتهما القومية «خلال فترة ازدهار الليبرالية الأوروبية الوسطىٰ، أي بين ١٨٤٠-١٨٧٥، عندما كان التفاؤل بشأن الاندماج =

المزدهرين في التخلّي عن مكاسبهم مقابل ما اعتبروه حلمًا صهيونيًّا طوباويًا؛ وفضّل اليهود الأفقر من أوروبا الشرقية التحرّك غربًا علىٰ خطىٰ أبناء عمومتهم المندمجين، أو التماهي في الحركات الثورية. وفي ظل هذه الظروف، لجأت المجموعة الصغيرة من الصهاينة الأوائل إلىٰ معاداة السامية لدفع حركتهم من هوامش الخطاب السياسي اليهودي إلىٰ مركز الصدارة. لقد لاحظوا مبكرًا أوجه التكامل بين معاداة السامية وحركتهم الخاصة، وقرَّروا تسخير هذه التكاملات لدفع حركتهم، لكن إذا كان الاندماج أو الثورة يمكن أن يلغي أو يخفّف من معاداة السامية، فإن القليل من اليهود سينجذبون إلىٰ الصهيونية، ومن هنا ارتبط نجاح الصهيونية ارتباطًا وثيقًا بالفرضية القائلة بأن الاندماج لا يمكن أن ينجح؛ لأن معاداة السامية لا يمكن محوها؛ فلم يكن بإمكان اليهود الهروب من معاداة السامية في مجتمع من مجتمعات الأغيار؛ وفي دولة يهودية -فقط- يمكنهم أن يكونوا في مأمن من معاداة السامية.

ما أوجه التكامل بين الصهيونية ومعاداة السامية؟ أهم هذه التكاملات هو الهدف المشترك بين المعادين للسامية والصهيونية، فكلاهما أراد خروج اليهود من أوروبا. لقد سعىٰ المعادون للسامية إلىٰ تحقيق هذا المأرب علىٰ مدىٰ قرون عديدة من خلال طرد اليهود أو قتلهم أو عزلهم، الآن -مع الصهيونية- يبدو أن اليهود أنفسهم كانوا يقترحون إخراج أنفسهم من أوروبا طواعية إذا كانت هناك قوة غربية واحدة أو أكثر ستساعدهم علىٰ تأمين دولة يهودية في فلسطين. عرض الصهاينة علىٰ المعادين للسامية صفقة تاريخية لتحقيق هدفهم القديم دون مشاكل تذكر، وقد كان العرض غير متوقع؛ لأن اليهود -في الماضي- لم يكونوا متصالحين أبدًا مع مسألة ترحيلهم، لقد كانت صفقةً جذابةً -أيضًا-؛ لأن

= المحتمل لليهود في حياة الدول الأوروبية شبه عالمي». بالإضافة إلىٰ ذلك، كتب كاتز أن الحاخام كاليشر فسّر تحرير اليهود في شبابه «فقط بمصطلحات مشتقة من التقاليد اليهودية؛ أي أن تحرر الأفراد اليهود، بل واستحواذهم -مثل روتشيلد- علىٰ نفوذ اقتصادي وسياسي لم يسمع به من قبل، بدا له أنه تحقيق لنبوءة التحرير القديمة وفقًا للتقاليد اليهودية».

المعادين للسامية سيحققون هدفهم دون إثارة البغضاء التي تصاحب عمليات الترحيل والمذابح. وبالنظر إلىٰ أن معاداة السامية -بأشكالها الظاهرة والمركّزة- كانت لا تزال سائدة في أوروبا، فيمكن للصهاينة الاعتماد علىٰ تعاون القادة الأوروبيين المدفوعين بمعاداة السامية، أو الساعين لإرضاء المشاعر القوية المعادية للسامية في مجتمعاتهم. وهكذا، وعدت الصهيونية بإيجاد تقارب غير عادي في الأهداف الأساسية لخصمين تاريخيين: اليهود والمعادين للسامية.

قدّمت معاداة السامية -أيضًا- الأساس المنطقي للصهيونية، سواءً عندما كان أبطالها يستغلون خطيئة الغرب، أو عندما كانوا يسعون للتغلب علىٰ عدم ثقة اليهود تجاه حركتهم. ربما لأول مرة في أوروبا المسيحية استطاع التنوير أن يولّد لدىٰ بعض شرائح الطبقة المثقفة في أوروبا ندمًا متزايدًا علىٰ اضطهاد الأقليات اليهودية. في المقابل، سعىٰ الكتاب اليهود خلال القرن التاسع عشر إلىٰ تنمية وتعزيز هذا الندم من خلال المبالغة في الاضطهاد الذي تعرّضوا له علىٰ أيدي المسيحيين[١]. الآن، يمكن للصهاينة الاعتماد علىٰ قدر من الدعم لحركتهم من الطبقات المثقفة في أوروبا، الذين أرادوا التكفير عن خطاياهم الماضية. ضغط يهود أوروبا -في الماضي- علىٰ هذا الذنب عندما طالبوا بحقوق متساوية، واستخدم الصهاينة نفس التكتيك لكسب التأييد لإنشاء دولة يهودية في فلسطين.

---

(١) للاطلاع علىٰ التاريخ «المأساوي» الذي بناه اليهود انظر:

liberles and Lyman (Salo Wittmayer Baron), Foa (The Jews of Europe, 219), and Kiener (The Jewish Experience of Suffering).

وعلىٰ عكس نظرائهم من الأغيار، كان دارسي الإسلام والشرق الأوسط من اليهود -في ذروة التيار الاستشراقي- أكثر فطنة في إدراكهم للإنجازات الإسلامية والعربية، في ردة فعل علىٰ ادعاءات المركزية الأوروبية. وبمجرد أن أصبحت الصهيونية الخطاب السائد بين اليهود، ابتداءً من الأربعينيات من القرن الماضي، بدأ جيل جديد من الباحثين اليهود في ممارسة استشراق أكثر تبجحًا، ويلقىٰ تبعة المشاكل التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية علىٰ الإسلام وحده:

Alam, "Bernard Lewis," reprinted in Alam, Challenging the New Orientalism, 3-23، Cohen, "The Neo-Lachrymose Conception."

كانت معاداة السامية مفيدة للصهيونية بطرق أخرىٰ غير متوقعة؛ لأنها ستساعد علىٰ عكس اتجاه تيار المعارضة القوية للصهيونية من قبل اليهود المندمجين؛ فنظرا لأنانيتهم، سيرىٰ المندمجون في الصهوينة حلًّا لهذه الموجة الجديدة من معاداة السامية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، بسبب المدّ المتنامي للمهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية. في اجتماع عقد في يونيو ١٩١٩ مع اللورد بلفور، أوضح لويس برانديز (Louis Brandeis) أن تحوّله إلىٰ الصهيونية حدث علىٰ خلفية مخاوف بشأن تدفق اليهود -وخاصة اليهود الروس ذوي الميول الثورية- إلىٰ الولايات المتحدة؛ كما أعرب اللورد بلفور -وهو نفسه معاد للسامية طوال حياته- عن موافقته الكاملة علىٰ هذه المشاعر مضيفًا: «بالطبع، هذه هي الأسباب التي تجعلني أنا وأنت من الصهاينة المتحمسين»[١].

كما كان لمعاداة السامية وظيفة حيوية ثالثة في تاريخ الصهيونية منذ اللحظات الأولىٰ لإسرائيل؛ ففي فترة ما بعد الحرب، عندما امتلكت الدول الغربية سلطة أخلاقية غالبة بخطابها عن حقوق الإنسان، كان علىٰ الصهاينة التأكد من أن الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الفلسطينيين لم ولن تكون موضع نقاش في الخطاب العام في المجتمعات الغربية. وبالمثل، سوف يسعون إلىٰ منع الأمريكيين من التشكيك في تحيّز بلدهم تجاه إسرائيل، وإخفاء الدور الذي يلعبه اللوبي الإسرائيلي في خلق هذه العلاقة الخاصة. كما عملوا علىٰ إجهاض أي نقاش حول إسرائيل، أو العلاقات الأمريكية مع إسرائيل، أو تأثير اللوبي الإسرائيلي علىٰ السياسات الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، حيث عملت المنظمات الصهيونية بفاعلية كبيرة من أجل ربط أي انتقاد لإسرائيل بمعاداة السامية، فاستخدموا الاتهام بمعاداة السامية بشكل ممنهج؛ لنبذ وترهيب وتشويه سمعة الأمريكيين -وخاصة السياسيين والأكاديميين- الذين ينتقدون إسرائيل

(1) Frankfurter, “An Interview,” 196.

أو اللوبي الإسرائيلي، أو العلاقات العميقة التي تقيمها الولايات المتحدة مع إسرائيل[١].

❀ ❀ ❀

لقد أدرك الصهاينة الأوائل جيدًا أن الأمة اليهودية التي أرادوا تأسيسها في فلسطين لم توجد بعد، وعليهم خلق هذه الأمة من مجتمعات اليهود الكثيرة المنتشرة في جميع أنحاء أوروبا، والتي اندمج العديد منهم فيها، واكتسبوا القبول والازدهار والتأثير في مجتمعات الأغيار. صحيح أن اليهود في أوروبا الشرقية لا يزالون يواجهون الاضطهاد المعادي للسامية، لكنهم أيضًا كانوا يسعون للخلاص إما عن طريق الهجرة، أو الاندماج، أو الحركات الثورية التي من شأنها أن تضع حدًّا لمعاداة السامية من خلال خلق مجتمع لا طبقي.

كان علىٰ الصهيونية أن تتنافس مع الاندماج والحركات الثورية من أجل كسب دعم اليهود؛ كان الصهاينة بالطبع يعزفون علىٰ وتر الكبرياء اليهودي، وعلىٰ كونهم «مختارون»، وعلىٰ طموحاتهم الخلاصية (messianic) أيضًا. لقد كان اليهود القوميون هم عامة الأنصار الطبيعيين للصهيونية، أولئك الذين اعتقدوا أن اليهود هم أمة متميّزة -منفصلة عن الأمم الأخرىٰ وفوقها-، ويجب أن تأخذ مكانها بين الدول الكبرىٰ في العالم. ربما شعر العديد من اليهود في القرن التاسع عشر بجاذبية هذه المشاعر القومية، لكن قلة هم من كانوا مقتنعين بأن جمع اليهود معًا في دولة يهودية اقتراح ممكن التحقق[٢]. لقد بدا إنشاء دولة يهودية من الصفر

(1) Findley, They Dare to Speak Out; Finkelstein, The Holocaust Industry, 11-38; Alam, "A New Theology," reprinted in Cockburn and St. Clair, The Politics of Anti-Semitism, 73-77. For the attacks launched against Mearsheimer and Walt)"The Israel Lobby"(for their article on the Israeli lobby, see Solomon, "The Lobby and the Bulldozer," and Cohen, "Yes, It's Anti-Semitic." See Finkelstein, "The Ludicrous Attacks," and Lipstadt, "Jimmy Carter's Jewish Problem," for the attacks on President Carter's book, Palestine: Peace Not Apartheid.

(٢) في عام ١٨٩٤، كتب لازار (Anti-Semitism, 124): «إذا كان المعادي للسامية يوبّخ اليهودي =

أمرًا بعيد المنال -وربما محض خيال-، وإذا ما قورن بالاندماج والثورة، فإنهما يقدمان آفاقًا أفضل بكثير لتحقيق الطموحات اليهودية، ومع ذلك وجد عدد قليل من اليهود من ذوي الهمة والطموح الجامح ضالتهم في الدعوة الصهيونية؛ لقد لجئوا إلىٰ هذه المؤسسة لأنها وعدت بالكثير؛ فقبلوا هذا التحدي بحماسة ظاهرة؛ لأنه أتاح فرصة للاستفادة من القوة التي راكمها اليهود؛ هؤلاء اليهود شكّلوا لبّ الحركة الصهيونية: قادتها ومستعمروها الأكثر حماسًا.

إن أفضل أمل للصهاينة في خلق أتباع وجمهور هو نشر ثقافة «المأساة اليهودية»، فقد كانوا يسعون إلىٰ إثارة القلق اليهودي بالقول إنه لا يمكن أن يكون هناك خلاص لليهود بإخفاء يهوديتهم؛ وإن اليهود شعب فريد يمكنه التخلّي عن السمات الخارجية التي تشير إلىٰ دينهم، ولكنهم لن يتمكنوا أبدًا من الهروب من عرقهم اليهودي؛ لن يقبل الإنجليز والألمان -أبدًا- اليهود المندمجين كأفراد منهم؛ وحتىٰ أولئك الذين أتمّوا تحوّلهم علىٰ أكمل وجه؛ سيظل يُنظر إليهم علىٰ أنهم يهود بالأصالة. وأيًّا ما كانت المفارقة والدهشة التي تبعثها هذه الحقيقة؛ فإن حلفاء الصهاينة الذين اعتمد عليهم نجاحهم كانوا هم العدو الأكثر رعبًا لعامة اليهود؛ ورغم أنه كان زواج مصلحة، إلا أنه كان وثيقًا ودائمًا.

من الواضح أن تيودور هرتزل رأىٰ هذه الروابط أيضًا؛ ففي بيانه الصهيوني، طرح السؤال المحوري الذي يواجه الصهيونية: «من أين نستمد قوتنا الدافعة؟» كانت إجابته علىٰ الفور: «مأساة اليهود»؛ وفي المناقشة التي تلت ذلك، نادرًا ما ميّز هرتزل بين «مأساة اليهود» ومعاداة السامية -مصدر هذا البؤس، كما شبّه قوة معاداة السامية بـ «القوة البخارية المتولدة من غليان الماء،

= لكونه جزءًا من عرق غريب، فإن اليهودي يتباهىٰ بالانتماء إلىٰ عرق مختار ومميز. إنه يولي أهمية قصوىٰ لنبله وعراقته القديمة، فقد كان فريسة الكبرياء الوطني حتىٰ الآن. ومع أنه لا يمثل أمة، ويحارب أولئك الذين يرون فيه ممثلًا لأمة دخيلة، إلا أنه مع ذلك يحمل في أعماق قلبه هذه القناعة، لذا فهو لا يختلف عن عامة الشوفينيين -المتعصبين الوطنيين- في كل البلاد».

عند رفع غطاء الغلاية». وإن محاولات الصهاينة و«جمعيات المؤاخاة» لكبح جماح معاداة السامية؛ أشبه بمحاولة وضع غطاء علىٰ قدر الماء المغلي، إن محاربة معاداة السامية غير مجدية؛ بل -الأسوأ من ذلك- مضللة. وبدلًا من ذلك، يرىٰ هرتزل بأن «هذه **القوة** إذا وُظِّفت بشكل صحيح، فإنها ستكون قوية بما يكفي لتشغيل محرك كبير يمكنه أن يدفع سفينتنا بركابها وبضائعها [إلىٰ فلسطين]؛ إنه محرك قادر علىٰ حرق أي شيء يُقذف فيه». إن معاداة السامية لا تتجه نحو الانقراض -كما اعتقد اليهود المندمجون- بل من المتوقع أن تنمو وتستفحل، وقد كشف هرتزل في مذكراته عن هذا الارتباط قائلا: «طالما وُجِدت معاداة السامية واستمرت في النمو، فأنا أيضا كذلك»(1) [التسويد مضاف]. من الواضح أنه توقع أن تكون شراسة معاداة السامية أكثر فاعلية في تجنيد المستعمرين اليهود من تلك النداءات الهوجاء التي كانت تُطلق حتىٰ الآن باسم القومية اليهودية.

إذا كان لمعاداة السامية هذا الارتباط الوثيق بالصهيونية، فأنّىٰ للصهاينة العزوف عن استغلال هذا الارتباط؟ ألا يمكن القول بأن الصهاينة بإعلانهم عن انطلاق الحركة الصهيونية يظهرون معارضتهم لكل تلك الآمال التي يعقدها يهود أوروبا علىٰ الاندماج والهجرة والحركات الثورية المختلفة للوصول إلىٰ مستقبل أفضل؟ ومن المفارقات: أنه إذا كانت الآمال الصهيونية قائمة علىٰ تضخيم المأساة اليهودية، فإن كبح جماح معاداة السامية -سبب هذه المأساة- قد يقضي علىٰ حركتهم منذ البداية. تساءل تيودور هرتزل قلقًا في عام ١٨٩٦: «هل أنا سابق لعصري؟ . . . ألم تصل معاناة اليهود إلىٰ مرحلة خطيرة بما يكفي بعدُ؟»(٢). إذا استثنينا فترة الاضطهاد النازي، فقد كانت هذه مشكلة متكررة للصهاينة؛ ففي البداية عارض معظم اليهود الصهيونية، أو علىٰ الأقل كانوا

(1) Herzl, The Jewish State, x; Hirst, The Gun and the Olive Branch, 286.

(2) Herzl, The Jewish State, x.

متشككين فيها، وحتىٰ عندما بدأوا يجنون ثمار تحقيق الأهداف الصهيونية، كان دعمهم في الغالب هامشيًّا بالنسبة للطموحات الصهيونية، وهذه مشكلة يواجهها الصهاينة حتىٰ يومنا هذا؛ فطالما أن الدول الغربية المتقدمة مفتوحة للمهاجرين اليهود، فإن القليل من اليهود سيهاجرون إلىٰ إسرائيل.

ما الإجراءات التي قد يفكر فيها القادة الصهاينة أو ينفذونها من أجل توليد دعم يهودي أقوىٰ لحركتهم؟ كتب ديفيد هيرست (David Hirst): «إذا كانت الصهيونية -كظاهرة تاريخية- مجرد رد فعل علىٰ معاداة السامية، فإن ما تلا ذلك هو أن الصهاينة -في ظروف معينة- كانوا مهتمين بنشر وإثارة نفس المرض الذي كانوا يأملون في علاجه»[1]. صحيحٌ أن الصهاينة قد لا يشجّعون معاداة السامية علنًا، إلا أنهم كانوا أكثر استعدادًا لتحقيق نفس النتائج لكن سرًّا؛ ووفقًا لألفريد ليلينثال (Alfred Lilienthal)، كان هناك صهاينة متحمسون أرادوا أن تحافظ القيادة اليهودية علىٰ استمرار وجود معاداة السامية[2]. ولا نعرف ما إذا كان الصهاينة قد شاركوا في أعمال سرية لإثارة معاداة السامية قبل إنشاء إسرائيل أم لا؛ ومع ذلك، لدينا أدلة -ستأتي لاحقًا في هذا الفصل- علىٰ مثل هذه الأعمال السرّية في العراق خلال أوائل الخمسينيات من القرن الماضي.

وحتىٰ إذا لم يقم الصهاينة بإثارة دوامات معاداة السامية بشكل مباشر، فليس هناك ما يمنعهم من الاستفادة من مظاهر معاداة السامية القائمة بالفعل؛ فإنهم إزاء كل حادثة تُشتَمُّ منها رائحة معاداة السامية سيقومون علىٰ الفور بتسجيلها وإعلانها ونشرها وتحليلها، والنتيجة هي تضخيم كل حادثة معاداة للسامية آلاف المرات بحيث يكون ظلها في الخيال اليهودي أكبر بكثير، والواقع أن جهود توثيق ونشر وتضخيم صور معاداة السامية تظل جزءًا مهمًا من أنشطة

(1) Hirst, The Gun and the Olive Branch, 285-86.

(2) Lilienthal, The Other Side, 184, quoted in Hirst, The Gun and the Olive Branch, 286.

معظم المنظمات الصهيونية؛ وهناك عدد غير قليل ممن يكرّسون حياتهم لهذا الواجب.

إن الحركة الصهيونية تتغذّىٰ مباشرةً علىٰ معاداة السامية، لذا فمن غير المرجّح أن نرىٰ الصهاينة يتخذون إجراءات حاسمة لكبح نموها، ناهيك عن استئصالها من جذورها. إن إذكاء أوار معاداة السامية ينطوي علىٰ مخاطر سياسية عالية غير مقبولة، ولكن كان من الآمن تمامًا الامتناع عن اتخاذ إجراءات لمكافحتها؛ فإن خطيئة التغافل أقل وضوحًا بكثير من خطيئة الترويج والتشجيع المباشر. إحدىٰ أظهر الآثام التي سُجّلت علىٰ المنظمات والقادة اليهود خلال العقود الثلاثة الأولىٰ من القرن العشرين كانت صمتهم المطبق إزاء تحركات تقييد الهجرة إلىٰ أوروبا الغربية والأمريكيتين[١]. لقد كانت هذه القيود ضرورية لكي ينجح الصهاينة في جذب المحتلين اليهود إلىٰ فلسطين، فإن فتح الحدود يهدّد بقطع الصلة بين معاداة السامية والصهيونية، وما كانت الزيادة الهائلة في تدفق اليهود إلىٰ فلسطين منذ عشرينيات القرن الماضي لتحدث لو تمكنوا من الدخول إلىٰ أوروبا الغربية أو الأمريكيتين؛ وعلىٰ حد تعبير المؤرخ الفلسطيني البارز وليد الخالدي «هذه هي الأساسات العميقة المستترة -أو التي يُفترض أنها كذلك- التي تأسس عليها الوفاق الأنجلوصهيوني والصهيوأمريكي في العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن، أي قبل فترة طويلة من ظهور هتلر»[٢]. وتجدر

(١) لم تفعل المنظمات الصهيونية واليهودية في الولايات المتحدة سوىٰ القليل جدًا لتسجيل احتجاجها علىٰ قيود الهجرة خلال الثلاثينيات عندما كان الاضطهاد النازي لليهود معروفًا للجميع. قال سيدمان (Socialists and the Fight, 30): «لم يقم قادة الصهاينة ومعظم المنظمات اليهودية بأي احتجاجات كبيرة ضد سياسات إدارة روزفلت التي تركت مئات اللاجئين -اليهود وغيرهم- يموتون علىٰ أيدي الفاشيين والمعادين للسامية في أوروبا خلال الثلاثينيات».

(2) Khalidi, From Haven to Conquest, xxxi.

في عام ١٩٣٨ كتب ديفيد بن غوريون: «إذا كان علىٰ اليهود الاختيار بين اللاجئين، وإنقاذ اليهود من معسكرات الاعتقال، وتأسيس المتحف الوطني في فلسطين؛ فسيعلو صوت الرحمة فوق كل =

الإشارة أيضًا إلىٰ أن اليهود القدامىٰ المنتدبين في أوروبا الغربية والولايات المتحدة لم يكن من الممكن أن يستاءوا للغاية من القيود الجديدة علىٰ الهجرة، فبالتأكيد لم يكونوا يرغبوا في أن تهدّد معاداة السامية الجديدة التي سيثيرها المهاجرون الجدد من اليهود مكاسبَهم التي حققوها في فلسطين.

لقد عارض الصهاينة أي مخططات لإنقاذ يهود أوروبا إذا كانت ستنتهي بإعادتهم إلىٰ وجهات أخرىٰ غير فلسطين، ففي عام ١٩٣٨، رفضوا حضور مؤتمر في إيفيان -وهي بلدة علىٰ ضفاف بحيرة جنيف- عقدته الحكومات الغربية للنظر في سبل إنقاذ وإعادة توطين اليهود الذين كانت حياتهم في خطر في ألمانيا والنمسا، فبالنسبة إلىٰ الصهاينة فإن نجاح مثل هذه المخططات سيقلّص بشكل كبير تدفّق اليهود المتجهين إلىٰ فلسطين[١]. وبالمثل، كانت الخطة الأمريكية لتوطين ما يقرب من نصف مليون لاجئ يهودي -في منتصف الحرب العالمية الثانية- في الدول الغربية مجرد حبر علىٰ ورق بسبب نقص الدعم من المنظمات اليهودية[٢]، وهي مبادرة طرحها الرئيس فرانكلين روزفلت (Franklin D. Roosevelt) الذي كان مقتنعًا بأنه يستطيع إقناع الكونغرس بقبول ١٥٠ ألف لاجئ يهودي إذا وافقت بريطانيا أيضًا علىٰ قبول عدد مماثل؛ بالإضافة إلىٰ ذلك، اعتقد روزفلت أنه يمكنه الاعتماد علىٰ البرازيل وتشيلي وكندا وأستراليا

= شيء، وستوجّه كل طاقات الشعب لإنقاذ اليهود من مختلف البلدان، وإلا فلن يكون هناك مكان للصهيونية ليس فقط في الرأي العام العالمي بريطانيا والولايات المتحدة، بل في أي مكان آخر، إذا سمحنا بالفصل بين مشكلة اللاجئين وقضية فلسطين، فإننا نجازف بوجود الصهيونية».

quigley, Flight into the Maelstrom, 167.

(1) Quigley, Flight into the Maelstrom, 167.

في مدخل إلىٰ مؤتمر إيفيان، كتب تايلور ("Evian Conference",213): «إن التوقّع القائل بأن المنظمات اليهودية ستقدم خطة هجرة محددة ومتسقة لم يتحقق، إذ ظهر أنهم غير قادرين علىٰ الاتفاق فيما بينهم».

(٢) ليس هذا هو المثال الوحيد للمقاومة الصهيونية لمختلف المقترحات والعروض لإنقاذ يهود أوروبا.

miller, Awake My Glory, excerpted in Jews Against Zionism, Words of the Rabbis.

-من بين دول أخرىٰ- لقبول ١٥٠ ألفًا أخرىٰ أو أكثر، وأصدر تعليماته إلىٰ موريس إرنست (Morris Ernst) -أحد مستشاريه المقربين- بأن يستكشف في إحدىٰ رحلاته إلىٰ إنجلترا -بشكل غير رسمي- مدىٰ استعداد القادة البريطانيين لدعم هذه الخطة. وعلىٰ الرغم من موافقة البريطانيين علىٰ خطة روزفلت، إلا أنها لم تنفذ أبدًا. كتب إرنست أن «فشل المجموعات اليهودية القيادية في تأييد ودعم برنامج الهجرة قد يكون سببًا في عدم قيام الرئيس بمواصلة المشروع في ذلك الوقت»، وهذا تصريح دبلوماسي منمّق؛ فقد كتب إرنست أنه بسبب دعمه لخطة الرئيس روزفلت «شجبني القادة اليهود النشطون، وسخروا مني، ثم هاجموني كما لو كنت خائنًا»[١]، وعندما وصلت أنباء عمليات القتل الممنهج لليهود إلىٰ الولايات المتحدة في عام ١٩٤٢، كانت استجابة المؤسسة اليهودية الأمريكية خانعة ولا مبالية بالرعب الذي بدأ يتكشّف[٢].

حَدَتْ أوجه التكامل بين الصهاينة ومعاداة السامية كلًا منهما للعمل معًا لتحقيق أهدافهما المشتركة. كتب ماكسيم رودنسون (Maxine Rodinson): «من هذا المنطلق، توصّل هرتزل في عام ١٩٠٣ إلىٰ اتفاق عام حول أساسيات التعاون الصهيوني الروسي مع وزير الداخلية القيصري ومنظّم المذابح بلهيف (Plehve)، حيث افتتح بذلك تقليدًا سياسيًّا يتمثّل في دمج البرنامج الصهيوني مع نظيره لدىٰ معاداة السامية (وهو أمر اعترف به هرتزل بفخر)، الأمر الذي كان يُعد قبل ذلك خطيئة كبرىٰ»[٣]. في الثلاثينيات، حظر النازيون جميع المنظمات اليهودية باستثناء تلك التي لها أهداف صهيونية، حتىٰ أنهم سمحوا للصهاينة برفع علمهم الأزرق

---

(1) Ernst, So Far So Good, 172-76.

(٢) طبقًا لفاينجولد (American Jewry, 6) «عندما تسرّبت أخبار القتل المنظّم لليهود في سويسرا في عام ١٩٤٢، وجد اليهود الأمريكيون القصص مروعة جدًّا لدرجة لا يمكن تصديقها، ولذا تباطئوا في حثّ حكومة الولايات المتحدة علىٰ اتخاذ إجراءات لوقف التنفيذ النازي للحل النهائي». [الحل النهائي مصطلح استخدمته النازية للإشارة إلىٰ الإبادة الجماعية لليهود (المحرر)].

(3) Rodinson, Israel: A Colonial Settler State, 45.

والأبيض مع نجمة داود في وسطه؛ وفي انتهاك صارخ للمقاطعة اليهودية للاقتصاد النازي، وعد الصهاينة بامتيازات نقدية وتجارية لألمانيا النازية إذا دفعوا المهاجرين اليهود إلىٰ فلسطين، ولم يقتصر هذا التعاون مع القوىٰ الفاشية علىٰ الصهاينة المُشتغلين بالسياسة، الذين غالبًا ما يُنظر إليهم علىٰ أنهم متطرفون لاعتناقهم وجهات النظر العامة التي يتبناها التيار الصهيوني بشكل خاص. قام برينر (Brenner) بتوثيق العديد من صور التعاون بين المنظمات اليهودية الرئيسية والحكومات الفاشية في ألمانيا وإيطاليا واليابان(١).

تجبرنا الأدلة علىٰ التعاون الصهيوني مع النازيين علىٰ التساؤل: هل كان تاريخ اليهود في النصف الأول من القرن العشرين سيختلف إذا قرر الشتات اليهودي الغربي حشد موارده لكبح ودحر كل تلك الاتجاهات السياسية التي أجّجت معاداة السامية في الغرب، بدلًا من توجيه طاقته إلىٰ دعم الحركة الصهيونية؟ بالتأكيد يسفر هذا السؤال عن أشياء كثيرة مهمة؛ لأن اليهود -خلال هذه الفترة وما بعدها- قد أظهروا -في مناسبات عديدة- قدرتهم علىٰ التأثير في السياسات المحلية للدول الغربية الرئيسية.

لا شيء يوضح الاعتماد الكبير للنجاح الصهيوني علىٰ معاداة السامية أفضل من السجل السنوي للوافدين اليهود إلىٰ فلسطين منذ أن أصبحت محتلة بريطانية، فعلىٰ عكس التوقعات الصهيونية، لم يؤد وعد بلفور إلىٰ تدافع اليهود المتحمسين لدخول فلسطين، وبعد بلوغ الذروة السنوية البالغة ٣٣٨٠١ في عام ١٩٢٥، انخفض عدد اليهود الوافدين إلىٰ فلسطين بشكل حاد إلىٰ ٢٧١٣ في عام ١٩٢٧، وعلىٰ مدىٰ السنوات الأربع التالية، بالكاد وصل عدد اليهود الوافدين إلىٰ ٥٠٠٠، وفي ظل معدل استعمار ضئيل كهذا، سيكون من شبه المؤكد التخلّي عن المشروع الصهيوني؛ لكن ما أنقذ الصهيونية هو نزوح اليهود الألمان الذي عجّلته الإجراءات المعادية للسامية، التي فرضتها ألمانيا النازية خلال الثلاثينيات. ومنذ

---

(1) Brenner, Zionism in the Age, chs. 5, 14, and 19.

أن أغلقت جميع الدول الغربية تقريبًا أبوابها أمام المهاجرين بحلول أوائل العشرينات من القرن الماضي، لم يكن لدىٰ العديد من هؤلاء المهاجرين اليهود مكان يذهبون إليه سوىٰ فلسطين، ونتيجة لذلك، ازداد عدد السكان اليهود في فلسطين بشكل كبير خلال الثلاثينيات: من ١٧٢,٣٠٠ في عام ١٩٣١ إلىٰ ٤٤٥٤٥٧ في عام ١٩٣٩، وفي عام ١٩٤٦ ارتفع عدد السكان اليهود إلىٰ ٦٠٨٢٢٥، وارتفعت حصتهم من إجمالي عدد سكان فلسطين إلىٰ ٣٣%[1]، ونظرًا لتعليمهم ومهاراتهم العالية التي لا تضاهىٰ، وتنظيمهم المتفوق، ووصولهم إلىٰ موارد الشتات اليهودي، والدعم الذي تلقّوه من الإداريين البريطانيين؛ مالت كفة ميزان القوة الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين بشكل كبير لصالح الصهاينة.

❀ ❀ ❀

عرّفت الصهيونية نفسها أنها حركة من أجل «تحرير» يهود أوروبا من قبضة الأغيار، لكن علىٰ العكس من ذلك كان للصهيونية علاقة ودود مع غير اليهود في أوروبا.

لم يعتبر الصهاينة أن غير اليهود في أوروبا خصومًا لهم؛ بالعكس، لقد اعتمدوا علىٰ معاداة السامية لدىٰ هذه الدول لإنقاذ حركتهم من الفشل. وعلىٰ عكس القوميين الذين يسعون إلىٰ الانفصال عن دولة أو إمبراطورية عن طريق إنشاء حدود جديدة، لم يطلب الصهاينة إعادة رسم خريطة أوروبا، فقد خططوا لإقامة دولتهم اليهودية خارج حدود أوروبا. بعبارة أخرىٰ: كان الصهاينة يعرضون تنفيذ ما كانت ستتبنّاه أي دولة تقاتل الانفصاليين بقوة، لقد كان الصهاينة «انفصاليين»، لكنهم يريدون الإبحار بعيدًا عن أوروبا، ومن ثمّ يمكنهم الاعتماد علىٰ الأوروبيين لمساعدتهم في خططهم للمضي قدمًا خارج أوروبا.

---

(1) Khalidi, From Haven to Conquest, Appendix I.

لقد كان هذا نهجًا جديدًا للتحرر الوطني. وكخطوة أولىٰ؛ اقترح الصهاينة «تحرير» اليهود من الاضطهاد الأوروبي من خلال ترتيب نزوحهم الجماعي من أوروبا؛ وهم بذلك يحقّقون حلمًا لطالما راود أعداء السامية في أوروبا، أي: تطهير أوروبا من كل اليهود. علىٰ مدىٰ القرون الماضية، حاولت دول مختلفة في أوروبا -بشكل متكرر- التخلّص من اليهود من خلال الترحيلات القسرية، والمذابح، والطرد، وعزل اليهود عن الأغيار. والآن يقدّم الصهاينة هذه الفرصة علىٰ طبق من ذهب، حيث يقترحون تطهير أوروبا من يهودها علىٰ نطاق لم يسبق له مثيل، ودون إزعاج من عمليات الترحيل والمذابح. كتب كيريكس (Kerekes): «لقد أيّد بعض البريطانيين مشروع إنشاء دولة صهيونية . . . لأنه يحقق رغبتهم النهائية، والتي تتمثّل في طرد اليهود علىٰ الطريقة الحديثة، أي أن إخراج اليهود بتعاون اليهود وتجاوبهم لحل المسألة اليهودية»[١]، باختصار: قدّم الصهاينة لكارهي اليهود في أوروبا عرضًا يصعب رفضه.

لقد كانت حيلة ذكيّة؛ كان الصهاينة يخططون لتحويل قوميتهم المستحيلة - التي كان من المستبعد نجاحها داخل أوروبا- إلىٰ مشروع احتلالي استيطاني. بالإضافة إلىٰ ذلك، سوف يحوّلون أعداء اليهود الدائمين إلىٰ حلفاء استراتيجيين. توقّع الصهاينة قدرتهم علىٰ إقناع قوة أوروبية واحدة -علىٰ الأقل- بالقيام بدور الدولة الراعية للمستعمرات اليهودية في فلسطين. كاد الصهاينة أن يضاهوا معجزات موسىٰ؛ ففي السرد التوراتي، اختار النبي موسىٰ أيضًا تحرير العبرانيين في مصر عن طريق إخراجهم من مصر إلىٰ كنعان، حيث سيقيمون دولتهم الخاصة؛ لكنه لم يصل إلىٰ إقناع المصريين بمساعدة العبرانيين علىٰ استعمار كنعان، ولم يكن هناك أي أساس لمثل هذا التعاون في الرواية الكتابيّة، كما لم يكن لدىٰ المصريين رغبة في التخلص من العبرانيين الذين كانوا عبيدًا عندهم؛ من ناحية أخرىٰ، كان معظم الغربيين سعداء للغاية بالتخلّص من اليهود.



---

(1) Kerekes, Masked Ball, 271.

لم تنتهِ الشراكة بين الصهيونية ومعاداة السامية بقيام دولة إسرائيل، فقد أصبح الصهاينة الآن أكثر جرأة وابتكارًا في استخدامهم لمعاداة السامية، نظرًا للاحتياجات المتغيّرة للصهيونية مع سعي إسرائيل لتوطيد هيمنتها علىٰ الشرق الأوسط. هناك عدد قليل من المعادين للسامية في أوروبا الآن، وحتىٰ أولئك الموجودون في الولايات المتحدة -بسبب تحوّلهم إلىٰ التدبيرية[1]- أخذوا يتملّقون إسرائيل، ومع ذلك، لا تزال إسرائيل بحاجة إلىٰ معاداة السامية بوصفها أداة لتقريع الغرب، وتذكيرهم بخطيئتهم.

سرعان ما بدأ تجمّع يهود العالم في فلسطين عام ١٩٤٨؛ في ذلك الوقت، كانت إسرائيل تضمّ أقل من ٦% من يهود العالم، فلم تكن إسرائيل عام ١٩٤٨ -حتىٰ بالنظر إلىٰ حدودها- مشروعًا مكتملًا، فقد كان الصهاينة يحلمون بإعادة مملكة داود الأسطورية التي امتدت حدودها إلىٰ ما وراء حدود فلسطين التي كانت تحت الانتداب البريطاني، كما أن منطق إنشاء إسرائيل -وصراعاتها مع

---

(١) التدبيرية (dispensationalism) هي منهج لتفسير الكتاب المقدس ظهر في إنجلترا في القرن التاسع عشر بجهود جون نلسون داربي من كنيسة الإخوة بليموث. تلعب التدبيرية -أو القدرية كما يسميها البعض- دورًا رئيسيًا في الفكر اللاهوتي للصهاينة المسيحيين، فهي تنظر إلىٰ علاقة الله مع البشر من خلال تقسيم تاريخ هذه العلاقة إلىٰ سبعة أقدار أو حقب زمنية يُخضِع فيها الله الإنسان لتجارب تمتحن طاعته، ووفقًا للتدبيريين فنحن نعيش اليوم في الحقبة السادسة أو ما يسمىٰ «دور الكنيسة والنعمة»، وبانتظار حلول الحقبة السابعة والأخيرة برجوع المسيح للأرض لتأسيس حكمه الألفي؛ وهكذا تفصل التدبيرية بين مفهومي إسرائيل والكنيسة، فبالنسبة للمسيحية التقليدية فالكنيسة -كما يقول أوغسطين- هي وريثة الوعود التي أعطاها الله لإسرائيل، فهي بذلك إسرائيل الجديدة التي تسعىٰ بشوق لبلوغ أورشليم السماوية، وبهذا المفهوم تصبح أورشليم أو أرض الموعد للمسيحيين ذات طبيعة روحانية أزلية لا صلة مباشرة لها مع أرض إسرائيل التاريخية؛ علىٰ عكس الصهاينة المسيحيين الذين يشددون علىٰ الفصل بين إسرائيل كشعب يهودي أو شعب الله المختار في الأرض والكنيسة أو شعب الله المختار في السماء، مؤكدين علىٰ التفسير الحرفي للكتاب المقدس. ويفضي هذا بهم إلىٰ نتيجة حتمية مفادها أن أرض فلسطين التاريخية هي ملك أبدي للشعب اليهودي، وأن نبوءات الكتاب المقدس التي أعلنت عن عودة اليهود إلىٰ أرضهم قد تحققت في القرنين التاسع عشر والعشرين. **(المترجم)**

العالم العربي- سيغري الإسرائيليين دومًا، ويجبرهم علىٰ التوسّع؛ ومن هنا لم يكن الصهاينة مستعدين بعد لتوديع المعادين للسامية.

كان هناك ضغوط كبيرة علىٰ إسرائيل لتوسيع قاعدتها الديموغرافية في العقد الذي أعقب إنشائها، تمامًا مثلما كانت في العقدين السابقين. لقد أشعلت أحداث عام ١٩٤٨ -قيام إسرائيل وهزيمة الجيوش العربية والتطهير العرقي الشامل للفلسطينيين- فتيل القومية العربية التي كان هدفها الأول استئصال الدولة الصهيونية؛ ومن هنا تعيّن علىٰ إسرائيل توسيع قاعدتها الديموغرافية إن أرادت ردع هذه القومية العربية المتصاعدة ودحرها. ومرةً أخرىٰ، كثّف الصهاينة جهودهم لإنتاج دفق يهودي جديد إلىٰ إسرائيل؛ لقد كان هدفهم طموحًا؛ فقد خطّطوا لجلب أربعة ملايين يهودي إضافي إلىٰ إسرائيل خلال الخمسينيات[١].

لم يتردّد الصهاينة في استخدام العنف والخداع في سعيهم لحشد مستعمرين يهود لإسرائيل؛ فعندما أصرّ اليهود المشردون في مخيمات اللاجئين الألمانية -رغم الضغوط الشديدة من الوكالة اليهودية- علىٰ الاستقرار في الولايات المتحدة؛ تعرّضوا لمجموعة متنوعة من الإجراءات التعسفية، حيث أوقف الصهاينة حصصهم الغذائية، وطردوهم من وظائفهم، وحطّموا المساعدات التي تلقّوها من الأمريكيين، وحرموهم من الحماية القانونية وحقوق التأشيرة، وفي العديد من المجتمعات اليهودية -في المكسيك وأوروغواي والبرازيل والأرجنتين وبيرو- نُبذ اليهود وحرموا من الوصول إلىٰ الخدمات المجتمعية عندما رفضوا التبرع بأموال للمؤسسة الصهيونية[٢]. بالطبع لن تجد ذكرًا لهذه التكتيكات الصهيونية الدنيئة في معظم تواريخ إسرائيل.

يتحدّث الصهاينة الآن علانية عن استخدام معاداة السامية لتخويف اليهود ودفعهم إلىٰ مغادرة مجتمعات الأغيار التي يعيشون فيها، وفي عام ١٩٥٢ أوضح

---

(1) Lilienthal, What Price Israel?, 146.

(2) Ibid., 148-50, 153-54.

كاتب عمود في صحيفة دافار (Davar) -الصحيفة الرسمية لحزب ماباي (Mapai) (الحزب الحاكم في إسرائيل)- كيف سيستغل معاداة السامية من أجل جلب اليهود إلىٰ إسرائيل؛ كتب الصحفي:

«لن أخجل من الاعتراف بأنه إذا كان لديّ من القوة ما لديّ من الإرادة، فسوف أختار مجموعة من الشباب الأكفّاء، وأرسلهم إلىٰ البلدان التي ينغمس فيها اليهود في شهوات النفس الآثمة، وستكون مهمة هؤلاء الشباب التنكّر علىٰ أنهم غير يهود، وإرهاب اليهود بشعارات معادية للسامية مثل «يهودي دموي»، و«أيها اليهودي اذهب إلىٰ فلسطين» وما شابهها من شعارات؛ أستطيع أن أؤكد أن نتائج تلك الحملة علىٰ معدل الهجرة إلىٰ إسرائيل من هذه البلدان ستكون أكبر بعشرة آلاف مرة من النتائج التي حقّقها آلاف المبعوثين الذين ظلّوا لعقود ينعقون بما لا يسمع»[١].

لم يكن هذا مجرد خيال صهيوني؛ فهناك طرق أكثر جرأة من تلك التي أوضحها صحفي دافار قد استخدمت لتسريع هجرة يهود العراق عام ١٩٥١[٢]. لقد عملت هذه الحملة علىٰ ثلاث جبهات؛ حثّ عملاء الصهاينة السريّون الشباب اليهود العراقيين علىٰ مغادرة وطنهم القديم، وأغروهم بوعود الرخاء في إسرائيل، وفي الوقت نفسه، بدأت وسائل الإعلام الصهيونية الغربية بنشر تقارير عن مذابح ضد يهود العراق، من أجل إحراج الحكومة العراقية للسماح لليهود بالمغادرة، وأخيرًا -تتويجًا لجهودهم- شن عملاء إسرائيليون سريون هجمات بالقنابل ضد ثلاثة أهداف يهودية في العراق -بما في ذلك يهود يحتفلون بعيد الفصح علىٰ طول ضفاف نهر دجلة، ومركز المعلومات الأمريكي، ومعبدًا يهوديًّا- وذلك عندما لم تكن نسبة مغادرة يهود العراق تلبّي التوقعات الصهيونية، وبحسب عباس شبلاق، كان هناك ما لا يقل عن خمس هجمات بالقنابل علىٰ أهداف يهودية في

(1) Lilienthal, The Other Side, 47, quoted in Hirst, The Gun and the Olive Branch, 286.

(2) Hirst, The Gun and the Olive Branch, 281-83, 288-89.

العراق خلال هذه الفترة، وقد أدّت هذه الأساليب -مجتمعة- إلىٰ هروب دراماتيكي لليهود من العراق، وبحلول آذار/ مارس١٩٥١، لم يبق من يهود العراق البالغ عددهم ١٤٠ ألفا سوىٰ ٥٠٠٠ فقط[١]، كما أن اعتماد إسرائيل علىٰ معاداة السامية لم يضعف في العقود الأخيرة.

إن للمنظمات الصهيونية الرائدة في الغرب آذانًا صاغية في كل مكان مخصصة لالتقاط أضعف إشارات معاداة السامية، وتضخيمها، وتقديمها للعالم باعتبارها دليلًا علىٰ الأذىٰ الدائم الذي يتعرّض له اليهود؛ وهذا بدوره يخدم مصالح صهيونية هامّة، حيث يواصل يهود الشتات ممارسة دورهم الحيوي في تأمين الدعم الغربي لإسرائيل، كما أن قدرة إسرائيل علىٰ حشد دعم يهود الشتات لازالت تعتمد -ولو جزئيًا- علىٰ إبقاء مخاوفهم بأن مواطنتهم في الدول الغربية تقوم علىٰ أسس غير مستقرة، وتواصل إسرائيل تذكيرهم بأن موجةً جديدةً من معاداة السامية يمكن أن تجبرهم -في أي وقت- علىٰ البحث عن ملاذ في إسرائيل. في الوقت نفسه، لا يمكن السماح للمجتمعات الغربية أن تنسىٰ -ولو للحظة- تورّطها في جرائم معادية للسامية؛ كما يجب أن يتكرر علىٰ مسامع يهود الشتات باستمرار أن معاداة السامية ما زالت تداعب خيال الأغيار، وأنها تستتر تحت قشرة هذا التسامح اللطيف. وطالما أمكن الحفاظ علىٰ شعور الغرب بالذنب علىٰ قرون من معاداة السامية، يمكن للصهاينة أن يلحقوا الانتقادات الموجهة لإسرائيل بمعاداة السامية بكل سهولة؛ ففي الولايات المتحدة، الخوف من الاتهام بمعاداة السامية كفيل بقمع أي أصوات تنتقد إسرائيل في الخطاب العام.

أصبحت العلاقة المتبادلة بين الصهيونية ومعاداة السامية أكثر وضوحًا بمرور الوقت؛ فإن الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان، وحروبها المتكررة ضد لبنان، ودعوتها للحروب ضد العراق، وتهديداتها المتكررة بالحرب ضد إيران،

---

(1) Shiblak, Iraqi Jews, reviewed in Al-Shawaf, "Review: Abbas Shiblak."

وتحالفها مع المسيحيين المهووسين بأرمجدون (Armageddon) في الولايات المتحدة، وتحالفها العميق مع الهندوس المتطرفين في الهند؛ أصبحت الآن يُنظر إليها -بشكل متزايد- علىٰ أنها مصادر رئيسية لعدم الاستقرار العالمي، وفي الآونة الأخيرة، كتب اثنان من المدافعين عن الصهيونية -وهما براجر (Prager) وتيلوشكين (Telushkin)- «لقد أنتج إنشاء الدولة اليهودية أكثر دولة مكروهة في العالم»[1]. علاوة علىٰ ذلك؛ نظرًا لأن المنظمات اليهودية الرئيسية في العالم الغربي -الوجه المرئي ليهود الشتات- ملتزمة بشكل صارم بالسياسات الرسمية لإسرائيل، وتهاجم بقوة أي شخص لا يتفق مع هذه السياسات؛ فإن الغضب تجاه إسرائيل يتم توجيهه أحيانًا -وإن كان بشكل متفاوت- إلىٰ يهود الشتات، وطالما أمكن وضع ختم معاداة السامية علىٰ هذا الغضب، فسيتحول بدوره إلىٰ وقود يغذي طاحونة الدعاية الإسرائيلية.

وقد تجلَّىٰ في الآونة الأخيرة استخدام الصهيونية المُقنَّع لمعاداة السامية؛ فعلىٰ مدىٰ القرن الماضي، لم تُنشِّط الصهيونية اليمين الديني في الولايات المتحدة فحسب، بل شجّعتهم نجاحاتها أيضًا علىٰ تبنّي لاهوت تدبيري (dispensationalist theology) يترقّب نهاية الزمان بشغف. في سنواتهم الأولىٰ، انجذب البروتستانت إلىٰ دعم «عودة» اليهود، لأنهم كانوا يأملون في تحوّل اليهود -بمجرد وصولهم إلىٰ فلسطين- إلىٰ المسيحية قبل المجيء الثاني؛ لكن في الآونة الأخيرة -ومع تنامي حماسهم للعقيدة التدبيرية- عدّل الصهاينة المسيحيون لاهوتهم للسماح لليهود بالتحوّل بعد المجيء الثاني، وبقدر ما قامت الصهيونية بتنشيط القراءة التدبيرية للكتاب المقدس، فقد نجحت في تحويل معاداة السامية في الولايات المتحدة إلىٰ نقيضها، وهو التفاني المتعصّب في خدمة دولة

---

(1) Prager and Telushkin, Why the Jews, 183.

إسرائيل. نتيجة لذلك، برز الحزب الجمهوري -بقاعدته القوية بين التدبيريين- كداعم لإسرائيل أقوىٰ من الحزب الديمقراطي الذي لا يزال يدعمه اليهود الأمريكيون بأغلبية ساحقة، إن هذا التحويل لمعاداة السامية إلىٰ تفانٍ متعصب لإسرائيل من شأنه أن يُحرِج خيميائيي العصور الوسطىٰ.

الفصل الثالث عشر
الصهيونية المسيحية

«نرحّب بصداقة المسيحيين الصهاينة»

تيودور هرتزل (Theodore Herzl)، ١٨٩٧

«إن الكنيسة المسيحية -بكل فرقها المتنوعة- سوف تضطر لتدريس تاريخ وتطور الدولة اليهودية الوليدة. لم تستطع أي دولة من دول الكومنولث البريطاني علىٰ وجه الأرض أن تبدأ مشوار ترسيخ نفسها في الفكر العالمي بمثل هذه الدعاية الضخمة، ولم تحظ أيٌ منهم بمثل هذا التدقيق الشديد والمراقبة الشغوف -من قبل الملايين من الناس- لأدنىٰ تفاصيلها».

- أدولف بيرلي (A. A. Berle)، ١٩١٨

«يميل الصهاينة المسيحيون إلىٰ الصهيونية اليهودية؛ لا باعتبارها خطوة تؤدي إلىٰ إدامة الوجود اليهودي؛ بل إلىٰ اختفائهم».

موريس جاسترو (Morris Jastrow)، ١٩١٩

«لقد استطاعت الصهيونية أن تعطي تجسّدًا عمليًّا، وتصنع تطبيقًا معترفًا به؛ لمبدأ كان لفترة طويلة يوجّه الرأي الإنجليزي بوعي أو بغير وعي».
ناحوم سوكولوف (Nahum Sokolow)، ١٩١٩

«تعاونت الصهيونية المسيحية واليهودية الصهيونية لإنشاء تحالف دولي يحّل محلّ أي شيء يقدّمه الناتو أو الأمم المتحدة».
دانيال لازار(Daniel Lazare)، ٢٠٠٣

«لنقلها بصراحة: إذا استثنينا جيش الدفاع الإسرائيلي، فقد يكون الصهاينة المسيحيون الأمريكيون هم الأصول الاستراتيجية النهائية للدولة اليهودية».
دانيال بايبس (Daniel Pipes)، ٢٠٠٣[(١)]

يحلو للصهاينة دومًا وصف تحركاتهم بأنها نابعة حصرًا من التاريخ اليهودي والتطلعات اليهودية والفكر القومي اليهودي، ويزعمون أن الصهيونية السياسية وقيام دولة إسرائيل كانا إنجازًا حتميًا للمسيانية (messianism) اليهودية، أي تلك الرغبة اليهودية المستوحاة من الكتاب المقدس منذ قرون في العودة إلىٰ فلسطين واستعادتها؛ كما تُعزَىٰ الصهيونية السياسية -حصرًا- إلىٰ تيودور هرتزل وأسلافه اليهود في القرن التاسع عشر، الذين وضعوا الرؤية العلمانية لـ «للعودة» اليهودية بحيث يمكن تحقيقها من خلال الجهود البشرية[(٢)]. إن هذا التأريخ مضلّل؛ لأنه يستبعد السوابق المسيحية للصهيونية، والصلات بينهما.

---

(1) Strauss, The Congress Addresses, 12; Berle, The World Significance, 15; Jastrow, Zionism and the Future of Palestine, 16; Sokolow, History of Zionism, 54; Lazare, "The Chosen: Ideological Roots," 80; Pipes, "Israel's Ultimate Strategic Asset."

(٢) من أبرز المفكرين اليهود في القرن التاسع عشر الذين دافعوا عن عودة اليهود: الحاخام يهودا القلعي، الحاخام تسفي هيرش كاليشر، موسىٰ هيس، بيرتس سمولينسكن، وليو بينسكر.

في العقود الأولىٰ من القرن التاسع عشر، اقترح السياسيون والكتاب البريطانيون والفرنسيون عدّة مخططات لإعادة اليهود إلىٰ فلسطين؛ وقد كان هدفهم السيطرة علىٰ الجسر البري المؤدي إلىٰ المحيط الهندي. واختيارهم أن يقرنوا هدفهم الإمبريالي بالعودة اليهودية، يعود لكون «الإيمان بالعودة وتحقيقها السريع كان منتشرًا بالفعل في بريطانيا»[١]، وقبل حوالي ثلاثة قرون، كان الإصلاح الديني قد ألحق تغييرات جذرية باللاهوت المسيحي، حيث صار اليهود مرة أخرىٰ هم «الشعب المختار»، ومن ثمّ أضحت فلسطين أرضًا موعودةً لليهود.

من نواحٍ عديدة، مهّدت حركة الإصلاح الديني شريحة مهمة من العالم المسيحي -خاصة بريطانيا وامتداداتها الخارجية التي ستهيمن علىٰ العالم بدءًا من القرن التاسع عشر- وأعدّتها لمناصرة عودة اليهود إلىٰ فلسطين. لطالما كانت هذه الفكرة محض هرطقة بالنسبة إلىٰ الكاثوليك الذين اعتقدوا أن اليهود لم يعودوا أهلًا لوعد الله بمجرد كفرهم بالمسيح؛ ومن هنا لم تكن الكنيسة الكاثوليكية تنظر إلىٰ فلسطين كميراث يهودي؛ لقد احترموها وطمعوا فيها بسبب ارتباطها بالمسيح وغيره من الرسل. شنّ الكاثوليك في العصور الوسطىٰ حربهم المقدسة لاستعادة السيطرة علىٰ فلسطين من أجل المسيحيين، وليس لإعادتها لليهود؛ بل بمجرد استيلائهم علىٰ القدس، كان سكانها اليهود في طليعة قتلىٰ الصليبيين الأوائل.

يمثّل الإصلاح الديني حدًّا فاصلًا في تاريخ الغرب اللاتيني؛ فبعد الإطاحة بسلطة الكنيسة الكاثوليكية، وقع انقسام ديني عميق في أوروبا الغربية أدّىٰ إلىٰ قرون من الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت؛ وسرعان ما انقسم البروتستانت أنفسهم إلىٰ طوائف، ولم يمضِ وقت طويل حتىٰ استُخدِمت هذه الانقسامات اللاهوتية لتلبية احتياجات الدول القومية الناشئة حديثًا، كما أرسىٰ

(1) Vreté, "The Restoration of the Jews," 3.

الإصلاح الديني الأساس لعلاقة «تقارب» جديدة بين اليهود والعديد من الطوائف البروتستانتية الجديدة. وإبان معركتهم ضد سلطة الكنيسة الكاثوليكية، سعىٰ البروتستانت لضم اليهود كحلفاء سياسيين؛ وفي بعض الدوائر، سارت محاباة السامية جنبًا إلىٰ جنب مع معاداة الكاثوليكية(١)، والأهم من ذلك، أن رفض البروتستانت للكنيسة الكاثوليكية كرمز لسلطان الله في الأرض فتح المجال أمام الاعتقاد اللاهوتي بأن الله قد قطع وعدًا لليهود واختارهم؛ ومن هنا كان البروتستانت علىٰ استعداد للاعتراف باليهود علىٰ أنهم شعب الله المختار، ولهم حقوق أبدية في فلسطين(٢).

إلا أن هذا التحوّل اللاهوتي لم يجلب ارتياحًا دائمًا لليهود، بل ربما يكون قد زاد من الاحتكاك بين البروتستانت واليهود، حيث كان البروتستانت يأملون ويصلون ويعملون بحماس أكبر من الكاثوليك من أجل «خلاص» شعب الله المختار. ومع ذلك، فبعد أن وصلت العلاقات إلىٰ أدنىٰ نقطة لها في منتصف القرن السادس عشر، أعاد اليهود تأسيس وجودهم في كثير من أوروبا الغربية بحلول نهاية القرن الثامن عشر(٣)، بالإضافة إلىٰ ذلك، فإن هذا اللاهوت الجديد

---

(١) رأىٰ البروتستانت الإنجليز -خصوصًا- اليهود باعتبارهم حلفاء ضد الكنيسة الكاثوليكية والأتراك.
Matar, Islam in Britain, 173-75.

(٢) جاء الدعم البروتستانتي لعودة اليهود -جزئيًا- من الاعتقاد بأنهم -بطريقة ما- سينتصرون علىٰ الإسلام والكاثوليكية قبل عودة اليهود إلىٰ فلسطين، بل إن اليهود سوف يتحولون إلىٰ المسيحية قبل المجيء الثاني.
matar, "The Restoration of the Jews," 23-36.

(٣) في منتصف القرن السابع عشر لم يكن هناك يهود يعيشون في إسبانيا والبرتغال وإنجلترا وفرنسا وأجزاء من ألمانيا، وبحلول نهاية القرن الثامن عشر، كان هناك ١٧٥,٠٠٠ يهودي في ألمانيا، وحوالي من ٤٠,٠٠٠ إلىٰ ٥٠,٠٠٠ في فرنسا، و٧٠,٠٠٠ في الإمبراطورية النمساوية، و٥٠,٠٠٠ في هولندا، و٢٥,٠٠٠ في بريطانيا.
malino, "Jewish Christian Relations," 208.

-وما تلاه من تفسيرات جديدة- قد وضع أسس الصهيونية المسيحية، والتحالف بين البروتستانت واليهود ضد العالم الإسلامي.

لم يألُ البروتستانت جهدًا من أجل إبعاد أنفسهم عن الكاثوليك، حتىٰ لو تطلَّب الأمر تهويد المسيحية. كتب برنارد لازار (Bernard Lazare) عام ١٨٩٤، أن هذه الحركة الجديدة ضاربة «بجذورها في المصادر العبرية، لقد انتصرت الروح اليهودية باندماجها مع البروتستانتية؛ حتىٰ أنه في بعض النواحي، كان الإصلاح الديني بمثابة عودة إلىٰ الأبيونية القديمة[١] في العصور المسيحية الأولىٰ»[٢]. حلّت القدس محل روما في الخيال واللاهوت البروتستانتي، واستُبدِل البابا والقديسون الكاثوليك بالأنبياء العبرانيين والملوك المحاربين، حتىٰ أن بعض قساوستهم قرأ العهد القديم بالعبرية[٣]، ونتيجة لذلك، فقدت الأناجيل بريقها الرمزي السابق بسبب افتتان البروتستانت بأنبياء ونبوءات العهد القديم وصراعات آخر الزمان[٤]، كما كان العنف والنزعة العرقية في روايات الغزو في العهد القديم متوافقة -بشكل أفضل- مع الحروب المتكررة التي تشنّها الدول البروتستانتية، بالإضافة إلىٰ طموحاتها الاحتلالية في الأمريكيتين وأفريقيا وآسيا.

---

(١) الأبيونية القديمة (the ancient Ebionism) مصطلح يشير إلىٰ حركة مسيحية يهودية تواجدت في العصور الأولىٰ للمسيحية، وكانت تنظر إلىٰ يسوع علىٰ أنه الماشيح وتنكر ألوهيته، وتصر علىٰ اتِّباع الشريعة اليهودية، ولا يؤمنون إلا بأحد الأناجيل المسيحية اليهودية، ويبجّلون يعقوب البار، ولا يعترفون ببولس الذي يعتبرونه مرتدًّا عن الديانة. وقد ارتبط اسم هذه الطائفة «بالفقر» حيث وردت الإشارة إليهم بلفظ «الفقراء» في مخطوطات وادي قمران التي نأت بهم عن إفساد الهيكل. (المترجم).

(2) Lazare, Anti-Semitism, 76.

كان الإبيونيون طائفة مسيحية تهويدية مبكرة في فلسطين، واحتفظوا بالأحكام الفقهية، والطقوس اليهودية كجزء من ممارستهم.

(٣) «كانت اللغة العبرية دراسة مفضلة لدىٰ القساوسة البيوريتان، الذين ركزوا كثيرًا علىٰ آمال ووعود من الكتاب المقدس والأعمال الحاخامية».

sokolow, History of Zionism, 40.

(4) Ould-Mey, "The Non-Jewish Origin of Zionism," 2.

ذهب البيوريتانيون الإنجليز إلىٰ أبعد من ذلك في ميولهم اليهودية؛ فقد عمّدوا أطفالهم بأسماء العهد القديم، وحاولوا نقل عطلتهم الدينية إلىٰ يوم السبت بدلًا من الأحد، ووصل الأمر ببعضهم إلىٰ رفض ألوهية المسيح، واعتنق عدد قليل منهم اليهودية[1]، في الواقع -وفقًا لأحد الصهاينة البارزين- اعتبر البيوريتانيون تاريخهم «استمرارًا، وحياتهم الخاصة انعكاسًا، وإنجازاتهم الخاصة تحقيقًا؛ لتجربة فلسطين قبل قرون مضت، وذلك لأنهم كانوا يهودًا بالفعل»[2].

علىٰ عكس الكاثوليك الذين تجنبوا نبوءات نهاية العالم في المسيحية المبكرة، بدأ البروتستانت في وضع رؤية لنهاية العالم مستوحاة من القراءة الحرفية لنبوءات العهد القديم؛ وبالفعل في القرن السابع عشر، كان الاعتقاد السائد في إنجلترا هو أن المجيء الثاني للمسيح سوف يسبقه تجمع كل اليهود في فلسطين، وقام ناحوم سوكولوف (Nahum Sokolow) -وهو صهيوني بارز- بتوثيق اهتمام مجموعة متنوعة من الشخصيات البروتستانتية البارزة -بما في ذلك جون سادلر (John Sadler) وهو صديق مقرب لكرومويل-، وجون ميلتون (John Milton)، وإسحاق دي لا بيرير (Isaac de la Peyrère) وهو باحث فرنسي بروتستانتي بارز، وآخرون- بالعودة اليهودية خلال القرن السابع عشر، كتب ناحوم سوكولوف: «في وقت مبكر من القرن السابع عشر، أصبح الاهتمام الإنجليزي بعودة اليهود عميقًا وعامًّا، حيث قدّمت إنجلترا الحافز الأول للصهيونية»[3]. وفي عام ١٦٤٨، قدم اثنان من البيوريتان الإنجليز في أمستردام التماسًا إلىٰ الحكومة الإنجليزية لإلغاء القانون القاضي بطرد اليهود من إنجلترا، وأعربوا في هذه العريضة عن أملهم في «أن تكون هذه الأمة الإنجليزية -مع سكان هولندا- هي **الأولىٰ والأكثر استعدادًا**

---

(1) Ould-Mey, "The Non-Jewish Origin of Zionism," 6.

(2) Roth, Essays and Portraits, 13, quoted in Ingram, "Christian Zionism," 4.

(3) Sokolow, History of Zionism, 40-46, 53.

لنقل أبناء وبنات إسرائيل في سفنهم إلىٰ الأرض التي وعد بها أجدادهم، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فإنها ميراثهم الأبدي»[1] [التسويد مضاف].

حتىٰ فلاسفة وعلماء عصر التنوير لم يكونوا محصنين ضد النبوءات البروتستانتية الجديدة لنهاية العالم. كتب جون لوك (John Locke): «إن الله قادر علىٰ أن يجمع اليهود في جسد واحد . . . ويمنحهم ازدهارا وتقدما في أرضهم»[2]، كما كان لدىٰ إسحاق نيوتن أيضًا اهتمام عميق بالنبوءات الكتابية المتعلقة بعودة اليهود، فبعد قراءة حرفية للعهد القديم، اعتقد أن اليهود هم شعب مختار، وأن عهد الله معهم كان أبديًا، وسرد مقاطع من الكتاب المقدس تتنبّأ بعودة اليهود إلىٰ فلسطين؛ إلا أنه -علىٰ عكس معاصريه- كان يعتقد أن هذا الحدث لا يزال علىٰ بعد قرون[3]. باختصار: كانت عودة اليهود إلىٰ فلسطين أساسية لفهم نيوتن لنهاية العالم.

مرت حماسة البيوريتانيين الإنجليز بفترة تدهور في القرن الثامن عشر إزاء صعود عقلانية عصر التنوير، لكن خلال القرن التاسع عشر، هيمنت علىٰ إنجلترا الأفكار البروتستانتية التي استعادت طاقة الأصولية البيوريتانية[4]. نظر البروتستانت الإنجليز إلىٰ الكتاب المقدس علىٰ أنه كلام الله الفعلي، وقرؤوه قراءة حرفية؛ كما تبنّوا نظرة تدبيرية لنهاية العالم -التي طوّرها الواعظ الأنجلو إيرلندي، جون نيلسون داربي (John Nelson Darby)- حيث قسّموا التاريخ البشري إلىٰ سبع حقب؛ وتنصّ عقيدتهم في القيامة علىٰ وجود زمن تكثر فيه المشاكل المتزايدة -تتزامن مع تجمّع يهود العالم في فلسطين- وتبلغ ذروتها في المجيء الثاني، ثم هزيمة غير المؤمنين بالمسيح، ثم تحّل ألفية السلام. استطاعت هذه الميول

---

(1) Sharif, "Christians for Zion," 125.

(2) Sharif, Non-Jewish Zionism, 36.

(3) Snobelen, "The Mystery of this Restitution," 95-118.

(4) Sharif, "Christians for Zion," 127.

اليهودية في المسيحية البروتستانتية -في نسخها البيوريتانية والبروتستانتية والتدبيرية- أن تشقّ طريقها عبر المحيط لتستقر في الولايات المتحدة، حيث كان العديد من المستوطنين الأوائل مقتنعين أنهم بمثابة «العبرانيين الجدد»، وأن القارة الأمريكية هي «كنعان»، وعليهم غزوها وتحويلها إلىٰ إسرائيل جديدة.

طرح جون نيلسون داربي لاهوته التدبيري خلال عدّة رحلات إلىٰ الولايات المتحدة، في منتصف القرن التاسع عشر، حيث اكتسب عددًا كبيرًا من الأتباع خاصة بين المشيخيين والمعمدانيين، وفيما بعد، تولّىٰ شرح أفكاره ونشرها دوايت مودي (Dwight Moody)، وسايروس سكوفيلد (C. I. Scofield)، وويليام يوجين بلاكستون (William Eugene Blackstone). في عام ١٩١٠، نشر سكوفيلد مرجعًا لدراسة الكتاب المقدس، وهو ترجمة تفسيرية للكتاب المقدس، والتي قدمت عقيدة التدبيريين في نهاية العالم طبقًا لمفهوم جون داربي، وسرعان ما أصبح الكتاب هو المصدر الوحيد، والأكثر تأثيرًا للتعاليم التدبيرية، وقد بيع منه أكثر من مليوني نسخة حتىٰ الآن، أما ويليام بلاكستون فقد بدأ أثناء حملاته التبشيرية -من خلال كتب مثل «يسوع قادم (Jesus Is Coming)»، الذي بيع منه ملايين النسخ- حملة نشطة لإقناع حكومة الولايات المتحدة باتخاذ خطوات حثيثة من أجل «عودة» اليهود إلىٰ فلسطين. وفي عام ١٨٩١ أرسل عريضة إلىٰ الرئيس بنيامين هاريسون (Benjamin Harrison) ووزير الخارجية جيمس بلين (James G. Blaine)، تحمل ٤١٣ توقيعًا -تُعرف الآن باسم عريضة بلاكستون- يحثهم فيها علىٰ استخدام «كافة مساعيهم الحميدة وعلاقاتهم مع حكومات العالم الأوروبي لعقد مؤتمر دولي في وقت مبكر للنظر في حالة الإسرائيليين، ومطالبهم بفلسطين كوطنهم القديم»[1]، ويمكننا أن نرىٰ القبول الواسع لهذه العريضة بين النخب الأمريكية من خلال هويّة الموقّعين عليها، فقد كان منهم الرئيس السابق ورئيس المحكمة العليا ورئيس مجلس النواب جون دي روكفلر

(1) Davidson, America's Palestine, 8.

(John D. Rockefeller)، وجون بيربونت مورغان (J. P. Morgan)، وأعضاء الكونغرس، ومحرري جميع الصحف الرئيسية في الولايات الخمسة التي وُزعت فيها العريضة[1]. وفي عام ١٩٠٣ قدّم بلاكستون عريضة أخرىٰ إلىٰ الرئيس روزفلت، وثالثة إلىٰ الرئيس ويلسون في يونيو ١٩١٧، قبل بضعة أشهر من صدور وعد بلفور[2].

في عام ١٩١٦، عندما اكتشف القاضي برانديز (Brandeis) عريضة بلاكستون، عمل بجد لتجميع سبع وأربعين صفحة من الملاحظات المكتوبة بخط اليد علىٰ هذه الوثيقة، وفي الوقت نفسه، بدأ برانديز وبلاكمان مراسلات استمرت حتىٰ وفاة بلاكستون في عام ١٩٣٤، وفي عام ١٩١٦ كتب ناثان ستراوس (Nathan Straus) -وهو فاعل خير وصديق للقاضي برانديز- إلىٰ بلاكستون يبلغه أن القاضي برانديز «مفتون تمامًا بالعمل الذي قمت به مناصرة للصهيونية . . . في الواقع، إنه يتفق معي في أنك أبو الصهيونية، لأن عملك يسبق عمل هرتزل»[3].

اعترف صهيوني واحد علىٰ الأقل بالفضل الذي يدين به الصهاينة للبيوريتان الإنجليز والبروتستانت، فكتب ناحوم سوكولوف عام ١٩١٩ أن المسيحيين الإنجليز هم من «وضعوا المبادئ الأساسية للقومية اليهودية»[4]، فقبل هيس وبنسكر وهرتزل بوقت طويل، كان هؤلاء المسيحيون يؤكدون علىٰ القومية اليهودية، وعقيدة الاختيار اليهودي، وحقهم الإلهي في «العودة» إلىٰ فلسطين؛ والأهم من ذلك، أنهم استمروا في إقامة صلة حيوية بين عودة اليهود وقوة الأمم الغربية[5]، وأصرّوا علىٰ أن الواجب الديني يملي علىٰ الأمم البروتستانتية

---

(1) King, "William Eugene Blackstone."

(2) Prior, "Israel-Palestine," 69.

(3) Merkley, The Politics of Christian Zionism, 89.

(4) Sharif, "Christians for Zion," 123.

(٥) بدأ هذا الارتباط منذ عام ١٦٤٩ في التماس إلىٰ الملك الإنجليزي، قدمه اثنان من البيوريتان الإنجليز الذين كانوا يعيشون في أمستردام آنذاك. وجاء في الالتماس: «إن أمة إنجلترا، مع سكان =

استخدام مواردها لدعم عودة اليهود. في القرن التاسع عشر، عندما دفعت المصالح الاستراتيجية والاقتصادية للدول الغربية إلىٰ التركيز -بشكل متزايد- علىٰ الإمبراطورية العثمانية العجوز؛ ازدادت صراحة الصهاينة المسيحيون في التعبير عن أهدافهم، وفي عدة مناسبات -أثناء وبعد الحرب العالمية الأولىٰ- استخدم المسيحيون الصهاينة في بريطانيا مناصبهم الرسمية لدفع بلادهم إلىٰ تبني وجهة نظر إيجابية تجاه المزاعم الصهيونية. ليس من السهل إطلاقًا تجاهل الشكوك القائلة بأن الميول الصهيونية القوية للحكومة البريطانية التي تولّت السلطة في ديسمبر ١٩١٦ كانت عاملًا هامًا في قرار بريطانيا بدعم الطموحات الصهيونية.

لم يكتف الصهاينة المسيحيون واليهود بتنشيط بعضهم البعض عن بعد فقط، بل عزّزوا بعضهم البعض من خلال الاتصالات المباشرة أيضًا. لقد بدأت هذه الجهود التعاونية في وقت مبكر جدًّا؛ ففي عام ١٨٤٨، عندما سعىٰ مردخاي مانويل نوح (Mordecai Manuel Noah) إلىٰ عودة اليهود إلىٰ ما سماه «يهودا جديدة» تحت حماية القوىٰ الغربية، قدّم خطته إلىٰ جماهير غالبها من المسيحيين الصهاينة. وفي عامي ١٨٧٩ و١٨٨٢، شارك السير توماس أوليفانت (Thomas Oliphant) -الصحفي السابق والدبلوماسي البريطاني- في مفاوضات فاشلة في إسطنبول لتسهيل الهجرة اليهودية إلىٰ فلسطين، متوقعًا بذلك الجهود الدبلوماسية التي سيضطلع بها فيما بعد تيودور هرتزل، كما تمكّن هرتزل من الوصول إلىٰ رجال الدولة الألمان من خلال جهود ويليام هنري هيشلر (William H. Hechler)، وهو مسيحي صهيوني[1]. وفي هذا الصدد -أيضًا- كان هناك تعاون مثمر ومستمر بين حاييم وايزمان والمسيحيين الصهاينة في بريطانيا، قبل وبعد صدور وعد بلفور.

= هولندا، ستكون الأولىٰ والأكثر استعدادًا لنقل أبناء وبنات إسرائيل في سفنهم إلىٰ الأرض الموعودة لأجدادهم، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، إنها ميراثهم الأبدي».

sharif, “Christians for Zion,” 125.

(1) Shimoni, The Zionist Ideology, 61, 64.

كان هناك تعاون غير رسمي بين اليهود والمسيحيين الصهاينة في الولايات المتحدة؛ ونرىٰ ذلك في المراسلات الطويلة بين ويليام بلاكستون والقاضي برانديز؛ لكنهم دعموا بعضهم البعض أيضًا من خلال تأسيس منظمتين مؤثرتين: اللجنة الأمريكية الفلسطينية (APC) والمجلس المسيحي لفلسطين، تأسست الأولىٰ في عام ١٩٣٢ من قبل قادة الصهاينة اليهود الأمريكيين، وذلك بعد أن أبدىٰ البريطانيون تراجعًا جزئيًّا عن وعد بلفور في الوثيقة البيضاء لباسفيلد عام ١٩٣٠، وكان هدفها تنظيم الدعم المسيحي للصهيونية، وبعد فترة من الخمول انتعشت المنظمة مرة أخرىٰ في عام ١٩٤١، وسرعان ما تضمنت عضويتها ٧٠ من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي، و١٢٠ عضوًا في الكونغرس، والمدعي العام، ووزير الداخلية، و٢١ حاكم ولاية، والعديد من القادة المدنيين والدينيين والعماليين البارزين؛ وسرعان ما التحق بهم المحافظون ورؤساء البلديات وأعضاء المجالس التشريعية للولايات وغيرهم من الشخصيات العامة البارزة. والأهم من ذلك، أن هذه المنظمة ومنظمات أخرىٰ من المسيحيين المؤيدين للصهيونية نسّقوا دعم الصهيونية في صفوف النخب، كما سعىٰ أعضاء اللجنة الأمريكية الفلسطينية -الذين بلغ عددهم في النهاية حوالي ١٥٠٠٠- إلىٰ حشد الدعم الشعبي للصهيونية من خلال المشاركة في الخطابات المجتمعية المتكررة[١]، ومن خلال العمل الدؤوب مع القيادة اليهودية للصهيونية الأمريكية، أنشأ المفكرون البروتستانت البارزون -بما في ذلك شخصيات بارزة مثل بول تيليش (Paul Tillich) ورينولد نيبور (Reinhold Niebuhr)- المجلس المسيحي لفلسطين في عام ١٩٤٢ لتعزيز الأهداف الصهيونية بين رجال الدين البروتستانت[٢]، ونشر المجلس رسالته من خلال المؤتمرات والندوات والمطبوعات.

---

(1) Merkley, The Politics of Christian Zionism, 100-106; Davidson, America's Palestine, 158-59.

(2) Prior, Zionism and the State of Israel, 142; Stone, Professor Reinhold Niebuhr, 262.

من أجل فهم أهمية حركة الإصلاح الديني بالنسبة لمسيرة الصهيونية السياسية، من المهم النظر بإيجاز في موقف الكنيسة الكاثوليكية من هذه الحركة. استقبل البابا ليو الثالث عشر تيودور هرتزل في كانون الثاني/يناير ١٩٠٤ بعد ثلاث سنوات من سعيه إلىٰ هذه المقابلة لأول مرة؛ لكن البابا رفض تأييد الصهيونية، وقال لهرتزل: «لا يمكننا منع اليهود من الذهاب إلىٰ القدس، لكن لا يمكننا أبدًا الموافقة علىٰ ذلك»؛ اللافت للنظر -وفقًا لشهادة هرتزل عن هذا الاجتماع- أن البابا أضاف قائلا: «إذا ذهبت إلىٰ فلسطين واستقر شعبك هناك، فسيكون لدينا ما يكفي من الكنائس والكهنة علىٰ استعداد لتعميدكم جميعًا»، ومرةً أخرىٰ، عارض الكاردينال بيترو جاسباري (Pietro Cardinal Gasparri) -وزير الدولة لدىٰ البابا- وعد بلفور والانتداب البريطاني علىٰ فلسطين، وفي مارس ١٩٢٢ قال الكاردينال بأن الخطة الصهيونية ستؤسس «هيمنة اقتصادية وإدارية وسياسية مطلقة لليهود»، و«ستعمل كأداة لإخضاع السكان الأصليين»؛ ومع ذلك، فضّل البابا أن يرىٰ «قوة ثالثة، لا يهودية ولا عربية»، تسيطر علىٰ فلسطين(١)، ومن المفترض أن تكون هذه «القوة الثالثة» مسيحية غربية.

لقد خلق الإصلاح البروتستانتي ما هو أكثر بكثير من مجرد مناخ عام يفضّل انطلاق الصهيونية ونجاحها؛ لقد عمل البروتستانت من مختلف الطوائف لما يقرب من ثلاثة قرون -قبل أن يطلق تيودور هرتزل الحركة القومية اليهودية- علىٰ نشر فكرة العودة اليهودية، وجعلوها جزءًا من التصوّر البروتستانتي لنهاية العالم، ولفتوا انتباه الحكومات الغربية إلىٰ هذا المخطط، وبعد ذلك بذلوا جهودًا ضخمة لدمجه في جدول الأعمال السياسي لبريطانيا والولايات المتحدة؛ وبدون هذا التمهيد، وبدون الدعم الواسع الذي خلقه الصهاينة المسيحيون لعودة اليهود،

---

(1) Prior, Zionism and the State of Israel, 106.

وبدون الاهتمام الذي أبدته الحكومات الغربية خلال أوائل القرن التاسع عشر في إعادة بناء الأمة اليهودية؛ ربما كان علىٰ الصهاينة اليهود أن يكافحوا بجدٍ أكبر لإطلاق مشروعهم وإتمامه. لقد أدىٰ الدعم البروتستانتي للقضايا الصهيونية -خاصة في العقود الأخيرة- إلىٰ تعزيز قدرة اللوبي اليهودي علىٰ تشكيل السياسات الأمريكية تجاه الشرق الأوسط.

الفصل الرابع عشر
ملخص

«إن الهدف الرئيسي هو الاستيلاء علىٰ أرض إسرائيل -في الوقت المناسب-، وإعادة اليهود إلىٰ استقلالهم السياسي الذي حرموا منه طوال ألفي عام. سوف يقوم اليهود حينها -والأسلحة في أيديهم (إذا لزم الأمر)- ليعلنوا أنهم سادة وطنهم القديم».
فلاديمير دوبناو (Vladimir Dubnow)، ١٨٨٢[١]

إن أفضل وصف للصهيونية هو أنها قومية «استثنائية»؛ وقد أنتجت هذه الحقيقة الفريدة تاريخًا من الصراعات العميقة بين إسرائيل -بالتحالف مع المجتمعات الغربية- والمجتمع الإسلامي بشكل عام.

كانت «القومية» اليهودية حالة غريبة لسببين؛ فقد كانت بلا أرض، أي لم يكن لها وطن، فلم يكن يهود أوروبا يشكّلون أغلبية في أي منطقة يمكن أن تصبح أساسًا لدولة يهودية أو حتىٰ السيطرة عليها، ولا نعرف حركة قومية أخرىٰ في الذاكرة الحديثة بدأت بمثل هذا العجز: أمة بلا وطن.

يمكن القول إن القومية اليهودية كانت بدون أمّة أيضًا؛ فقد كان اليهود عبارة عن جماعة دينية، تتكون من تكتلات منتشرة في العديد من المناطق

---

(١) كان فلاديمير دوبناو من أوائل المستعمرين اليهود .Benny Morris, Righteous Victims, 49

والبلدان، ولم يكونوا مترابطين بشكل كبير، إلا أنهم تشاركوا التقاليد الدينية المستمدة من اليهودية أو الهوية المرتبطة بها. علىٰ مر القرون، لُقِّن اليهود أن الله سيرسل مخلّص (Messiah) ليعيدهم إلىٰ صهيون، لكن مثل هذا المخلص لم يظهر قط؛ وعندما قيل إنه ظهر، فإن فشله في تحقيق هذا الوعد «أثبت» أنه مدعٍ كاذب. لقد كان اليهود يصلون من أجل ظهور المخلص، لكن لم يكن لديهم أي فكرة عن موعد حدوث ذلك. بالإضافة إلىٰ ذلك، منذ القرن التاسع عشر، فسّر اليهود الإصلاحيون عقيدة الاختيار علىٰ أنها تعبير مجازي؛ حتىٰ اشتكىٰ ماكس نورداو (Max Nordau) بمرارة من أن اليهودي الإصلاحي «لم يكن يرىٰ فرقًا بين كلمة صهيون وكلمة شتات . . . فهو ينفي وجود شعب يهودي، وينكر أنه ينتمي إليه»[1].

ونظرًا لأن الصهيونية كانت قومية بلا وطن وبلا أمة، فقد تعين علىٰ من تولوا كِبَرها خلق الاثنين. ولتعويض النقص الأول، تعيّن علىٰ الصهاينة الحصول علىٰ وطن، وفي سبيل ذلك سيضطرون إلىٰ مصادرة الأراضي التي تخص شعبًا آخر. بعبارة أخرىٰ: كانت القومية المشردة تقتضي بالضرورة شنّ حرب، و-إذا كانت إقصائية- الشروع في عمليات تطهير عرقي، وفي الوقت نفسه، تعين علىٰ الصهاينة البدء في تكوين أمة يهودية من التكتلات اليهودية غير المتجانسة التي كانت ستشكّل حجر أساس وطنهم الجديد. علىٰ الأقل، سيتوجب عليهم خلق نواة من اليهود الذين كانوا علىٰ استعداد للاستقرار في فلسطين، وملتزمين بإنشاء البنية التحتية لمجتمع ودولة اليهود في فلسطين. ولسنوات عديدة، كانت هذه النواة صغيرة؛ لأن اليهود -بأغلبية ساحقة- فضّلوا سلوك طريق الاندماج، أو الثورة في أوروبا علىٰ احتلال فلسطين.

لن تتحوّل هذه النواة الصغيرة إلىٰ أمة يهودية إذا لم يتمكن الصهاينة من إثبات أن مخططهم لم يكن أضغاث أوهام؛ ولكي تعبَر الخطة الصهيونية من

---

(1) Nordau and Gottheil, Zionism and Anti-Semitism, 13.

الوهم إلىٰ الواقع، يجب أن تزامن ثلاثة أحداث: فرض قيود مشدّدة علىٰ الهجرة في معظم الدول الغربية ابتداء من القرن العشرين، وصدور وعد بلفور عام ١٩١٧، وصعود النازيين إلىٰ السلطة في عام ١٩٣٣. نتيجة لذلك، وعندما بدأ يهود أوروبا في الفرار من الاضطهاد النازي، لم يكن لدىٰ معظمهم مكان يذهبون إليه سوىٰ فلسطين.

في محاولتهم إقامة دولة يهودية في فلسطين، لم يكن بإمكان الصهاينة التوقّف عند أنصاف الحلول؛ فلم يتمكّنوا -ولم يرغبوا- في التصريح بأن التركيبة السكانية في الدولة اليهودية لن تضمّ سوىٰ عنصر واحد هو اليهود. لقد سعىٰ الصهاينة إلىٰ إقامة دولة يهودية في فلسطين، وكان هذا دائمًا هدفهم، لكن من الناحية الرسمية، لم يعترفوا أبدًا بأن إنشاء الدولة اليهودية يجب أن يسبقه أو يرافقه أو يتبعه تطهير عرقي، ومع ذلك، يتضح من السجل المتوفر بين أيدينا الآن أن الصهاينة لم يكونوا يطمحون في أقل من جعل فلسطين «يهودية مثلما أن إنجلترا إنجليزية»[(١)]، وإذا لم يكن من الممكن رشوة الفلسطينيين وإقناعهم بالمغادرة، فسيتعين إجبارهم علىٰ الخروج.

كان الصهاينة مصممين علىٰ استعادة الاستعمار الاستيطاني الإقصائي الذي كان سائدًا في حقبة سابقة وتطبيقه في منتصف القرن العشرين، كما كانوا مصممين علىٰ تكرار تاريخ تفوق المحتلين البيض في الأمريكيتين وأوقيانوسيا. بمقياس أي حقبة تاريخية -ناهيك عن عصر أفول الاستعمار- كان مصير الفلسطينيين -الذي خطط له المشروع الصهيوني- مسرفًا في التطرّف، فقد عزموا علىٰ تهجيرهم بالكامل من فلسطين. إن مثل هذا المشروع الجريء والمتطرف

---

(١) إذا لم يكن التطهير العرقي للفلسطينيين هو الهدف الأساسي للصهاينة الأوائل -بالرغم من وجود مؤشرات قوية علىٰ عكس ذلك- فإنهم سيبدؤون في التفكير في هذا الهدف عند ظهور أولىٰ علامات المقاومة الفلسطينية لمشروعهم الاستعماري.

للغاية، والموجود في غير زمنه؛ يمكن أن ينبثق حصرًا من غطرسة هوجاء، وازدراء عنصري عميق، وقناعة صلبة بأن الفلسطينيين «البدو» يفتقرون تمامًا إلىٰ القدرة علىٰ مقاومة تجريدهم من ممتلكاتهم. واجه الصهاينة تحديًّا آخر، فقد كان عليهم إقناع اليهود بأنهم أمة يهودية تستحق أكثر من أي أمة في العالم -بسبب الجذور التاريخية العريقة لليهود- ويجب أن تكون لهم دولتهم الخاصة، أي: دولة يهودية في فلسطين. لذلك كان من واجب اليهود العمل من أجل خلق هذه الدولة اليهودية من خلال دعم الصهيونية، و-الأهم من ذلك- عن طريق الهجرة إلىٰ فلسطين. لم يكن لدىٰ معظم اليهود في الدول الغربية المتقدمة اهتمام كبير بأن يصبحوا مستوطنين في فلسطين؛ فقد تحسّنت حياتهم بشكل كبير في الجيلين أو الأجيال الثلاثة الماضية، ولم يتوقعوا أي تهديدات خطيرة من معاداة السامية. وصحيح أن اليهود في أوروبا الشرقية واجهوا تهديدات خطيرة لحياتهم وممتلكاتهم من معاداة السامية، لكنهم فضّلوا أيضًا الانتقال إلىٰ دول أكثر أمانًا وازدهارًا في أوروبا الغربية والأمريكيتين وجنوب أفريقيا وأستراليا. ومن هنا تبيّن أن إقناع اليهود بالانتقال إلىٰ فلسطين مهمة أصعب بكثير من فتح فلسطين لاحتلال يهودي غير محدود؛ فاحتاجت الصهيونية إلىٰ دعم من معاداة السامية أقوىٰ مما قدموه حتىٰ أوائل الثلاثينيات.

لقد فهم الصهاينة -دائمًا- أن حركتهم يجب أن تكون مدفوعة بمخاوف اليهود من معاداة السامية، كما كانوا متفائلين تمامًا بأن مثل هذه المساعدة لن تتوقف في وقت قريب، خاصة مع تصاعد معاداة السامية في أوروبا الشرقية. في الواقع، بعد أن أعلن الصهاينة عن برنامج سياسي لتخليص أوروبا من يهودها، كيف لأعداء السامية أن يرفضوا طلب بعض اليهود ضمنيًا مساعدتهم في إجلائهم من أوروبا؟ لقد كان هذا الوئام مع المعادين للسامية فتحًا مبينًا بالنسبة إلىٰ الصهيونية؛ وبمجرد أن زجّ الصهاينة -أيضًا- بالمعادين للسامية في لعبتهم الخلاصية (messianic) -تحت مسمىٰ المسيحيين الصهاينة-؛ أصبح هذا التحالف

أكثر اتساعًا وديمومة[1]، كما استطاع هذا التحالف الداعم لإسرائيل قلبًا وقالبًا وضع الأساس العميق للصراع مع العالم الإسلامي.

لقد كانت الصهيونية هجومًا خطرًا علىٰ تاريخ المقاومة العالمية للإمبريالية التي ظهرت بمجرد أن وضع المحتلون اليهود في فلسطين أسس دولتهم الاحتلالية الاستيطانية. لقد سعىٰ الصهاينة لمحو واقع الشرق الأوسط الذي أسّسه الإسلام علىٰ مدىٰ ثلاثة عشر قرنًا؛ كما سعوا إلىٰ قلب التركيبة السكانية لفلسطين، وزرع جرثومة أوروبية في قلب العالم الإسلامي، والعمل كصمام أمان للقوىٰ الغربية العازمة علىٰ السيطرة علىٰ الشرق الأوسط. لم يكن للصهاينة أن ينجحوا إلا من خلال الجمع بين قوىٰ الغرب المسيحي واليهودي في هجوم لا تخطئ عين الناظر فيه أنه حملة صليبية جديدة لإخضاع الشعوب الإسلامية في الشرق الأوسط.

من الحماقة بمكان افتراض أن التحدي الصهيوني للعالم الإسلامي لن يثير ردة فعل جامحة. لقد كان توقيت هجومهم -إضافة إلىٰ كل العوامل الأخرىٰ التي كانت في صالحهم- عاملًا أساسيًا في نجاح الصهاينة في فرض دولتهم اليهودية علىٰ العالم الإسلامي؛ فقد كانت الدولة الإسلامية في أضعف حالاتها في العقود التي تلت تفكيك الإمبراطورية العثمانية؛ فقد استطاعت الإمبراطورية العثمانية العجوز أن تقاوم لأكثر من عقدين من الزمان الضغوط الصهيونية لمنحهم ميثاقًا لإنشاء دولة يهودية في فلسطين. افتقرت الموجة الأولىٰ من المقاومة العربية ضد إسرائيل -بقيادة القوميين العلمانيين من الطبقات البرجوازية الناشئة حديثًا- إلىٰ الهياكل اللازمة لشنّ حرب شعبية، وبالطبع لم تفوّت إسرائيل استغلال تلك الثغرة، واستطاعت بسرعة أن تفكّك الحركة القومية العربية، التي بدأت طبقاتها

---

(١) يلخّص الصحفي الإسرائيلي الأمريكي غيرشون كورنبرغ (Gershon Gorenberg) -بشكل جيد- كيف يتلاءم اليهود مع الرواية المسيحية الصهيونية لنهاية الزمان، وبحسب كورنبرغ، فإن المسيحيين الصهاينة «لا يحبون الشعب اليهودي حقيقة، إنهم يحبوننا كشخصيات لها دور في قصتهم وعقائدهم، وهذا ليس ما نحن عليه . . . وهذه الأدوار لن تعود بالفائدة علىٰ كلينا».

Clark, Allies for Armageddon, 228.

الحاكمة في تقديم تنازلات لإسرائيل وحلفائها الغربيين؛ إلا أن هذه الانتكاسة للمقاومة كانت مؤقتة.

استُبدِلت القومية العربية -ببطء- بمقاومة أخرىٰ تستند إلىٰ الجذور الإسلامية. إن هذه العودة إلىٰ الأفكار والهياكل الأصلية للإسلام ستضع أسس مقاومة متعددة الطبقات وأوسع وأعمق وأكثر مرونة من سابقتها. إن الطموحات الاحتلالية لإسرائيل -بترسيخ هيمنتها علىٰ الأراضي المركزية للعالم الإسلامي- هي ما ضمن ظهور هذا اللون الجديد من المقاومة؛ حيث أدىٰ التقهقر السريع الذي مُنِيت به المقاومة القومية العربية في وجه الانتصارات الإسرائيلية إلىٰ ظهور رد فعل إسلامي أعمق؛ ونتيجة لذلك، تواجه إسرائيل اليوم -بالتحالف مع الحكّام العرب- غضب العالم الإسلامي بأكمله، تلك الكتلة الكبيرة من الطاقات البشرية، العازمة علىٰ إفساد هذا التحالف. إذا تذكّر المرء أن العالم الإسلامي قد أضحىٰ الآن مجتمعًا عالميًا، يتمتع بهيمنة ديموغرافية في منطقة تمتد من موريتانيا إلىٰ ميندناو، وتضم الآن أكثر من مليار ونصف شخص، يتجاوز معدل نموهم معدل أي مجموعة أخرىٰ؛ يمكن للمرء -بسهولة- البدء في فهم الحجم النهائي لهذه المقاومة الإسلامية ضد الهيمنة الصهيونية.

في الحقبة التي سبقت صعود النازيين، كانت الفكرة الصهيونية -حتىٰ من وجهة نظر يهودية- إهانة وتحريفًا لتاريخ يمتد لأكثر من ألفي عام؛ لقد بدأ اليهود في الهجرة إلىٰ أبعد النقاط في البحر الأبيض المتوسط، قبل وقت طويل من التدمير الثاني للهيكل، حيث استقروا وهوَّدوا العديد من الشعوب المحلية. وبمرور الوقت، أدّىٰ التحوّل إلىٰ اليهودية إلىٰ إنشاء مجتمعات يهودية في أماكن أبعد خارج عالم البحر الأبيض المتوسط؛ لتأتي عصابة من اليهود الأوروبيين في تسعينيات القرن التاسع عشر ويقترحوا خطة لإلغاء تاريخ هذه المجتمعات اليهودية العالمية الممتد لآلاف السنين. لقد كانوا مصممين علىٰ إنجاز ما فشلت في تحقيقه أعتىٰ موجات معاداة السامية: إفراغ أوروبا والشرق الأوسط من سكانهم

اليهود ونقلهم إلىٰ فلسطين، تلك الأرض التي تربطهم بها صلة روحية، تمامًا مثلما يرتبط المسلمون -في بنغلاديش والبوسنة وبوركينا فاسو- بمكة والمدينة. إلا أن الروابط العرقية أو التاريخية كانت غير موجودة أو ضعيفة في أحسن الأحوال؛ فهل كان اضطهاد اليهود في أوروبا قبل تسعينيات القرن التاسع عشر سببًا كافيًا لتبرير ذلك القلب الجذري للجغرافيا البشرية للسكان اليهود في العالم؟

انبثق تأثير أكثر خطورة من خصوصية أخرىٰ للصهيونية؛ فعلىٰ عكس المستوطنين البيض الآخرين، افتقر المحتلون اليهود إلىٰ دولة راعية من جنسهم، أي دولة يهودية يمكنها أن تدعم احتلالهم لفلسطين. في ظروف مماثلة، كانت مهمة أي مشروع احتلالي استيطاني ستنتهي قبل أن تبدأ. وبدلًا من ذلك، وبسبب الطريقة تغلّبوا بها علىٰ هذا العجز؛ حصل الصهاينة علىٰ الدعم المالي والسياسي والعسكري من معظم العالم الغربي؛ لم يكن هذا نتيجة مؤامرة، ولكنه انبثق من المكانة المميزة التي احتلها اليهود -في نهاية القرن التاسع عشر- في الخيال، والجغرافيا، والاقتصاد والأنظمة السياسية للعالم الغربي.

استمد الصهاينة دعمهم الأساسي من اليهود الغربيين، الذين كان العديد منهم بحلول منتصف القرن التاسع عشر أعضاء في أكثر القطاعات نفوذًا في المجتمعات الغربية. وبمرور الوقت، عندما انجذب اليهود الغربيون إلىٰ الصهيونية؛ أصبحت أصولهم المالية والفكرية الهائلة رهن إشارة المحتلين اليهود في فلسطين، كما انتقىٰ المحتلون اليهود قيادتهم -في مجالات السياسة، والاقتصاد، والصناعة، والتكنولوجيا المدنية والعسكرية، والتنظيم، والدعاية، والعلوم- من أفضل ما كان في أوروبا. لا يمكن الشك في أن المحتلين اليهود قد تمتعوا بمزايا ساحقة في مواجهاتهم مع الفلسطينيين والعرب المجاورين. لا يوجد محتلون آخرون -معاصرين للصهاينة أو في القرن التاسع عشر- تمتعوا بنفس المزايا لمشروعهم مقابل تدهور موارد السكان الأصليين.

قدّم اليهود الغربيون المؤيدون للصهيونية مساهمة أكثر أهمية في نجاح الصهيونية علىٰ المدىٰ الطويل؛ حيث قاموا بتعبئة مواردهم -مثل النخب المالية والفكرية والثقافية في المجتمعات الغربية- لدعم الصهيونية وقمع الانتقادات الموجهة لإسرائيل، وتوليد ضغوط سياسية محلية لتأمين دعم القوىٰ الغربية لإسرائيل. بعبارة أخرىٰ، فإن القدرة الصهيونية علىٰ تجنيد الحلفاء الغربيين اعتمدت بشكل حاسم علىٰ المكانة المرموقة التي حظي بها اليهود في خيال المجتمعات الغربية وتاريخها وجغرافيتها واقتصادها وسياساتها.

لطالما كان لليهود علاقة «خاصة» مع الغرب المسيحي، حتىٰ عندما كانوا هدفًا للكراهية المسيحية. كانت اليهودية في مكانة لا تحسد عليها بكونها ديانة قديمة نسختها أخرىٰ أحدث منها؛ ولقرون عديدة، كان المسيحيون ينظرون إلىٰ اليهود -الذين كانوا حتىٰ مجيء المسيح «شعب الله المختار»- بازدراء لكفرهم بالمسيح، ومع ذلك، دمجوا الكتب المقدسة اليهودية في أناجيلهم. يقع هذا التوتر في قلب التناقض الغربي تجاه اليهود، كما أنه أحد المصادر الرئيسية للكراهية المستمرة التي يضمرها المسيحيون لليهود.

بالإضافة إلىٰ ذلك، ابتداءً من القرن الخامس عشر، دخل البروتستانت في علاقة جديدة مع اليهودية واليهود. من نواحٍ عديدة، استمد البروتستانت عقيدتهم من قراءة حرفية للكتاب المقدس العبري، وأبدوا اهتمامًا أكبر بنبوءاته حول نهاية الزمان؛ كما أولىٰ لاهوت البيوريتان الإنجليز -علىٰ وجه الخصوص- دورًا خاصًّا لليهود في علامات اقتراب القيامة، حيث كان علىٰ اليهود أن يجتمعوا في القدس قبل المجيء الثاني للمسيح؛ ولاحقًا، حمل البروتستانت الإنجليز هذه العقيدة إلىٰ الولايات المتحدة. وبمرور الوقت، ومع النجاحات المتزايدة للصهيونية (اليهودية)، أصبح البروتستانت -ببطء- أكثر أنصارها المتحمسين في الولايات المتحدة. إن الوجه الآخر للصهيونية البروتستانتية هو الكراهية العميقة للإسلام والمسلمين.

والأهم من ذلك، أن دخول اليهود إلىٰ التيار الرئيسي للمجتمع الأوروبي -خلال القرن التاسع عشر- هو ما مهّد الطريق للتأثير الصهيوني علىٰ سياسات العديد من الدول الغربية الرئيسية، حيث استخدم الصهاينة بمهارة الوجود اليهودي في صفوف النخب الأوروبية لإقامة منافسة بين القوىٰ الغربية العظمىٰ -وخاصة بريطانيا وألمانيا وفرنسا- علىٰ كسب الدعم اليهودي في حروبهم مع بعضهم البعض وسعيهم لتقويض الحركات الثورية في أوروبا التي كان يهيمن عليها اليهود أيضًا. وبدءًا من الحرب العالمية الثانية، كان اليهود المؤيدون للصهيونية يبنون شبكة من المنظمات، ويطوّرون خطابهم، ويتولون مناصب قيادية في قطاعات مهمة من المجتمع المدني الأمريكي مستهدفين اكتساب القدرة علىٰ رسم الخريطة السياسية التي ستتعامل من خلالها الولايات المتحدة مع الشرق الأوسط.

بالصدفة -علىٰ ما يبدو- وجد اليهود المؤيدون للصهيونية أيضًا في متناول أيديهم مجموعة غنية من الطاقات السلبية في الغرب يمكنهم تسخيرها لمشروعهم الخاص. ربما كان تقارب مصالحهم مع مصالح معاداة السامية هو الأكثر ملاءمة، فقد كان أعداء السامية يريدون خروج اليهود من أوروبا، وهو عين ما أراده الصهاينة؛ ولذا أصبحت معاداة السامية هي الوقود الأساسي للقومية اليهودية التي سعىٰ الصهاينة إلىٰ خلقها. بالإضافة إلىٰ ذلك، يمكن للصهاينة حشد الدعم لمشروعهم من خلال اللعب علىٰ وتر التعصب الديني الغربي ضد المسلمين، وكذلك تحيّزهم العنصري ضد العرب باعتبارهم «أراذل»، لأنهم ليسوا بيضًا.

يحلو للصهاينة -من حين لآخر- تقرير أن مشروعهم يتماشىٰ -بشكل تام- مع المصالح الاستراتيجية للقوىٰ الغربية في الشرق الأوسط؛ إلا أن هذا الادّعاء فقد مصداقيته بحلول نهاية القرن التاسع عشر، عندما رسخت بريطانيا قدمها في مصر وكانت القوة المهيمنة في المحيط الهندي. في الواقع، كان من المؤكد أن يؤدي خلق دولة احتلالية يهودية في الجغرافية الإسلامية إلىٰ إثارة موجات من المقاومة من الشعوب الإسلامية؛ وعليه فلم تكن المصالح الغربية في الدولة

الإسلامية متوافقة بشكل إيجابي مع المشروع الصهيوني. ومع ذلك، سيؤدي إنشاء إسرائيل إلىٰ إثارة المشاعر المعادية للغرب في الشرق الأوسط، والتي من المتوقع أن يعمقها الصهاينة ويقدمونها كأساس منطقي لدعم وتسليح إسرائيل لحماية المصالح الغربية ضد التهديدات العربية، والتهديدات الإسلامية لاحقًا.

لقد كانت إسرائيل نتاج شراكة -تبدو غير مرجّحة للوهلة الأولىٰ- بين اليهود الغربيين والغرب المسيحي، وذلك بفعل الكيمياء القوية للفكرة الصهيونية التي أنتجت وحافظت علىٰ هذه الشراكة. امتلك المشروع الصهيوني لإقامة دولة يهودية في فلسطين القدرة علىٰ تحويل الخصمين التاريخيين -اليهود والأغيار- إلىٰ حلفاء متحدين في مشروع إمبريالي مشترك ضد العالم الإسلامي. لقد استغلّ الصهاينة كل الطاقات السلبية للغرب -إمبرياليته ومعاداة السامية وحماسته الصليبية والتعصّب الأعمىٰ ضد الإسلام والعنصرية- وركّزوها في مشروع جديد ألا وهو: إنشاء دولة غربية بديلة في قلب الحواضر الإسلامية. في الوقت نفسه، يمكن أن يوفّر نجاح المشروع الصهيوني ارتياحًا كبيرًا للغرب، حيث يمكن للمجتمعات الغربية أن تستفيد مباشرة من انتصارات هذه الدولة الاحتلالية، وأن تستمتع بها تمامًا كما لو كانت انتصارات لها؛ كما يمكنهم تهنئة أنفسهم للمساعدة في «إنقاذ» الشعب اليهودي؛ ويمكن أن يشعروا أنهم صحّحوا مسار تاريخهم في معاداة السامية؛ ويثلجوا صدورهم لأنه -أخيرًا- دفع العرب والأتراك ثمن غزواتهم علىٰ الأراضي المسيحية. يمكننا القول إن إسرائيل امتلكت قدرة رائعة علىٰ تغذية العديد من احتياجات الغرب الأنانية.

إذا كانت الغاية هي صعود اليهود إلىٰ مسرح تاريخ العالم، فلا وسيلة أنسب من المشروع الصهيوني. نظرًا لأن اليهود كانوا يتمتعون بالنفوذ، ولكن ليس لهم دولة خاصة بهم، كان علىٰ الصهاينة استخدام القوة الغربية في قضيتهم، وكلما تكشّفت الخطة الصهيونية شيئًا فشيئًا -بما فيها من إلحاق الأذىٰ بالمسلمين، وبما تثيره من غضبهم ضد الغرب واليهود-؛ فإن أوجه التكامل بين الخصمين

التاريخيين سوف تتعمق، وبمرور الوقت، ستُكْتَشف قواسم مشتركة جديدة بينهما، أو تُخترع إذا لزم الأمر. ستشجع الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة المسيحيين البروتستانت -الذين كانوا ينظرون إلىٰ ولادة إسرائيل علىٰ أنها تحقيق لنبوءات نهاية الزمان- علىٰ أن يصبحوا أنصارًا متعصبين لإسرائيل. حتىٰ ذلك الوقت، كان الغرب يعزو جذور أفكاره ومؤسساته المركزية إلىٰ روما وأثينا؛ لكن في أعقاب النجاحات الصهيونية، سيُنظر إلىٰ الغرب باعتباره حضارة يهودية مسيحية، استوحت مبادئها الأساسية من العهد القديم. إن هذا التحوّل في النظر إلىٰ الحضارة الغربية لن يؤكد الجذور اليهودية للعالم الغربي فحسب، بل سيعمل أيضًا علىٰ التأكيد علىٰ أن الإسلام هو «الآخر» الغريب، والخصم الأبدي لكليهما.

تدين الصهيونية بنجاحها لهذه الشراكة غير المتوقعة. لم يكن بإمكان الصهاينة إقامة دولة يهودية في فلسطين برشوة العثمانيين لمنحهم ميثاقًا لاستعمار فلسطين؛ فعلىٰ الرغم من عروضه المتعلقة بالقروض والاستثمارات والتكنولوجيا والخبرة الدبلوماسية، رفض السلطان العثماني تيودور هرتزل مرارًا وتكرارًا[١]، ومن غير المرجّح أن يكون الصهاينة -في أي وقت- قادرين علىٰ حشد جيش يهودي لغزو واحتلال فلسطين في ظل المعارضة العثمانية والعربية[٢]. لقد كانت الشراكة الصهيونية مع الغرب حجر الأساس لإنشاء دولة يهودية.

---

(١) التقىٰ تيودور هرتزل عدة مرات مع كبار المسؤولين العثمانيين، بمن فيهم السلطان، وعرض سداد ديونهم الخارجية مقابل ميثاق لاحتلال فلسطين. عرض العثمانيون هجرة يهودية محدودة إلىٰ جميع مقاطعات الإمبراطورية باستثناء فلسطين، بشرط أن يصبح المهاجرون اليهود رعايا عثمانيين، وألا يتركّزوا في مكان واحد. Laqueur, A History of Zionism, 100-101, 114-19.

(٢) بشكل غير معقول، أثار مردخاي نوح -وهو صهيوني أمريكي مبكر- هذه الاحتمالية في خطاب ألقاه عام ١٨١٨. وقال إن اليهود «يمسكون بخيوط المال، ويمكنهم استخدام السيف وجلب ١٠٠٠٠٠ رجل إلىٰ الميدان إذا لزم الأمر».

Grose, Israel in the Mind of America, 14

لقد أنتجت هذه الشراكة جدلية جديدة: حيث شجّعت إسرائيل -باعتبارها المركز السياسي للشتات اليهودي، والبؤرة الاستيطانية الرئيسية للغرب في قلب العالم الإسلامي- لتصبح أكثر جرأة في مكائدها للعالم الإسلامي وخارجه. ومن ثمّ، فعندما أصبح العالم الإسلامي جريحًا مهانًا، ويزداد استياؤه بعد كل هزيمة يتعرض لها من إسرائيل والولايات المتحدة؛ أصبح أكثر إصرارًا علىٰ استعادة كرامته واستقلاله وقوته، يغذيه السعي إلىٰ تعزيز هذه الصحوة، بالاعتماد علىٰ قوة الفكر الإسلامي. لقد زجّ هذا المنطق المُزعزع للاستقرار بالغرب في مواجهة مباشرة مع الإسلاميين. هذه هي المأساة التي جلبتها إسرائيل علىٰ العالم؛ وإن التبعات المشئومة لهذا المشروع -حتىٰ تلك التي لم تظهر بعد- وُلدت مع أول ظهور لفكرة الدولة اليهودية في فلسطين.

الجزء الثالث

إقامة علاقات خاصة

«إن اتحاد يهود الولايات المتحدة وازدياد نفوذهم في أواخر القرنين التاسع عشر والعشرين لا يقل أهمية في التاريخ اليهودي عن إنشاء إسرائيل نفسها، بل إنه -من بعض النواحي- أكثر أهمية؛ لأنه إذا كان نجاح الصهيونية يوفر ليهود الشتات -المُضيق عليهم- ملاذًا آمنا ودائمًا مع حقوق سيادية لتقرير مصيرهم والدفاع عنه؛ فإن نمو نفوذ يهود الولايات المتحدة كان بمثابة مفتاح الوصول إلىٰ سلطة من نوع مختلف تمامًا، سلطة تعطىٰ اليهود الشرعية المطلوبة لكي يتمكنوا باستمرار من تشكيل سياسات أعظم دولة علىٰ وجه الأرض».

بول جونسون (Paul Johnson)[١]

---

(1) Johnson, A History of the Jews, 566.

الفصل الخامس عشر
ما قبل العلاقة الخاصة

«لقد أتىٰ اليهود من كل حدب وصوب بأعداد مهولة، وهم عازمون علىٰ الدخول عنوةً إذا لم يُسمح لهم بالدخول»
إدوارد هاوس (Edward House)، أكتوبر ١٩١٧[١]

«لا تقلق دكتور وايزمان، فلسطين لكم».
ودرو ويلسون (Woodrow Wilson)، مارس ١٩١٩[٢]

إذا لم يرَ البريطانيون في الصهيونية خادمًا لمصالحهم الاستراتيجية في الشرق الأوسط -باستثناء موقفهم المؤقت في منتصف الحرب العالمية الأولىٰ- فهل نظرت الإدارات الأمريكية المتعاقبة إلىٰ هذا المشروع الاحتلالي بشكل

(١) صرّح إدوارد هاوس -المستشار والمقرب من الرئيس ويلسون- بهذا في مذكرة إليه.
Davidson, America's Palestine, 16-17.

(٢) أسس الحاخام ستيفن وايز (Stephen Wise) (١٨٧٤-١٩٤٩) اتحاد الصهاينة الأمريكيين في عام ١٨٩٧. وفي عام ١٩١٨، أصبح أول رئيس للمنظمة الصهيونية الأمريكية وكان رئيسًا للكونغرس اليهودي الأمريكي من عام ١٩٢٥ حتىٰ وفاته عام ١٩٤٩
. Davidson, America's Palestine, 21.

مختلف؟ أصبح هذا السؤال مُلحًّا خلال الأعوام من ١٩٣٩ إلىٰ ١٩٤٨، عندما تسلّمت الولايات المتحدة من بريطانيا راية الدولة الراعية لحركة الاحتلال الاستيطاني الصهيوني.

لماذا رضيت الولايات المتحدة -ابتداء من عام ١٩٣٩- أن تحلّ محل بريطانيا في الوقت الذي كان البريطانيون مقتنعين بأن استكمال المشروع الصهيوني سيلحق ضررًا كبيرًا بمصالحهم الاستراتيجية في الشرق الأوسط؟ بالنظر إلىٰ أن الولايات المتحدة -بعد الحرب بفترة وجيزة- خَلَفت بريطانيا كقوة عظمىٰ في الشرق الأوسط، يبدو أن الحسابات التي أجرتها بريطانيا بشأن التكاليف الاستراتيجية لدعم الصهيونية لها نفس الآثار الضارة علىٰ مصالح الولايات المتحدة. في الواقع، في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية -عندما كان نجم الشيوعية العالمية والقومية العربية يلوح في الأفق- كان ينبغي علىٰ حكومة الولايات المتحدة أن تنظر إلىٰ التكاليف الاستراتيجية للصهيونية باهتمام أكبر من بريطانيا؛ فإذا قلنا إن هذه التكاليف الاستراتيجية لم تثبط دعم الرئيس ترومان للمشروع الصهيوني، فهل هذا لأنه كان مقيدًا بضرورات السياسة الداخلية التي ترسمها الصهيونية؟

من أجل تحليل مصادر وأسباب التزام الولايات المتحدة بالصهيونية، قد يكون من المفيد البدء بتحديد المراحل المتعاقبة لهذه العلاقة؛ تمتد المرحلة الأولىٰ من عام ١٨٩٧ حتىٰ بداية الحرب العالمية الأولىٰ، عندما لم تقم الولايات المتحدة بأي دور مهم في دعم الجهود الصهيونية لتأمين فلسطين وتجهيزها للاحتلال اليهودي. تغيّر هذا خلال المرحلة الثانية، من عام ١٩١٤ إلىٰ عام ١٩٣٩، عندما كانت الولايات المتحدة عاملًا داعمًا في تأمين الدعم البريطاني والدولي للمشروع الصهيوني، ثم ضغطت لاحقًا علىٰ بريطانيا لمنعها من التراجع عن التزامها بالمشروع الصهيوني.

عندما علّقت بريطانيا دعمها للصهيونية ابتداء من عام ١٩٣٩، شرعت الولايات المتحدة في تصعيد ضغوطها علىٰ بريطانيا؛ وبعد الحرب، توّلت بنفسها الدور القيادي في رعاية المشروع الصهيوني في الأمم المتحدة. ومع ذلك، بمجرد أن بدأت ضروريات الحرب الباردة تحتلّ مركز الصدارة في التفكير الاستراتيجي الأمريكي، سعت الولايات المتحدة إلىٰ التمويه علىٰ دعمها لإسرائيل. وخلال هذه المرحلة الرابعة، تمتّعت إسرائيل برعاية ثلاث دول كبرىٰ: الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا، مع توّلي الولايات المتحدة زمام الأمور من وراء الكواليس.

دخلت العلاقات الإسرائيلية مع الولايات المتحدة مرحلة جديدة، بدأت في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، عندما بدأت الأخيرة في الاضطلاع بدور مباشر وعلني في تعزيز تفوّق إسرائيل العسكري علىٰ العرب، وتصاعد مستوىٰ الدعم الأمريكي لإسرائيل -عسكريًّا واقتصاديًّا ودبلوماسيًّا- بسرعة بدءًا من أوائل السبعينيات؛ وبحلول أوائل الثمانينيات، اكتسبت إسرائيل -بدعم من اللوبي الإسرائيلي القوي- القدرة علىٰ رسم الإطار العام لـ «علاقتها الخاصة» مع الولايات المتحدة، وبدلًا من التراجع بعد نهاية الحرب الباردة -كما قد يُتوقع- أصبح التزام السياسيين الأمريكيين تجاه إسرائيل بنفس أهمية ولائهم للولايات المتحدة نفسها.

تُظهر لنا المقارنة بين العلاقة الأمريكية ونظيرتها البريطانية بالمشروع الصهيوني التباينات المهمة في مسارهما؛ فبعدِ توليها مسؤولية إطلاق المشروع الصهيوني في منتصف الحرب العالمية الأولىٰ، اتخذت بريطانيا في بداية الحرب العالمية الثانية إجراءات من شأنها وئد الدولة اليهودية حديثة الولادة. في المقابل، قامت الولايات المتحدة بتدخلات عرضية نيابة عن الصهاينة في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، ولكن منذ ذلك الحين استمر دعمها لإسرائيل في النمو؛ ومنذ أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، أصبح دعم إسرائيل هو

الجزء الثابت والأهم في سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط. لماذا اتَّبعت الولايات المتحدة وبريطانيا مثل هذه المسارات المختلفة في علاقاتهما مع المشروع الصهيوني خاصة خلال الفترة التي كانتا فيها -بريطانيا: بين الحربين العالميتين، والولايات المتحدة: منذ الحرب العالمية الثانية- القوىٰ العظمىٰ المهيمنة علىٰ الشرق الأوسط؟ هل كان صانعو السياسة الأمريكية ينظرون دائمًا إلىٰ المشروع الصهيوني علىٰ أنه أحد الأصول الاستراتيجية؟

في الفصول اللاحقة، سنناقش أن الولايات المتحدة حتىٰ الخمسينيات من القرن الماضي كانت تعتبر إسرائيل عائقًا استراتيجيًّا؛ ولم تكتسب إسرائيل سمات «الرصيد الاستراتيجي» إلا في الفترة التي أعقبت إنشائها. تتمثل أطروحتنا الأساسية في أن هذا التحول كان مدفوعًا بالقوىٰ التي أطلقها إنشاء إسرائيل نفسها، وقوة الشتات اليهودي في حشد الدعم الغربي، وقدرة الدولة اليهودية علىٰ الاستفادة من هذا الدعم لتغيير الخريطة الاستراتيجية للشرق الأوسط. يجب أن ترجع أصول الفحص الشامل للقوىٰ التي دفعت هذا التحول في النظر إلىٰ إسرائيل -من عبء استراتيجي إلىٰ رصيد استراتيجي- إلىٰ الجذور التاريخية والديالكتيكية للتبادلات التراكمية بين أربع مجموعات فاعلة: الييشوف/إسرائيل، واللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة، والحكومات الغربية، والعالم العربي والإسلامي سواء أجزاؤه التي شاركت -بشكل مباشر- في المشروع الصهيوني أو تلك التي تأثرت به.

لكن علىٰ الرغم من انخراط جهات فاعلة متعددة في المشروع الصهيوني -كمناصرين أو كخصوم- فمن المهم أن نتذكر أن الصهاينة كانوا دائمًا في مقعد القيادة؛ فقد قدّموا هذا المشروع، وفرضوه علىٰ اهتمام الجماهير الغربية والسياسيين الغربيين، وسخّروا الطاقات الغربية السلبية المختلفة لصالحهم، واستخدموا الموارد السياسية ليهود الغرب -أصواتهم، وحضورهم في الخطاب الفكري الغربي، وأموالهم، ونفوذهم إلىٰ أعلىٰ مستويات صنع القرار-؛ لزيادة

الضغط باستمرار علىٰ القوىٰ الغربية لتعميق التزامها بالمشروع الصهيوني والحفاظ عليه.

❋ ❋ ❋

علىٰ الرغم من أن دور رئيس الولايات المتحدة والكونغرس لم يتجاوز دور العامل المحفّز في العملية التي أنتجت وعد بلفور في نوفمبر ١٩١٧ -ثم دمجه في الانتداب الاستعماري الممنوح لبريطانيا علىٰ فلسطين- إلا أنهم لم يبدوا أي تحفظات علىٰ دفاعهم عن الصهيونية. ومع ذلك، لم يكن المسئولون المهنيون في وزارة الخارجية الأمريكية يشاركون الرئيس والكونغرس هذا الحماس. لقد كان دعم الولايات المتحدة للصهيونية مخالفًا أيضًا للمصالح الاقتصادية والثقافية للأمريكيين الذين لهم مصالحهم في الشرق الأوسط.

قدّم الرئيس ويلسون في أكتوبر ١٩١٧ دعم الولايات المتحدة رسميًا لوعد بلفور، ضاربًا بمشورة وزير خارجيته -الذي تم إقصاؤه من هذه المداولات- عرض الحائط، وفي عام ١٩٢٠ تجاوز الرئيس صياغة وعد بلفور -التي تقدّم فقط الدعم لإنشاء «وطن قومي للشعب اليهودي»- وبدأ يتعهّد بدعمه لإنشاء كومنولث يهودي في فلسطين[١]، وفي يونيو ١٩٢٢ أصدر الكونغرس بالإجماع قرارًا مشتركًا ينصّ علىٰ أن الولايات المتحدة «تؤيد إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين»[٢]، وأخيرًا، من خلال التوقيع علىٰ الاتفاقية الأنجلو أمريكية في عام ١٩٢٤ أضفت الولايات المتحدة طابعًا رسميًا علىٰ «تأييدها للسيطرة البريطانية علىٰ فلسطين؛ ومن خلال تكرار بنود وعد بلفور ووثيقة الانتداب البريطاني؛ أصبح قبولها بالصهيونية في فلسطين رسميًا»[٣]، وبغض النظر عن تولّيها دور

---

(1) Christison, Perceptions of Palestine, 33.

(2) de Novo, American Interests and Policies, 340.

(3) Christison, Perceptions of Palestine, 34.

الدولة الراعية، فقد قدّمت الولايات المتحدة رسميًا أقوىٰ دعم معنوي للمشروع الصهيوني في فلسطين.

ومع ذلك، هناك القليل من الدلائل علىٰ أن الموقف المؤيد بشدة للصهيونية للولايات المتحدة كان مدفوعًا بأهدافٍ كانت -علىٰ حد تعبير نعوم تشومسكي- «قريبة من تلك التي تخص عناصر النخبة من ذوي النفوذ الحقيقي»[١]، فمن ناحية كان هذا الموقف بمثابة خروج عن السياسة الأمريكية التي استمرت لقرون طويلة، والتي تتجنب الدخول في المنافسات السياسية بين القوىٰ الأوروبية. علاوة علىٰ ذلك لم يشرح الرئيس -في أي وقت- ما هي التغييرات في المصالح الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية للولايات المتحدة التي جعلت هذا الخروج عن السياسة الحذرة ضروريًّا؛ كما أن دعم الرئيس ويلسون لوعد بلفور يتناقض مع تشديده علىٰ مبدأ حق تقرير المصير الذي رأىٰ وجوب أن يُوجِّه تسوية السلام في فترة ما بعد الحرب؛ فأنّىٰ للإدارة الأمريكية أن تتذرع بالجهل بالمعارضة القوية للمشروع الصهيوني، التي كانت موجودة في فلسطين وفي كل جزء من العالم العربي والإسلامي[٢]، إلا أن الوضع في فلسطين -علىٰ حد تعبير اللورد بلفور- كان يعني أن التزام القوىٰ العظمىٰ بدعم الصهيونية «سيطغىٰ حتمًا علىٰ **حق الأغلبية** في تقرير مصيرهم»[٣] [التسويد مضاف].

في الواقع، ليس هناك ما يشير إلىٰ أن إنشاء دولة يهودية في فلسطين سوف يرضي عمالقة رأس المال الأمريكي الذين كانوا ينسجون شباك مصالحهم التجارية

---

(1) Chomsky, Fateful Triangle, 17.

(٢) أدرجت لجنة كينج-كرين (King-Crane Commission) -في تقريرها إلىٰ الرئيس ويلسون- جدولًا يلخص عدد الالتماسات التي تلقّتها من ثلاثة أقسام جغرافية في سوريا (بما في ذلك سوريا ولبنان والأردن وإسرائيل حاليًا) لصالح شكل من أشكال المشروع الصهيوني والالتماسات المضادة للمشروع، كانت الحصيلة: ١٩ التماس فقط لصالح المشروع الصهيوني، في حين أن ١٣٥٠ عريضة أعربت عن معارضة المشروع. Khalidi, From Haven to Conquest, 213-14.

(3) Khalidi, From Haven to Conquest, 197.

في المنطقة، وبما أن رأس المال اليهودي سيستحل الصدارة في فلسطين والمنطقة؛ فمن المتوقع أن يكون منافسًا قويًّا للمصالح التجارية الأمريكية في الشرق الأوسط بأكمله. بالإضافة إلىٰ ذلك، فإن إنشاء الصندوق القومي اليهودي في عام ١٩٠١ -بهدف الحصول علىٰ الملكية الحصرية لجميع الأراضي في فلسطين والاحتفاظ بها- لا يمكن أن يبشر بخير للمستثمرين الأمريكيين الذين كانوا يمنّون أنفسهم بالاستثمار في العقارات في فلسطين.

كما أنه من غير الواضح -إطلاقًا- أن تقسيم الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية بين بريطانيا وفرنسا ودولة يهودية مستقبلية كان يصب في مصلحة شركات النفط الأمريكية[١]، فبالنظر إلىٰ أن النفط قد ظهر كرصيد عسكري رئيسي خلال الحرب العالمية الأولىٰ، كان بإمكان الولايات المتحدة الضغط من أجل منح الاستقلال المبكر للأراضي العثمانية سابقًا؛ لأن هذا كان من شأنه تجهيز ساحة اللعب لشركات النفط الأمريكية في المنطقة بأكملها[٢]. هل من الممكن القول إن الولايات المتحدة لم تكن في وضع يسمح لها بالنظر في مثل هذه البدائل -وتبرير تجاهل الرئيس ويلسون لتقرير لجنة كينج كرين التي اقترحت تفويضًا أمريكيًا علىٰ الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية- نظرًا لأن هذه البدائل تعرض المشروع الصهيوني للخطر؟ عند تحليل الظروف الكامنة وراء هذه

(١) وفقًا لدونالد نيف (Donald Neff) «فمن بين جميع التحديات التي تواجهها الصهيونية في جميع أنحاء العالم، لم يكن لدىٰ وزارة الخارجية سبب وجيه لتكريس قدر كبير من الاهتمام للصهيونية أو دعم الأهداف الصهيونية. كانت النبرة المتحفظة لوزارة الخارجية حاضرة منذ عام ١٩١٢ عندما سعت الجمعية الأدبية الصهيونية للحصول علىٰ تأييد عام من الرئيس ويليام هوارد تافت (William Howard Taf)، ورفض وزير الخارجية فيلاندر سي نوكس (Philander C. Knox) الرد بأن «مشاكل الصهيونية تنطوي علىٰ مسائل معينة تتعلق في المقام الأول بمصالح دول أخرىٰ غير دولتنا . . . وقد يؤدي هذا إلىٰ سوء الفهم». Neff, Fallen Pillars.

(2) Paul, "Great Power Conflict."

التطورات التاريخية، قد يكون من المفيد النظر في بعض البدائل المعقولة التي لم تُسْتَغل ونطرح سؤالا مشروعا: لماذا؟

إن المصالح التجارية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط كانت متواضعة جدًّا إذا ما قورنت بمصالح المؤسسة البروتستانتية الأمريكية، التي كان لها مصالح كبيرة جدًّا في المقاطعات العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية؛ فعلىٰ مدىٰ القرن الماضي، قامت بتأسيس الكنائس والمدارس والمستشفيات في المنطقة، وخاصة في بلاد الشام؛ وكانت الحكومة الأمريكية قد أبدت اهتمامًا بهذه المصالح قبل سنوات قليلة فقط، عندما استثنىٰ الرئيس وودرو ويلسون الإمبراطورية العثمانية من إعلانه للحرب ضد دول المحور[1]. وقرب نهاية الحرب، بدأت المؤسسة التبشيرية الأمريكية في الشرق الأوسط الضغط علىٰ الولايات المتحدة من أجل منح العرب حق تقرير المصير[2]، وأقنعت ضغوطهم في مؤتمر باريس للسلام في عام ١٩١٩ الرئيس ويلسون بإرسال لجنة إلىٰ الشرق الأوسط للتأكد من استعداد شعوب المنطقة لتقرير مصيرهم؛ وخلصت هذه اللجنة -المعروفة باسم لجنة كينج كرين (King-Crane Commission)- إلىٰ أن البرنامج الصهيوني كان بمثابة «انتهاك صارخ» لمبدأ تقرير المصير؛ كما أوصت بمنح الولايات المتحدة الانتداب علىٰ الأراضي العثمانية العربية السابقة (باستثناء العراق)، وفقًا لرغبات شعوب المنطقة، وما حدث هو أن تقرير اللجنة لم يُنشر إلا في عام ١٩٢٢، أي بعد خروج الرئيس ويلسون من منصبه بقليل؛ ولا يوجد دليل علىٰ أن الرئيس قد قرأ التقرير أصلًا[3].

أظهرت التقييمات التي أجرتها وزارة الخارجية الأمريكية خلال هذه السنوات، أن المشروع الصهيوني -علىٰ عكس الشائع- لم يكن يعمل علىٰ تعزيز

(1) Davidson, America's Palestine, 17-18.

(2) Ibid., 19.

(3) Christison, Perceptions of Palestine, 32-33; Davidson, America's Palestine, 20.

المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة، وكان وزير خارجية ويلسون -روبرت لانسينغ (Robert Lansing)- معارضًا للصهيونية، لأنه كان يعتقد أن مشروعها يثير حفيظة العثمانيين[1]، وحثّ الإدارة علىٰ اتخاذ موقف محايد، كما حذّر من أن الهجرة اليهودية غير المقيدة إلىٰ فلسطين ستؤدي إلىٰ حمام دم بين اليهود والعرب[2]. بالتأكيد لم يأل أشياع الصهاينة جهدًا في كيل الاتهامات للمسؤولين في وزارة الخارجية بمعاداة السامية، لأنهم لم يظهروا الإجراء المناسب لحماس الصهيونية. الأمر الأكثر منطقية هو أن إبعاد المسؤولين في وزارة الخارجية يمكن تفسيره بإخراجهم من لعبة الضغوط الانتخابية للحفاظ علىٰ وظائفهم. وعلىٰ أي حال، يجب علىٰ أولئك الذين يرون غلبة معاداة السامية علىٰ وزارة الخارجية أن يشرحوا سبب انجذاب الأفراد الذين لديهم هذه النزعة إلىٰ البيروقراطية، ولكنهم في نفس الوقت يتجنّبون السياسة.

من السهل تحديد عدة اتجاهات محلية في الولايات المتحدة كانت متزامنة مع الصهيونية؛ فإذا استثنينا الرأي اليهودي -في ذلك الوقت- فقد تضمنت هذه الاتجاهات: معاداة السامية، والصهيونية المسيحية، وكراهية المسيحيين للمسلمين، والعنصرية ضد العرب؛ ومن أجل التأثير علىٰ السياسة الخارجية للولايات المتحدة، يجب أن تنصهر هذه الاتجاهات في قالب واحد، وتُجيَّش ثم توجّه من قِبل الجماعات المنظمة نحو مشروع معين. لا يوجد دليل -خلال هذه الفترة- علىٰ وجود حركات يقودها معادون للسامية، أو عنصريون معادون للعرب، أو متعصبون معادون للإسلام، يعملون مع الصهاينة اليهود لاستخدام قوة الحكومة الأمريكية لمعاقبة الفلسطينيين، وإخلاء اليهود من الولايات المتحدة، أو الاستيلاء علىٰ الأراضي المسيحية المقدسة. نحن بحاجة إلىٰ التحقق مما إذا كان الصهاينة

(1) Christison, Perceptions of Palestine, 35.

(2) Davidson, America's Palestine, 55; Christison, Perceptions of Palestine, 35.

المسيحيون في الولايات المتحدة -في هذه المرحلة- منخرطين في أي جهود منظمة لترجمة أفكارهم إلىٰ أعمال سياسية.

اتخذت الصهيونية المسيحية شكلين في اللاهوت البروتستانتي الأمريكي؛ في البداية، تدفق الإيمان بعودة اليهود بشكل أساسي من العهد الذي قطعه يهوه بأن فلسطين لليهود؛ إلا أنه لم يرتبط بعدُ بأي سردية عن نهاية الزَمان. وصلت هذه النسخة من المسيحية الصهيونية إلىٰ الولايات المتحدة مع البيوريتان الإنجليز؛ ومنذ ذلك الحين حظيت بقبول قوي بين مختلف الطوائف البروتستانتية في الولايات المتحدة. لكن ابتداءً من أواخر القرن التاسع عشر، برزت مسيحية أصولية جديدة ربطت «عودة» اليهود بسرديتهم عن نهاية الزمان؛ وبدأوا يعتقدون أن اليهود يجب أن يجتمعوا في فلسطين قبل المجيء الثاني للمسيح. روّج جون نيلسون داربي -المبشر الإنجليزي البروتستانتي- لهذه العقيدة الجديدة خلال ست رحلات قام بها إلىٰ الولايات المتحدة بين عامي ١٨٥٩ و١٨٧٤؛ وقد جُمعت لاحقًا في نسخة مشروحة جديدة من الكتاب المقدس أعدها سايروس سكوفيلد -والمعروفة باسم الكتاب المقدس المرجعي لسكوفيلد- الذي نشرته لأول مرة مطبعة جامعة أكسفورد عام ١٩٠٩؛ وقد ساعدت هذه الطبعة من الكتاب المقدس -أكثر من أي نص آخر- في نشر الصهيونية المسيحية في الولايات المتحدة؛ وبنهاية الحرب العالمية الثانية كان قد بيع منه ٢ مليون نسخة[(١)].

في العقود الأولىٰ من القرن العشرين، قدّمت المسيحية الصهيونية في المقام الأول الدعم المعنوي لليهود الصهاينة؛ وليس هناك دلائل تجعلنا نؤكد ممارستهم لأي ضغوط سياسية منظمة لإعادة اليهود إلىٰ فلسطين. لقد كانت المحاولة الأكثر شهرة من قبل الصهاينة المسيحيين في الولايات المتحدة لترجمة معتقداتهم إلىٰ سياسة خارجية؛ هي وثيقة عام ١٨٩١، المصحوبة بحملة إعلانات في الصحف، وشملت حثّ الرئيس بنيامين هاريسون (Benjamin Harrison) علىٰ عقد مؤتمر

(1) Gaebelein, The History of the Scofield Reference Bible, 11.

دولي «للنظر في حالة الإسرائيليين، ومطالباتهم بفلسطين باعتبارها موطنهم القديم، والترويج بكل الطرق الأخرىٰ العادلة والسليمة للتخفيف من معاناتهم»[١]. ومع ذلك، فإن هذه العريضة -المعروفة باسم عريضة بلاكستون- لم تكن سوىٰ عمل أحد النشطاء المتحمسين هو ويليام يوجين بلاكستون -واعظ غير رسمي ومؤلف كتاب «عقيدة الألفية المسيحية (a millenarian tract)»؛ وعلىٰ الرغم من أن العريضة حملت ٤١٣ توقيعًا -بما في ذلك توقيع رئيس المحكمة العليا ورئيس مجلس النواب واثنين من كبار الممولين- إلا أنها لم تؤد إلىٰ اتخاذ أي إجراء من قبل حكومة الولايات المتحدة[٢]، وفي عام ١٩١٦ قدّم بلاكستون عريضة ثانية بدعم من قادة الصهاينة اليهود الأمريكيين[٣].

ومع تكثيف الصهاينة لجهودهم خلال الحرب العالمية الأولىٰ، أثار هذا ردّين من الصهاينة المسيحيين؛ ففي عام ١٩١٦، أقرّت الجمعية العامة الأمريكية المشيخية قرارًا يدعم الأهداف الصهيونية[٤]، ومباركة الغزو البريطاني للقدس، والموافقة علىٰ وعد بلفور في عام ١٩١٧، وفتح فلسطين أمام الهجرة اليهودية -وهي أقوىٰ العلامات علىٰ أن جمع اليهود في فلسطين كان في طريقه للنجاح- كما عقدوا «مؤتمرين لفحص نبوءات الكتاب المقدس» في عام ١٩١٨، إلا أنهم فشلوا في توليد أي زخم سياسي دائم لدعم الصهاينة المسيحيين في الولايات المتحدة. ما حدث هو أنه في السنوات التي سبقت نهاية الحرب العالمية الثانية، «انسحب الصهاينة المسيحيون بشكل كبير من الساحة العامة»؛ وخلال سنوات ما بين الحربين العالميتين، «لم يرَ الصهاينة المسيحيون أنفسهم كشخصيات وطنية مؤثرة أصواتها مسموعة من قبل صانعي السياسات في واشنطن، أو كأشخاص

---

(1) Currie, "God's Little Errand Boy."

(2) Davidson, America's Palestine, 8.

(3) Prior, Zionism and the State of Israel, 140.

(4) Davidson, America's Palestine, 9.

يمكنهم دفع أجندة سياسية علىٰ المستوىٰ الوطني أو الدولي»[١]. وبشكل عام، لم يكن هناك ضغط منظّم من قبل الصهاينة المسيحيين قبل عام ١٩٤٨ -أو في وقتٍ ما بعد ذلك- لتوليد ضغوط علىٰ حكومة الولايات المتحدة لدعم الصهيونية.

وجدت القضية الصهيونية في الولايات المتحدة أكثر مناصريها نفوذًا وأفضلهم تنظيمًا والتزامًا في الجالية اليهودية الأمريكية. في عام ١٩١٤ كان عدد السكان اليهود في الولايات المتحدة يبلغ ثلاثة ملايين، بعد أن تضاعف خمس عشرة مرة منذ عام ١٨٧٠؛ وبما أن هؤلاء السكان تركّزوا في المدن الرئيسية -نيويورك ونيوجيرسي وبوسطن وفيلادلفيا وشيكاغو وسان فرانسيسكو-؛ فإن وزنهم الانتخابي تجاوز بكثير نسبتهم من السكان[٢]، وبمجرد أن تغلّبوا علىٰ الارتياب المبكر حيال دعم اليهود الميسورين من أصل ألماني لقضيتهم؛ أنشأ الصهاينة اليهود شبكة قوية من المنظمات الوطنية والمحلية المكرّسة لخدمة القضية الصهيونية، وظهرت منظمات يهودية محلية ذات أهداف وتعاطفات صهيونية بمجرد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام ١٨٩٧؛ وفي نفس الوقت تقريبًا، تشكّلت منظمات وطنية -أبرزها فرسان صهيون، واتحاد الصهاينة الأمريكيين، والصهاينة المتحدون[٣]، كما أنشئت عدة منظمات شبابية صهيونية في السنوات التي سبقت الحرب، إن هذه المنظّمات مهمّة؛ لأنها ساعدت في تجنيد العديد من قادة الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة -بما في ذلك أبا هيلل سيلفر(Abba Hillel Silver) وإيمانويل نيومان (Emanuel Neumann)-. وفي عام ١٩١٢، تأسست «هداسا (Hadassa)»، والتي سرعان ما أصبحت أكبر منظمة صهيونية نسائية في الولايات المتحدة[٤].

---

(1) Ariel, "An Unexpected Alliance," 79, 80.

(2) Stork and Rose, "Zionism and American Jewry," 41; Maisel, Jews in American Politics, 472-74.

(3) Shapiro, Leadership of the American Zionist Organization, 24-29.

(4) Laqueur, A History of Zionism, 160.

اكتسبت الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة مكانةً ونفوذًا سياسيًّا عندما تولىٰ لويس برانديز (Louis Brandeis) قيادتها في عام ١٩١٤، وجلب معه العديد من التقدميين اليهود البارزين إلىٰ الحركة[1]، وقد كان العامل الأساسي وراء زيادة الثروة الصهيونية في هذا الوقت عند بداية الحرب. كانت القيادة المركزية للحركة الصهيونية -المتمركزة في أوروبا- تركّز علىٰ القوىٰ الأوروبية الكبرىٰ -خاصة بريطانيا وألمانيا- للحصول علىٰ الدعم الدولي لمشروعهم الاحتلالي. ومع بداية الحرب، دخلت الولايات المتحدة اللعبة كعامل مساعد في المداولات الاستراتيجية لبريطانيا وألمانيا، حيث كانت الأولىٰ حريصة علىٰ تسريع دخول الولايات المتحدة إلىٰ الحرب كحليف لها، بينما كانت الثانية حريصة علىٰ إبقائها محايدة، ونتيجة لذلك، بدأت كل من بريطانيا وألمانيا مغازلة الصهاينة لجذب اليهود الأمريكيين إلىٰ جانبها؛ بالإضافة إلىٰ اعتقاد الصهاينة -منذ فترة طويلة- أن تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية في حرب كبرىٰ سيخلق فرصة مناسبة لخروج مشروعهم الاحتلالي في فلسطين إلىٰ الوجود، وعندما حانت هذه اللحظة مع دخول العثمانيين في الحرب إلىٰ جانب ألمانيا في أكتوبر ١٩١٤، أعطىٰ ذلك دفعة هائلة لآمال الصهاينة؛ لقد كانوا مقتنعين بأن لحظتهم التاريخية قد حانت، وأن فلسطين ستكون لهم عما قريب.

يعكس النمو الدراماتيكي لعضوية المنظمة الصهيونية الأمريكية (ZOA) -الجهاز المركزي للحركة الصهيونية في الولايات المتحدة منذ عام ١٨٩٧- النشاط الصهيوني الدؤوب في الولايات المتحدة. ففي عام ١٩١٤، كان لدىٰ المنظمة كادر من ١٢٠٠٠ ناشط، ولكنه ارتفع إلىٰ ٢٣٥,١٤٩ بعد أربع سنوات فقط؛ إلا أنه بمجرد أن حقق الصهاينة هدفهم الرئيسي -التزام بريطانيا والولايات المتحدة بوعد بفلور في نوفمبر ١٩١٧- تراجعت عضويتها بسرعة إلىٰ ٢١٠٠٠ في

(1) Laqueur, A History of Zionism, 159; Shapiro, Leadership of the American Zionist Organization, 24.

عام ١٩٢٠[١]. وقد كان للمنظمة الصهيونية العالمية أولويات مختلفة لعدة سنوات؛ فقد توجب عليها توجيه طاقتها لجذب المستوطنين اليهود إلىٰ فلسطين، والحصول علىٰ أرض في فلسطين، ووضع البنية التحتية لدولة يهودية هناك.

لا يقدم النمو في عضوية المنظمة الصهيونية الأمريكية سوىٰ صورة جزئية للدعم الذي تمتع به الصهاينة في الولايات المتحدة في هذا الوقت. لقد كان نجاح المنظمة -التي أعيد تنشيطها مرة أخرىٰ- في تعبئة المجتمع اليهودي بأكمله لدعم المطالب الصهيونية أكثر أهمية؛ فبمجرد حشد الجماهير اليهودية لدعم القضية الصهيونية؛ اقتنع قادة المؤسسة اليهودية الأمريكية -الذين حافظوا حتىٰ الآن علىٰ مسافة آمنة من الحركة الصهيونية- بإيلاء اهتمام أكبر للنشاطات الصهيونية؛ وفي مؤتمر تحضيري عقد عام ١٩١٦ «أصبحت السياسة المعلنة لجميع المنظمات اليهودية الأمريكية ليس الضغط من أجل حقوق متساوية ليهود أوروبا الشرقية فقط، **بل تضمنت أيضًا تأمين الحقوق اليهودية في فلسطين**»[٢] [التسويد مضاف]. بعبارة أخرىٰ: لقد ألقىٰ يهود أمريكا -جميعًا تقريبًا- كل ثقلهم وراء الحركة الصهيونية عندما بدأ القادة الصهاينة مفاوضات جادة لإنشاء دولة يهودية في فلسطين.

وعند تجميع التقدمات التي أحرزتها الحركة الصهيونية -النمو الهائل في كادر النشطاء، والتعبئة الجماهيرية لليهود، ودعم المؤسسة اليهودية الأمريكية- نستطيع الحصول علىٰ تقدير أفضل للتأثير السياسي للصهيونية. يمكن للحركة الآن أن تمارس ضغطها علىٰ النظام السياسي الأمريكي، فقد أصبح الصهاينة الآن يشكلون قوة لها وزنها في انتخابات الكونغرس والرئاسة، وقد أنشؤوا شبكة للضغط علىٰ أعضاء الكونغرس، وأعضاء مجلس الشيوخ والبيت الأبيض، وقد

---

(1) Stork and Rose, "Zionism and American Jewry," 41; Shapiro, Leadership of the American Zionist Organization, 180.

(٢) جميع الاقتباس في هذه الفقرة مأخوذة من: Laqueur, A History of Zionism, 179.

تعززت هذه القوة من خلال ظهور القيادة الجديدة التي جلبها لويس برانديز إلىٰ المنظمة الصهيونية الأمريكية. لم يحظ القادة الصهاينة الأوائل -الذين كانوا نشطين قبل عام ١٩١٤- إلا بقدر ضئيل من الظهور في المجتمع الأمريكي الأوسع، إلا أن هذا تغيّر بعد عام ١٩١٤؛ حيث «يشير فحص مجموعة الصهاينة الجدد كتلة ظاهرة في كل من المجتمع الأمريكي والمجتمع اليهودي إلىٰ أنهم حققوا درجة عالية من الظهور في الطبقات المهيمنة، ويتجهون الآن لقيادة مجموعة الأقلية الخاصة بهم»[١]، وانطلاقًا من مكانتهم في المجتمع الأمريكي الأوسع -كقادة مدنيين وداعمين وقادة حركات عمالية ومحامين بارزين- كانت القيادة الصهيونية الجديدة في وضع يمكنها من حشد دعم الشرائح الليبرالية والتقدمية في المجتمع الأمريكي. وأخيرًا، كان اثنان علىٰ الأقل من أبرز قادة الحركة الصهيونية -الحاخام ستيفن وايز (Stephen Wise) ولويس برانديز- من الداعمين المهمين لوودرو ويلسون في الانتخابات الرئاسية، كما انضموا إلىٰ الدائرة الداخلية لمستشاريه عندما فاز بالمنصب[٢].

يمكننا تحديد ما لا يقل عن ثلاث حالات نجحت فيها الضغوط الصهيونية في فرض توجهاتها علىٰ السياسة الأمريكية لدعم قضيتهم بين عامي ١٩١٧ و١٩٢٢، وعندما طلب مجلس الوزراء البريطاني مشورة الرئيس ويلسون -في سبتمبر ١٩١٧- بشأن مسألة إصدار إعلان دعم للقضية الصهيونية، أجاب ويلسون

---

(١) احتل القادة الجدد الذين أدخلهم لويس برانديز في الحركة الصهيونية «بعض المواقع البارزة في المجتمع الأمريكي، وكانوا جميعًا إصلاحيين مرتبطين بقضايا تقدمية مختلفة، وأدرجوا جميعًا في قائمة Who's Who في أمريكا». [وهي قائمة تضم السير الذاتية للشخصيات العالمية الغربية البارزة (المترجم)]

shapiro, Leadership of the American Zionist Organization, 54-55.

(٢) لويس برانديز (١٨٥٦-١٩٤١) خريج كلية الحقوق بجامعة هارفارد، وأحد المحامين المتقدمين الأكثر احترامًا في البلاد. كان رئيسًا للجنة التنفيذية المؤقتة للشؤون الصهيونية، وزعيم الحركة الصهيونية الأمريكية من عام ١٩١٤ إلىٰ عام ١٩١٨. عُيّن برانديز في المحكمة العليا في عام ١٩١٦ من قبل الرئيس وودرو ويلسون، حيث خدم حتىٰ عام ١٩٣٩.

أن التعبير عن التعاطف مع الصهيونية كافٍ جدًّا، دون تقديم أي التزامات، وكانت تلك ضربة موجعة للحركة الصهيونية، وعلىٰ الفور أجرىٰ حاييم وايزمان اتصالاته بالقيادة الصهيونية في الولايات المتحدة، والتي نجحت بقيادة لويس برانديز في عكس قرار الرئيس ويلسون، وهكذا استطاع «الصهاينة التغلّب علىٰ عقبة رئيسية أخرىٰ بمساعدة من يهود أمريكا»(١). لقد كان الضغط الصهيوني علىٰ البيت الأبيض شديدًا للغاية، مما دفع الكولونيل إدوارد هاوس (Edward House) -الصديق المقرب والمستشار للرئيس ويلسون- للشكوىٰ من أن «اليهود قد أتوا من كل حدب وصوب بأعداد مهولة، وهم عازمون علىٰ الدخول عنوة إذا لم يُسمح لهم بالدخول»(٢).

مرةً أخرىٰ، كان إقرار التصديق المشترك من الكونغرس علىٰ وعد بلفور في سبتمبر ١٩٢٢ يرجع بالكامل تقريبًا إلىٰ جهود الصهاينة الأمريكيين. ففي مارس ١٩٢٢ قامت مجموعتان من الصهاينة -من ماساتشوستس ونيويورك- بالاتصال بهنري كابوت لودج (Henry Cabot Lodge) وعضو الكونغرس هاملتون فيش (Hamilton Fish) من أجل طرح قرار يدعم الصهيونية للتصويت المشترك من قبل الكونغرس، وفي سبتمبر ١٩٢٢، أصدر الكونغرس القرار بالإجماع، وبعد عشرة أيام، وقّع الرئيس هاردينغ (Harding) علىٰ الاتفاقية التي قال فيها إن إعادة الشعب العبري إلىٰ «وطنهم القومي التاريخي» سيسمح لهم «بالدخول في مرحلة كبرىٰ جديدة من مساهمتهم في تقدّم الإنسانية»(٣).

مثال أكثر دراماتيكية علىٰ التدخّل الصهيوني في توجيه السياسة الخارجية للولايات المتحدة كان في عام ١٩١٧. استجابة للضغط الذي مارسته المؤسسة

---

(1) Laqueur, A History of Zionism, 181.

(2) Davidson, America's Palestine, 16-17.

(3) Ibid., 49-51.

التبشيرية البروتستانتية، أرسل الرئيس ويلسون هنري مورجنثاو (Henry Morgenthau) -السفير السابق في الباب العالي- للنظر في إمكانيات التوصل إلىٰ سلام منفصل مع العثمانيين، فانزعج الصهاينة من هذه الخطوة التي قد يؤدي نجاحها إلىٰ إفساد خطتهم لفصل فلسطين عن الأراضي العثمانية، ووضعها تحت سيطرة البريطانيين الذين يمكن إقناعهم بعد ذلك بفتحها للاحتلال اليهودي. وبالتعاون مع السلطات البريطانية، اعترض حاييم وايزمان طريق هنري مورجنثاو في جبل طارق، قبل أن يتمكن من الوصول إلىٰ إسطنبول، وأقنعه بإنهاء مهمته والعودة إلىٰ واشنطن(١). علىٰ المرء أن يتساءل عن التعويذة السحرية التي لا بد أن حاييم وايزمان قد تلاها من أجل نقض مبادرة دبلوماسية مهمة لرئيس دولة عظمىٰ، وهل يقدم لنا هذا نظرة ثاقبة علىٰ القوة التي اكتسبها الصهاينة -في هذا التاريخ المبكر- علىٰ السياسة الخارجية للولايات المتحدة؟

بمجرد أن أظهروا دعمهم لتمرير وعد بلفور، وإدماجه بعد ذلك في الانتداب البريطاني في عام ١٩٢٢؛ افترقت طرق الرئيس والكونغرس حتىٰ بداية الحرب العالمية الثانية. وكلما تردّد البريطانيون في التزامهم بالخطة الصهيونية، ضغط الصهاينة علىٰ فروع مختلفة من الحكومة الأمريكية للرضوخ لرغبات البريطانيين. لقد أثبت الكونغرس أنه لقمة سائغة للضغط الصهيوني، واستخدم سلطاته بشكل دوري -من إصدار البيانات، وكتابة الرسائل إلىٰ الرئيس، والضغط علىٰ البيت الأبيض، وتمرير القرارات- لجعل الرئيس يتبنّىٰ المواقف الصهيونية(٢)، ومع ذلك، فإن الرؤساء الأربعة الذين خدموا خلال سنوات ما بين

---

(1) Laqueur, A History of Zionism, 194-95; Reinharz, "His Majesty's Zionist Emissary," 259-77.

(٢) في سبتمبر ١٩٣٦ كتب ٤٦ من أعضاء مجلس الشيوخ رسائل إلىٰ الرئيس يطلبون منه استخدام نفوذه مع البريطانيين لإبقاء فلسطين مفتوحة أمام الهجرة اليهودية غير المقيّدة. تبع ذلك في أغسطس ١٩٣٧ قرار مجلس الشيوخ يحذر من أي تخفيف في شروط الانتداب البريطاني. ومرةً أخرىٰ، في يونيو ١٩٣٩، وضع مائتا عضو من أعضاء الكونغرس وثمانية وعشرون من أعضاء مجلس الشيوخ توقيعاتهم علىٰ البيانات التي تطالب بحق اليهود في هجرة غير محدودة إلىٰ فلسطين. أخيرًا، في =

الحربين، قاوموا بشكل عام هذه الضغوط، وكان لديهم الدعم الكامل من جانبي الحرب والدولة[١].

❀ ❀ ❀

في أيار/مايو ١٩٣٩ -وتحسبًا لبداية الحرب العالمية الأولىٰ- أصدر البريطانيون الورقة البيضاء التي يتنصلون فيها من التزامهم بإقامة دولة يهودية في فلسطين[٢]، وقلّص هذا الإعلان الهجرة اليهودية إلىٰ ٧٥٠٠٠ علىٰ مدىٰ السنوات الخمس التالية، وما بعد ذلك سيتطلب موافقة الفلسطينيين؛ كما جعل بيع الأراضي خاضعًا لموافقة البريطانيين. كانت هذه نكسة خطرة وضربة موجعة للتطلّعات الصهيونية.

قرر الصهاينة كسر القيود التي وضعتها الورقة البيضاء بينما كانوا يدعمون المجهود الحربي البريطاني[٣]، فقد شجّعوا الهجرة غير الشرعية للتهرّب من القيود المفروضة علىٰ الهجرة اليهودية، وقد كان الهدف رفع القوة القتالية للمستوطنين اليهود بسرعة استعدادًا لمواجهة نهائية مع الفلسطينيين وحلفائهم العرب. وفي

= يناير ١٩٤٤، وعلىٰ الرغم من أن الولايات المتحدة كانت في حالة حرب، قدّم بعض أعضاء الكونجرس قرارًا يحثّ الولايات المتحدة علىٰ دعم الهجرة اليهودية غير المحدودة إلىٰ فلسطين، وإنشاء دولة يهودية في فلسطين، وحده التدخل المباشر من الرئيس ووزارتي الخارجية والحرب هو ما أقنع الكونجرس بإلغاء هذا القرار.

Davidson, America's Palestine, 118, 124, 140, 142.

(١) في يونيو ١٩٣٦ أصدر وزير الخارجية كورديل هال (Cordell Hull) تعليمات للسفير الأمريكي في بريطانيا بإبلاغ وزير الخارجية البريطاني -بشكل ودّي وغير رسمي- بمخاوف اليهود الأمريكيين بشأن قضية فلسطين.

Davidson, America's Palestine, 116.

(2) Smith, Palestine and the Arab-Israeli Conflict, 105.

(٣) أفضل تلخيص للسياسة الصهيونية خلال الحرب هو شعار صاغه دافيد بن غوريون: «سنقوم بالحرب كما لو لم يكن هناك وثيقة بيضاء، وسنعارض هذه الوثيقة كما لو لم تكن هناك حرب».
.Bar-Zohar, Ben-Gurion, 63

الوقت نفسه دافع بن غوريون -مستفيدًا من الفراغ الذي أحدثته الورقة البيضاء- (علىٰ حد تعبير والتر لاكوير) عن أن المستوطنين اليهود يجب أن «يتصرّفوا كما لو كانوا هم أصحاب فلسطين، ويجب أن يتصرّفوا حتىٰ ذلك الحين الذي تتحوّل فيه إلىٰ دولة يهودية»[1]، ولم يكن هذا مجرد خطابة فارغة، بل كان خطة عمل؛ فمنذ أواخر القرن التاسع عشر، كان الصهاينة يعملون علىٰ تطوير البنية التحتية لدولة يهودية في فلسطين، وبحلول أواخر الثلاثينيات، كانت جميع مكونات الدولة اليهودية المحتملة تقريبًا تعمل في إطار الانتداب البريطاني.

في الوقت نفسه، بدأ الصهاينة جهودًا منظمة لتجنيد الولايات المتحدة لتكون الدولة الراعية الجديدة خلفًا لبريطانيا. تحت أي ظروف، كان من الممكن أن يحدث هذا التحول حتىٰ بدون الورقة البيضاء. من ناحية أخرىٰ، عندما عاثت الجيوش النازية في غالب القارة الأوروبية، توقع الصهاينة أن هذا سيدمر قاعدتهم في أوروبا القارية؛ كما يمكنهم أيضًا توقّع أن بريطانيا -حتىٰ في حالة هزيمة ألمانيا- ستتخلّىٰ عن مكانتها في الهيمنة العالمية لصالح الولايات المتحدة. وأخيرًا، قدّمت الولايات المتحدة -التي تضم أكبر شريحة من يهود الشتات وأكثرهم تأثيرًا ونفوذًا- قاعدة أكثر موثوقية وأمنًا للعمليات الصهيونية من بريطانيا[2]، ونتيجة لذلك، لم يدع الصهاينة الوقت يداهمهم، وشرعوا علىٰ الفور في تنظيم الجهود لتجنيد الولايات المتحدة للعب دور البلد الراعي الجديد[3].

---

(1) Laqueur, A History of Zionism, 530.

(٢) إليك تقييم موشيه شيرتوك (Moshe Shertok) في عام ١٩٣٩ لقوة الشتات اليهودي في الولايات المتحدة: «هناك الملايين من اليهود النشطين والمنظمين جيدًا في أمريكا، وموقعهم في الحياة السياسية يتيح لهم أن يكونوا أكثر ديناميكية وتأثيرًا. إنهم يعيشون في المراكز الحيوية في البلاد، ويشغلون مناصب مهمة في السياسة والتجارة والصحافة والمسرح والإذاعة، ويمكنهم التأثير علىٰ الرأي العام، لكن قوتهم غير محسوسة؛ لأنه لا يتم تسخيرها وتوجيهها نحو الهدف الصحيح».
Khalidi, From Haven to Conquest, li

(٣) في عام ١٩٣٩ كتب ديفيد بن غوريون: «من جهتي، لم يكن لدي أدنىٰ شك في أن مركز ثقل =

ازداد النشاط الصهيوني في الولايات المتحدة بشكل كبير بعد عام ١٩٣٩، وعلىٰ الرغم من أن السفر كان محفوفًا بالمخاطر أثناء الحرب، استطاع كلٌّ من بن غوريون وحاييم وايزمان السفر إلىٰ الولايات المتحدة في عامي ١٩٤٠ و١٩٤٢، وظلوا هناك لفترات طويلة؛ حيث التقىٰ وايزمان بالرئيس روزفلت في كلتا الزيارتين[١]، وفي مايو ١٩٤٢ عقد الصهاينة مؤتمر بالتيمور في نيويورك بحضور جميع الأحزاب الصهيونية الأمريكية، حيث أعلنوا فيه تأسيس الذراع العسكرية المعلنة للصهيونية. رفض الصهاينة في بالتيمور الورقة البيضاء وتقسيم فلسطين، وأكّدوا -بشكل قاطع- أنهم لن يرضوا بأقل من دولة يهودية في كل فلسطين؛ وسرعان ما وضع مؤتمر بالتيمور سياسات حاسمة لتوجيه الجهود الصهيونية لحشد وتعبئة موارد اليهود الأمريكيين -ومن ثم الولايات المتحدة- وراء أهدافهم. سار الصهاينة بسرعة كبيرة للترويج لقضيتهم، ونشروا كتبًا مؤيدة للصهيونية، وأرسلوا ملايين المنشورات إلىٰ أعضاء الكونغرس وناخبيهم بالبريد[٢]. وفي أكتوبر ١٩٤٣، نظم الحاخام سيلفر تجمعات حاشدة في عدة مدن كبيرة بما في ذلك نيويورك، وتبع ذلك بعد شهر ١١٨ مسيرة في جميع أنحاء الولايات المتحدة[٣].

سرعان ما أثمرت الحملة الصهيونية بعض النتائج السريعة، كان أهمها: ارتفاع عضوية المنظمة الصهيونية الأمريكية من ٤٣٠٠٠ في عام ١٩٣٩ إلىٰ ٢٠٠٠٠٠ في عام ١٩٤٥، ثم اقتربت من المليون في عام ١٩٤٧. علاوة علىٰ

= جهودنا السياسية قد تحول من بريطانيا العظمىٰ إلىٰ أمريكا، التي كانت تتأكد -عن طريقنا- من كونها القوة الرائدة في العالم؛ وإلا فأين يمكننا العثور علىٰ أكبر عدد من اليهود، وأكثرهم نفوذًا؟ كانت كل أوروبا تحت السيطرة النازية؛ صحيح أن هتلر سيُهزم، لكن أوروبا ستخرج من الحرب ضعيفة ومعتمدة لسنوات عديدة علىٰ المساعدات الاقتصادية من الولايات المتحدة». Bar-Zohar, Ben-Gurion, 64.

(1) Laqueur, A History of Zionism, 537.

(2) Smith, Palestine and the Arab-Israeli Conflict, 117-8.

(3) Libo and Skakun, The Clash of the Titans.

ذلك، تُرجم هذا النمو بسرعة إلىٰ نشاط سياسي؛ لأن معظم أعضاء المنظمة كانوا يشاركون -بنشاط وهمة- في الحملات والضغط، ولم يفتروا عن كتابة الرسائل وإرسال البرقيات، والمساهمة بالمال لدعم القضايا الصهيونية. يمكننا رؤية النجاح الصهيوني أيضًا في سجل جمع الأموال لدىٰ جمعية النداء اليهودي الموحد، فقد زاد ما يجنونه من تبرعات بأكثر من أربعة عشر ضعفًا خلال فترة مماثلة، حيث ارتفعت حصيلتهم من ١٤ مليون دولار في عام ١٩٤٠ إلىٰ ١٥٠ مليون دولار في عام ١٩٤٧[١].

ووفقًا لوالتر لاكوير، فإن «التعاطف مع الصهيونية وفلسطين قد ازداد بسرعة أكبر وعلىٰ نطاق أوسع مما يعكسه ارتفاع عضوية المنظمة الصهيونية الأمريكية؛ لقد أصبحت الغالبية العظمىٰ من يهود أمريكا مؤيدين للصهيونية، بينما كانت الأغلبية في الماضي غير مبالية أو حتىٰ تناصب الصهيونية العداء»[٢]. بالإضافة إلىٰ ذلك، أنشأ الصهاينة منظمة مسيحية صهيونية جديدة، وأعادوا تنشيط منظمات أخرىٰ -اللجنة الأمريكية الفلسطينية والمجلس المسيحي لفلسطين- وذلك للضغط علىٰ الكونغرس، وحشد الدعم الشعبي لمنح المرشحين المؤيدين للصهيونية ميزة في انتخابات الكونغرس[٣].

أسفر النشاط الصهيوني المكثّف خلال سنوات الحرب عن مكاسب هامة علىٰ الساحة العامة وفي الكونغرس، أهمها: أن الصهاينة «تمكّنوا من خلق مناخ من الرأي العام المؤيد للصهيونية بين المشرّعين ووجهاء الكنيسة والصحفيين والجمهور»[٤]، وفي نوفمبر ١٩٤٢ وقّع ٦٨ عضوًا في مجلس الشيوخ، و١٩٤ عضوًا في الكونغرس، ومئات من الشخصيات العامة البارزة الأخرىٰ علىٰ بيان

(1) Laqueur, A History of Zionism, 549; Christison, Perceptions of Palestine, 73.

(2) Laqueur, A History of Zionism, 549-50.

(3) Smith, Palestine and the Arab-Israeli Conflict, 118; Laqueur, A History of Zionism, 118.

(4) Laqueur, A History of Zionism, 556.

يؤيد إنشاء دولة يهودية في فلسطين[1]، وفي يناير ١٩٤٤ ضغط الصهاينة علىٰ مجلس الشيوخ لتمرير قرار يلغي الورقة البيضاء لعام ١٩٣٩، ويؤيد إنشاء دولة يهودية في فلسطين؛ وفي وقت لاحق من العام نفسه، أقنع الحاخام أبا سيلفر وإيمانويل نيومان مؤتمر الحزبين الديمقراطي والجمهوري بالمصادقة علىٰ قرار تافت فاغنر الذي يدعم الهجرة اليهودية غير المحدودة وإنشاء دولة يهودية في فلسطين، ودمجهما في برامج حزبهما. وفي أكتوبر ١٩٤٥ أصدر الكونغرس قرارًا مشتركًا -بعد أن عرقله الرئيس ووزارة الخارجية في مناسبتين سابقتين- يدعو إلىٰ إنشاء دولة يهودية في فلسطين[2]، وفي عام ١٩٤٥ أقنع اللوبي الصهيوني ثلاث وثلاثين هيئة تشريعية في الولايات لتمرير قرارات لصالح قيام دولة يهودية في فلسطين؛ ومرةً أخرىٰ، في يوليو من نفس العام -قبل أن يغادر الرئيس ترومان لحضور قمة مع تشرشل وستالين في بوتسدام- حثّ الصهاينة ٣٧ حاكمًا علىٰ إرسال البرقيات، ووقّع أكثر من نصف أعضاء الكونغرس بيانًا يدعو إلىٰ رفع قيود الهجرة في فلسطين[3].

إلا أن النفوذ الصهيوني لم يكن ينعم بهيمنة خالية من القيود في ظلّ رئاسة روزفلت؛ ولا يستبعد أن والتر لاكوير كان مستهدفًا عندما أعلن أنه «بمجرد أن اصطدم الصهاينة بوزارة الخارجية والبنتاغون والبيت الأبيض، وجدوا أنفسهم أمام مصالح وقوىٰ أعلىٰ من مصالحهم، ولم يعد استدعاء مأساة الشعب اليهودي يجدي نفعًا»[4]، ففي حين عارضت وزارة الخارجية والبنتاغون المواقف الصهيونية -بشدّة- خلال الحرب؛ استطاع الرئيس روزفلت أن يلعب علىٰ كلا الجانبين؛ فقد قدّم وعودًا للصهاينة عندما تصاعدت ضغوطهم، وفي نفس الوقت طمأن

---

(1) Ibid., 551.

(2) Ibid., 554-55.

(3) Christison, Perceptions of Palestine, 73.

(4) Laqueur, A History of Zionism, 556.

العرب بأن أي قرار بشأن فلسطين لن يُتَّخذ دون موافقتهم. وتحت الضغط الصهيوني في عام ١٩٣٩، سعىٰ الرئيس لثني رئيس الوزراء تشامبرلين (Chamberlain) عن إصدار الوثيقة البيضاء، لكنه تراجع عندما حذره تشامبرلين من أن استمرار الالتزام البريطاني بالصهيونية سيؤدي بالتأكيد إلىٰ إشعال فتيل الغضب العربي، وأن الأمر سيتطلب ٥٠٠ ألف جندي أمريكي لقمع هذه الانتفاضة العربية الوشيكة[١].

لكن لم يتمكن روزفلت من إمساك العصا من المنتصف لفترة طويلة، فقد تجاوز -في مرحلة ما- تقديم الوعود؛ ففي عام ١٩٣٩ بدأ يناقش مع القاضي برانديز خطة لنقل من ٢٠٠٠٠٠ إلىٰ ٣٠٠٠٠٠ فلسطيني إلىٰ العراق؛ وبعد عام، طرح هذه الخطة مرة أخرىٰ علىٰ حاييم وايزمان[٢]، وعلىٰ الرغم من أن روزفلت كان علىٰ علم بالمعارضة العربية الشديدة للصهيونية، إلا أنه كان يعتقد بإمكان شراء العرب «بثمنٍ بخسٍ». في عام ١٩٤٣ وبناءً علىٰ طلب من حاييم وايزمان -وخلافًا لنصيحة وزارة الخارجية- أرسل روزفلت العقيد هارولد هوسكينز (Harold B. Hoskins) إلىٰ المملكة العربية السعودية لعرض ٢٠ مليون جنيه إسترليني علىٰ العاهل السعودي، وتوليته مركز قيادة «اتحاد عربي»، في مقابل تعاونه مع خطة روزفلت للتطهير العرقي؛ إلا أن العاهل السعودي رفض لقاء القادة الصهاينة من أساسه لبحث هذا العرض؛ واستشاط غضبًا من ظنهم أنه قد يخون شعبه مقابل رشوة[٣]، وعندما فشلت بعثته الدبلوماسية إلىٰ الملك السعودي، اقترح الرئيس خطة لوضع فلسطين تحت وصاية الأمم المتحدة، وكان لا يزال يتابع هذه الخطة في ذلك الوقت حتىٰ وفاته[٤].

---

(1) Druks, The Uncertain Friendship, 39-41, 55-56.

(2) Christison, Perceptions of Palestine, 49.

(3) Bain, The March to Zion, 20; Davidson, America's Palestine, 150-2.

(4) Davidson, America's Palestine, 172.

تمثّل فترة ولاية الرئيس ترومان تغييرًا جذريًا في السياسة الرسمية للولايات المتحدة تجاه التطلّعات الصهيونية؛ ففي آب/أغسطس ١٩٤٥ -بعد أشهر من توليه منصبه- كتب الرئيس إلىٰ رئيس الوزراء البريطاني كليمنت أتلي (Clement Attlee) رسالة يقترح فيها السماح بدخول المشردين اليهود الذين يعيشون في مخيمات اللاجئين في أوروبا إلىٰ فلسطين «بأكبر عدد ممكن»، وفي أبريل ١٩٤٦ أعرب بقوة عن تأييده لاقتراح اللجنة الأنجلوأمريكية للسماح بدخول ١٠٠٠٠٠ نازح يهودي إلىٰ فلسطين وإزالة كل القيود المفروضة علىٰ شراء اليهود للأراضي. وفي الوقت نفسه، تجاهل التوصية الأولية للجنة بوضع فلسطين تحت وصاية الأمم المتحدة، وفي تموز/ يوليو ١٩٤٦ -مع اقتراب موعد الانتخابات النصفية- رفض ترومان مرة أخرىٰ تقرير لجنة موريسون-جرادي (Morrison-Grady Commission)، التي اقترحت وضع فلسطين تحت وصاية الأمم المتحدة -بعد تقسيمها إلىٰ «مناطق شبه مستقلة»- ودعا الدول الأخرىٰ إلىٰ قبول اللاجئين اليهود، وعدم وضع العبء كله علىٰ فلسطين. من ناحية أخرىٰ، استمر تصاعد الضغط الأمريكي علىٰ بريطانيا لتقسيم فلسطين وفتحها أمام الهجرة اليهودية، وبحلول يوليو ١٩٤٦ كان الرئيس يهدد بقطع قروض ما بعد الحرب عن بريطانيا. وفي أغسطس ١٩٤٦ بعد انسحاب الصهاينة من إعلان بالتيمور مطالبين بإنشاء دولة يهودية في كل فلسطين، لم يتوان ترومان عن تأييد خطة تقسيم فلسطين[١]. بالإضافة إلىٰ ذلك، تعرّض البريطانيون خلال عام ١٩٤٦ إلىٰ ضغوط متزايدة من الولايات المتحدة -بما في ذلك تجميد القروض التي تم التفاوض عليها في وقت سابق-؛ وذلك للتراجع عن خطتهم لاستخدام القوة العسكرية لحل الهاجاناه (Haganah)، وهي القوة العسكرية التي أنشأها اليشوف[٢].

---

(1) Ibid., 177, 180-81, 183.

(2) Khalidi, Palestine Reborn, 60.

كتب وزير الدفاع جيمس فورستال (James Forrestal): «يقول البريطانيون إنهم لا يستطيعون فعل كل ما يودون القيام به من أجل العرب بسبب الضغط الذي تمكنّا من ممارسته علىٰ القرض البريطاني».

sharabi, Palestine and Israel, 25.

واستسلامًا لهذه الضغوط، اتخذت بريطانيا في فبراير ١٩٤٧ خطوة غير مسبوقة في تاريخها الاستعماري الطويل، ألا وهي: مغادرة فلسطين من جانب واحد، دون إقامة دولة أو عدة دول، وفي الوقت نفسه، ألقىٰ البريطانيون علىٰ عاتق الأمم المتحدة مسؤولية حلّ الفوضىٰ التي أحدثوها في فلسطين، أما في الأمم المتحدة، فقد كانت معظم مفاتيح اللعبة في قبضة الولايات المتحدة، واستعمل ترومان جميع صلاحيات مكتبه لضمان ترجمة الأهداف الصهيونية إلىٰ السياسة الأمريكية. كما روّجت الولايات المتحدة لخطة جديدة لتقسيم فلسطين تلبّي جميع مطالب الصهاينة تقريبًا، ووفقًا لآفي شلايم (Avi Shlaim)، «في جميع القضايا البارزة -التقسيم، والوصاية، والاعتراف بدولة إسرائيل، وحظر الأسلحة، والتصرف في صحراء النقب- كان ترومان -الذي كان يعمل تحت ضغوط صهيونية قوية في عام الانتخابات الرئاسية- مؤيدًا للصهيونية علىٰ طول الخط»[١].

لقد كان الدعم المستمر الذي قدّمه ترومان لإنشاء دولة يهودية في فلسطين يتناقض تناقضًا حادًا مع النصيحة الواضحة التي تلقّاها من جميع المسؤولين البارزين الذين عيّنهم في وزارتي الخارجية والدفاع، وكذلك في الفروع المختلفة للجيش؛ وعلق أبا إيبان (Abba Eban) -أول سفير لإسرائيل لدىٰ الولايات المتحدة- علىٰ ذلك بقوله: «لقد كان رئيسًا يقاتل ضد تيار من الأشخاص المتخصصين الذين أحاط نفسه بهم»[٢].

استندت معارضة هؤلاء «المتخصصين» لإنشاء دولة يهودية إلىٰ اعتبارين: الموقع الاستراتيجي للشرق الأوسط، واحتياطياته الغنيّة من النفط[٣]، فرغم أن

---

(1) Shlaim, "The Impact of U.S. Policy," 17.

(2) Benson, Harry S. Truman and the Founding of Israel, 78.

(٣) «وفقًا لخطط الحرب الطارئة التي وُضعت في أواخر الأربعينيات من قبل خبراء استراتيجيين في واشنطن ولندن، فإن القواعد العسكرية في الدول العربية ستكون ضرورية للنجاح في أي نزاع مسلح =

الولايات المتحدة استطاعت توفير ٨٤٪ من النفط اللازم لدعم الحلفاء، توقّع الجيولوجيون في الأربعينيات من القرن الماضي أن احتياطي أمريكا المحلي ستنضب بحلول نهاية الخمسينيات؛ وقد كان هذا يعني -من بين أمور أخرىٰ- أن تعافي أوروبا سيكون مستحيلًا بدون نفط الشرق الأوسط. بالإضافة إلىٰ ذلك، كانت وزارة الدفاع وهيئة الأركان المشتركة قلقين من أن الدولة اليهودية الجديدة سوف تجنح نحو الشيوعية؛ وفي ظل هذه الظروف، حذّر مستشارو الرئيس للسياسة الخارجية من أن دعم إنشاء دولة يهودية سيكون كارثة علىٰ الولايات المتحدة[1]، في وقت مبكر من أغسطس ١٩٤٥، كتب رئيس مكتب شؤون الشرق الأدنىٰ وأفريقيا لوي هندرسون (Loy Henderson) مذكرة إلىٰ وزير الخارجية يقول فيها: «في الوقت الحاضر، تتمتّع الولايات المتحدة بمكانة أخلاقية عالية في الشرقين الأدنىٰ والأوسط، لم تصل إليها أي قوة عظمىٰ أخرىٰ» إلا أنها بدعمها إنشاء دولة يهودية في فلسطين، فإن الولايات المتحدة «ستفقد تلك المكانة، ومن المحتمل أن تُعتبر لسنوات عديدة خائنة للمبادئ السامية التي أعلنَّا عنها بأنفسنا خلال فترة الحرب»[2]، وكتب مسؤول آخر في وزارة الخارجية أن هذا سيكون «خطأ فادحًا في عُرْف الإدارة السياسية للدولة»[3]، وفي كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ كتب مدير تخطيط السياسات جورج فورست كينان (George F. Kennan): «ستتعرض هيبة الولايات المتحدة في العالم الإسلامي لضربة قاسية، كما ستتضرّر المصالح الاستراتيجية الأمريكية في البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنىٰ

= مع الاتحاد السوفيتي. إن امتلاك قواعد في مصر سيمكّن الحلفاء الغربيين من شنّ هجوم جوي مباغت ضد قلب الصناعة السوفيتية، وتجميع القوات المدرعة للقيام بعمل بريّ هجومي، ووضع عمليات جمع المعلومات الاستخبارية والدعاية والعمليات السرية بالقرب من حدود العدو. أعطت قناة السويس والطرق الجوية بين الأقاليم ومرافق الاتصالات الأخرىٰ للشرق الأوسط أهمية أمنية إضافية في عمليات السلام والحرب». Hahn, Caught in the Middle East, 21.

(1) Benson, Harry S. Truman and the Founding of Israel, 82, 84.

(2) Davidson, America's Palestine, 176.

(3) Benson, Harry S. Truman and the Founding of Israel, 80.

بشدة؛ وستظلّ مصالحنا الحيوية في تلك المناطق تتأثر سلبًا طالما أننا نواصل دعم قرار التقسيم»[1].

بعض الكُتَّاب يميلون إلىٰ الاعتقاد بأن دعم الرئيس ترومان للأهداف الصهيونية كان معتمدًا علىٰ حسّه الأخلاقي، فقد فعل «ما شعر أنه صحيح، عندما شعر أنه صحيح»[2]، إلا أن هذا رأي ساذج، فهو يشير إلىٰ أن رئيس الولايات المتحدة ليس الرئيس التنفيذي لأعظم قوة في العالم، بل مجرد قائد لجيش إنقاذ، وعلاوة علىٰ ذلك، فهناك قدر كبير من الأدلة التي تشير إلىٰ أن الرئيس ترومان كان سياسيًّا محنّكًا تأثرت سياساته في فلسطين باللوبي اليهودي، ومساهمات الحملة اليهودية، ودعم الأصوات الناخبة اليهودية.

يمكننا القول إن عمل الضغط اليهودي كان علىٰ ثلاثة مستويات؛ فمن ناحية، كان للصهاينة البارزين وصول مباشر إلىٰ الرئيس، واستخدموا هذه القناة في كل منعطف للتأثير علىٰ قراراته بشأن فلسطين. بالإضافة إلىٰ ذلك، قامت المنظمات الصهيونية بإغراق النظام السياسي -علىٰ المستوىٰ الفيدرالي ومستوىٰ الولايات- بالأفكار الصهيونية[3]، وحتىٰ أعضاء الكونغرس أيضًا -استجابةً لمطالب الصهاينة- كانوا يمارسون الضغط -باستمرار- علىٰ الرئيس للاستجابة للمطالب الصهيونية. وأخيرًا، قامت المنظمات الصهيونية باستعراض قوتها السياسية من خلال توجيه أعضائها لإغراق البيت الأبيض بالرسائل والبرقيات والمكالمات الهاتفية[4]. إجمالًا: كانت الضغوط علىٰ الرئيس شديدة للغاية، حتىٰ

---

(1) Davidson, America's Palestine, 188.

(2) Benson, Harry S. Truman and the Founding of Israel, 196.

(3) Christison, Perceptions of Palestine, 73.

(٤) «أجرىٰ بعض مساعدي ترومان دراسة لمراسلات فلسطين، ووضعوا إحصاءات مفصّلة تمتد من عام ١٩٤٦ حتىٰ عام ١٩٥١، فتبين أنه من عام ١٩٤٧ إلىٰ عام ١٩٤٨، تلقّىٰ ترومان ٤٨٦٠٠ برقية، و٧٩٠٥٧٥ بطاقة، و٨١٢٠٠ مرسول بريدي آخر -وهو رقم قياسي يتجاوز بكثير أرقام البريد غير المرغوب فيه لأي رئيس حتىٰ ذلك الوقت- وفي عام ١٩٤٨ -خلال فترة ثلاثة أشهر فقط- تلقّىٰ ترومان ٣٠١,٩٠٠ بطاقة بريدية من نفس المكان».

Benson, Harry S. Truman and the Founding of Israel, 94.

أنه في رسالة إلىٰ عضو الكونغرس اليهودي آرثر كلاين (Arthur Klein) -في مايو ١٩٤٨- كتب ترومان أنه لم يرَ قط «حشدًا كثيرًا، وضغطًا منظمًا» مثل ما رآه من قبل اليهود[1].

والأهم من ذلك، أن الرئيس ترومان -الذي لم يرث أو يصنع ثروة شخصية- كان يعتمد أكثر من أي رئيس قبله أو بعده علىٰ المانحين من القطاع الخاص، وكثير منهم من اليهود؛ فقد جاء تمويل حملته كمرشح لمنصب نائب الرئيس عام ١٩٤٤ من ديوي ستون (Dewey Stone)، وهو من أثرياء الصهاينة الأمريكيين المخلصين[2]، وخلال فترة ولايته الأولىٰ في منصبه، تكونت «دائرة صغيرة شبه سريّة من اليهود الأثرياء . . .الذين تسرّبوا إلىٰ حاشية ترومان القريبة»؛ كما عمل عدد قليل من هؤلاء اليهود الأثرياء كسفراء بديلين وغير رسميين مع الصهاينة البارزين. علاوة علىٰ ذلك، في سبتمبر ١٩٤٨، عندما كانت فرصه في إعادة انتخابه في خطر شديد -بعد أن نفد المال وكان ترتيبه غير مبشّر في استطلاعات الرأي- كان لدىٰ الرئيس ومستشاروه خطة أخيرة يائسة لإنقاذ الحملة من خلال جولة من الخطابات عبر البلاد؛ واستطاع أبراهام فاينبرج (Abraham Feinberg) جمع الأموال لهذه الجولة -البالغة ١٠٠٠٠٠ دولار- في غضون يومين، وقال ترومان معترفًا بالفضل لأهله: «لولا صديقي آبي ما كنت لأقوم بهذه الجولة ولم أكن لأنتخب»[3].

في عام ١٩٤٨ -عام الانتخابات- لم يكن حجم الأصوات اليهودية بعيدًا عن حسابات ترومان ومستشاريه السياسيين، ففي عام ١٩٤٥، عندما التقىٰ أربعة رؤساء بعثات من الشرق الأدنىٰ بالرئيس ترومان لتقديم مخاوفهم بشأن تأثير السياسات الأمريكية المتعلقة بفلسطين علىٰ الشرق الأوسط، أجاب بصراحة: «أنا

(1) Benson, Harry S. Truman and the Founding of Israel, 95.

(2) Miglietta, American Alliance Policy, 112.

(3) Cohen, Truman and Israel, 70, 72-73.

آسف أيها السادة، لكن عليّ أن أحقق آمال مئات الآلاف ممن يتوقون لنجاح الصهيونية؛ وليس هناك مئات الآلاف مثلهم من العرب بين ناخبيّ»[١]، وفي ١٢ مايو ١٩٤٨ -في اجتماع حول توقيت الاعتراف بإسرائيل- حذّر وكيل وزارة الخارجية روبرت لوفيت (Robert Lovett) من أن الاعتراف المبكر سوف يُنظر إليه علىٰ أنه «محاولة مفضوحة للغاية لكسب التصويت اليهودي»، وذكّر وزير الخارجية مارشال -الذي كان حاضرًا أيضًا في الاجتماع- الرئيس بالنصيحة التي قدّمها له كلارك كليفورد (Clark Clifford)، وهي أن إعلان دعم الولايات المتحدة لإنشاء إسرائيل في اليوم التالي لإنشائها كانت «قائمة بالمقام الأول علىٰ اعتبارات سياسية محلية»، و«مراوغة علنية لكسب بضعة أصوات»[٢].

أخيرًا، لننظر في تبادل الآراء بين وزير الدفاع جيمس فورستال (James Forrestal) والرئيس ترومان في أوائل عام ١٩٤٨؛ كتب جيمس فورستال:

«قلتُ: إنني أعمل علىٰ توجيه جهودي فقط لإخراج هذه المسألة عن السياسة، فقال ترومان: إن هذا مستحيل، وإن الأمة كانت ملتزمة للغاية؛ وعلاوة علىٰ ذلك: فإن الحزب الديمقراطي سيخسر، وسيجني الجمهوريون فوائد هذا الاتفاق. فرأيت أنني مجبر علىٰ أن أكرر له ما قلتُه للسيناتور ماكغراث ردًّا علىٰ ملاحظة الأخير بأن فشلنا في مواكبة طموحات الصهاينة قد يُفقدنا أصوات ولايات نيويورك وبنسلفانيا وكاليفورنيا، حتىٰ من الممكن أن أقول إن الوقت قد حان ليفكر شخص ما في حقيقة أننا كنا سنخسر الولايات المتحدة بأكملها»[٣]

بداية من الرئيس أيزنهاور، عندما توجب الاختيار بين مصالح البلاد ومصالح اللوبي الإسرائيلي، لم يكن لدىٰ أي رئيس أمريكي رفاهية التساؤل عما إذا كان اللوبي يدفعه لاتخاذ قرارات قد تلحق بالولايات المتحدة ضررًا لا يمكن إصلاحه.

---

(1) Benson, Harry S. Truman and the Founding of Israel, 175.

(2) Ibid., 156-57.

(3) Millis, The Forrestal Diaries, 344, quoted in Sharabi, Palestine and Israel, 24-25.

الفصل السادس عشر
من العبء الاستراتيجي إلى الرصيد الاستراتيجي

«يبدو لي -ولجميع أعضاء مكتبي المهتمين بالشرق الأوسط- أن السياسة التي نتبعها (دعم قرار التقسيم) تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة، وستوقعنا في النهاية في صعوبات دولية . . . نحن نخسر صداقة العالم العربي، ونزرع بذور عداء عربي طويل الأمد تجاهنا».

لوي هندرسون (Loy Henderson)، نوفمبر ١٩٤٧

«لقد تعرّضت مكانة الولايات المتحدة في العالم الإسلامي لضربة شديدة، كما تعرضت المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة في البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنىٰ لخطر داهم».

جورج كينان (George F. Kennan)، يناير ١٩٤٨

«تتمتّع الولايات المتحدة بعلاقة خاصة مع إسرائيل في الشرق الأوسط، تلك العلاقة التي لا يُمكن مقارنتها إلا بالعلاقة التي تربطها ببريطانيا في مجموعة واسعة من الشؤون

العالمية . . . أعتقد أنه من الواضح تمامًا أنه في حالة حدوث غزو؛ فإن الولايات المتحدة ستدعم إسرائيل».

جون كينيدي (John F. Kennedy)، ديسمبر ١٩٦٢[١]

لم يستطع الصهاينة استجلاب الرعاية الأمريكية لمشروعهم الاحتلالي بسبب التقارب المسبق لمصالحهم الاستراتيجية؛ بدلًا من ذلك، كان هذا التقارب المؤقت والمحدود نتيجة الرعاية نفسها، ومن هنا يمكننا القول إن إسرائيل استغلت -ببراعة- هذا التقارب الذاتي لتعميق السياسات الأمريكية المؤيدة لإسرائيل، وجعلها راسخة ثابتة لا رجعة فيها.

كان من الواضح لصانعي السياسة الأمريكية -قبل وبعد إنشاء إسرائيل- أن دعمهم للأهداف الصهيونية من شأنه التسبّب في إلحاق ضرر جسيم بالمصالح الاستراتيجية الدائمة للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، فقبل إنشاء إسرائيل، كانت الصهيونية عبئًا وعائقًا استراتيجيًّا -وليست رصيدًا استراتيجيًّا- للولايات المتحدة؛ إلا أنه منذ أن تسبّب قيام دولة إسرائيل في شيوع نزعات تطرفية في العالم العربي، أضحىٰ من المعقول النظر للادعاءات الصهيونية بأن دولة يهودية في فلسطين من شأنها خدمة مصالح الغرب علىٰ أنها نبوءة تحقق ذاتها. لقد أضفىٰ قيام دولة إسرائيل علىٰ القومية العربية نزوعًا راديكاليًا، مما دفع قيادة حركات التحرر في العديد من الدول العربية إلىٰ الجنوح نحو برامج تأميم وتخطيط يسارية، كما أوجد معارضة صارمة لوجود رأس المال الغربي في المنطقة؛ وزاد أيضًا من حِدّة التطلّعات العربية إلىٰ الوحدة والقوة العسكرية، حيث كان يُنظر إليها بوصفها شروطًا ضروريةً لاستئصال الدولة الاحتلالية

(1) Davidson, America's Palestine, 184; Grose, Israel in the Mind of America, 258; Mansour, Beyond Alliance, 82.

كان لوي هندرسون مدير مكتب وزارة الخارجية لمكتب شؤون الشرق الأدنىٰ وأفريقيا.

الاستيطانية في المنطقة. وبمجرد أن تنشط وتتبلور هذه الاتجاهات المتطرفة -التي كانت تهدد المصالح الغربية في الشرق الأوسط- يمكن لإسرائيل -بقليل من العقلنة- الادّعاء بأنها -وحدها- أفضل دفاع ضد التهديدات العربية للمصالح الغربية؛ ولسان حالها: فقط أعطونا ما يكفي من الأسلحة والأموال، وامنحونا حصانة من القوانين الدولية؛ وسنقطع دابر الحركة القومية العربية، قبل أن تتمكّن من تحقيق أي من أهدافها.

لقد وقع العداء العربي للولايات المتحدة -الناتج عن قيام إسرائيل- في حلقة مفرغة؛ فبمجرد أن بدأت الولايات المتحدة والقوىٰ الغربية الأخرىٰ بوضع كامل ثقلها الاستراتيجي خلف إسرائيل، بدأ العرب ينظرون إلىٰ إسرائيل بقلق أكبر من ذي قبل؛ كما أشعل هذا الإنذار فتيل الميول المتطرفة في جميع أنحاء العالم العربي، وأجبرهم علىٰ اللجوء إلىٰ السوفييت للحصول علىٰ المساعدة الاقتصادية والأسلحة، الأمر الذي زاد من الخطر الذي يتهدّد الحلفاء والمصالح الغربية في المنطقة؛ علاوة علىٰ ذلك، توسّعت إسرائيل بسرعة، ولم تدّخر جهدًا في تعزيز هذه الحلقة المفرغة. اتّبعت إسرائيل -مسلّحة بأحدث ما أنتجته الولايات المتحدة، ومدعومة بكميات هائلة من المساعدات الاقتصادية، ومعزولة عن عقوبات القوانين الدولية- سياسات عمّقت العداء العربي والإسلامي تجاه الولايات المتحدة؛ وبمرور الوقت، نالت إسرائيل بعد تمكّنها من هزيمة مصر وسوريا استحسان الولايات المتحدة، لتثبيطها التهديد القومي العربي لمصالحها الاستراتيجية في الشرق الأوسط. ألهمت هذه الإنجازات الصهيونية الفصيلين الرئيسيين في اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة -اليهود والمسيحيون- وأصبحا منظمين بشكل أفضل للاستفادة من هذه المكاسب. وفي مرحلةٍ ما -مع استمرار تنامي قوته- أصبح اللوبي الإسرائيلي هو القوة المهيمنة التي ترسم السياسات الأمريكية تجاه الشرق الأوسط.



كشف الفصل الحادي عشر زيف الادعاءات القائلة بأن الدعم البريطاني للمشروع الصهيوني في أواخر عام ١٩١٧ جاء انطلاقًا من مصالحها الاستراتيجية الدائمة في الشرق الأوسط؛ بل كان هذا الدعم -خلال مرحلة صعبة في الحرب العالمية الأولىٰ- مقايضةً للوعود الصهيونية بالتأثير علىٰ الولايات المتحدة لتثبت حضورًا مبكرًا وأكثر اكتمالًا في الحرب إلىٰ جانب الحلفاء. قد تكون الميول الصهيونية لمجلس الوزراء البريطاني برئاسة لويد جورج (Lloyd George) -الذي تولىٰ منصبه في ديسمبر ١٩١٦- قد ساهمت أيضًا في هذا القرار؛ إلا أنه في السنوات التي سبقت عام ١٩١٧ -ورغم الضغط الصهيوني المكثّف- كان أفضل عرض قدّمه البريطانيون للصهاينة هو فتح شرق كينيا أمام المستوطنين اليهود. بالإضافة إلىٰ ذلك، لم يمضِ وقت طويل علىٰ نهاية الحرب العالمية الأولىٰ حتىٰ بدأ البريطانيون في إظهار ارتيابهم حيال التزامهم بالصهيونية، فاستبعدوا الأردن من الانتداب علىٰ فلسطين، وفي عام ١٩٣٩ تبرّأوا علنًا من الأهداف الصهيونية في فلسطين. باختصار: كان الدعم البريطاني للصهيونية في عام ١٩١٧ نابعًا من حدثين انتقاليين: وصول الصهاينة المسيحيين إلىٰ السلطة، والضروريات التي يفرضها زمن الحرب.

خلال هذه السنوات الأُوَل، لم تدعم الولايات المتحدة الصهيونية لأسباب استراتيجية أيضًا، ففي الوقت الذي ضغط فيه الصهاينة علىٰ القوىٰ الأوروبية الكبرىٰ قبل الحرب العالمية الأولىٰ، لم يكونوا يعتقدون أن الولايات المتحدة لديها القدرة علىٰ تنفيذ مشروعهم، وذلك لأسباب واضحة؛ ففي ذلك الوقت، لم تكن الولايات المتحدة سوىٰ قوة إقليمية لها مصالح في أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي والفلبين، ولم يكن لها -آنذاك- أن تطمع في أي مصالح ذات شأن في الشرق الأوسط، تلك المنطقة التي كانت ساحة تنافس القوىٰ الأوروبية الكبرىٰ. وإذا كانت الولايات المتحدة قد قدّمت دعمًا رمزيًا لوعد بلفور في ذلك الوقت -وقد فعلت ذلك بحماس- فما كان هذا إلا نتيجة للضغوط المحلية التي أذكتها المنظمات الصهيونية الموجّهة من أوروبا، والتي كانت تحشد اليهود

الأمريكيين والصهاينة المسيحيين لتوليد الدعم للصهيونية في المجالس التشريعية في الولايات والكونغرس والبيت الأبيض. لقد كان الصهاينة يستغلّون الوجود اليهودي في الولايات المتحدة، وهو الوجود اليهودي الأكبر والأكثر ازدهارًا، والأكثر تأثيرًا في العالم.

في أوائل القرن العشرين، كان المنصرون البروتستانت هم المجموعة الأقدم والأفضل تنظيمًا من الأمريكيين الذين لهم مصالح في الإمبراطورية العثمانية، وكانوا يعارضون الصهيونية، فقد كانوا يمتلكون كنائس ومستشفيات ومدارس وكليات ومطابع -معظمها في سوريا الكبرىٰ- لدعم جهودهم التبشيرية بين المسيحيين المنتمين إلىٰ كنائس شرقية مختلفة، واحترامًا لهؤلاء المنصّرين، استبعد الرئيس ويلسون الإمبراطورية العثمانية من إعلان الحرب ضد دول المحور، وقرب نهاية الحرب العالمية الأولىٰ، دعمت المؤسسة التنصيرية حق العرب في تقرير مصيرهم، وأقنعوا الرئيس ويلسون بإرسال لجنة -مع مندوبين من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا- لتحديد ما إذا كان العرب في الإمبراطورية العثمانية السابقة مستعدّين لتحمل عبء الحكم الذاتي[1]، عارضت هذه اللجنة -برئاسة اثنين من الأمريكيين، وبدون مشاركة بريطانيا وفرنسا- إقامة دولة يهودية في فلسطين؛ لأن هذا ينتهك مبدأ تقرير المصير. لقد شكّل هذا المبدأ -آنذاك- الأساس المتين الذي اعتمدت عليه معارضة الرئيس ويلسون للهيمنة العالمية للقوىٰ الاحتلالية الأوروبية.

لماذا إذن رضيت الولايات المتحدة بأن تحلّ محل بريطانيا عندما تراجعت الأخيرة عن موقفها من الصهيونية في عام ١٩٣٩؟ يبدو أن المنطق الكامن وراء فكّ الارتباط البريطاني عن الصهيونية ينطبق بنفس القوة علىٰ الولايات المتحدة. كان من الواضح لمعظم المراقبين أن الولايات المتحدة -في ختام الحرب العالمية الثانية- ستخلف بريطانيا علىٰ عرش القوة العظمىٰ في الشرق الأوسط. بالإضافة

(1) Davidson, America's Palestine, 19-20; Christison, Perceptions of Palestine, 32-33.

إلىٰ ذلك، أدرك صانعو السياسة الأمريكيون أن قيام دولة يهودية في فلسطين سيدفع القوميين العرب إلىٰ أقصىٰ درجات التطرّف، وسيجبرهم علىٰ طلب الدعم من السوفييت[1]. وإذا لم تتمكن هذه الاحتمالات المعاكسة من تثبيط الدعم غير المشروط من الرئيس ترومان للصهيونية في عام ١٩٤٨ -عام الانتخابات- فهذا لأن مقتضيات السياسة الانتخابية كان لها وزن أكبر من المخاوف بشأن التكاليف الإستراتيجية طويلة المدىٰ لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، وهكذا يمكننا أن نرىٰ -هنا- تفوق السياسة الداخلية علىٰ المصالح الحيوية للولايات المتحدة.

وبمجرد انتهاء الانتخابات، بدأ الرئيس ترومان في إبعاد إدارته عن إسرائيل، صحيحٌ أنه في الفترة التي سبقت قرار الأمم المتحدة بشأن تقسيم فلسطين، كان قد دعم -وبحزم- جميع المواقف الصهيونية[2]، إلا أنه بعد عام ١٩٤٨ -وسعيًا لاسترضاء العرب- بدأت الولايات المتحدة تنأىٰ بنفسها عن إسرائيل، ورفضت استئناف توريد الأسلحة لإسرائيل، الذي عُلّق في وقت سابق في ديسمبر ١٩٤٧. كما قاومت أيضًا -مع استثناءات قليلة- المطالب الإسرائيلية بتقديم مساعدات اقتصادية واسعة النطاق. والأهم من ذلك، أن الولايات المتحدة أبعدت إسرائيل عن الترتيبات الدفاعية التي سعت إلىٰ إجرائها مع دول الشرق الأوسط ضد السوفييت. من الواضح إذن أنه بدون انتخابات تلوح في الأفق، كان لدىٰ الرئيس ترومان حرية أكبر في مقاومة الضغوط الداخلية للصهاينة.

❀ ❀ ❀

---

(١) «عمليًا: عارض كل بيروقراطيي الشؤون الخارجية بما في ذلك وزارتي الخارجية والحرب (الدفاع لاحقًا) وهيئة الأركان المشتركة إنشاء إسرائيل من وجهة نظر المصالح الأمريكية».

Rubenberg, Israel and the American National Interest, 9-10.

(٢) «فيما يتعلق بجميع القضايا البارزة -التقسيم، والوصاية، والاعتراف بدولة إسرائيل، وحظر الأسلحة، وصحراء النقب- كان ترومان في صف الصهيونية دائمًا». Shlaim, "The Impact of U.S. Policy in the Middle East," 17.

لم تستطع الولايات المتحدة أن تنأىٰ بنفسها عن إسرائيل لفترة طويلة؛ فلم تكن إسرائيل عائقًا عاديًّا يمكن التضحية به بمجرد أن تبدأ تكاليف دعمها تنعكس علىٰ مصالح الوطن.

لم تستطع الولايات المتحدة الانفصال عن إسرائيل حتىٰ مع تزايد التوترات في الحرب الباردة، والتي أدّت إلىٰ زيادة التكاليف الاستراتيجية لإسكات العرب، والسبب في ذلك واضح؛ حيث لم تتوقف القوىٰ المحلية التي حشدتها الصهيونية عن العمل في الولايات المتحدة حتىٰ بعد قيام دولة إسرائيل. ستظلّ الصهيونية اليهودية، والصهيونية المسيحية، ومعاداة السامية (في نسختها المسيانية، مثل التدبيرية)، والتعصب الأعمىٰ المعادي للإسلام؛ سمات دائمة للمشهد السياسي في الولايات المتحدة. وبجانب هذه القوات الموالية للصهيونية، أضافت الحرب العالمية الثانية واحدة جديدة ألا وهي: وزر الهولوكوست، الذي عززته باستمرار المنظمات الصهيونية وأنصار الصهاينة في الولايات المتحدة. في الواقع، ستستمر هذه القوىٰ في استمداد قوتها من وجود إسرائيل؛ فقد كان المسيحيون الصهاينة -علىٰ وجه الخصوص- ينظرون إلىٰ إنشاء إسرائيل علىٰ أنه تأكيد لقراءتهم لنبوءات الكتاب المقدس؛ ومن هنا -وبدعم وقيادة من إسرائيل- ستكتسب المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة قوة أيضًا.

شجّعت الصهيونية اليهود والمسيحيين علىٰ النظر إلىٰ أديانهم باعتبارها ديانات متكاملة؛ حيث يرىٰ الغربيون دعمهم لإسرائيل -خاصة بعد الهولوكوست- كبداية للتعافي والتكفير عن قرون من الاضطهاد المسيحي لليهود. ومن ناحية أخرىٰ، ستنظر إسرائيل والولايات المتحدة إلىٰ نفسيهما علىٰ أنهما البطلان الرئيسيان في حضارة ذات جذور قديمة مشتركة أعيد تعريفها الآن علىٰ أنها جذور يهودية -مسيحية. لقد كان هذا التحالف واعدًا جدًّا؛ لأن من شأنه تسخير طاقة وإبداع اليهود والأغيار؛ لزيادة قوة الولايات المتحدة وإسرائيل، وبمجرد وضع هذا الإطار اليهودي- المسيحي الجديد، سيصبح مصير الغرب -والولايات

المتحدة علىٰ وجه الخصوص- مرتبطًا ببقاء إسرائيل، إلىٰ الدرجة التي يستحيل معها الفصل بينهما.

كان هناك عامل آخر يلعب دورًا في ترسيخ الإطار اليهودي المسيحي؛ فإذا قضىٰ المشروع الصهيوني نحبه مبكرًا، وإذا انقلبت تعويذة إحياء القوة اليهودية في فلسطين في الألفية الثانية إلىٰ لعنة أبدية؛ فإن اليهود سيلقون باللائمة علىٰ الولايات المتحدة في هذه الكارثة، وسيرون في ذلك خيانة عظمىٰ لا تُغتفر؛ وسيثير هذا حفيظة اليهود ضد الولايات المتحدة إلىٰ الأبد، وهو الاحتمال الذي يقضّ مضاجع القادة الأمريكيين؛ لأنهم لم يرغبوا في أن يصبحوا أهدافًا للعداء اليهودي.

ستواصل معاداة السامية أيضًا -حتىٰ أثناء انحسارها- القيام بدور سلبي في الحفاظ علىٰ الدعم الغربي للدولة اليهودية؛ ففي جميع الاحتمالات، سيؤدي حل دولة إسرائيل اليهودية إلىٰ تحميل الولايات المتحدة وأوروبا الغربية عبء نقل وإعادة تسكين اليهود، وبالتأكيد هذا السيناريو غير مرحّب به؛ فإذا كانت المجتمعات الغربية -جزئيًا علىٰ الأقل- قد دعمت الصهيونية كوسيلة للتخلّص من اليهود، فإن لديها مصلحة مساوية -إن لم تكن أقوىٰ- من مصلحة الصهيونية في ضمان عدم عودة اليهود الإسرائيليين إلىٰ «إزعاج» هذه المجتمعات. ونظرًا لتزايد عدد السكان اليهود في إسرائيل بمرور الوقت -تجاوزوا الآن ستة ملايين- فلا ينبغي الاستهانة بقوة مصلحة معاداة السامية في إبقاء هؤلاء اليهود في إسرائيل وخارج الدول الغربية.

كانت إسرائيل مصدر فخر للغربيين أيضًا؛ فقد شعر الكثيرون في الغرب بتعاطف غريزي مع الدولة الجديدة التي أسسها يهود غربيون؛ لأنهم حملوا لواء القيم الغربية، زاعمين حماية المصالح الغربية في الشرق الأوسط الإسلامي. وفي الوقت الذي كانت فيه القوة الغربية تتراجع عبر آسيا وأفريقيا، رأىٰ العديد من الغربيين أن إنشاء إسرائيل يعكس هذا الاتجاه، فقد أعادت إسرائيل ترسيخ القوة

الغربية في المناطق الإسلامية. كما مثّلت إسرائيل لبعض المسيحيين حملة صليبية جديدة بقيادة يهود الغرب لاستعادة الأرض المقدسة من المسلمين «الكفار»؛ ومع وجود روابط كثيرة بينها وبين العالم الغربي، لم تكن إسرائيل مسؤولية عادية؛ لقد أوجد الغرب هذه المسؤولية، ولا يمكنه الآن التراجع عن الدفاع عنها.

ستستثمر إسرائيل حقيقة أنها عبء استراتيجي؛ فإذا كانت إسرائيل تشكل مسؤولية استراتيجية يجب حمايتها، فإن القادة الإسرائيليين سيسعون إلىٰ تعزيز التهديدات المتصوّرة لإسرائيل؛ وكلما زادت التهديدات المحتملة لهذا «الطفل المُدلل» الذي يحمل مصالح استراتيجية؛ زادت قوة الرغبة الأمريكية في تخصيص الموارد لتعزيز أمنه. كما كانت إسرائيل علىٰ استعداد تام -لكن بحدود- لتصعيد التهديدات الحقيقية التي تواجهها من العرب، طالما كانت مقتنعة بقدرتها التامة علىٰ احتواء هذه التهديدات. وبعيدًا عن تقديم تنازلات للفلسطينيين والعرب لدفع عجلة السلام، كان لإسرائيل مصلحة معاكسة في تصعيد صراعها مع العرب؛ فلن يزداد الدعم الأمريكي لإسرائيل إلا بعد أن تنجح إسرائيل في تصعيد صراعاتها مع خصومها. لقد كان لإسرائيل الحرية في حرمان الفلسطينيين من حق العودة، ومهاجمة الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين في غزة والأردن، وتسريع تدفق المحتلين اليهود إلىٰ إسرائيل، وزيادة تفوقها العسكري علىٰ العرب، والانخراط في هجمات متكررة ضد أهداف عربية، وأي شيء آخر يثير العداء العربي، من شأنه أن يجلب مكاسب كبيرة ويحقق مستويات أعلىٰ من الدعم الأمريكي. كما كان لدىٰ إسرائيل حوافز قوية لتوسيع مشروعها الاحتلالي؛ وفي الوقت نفسه، ستعمل المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة كعدسة مكبّرة تضخّم هذه التهديدات لإسرائيل لتشكّل بها التصورات الأمريكية، ومن ثمّ تضغط علىٰ المؤسسة السياسية لتوسيع الالتزام الأمريكي بإسرائيل.

استطاعت إسرائيل أن تستخرج من كونها عبئًا استراتيجيًّا ميزة أخرىٰ؛ فعلىٰ الرغم من حرصها علىٰ ضمان بقاء إسرائيل، لم تستطع الولايات المتحدة تقديم

ضمانات أمنية لإسرائيل مدعومة بالوجود العسكري الأمريكي أو التهديد بالتدخل العسكري، فهذا من شأنه أن يعمّق الموقف المعادي لأمريكا بين العرب؛ وبدلًا من ذلك، قرّرت الولايات المتحدة دعم إسرائيل بشكل غير مباشر -ومن وراء الكواليس- من خلال بناء الاقتصاد والجيش الإسرائيلي. وقد فضّلت إسرائيل هذا أيضًا؛ لأن هذا سمح لها بالاحتفاظ بأكبر قدر من الاستقلال الذاتي حول كيفية استخدام قوتها العسكرية المتزايدة. مقابل كل زيادة في تفوّق إسرائيل علىٰ الدول العربية في الخطوط الأمامية، ازدادت فرصة استخدام إسرائيل لهذا التفوّق العسكري لإثارة العداء العربي؛ وفي الوقت المناسب، سيتحوّل رافد العداء العربي -بشكل متزايد- ضد الولايات المتحدة بصفتها الراعي الرئيسي لإسرائيل، وعند هذه النقطة، يمكن أن يبدأ اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة في القول -بمعقولية أكثر من ذي قبل- أن إسرائيل وحدها هي من يمكنها الدفاع عن المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، ومن خلال هذا المنطق الصهيوني، ستكتسب إسرائيل بشكل متزايد مظهر الرصيد الاستراتيجي.

لو لم توجد إسرائيل لكان بإمكان القومية العربية أن تسعىٰ في توحيد العرب، وترنو إلىٰ رفع النير البريطاني عن المملكة العربية السعودية والمشيخات في الخليج العربي؛ وفي سعيها وراء هذه الأهداف البعيدة عن الراديكالية، كان من المرجح أن يلجأ القوميون العرب إلىٰ الولايات المتحدة بدلًا من الاتحاد السوفيتي؛ لأن القومية العربية -كانت في الغالب- حركة برجوازية بالأساس؛ وفي الوقت نفسه، كان للولايات المتحدة مصلحة كبرىٰ في دعم القوميين العرب؛ لأنها أرادت إبعاد البريطانيين والفرنسيين من المنطقة، و-الأهم من ذلك- إبقاء السوفيت خارجها؛ إلا أن دعم الولايات المتحدة لإسرائيل جعل هذا التحالف مستحيلًا، فالدول العربية القومية -مصر وسوريا والعراق والجزائر وليبيا- لا يمكنها أن تجمع بين رفض إسرائيل والتحالف مع الولايات المتحدة، ومن ثمّ لم يكن لديهم خيار سوىٰ إقامة تحالفات مع الاتحاد السوفيتي.

بمجرد تحالف القوميين العرب مع الاتحاد السوفيتي، أصبح الشرق الأوسط ساحة رئيسية لصراع الحرب الباردة؛ لقد كانت إسرائيل تنتظر هذه اللحظة لإظهار قيمتها الاستراتيجية للغرب من خلال قهر الدول القومية العربية الرائدة. في عام ١٩٥٦ شنّت إسرائيل حربها الأولىٰ للإطاحة بالقوميين العرب الذين استولوا علىٰ السلطة في مصر، إلا أن هذه الحرب لم تكن خيارًا صائبًا، لأنها جرت بالتحالف مع بريطانيا وفرنسا -وهما قوتان استعماريتان في طور التراجع والاضمحلال- سعيا إلىٰ استعادة هيبتهما السابقة في مستعمراتهما الواسعة؛ ونتيجة لذلك، تدخلت الولايات المتحدة لوقف الحرب قبل أن تتمكن من تحقيق أهدافها، بل وأجبرت إسرائيل علىٰ التخلّي عن احتلالها لسيناء.

لكن أثبتت إسرائيل -علىٰ الرغم من انسحابها- امتلاكها القدرة العسكرية اللازمة لتعمل لصالح الغرب كحصن ضد الطموحات القومية العربية. وبحسب كاتب عمود سياسي إسرائيلي، في عام ١٩٥٨، فإن الجنرال موشيه ديان (Moshe Dayan) يعتقد أن «للشعب اليهودي مهمة محددة -وخاصة فصيله الإسرائيلي- في هذا الجزء من العالم، يجب أن تكون إسرائيل -كامتداد للغرب- هي الصخرة التي ستتحطم عليها أمواج القومية الناصرية العربية»[1]. لقد أخطأت إسرائيل عام ١٩٥٦ في اختيار التحالف مع القوىٰ الغربية التي عفا عليها الزمن، لكن عندما شنّت إسرائيل الحرب مرةً أخرىٰ ضد القوميين العرب في عام ١٩٦٧ حلّت الولايات المتحدة محل بريطانيا باعتبارها القوة الغربية المهيمنة في الشرق الأوسط. بالإضافة إلىٰ ذلك، شكّلت الأنظمة القومية العربية في سوريا والعراق وليبيا والجزائر -بالتحالف مع الاتحاد السوفيتي- تهديدًا متزايدًا لكل من إسرائيل والمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط. لقد كان توقيت الضربة الاستباقية التي شنتها إسرائيل علىٰ العرب في حزيران/ يونيو ١٩٦٧ محسوبًا بدقة، وبتخطيط

---

(1) Schweitzer, "Moshe Dayan," quoted in Beit-Hallahmi, The Israeli Connection, 5.

محكم، وعرفت إسرائيل -هذه المرّة- كيف ستنال نتيجة حربها استحسان الولايات المتحدة.

لم يكن قيام إسرائيل هو النقطة التي ستتوقف بعدها القوىٰ المحلية الداعمة لها في الولايات المتحدة؛ بل علىٰ العكس من ذلك، كان إنشاء إسرائيل ونجاحاتها العسكرية المتزايدة دافعًا لهذه القوات إلىٰ المزيد من العمل؛ ولذلك استمرت المنظمات اليهودية الكبرىٰ في زيادة نفوذها علىٰ العملية الانتخابية، كما أسسوا مراكز فكرية مستخدمين الوجود اليهودي في وسائل الإعلام والأوساط الأكاديمية لتقديم إسرائيل كرصيد استراتيجي؛ كما قاموا بمراقبة الخطاب العام بغرض استبعاد التقييمات النقدية لتأثير إسرائيل علىٰ المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط. يمكننا أن نقول إنه في الوقت الذي عملت فيه إسرائيل علىٰ استثارة عداء العرب، كانت جماعات الضغط الموالية لإسرائيل تمارس نفوذها علىٰ الكونغرس والبيت الأبيض، لاتخاذ مواقف داعمة لإسرائيل، بلا أي انتقادات؛ فقد ضغطوا لتوسيع المساعدة العسكرية والاقتصادية الأمريكية لإسرائيل، ولتعميق التعاون الاستراتيجي مع إسرائيل، ومنح إسرائيل حصانة ضد انتهاكات القوانين الدولية، ومنحها حق الوصول المميز إلىٰ التكنولوجيا والأسواق الأمريكية، والاستعانة بمصادر خارجية لأنشطة إسرائيل السرية في العالم الثالث. بعبارة أخرىٰ: كان لللوبي الإسرائيلي أجندة مزدوجة، فقد سعوا إلىٰ تعزيز قدرة إسرائيل علىٰ متابعة أجندتها العدوانية ضد جيرانها؛ ومن ناحية أخرىٰ، عملوا علىٰ ضمان مرور الإفساد الذي تمارسه إسرائيل في الشرق الأوسط دون ملاحظة أو نقد.

❁ ❁ ❁

بمجرد أن تتبوأ إسرائيل مكانها، فإن وجودها -بحد ذاته- سوف يجذب اهتمام القوىٰ الأوروبية ذات الرهانات السياسية والاقتصادية في الشرق الأوسط، وسوف يميلون إلىٰ وضع إسرائيل علىٰ رأس حربة الجهود الغربية لمنع صعود قومية عربية قوية، وبدلًا من التصالح مع الحركات القومية العربية الناشئة،

ومقابلتها في منتصف الطريق لمنع تطرّفها؛ جنحت القوىٰ الغربية إلىٰ استخدام إسرائيل لإضعاف التطلّعات القومية للمنطقة أو وأدها. لم تكن هذه الاستراتيجية خالية من المخاطر؛ فقد تُعجّل التطرف الذي سعت إلىٰ استباقه، وتُجبر القوميين العرب علىٰ طلب المساعدة من السوفييت، مما يؤدي إلىٰ التدخل السوفييتي المباشر؛ لكن مع هذه المخاطر لم تتردد بريطانيا وفرنسا في استخدام إسرائيل لتعزيز نفوذهما المتقلّص في المنطقة. بمجرد قيام إسرائيل في الشرق الأوسط -تلك النبتة التي زُرعت في غير أرضها، وذلك الخصم اللدود للعرب- فإنها ستغري باستمرار القوىٰ الغربية التي تتعارض مصالحها مع التطلعات القومية للعرب.

ونتيجة لذلك، تتابعت القوىٰ العظمىٰ، الواحدة تلو الأخرىٰ، في الدخول إلىٰ حلبة الصراع مع الشرق الأوسط إلىٰ جانب إسرائيل، وأمدّتها بالمساعدات والأسلحة علىٰ أمل أن تتمكن من استخدامها لتأمين مصالحها في المنطقة. اكتشفت فرنسا في الخمسينيات أن مصالحها الاستراتيجية تتماشىٰ مع دعم إسرائيل الآن، فسعت إلىٰ تقوية إسرائيل لتثبيط التهديد المتزايد الذي تشكله مصر -بمحاولتها قيادة حركات التحرر العربية- علىٰ ممتلكاتها الثمينة في شمال وغرب أفريقيا، وخصوصًا إمداداتها النفطية التي تمر عبر قناة السويس[1]. تصاعد القلق الفرنسي حيال مصر عندما أخلت بريطانيا قواتها من منطقة القناة في عام ١٩٥٤، وفي العام نفسه اتخذ النضال الجزائري من أجل الاستقلال منعطفًا عنيفًا؛ وعندما أمَّمَ جمال عبد الناصر قناة السويس في يوليو ١٩٥٦، دخل البريطانيون والفرنسيون سرًّا في صفقة عسكرية مع إسرائيل لغزو مصر. كان هدف هذا العدوان الثلاثي هزيمة الجيش المصري، واحتلال قناة السويس، والإطاحة بالحكومة القومية الجديدة، واستبدالها بأخرىٰ تخدم مصالحهم. لم تُعجِب الولايات المتحدة هذه المحاولة اليائسة التي قامت بها قوتان استعماريتان تترنحان

---

(1) Crosbie, A Tacit Alliance, 16-20.

لإنقاذ ثرواتهما الضائعة في الشرق الأوسط، كما عارضها السوفييت أيضًا؛ ومن ثمّ كان لا بد من إلغاء هذه الهجمة العنترية الاحتلالية.

بعد أن نأت بنفسها عن المشروع الصهيوني لأكثر من عقد من الزمان -بدءًا من عام ١٩٣٩- عادت بريطانيا مرةً أخرىٰ إلىٰ الساحة بحثًا عن تحالف مع الدولة اليهودية بعد وقت قصير من إنشائها؛ ففي عام ١٩٥٠، كان الجيش البريطاني «يقيّم -بعناية- القيمة اللوجستية لإسرائيل»، مع الأخذ في الاعتبار الطرق والجسور والموانئ التي بناها البريطانيون في فلسطين أثناء احتلالهم؛ وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٥١ كان البريطانيون يبحثون مع القيادة «فرص إقامة قواعد في إسرائيل -لاسيما في منطقة غزة- بالإضافة إلىٰ ممر استراتيجي للقوات البريطانية عبر صحراء النقب إلىٰ الأردن الهاشمية»، لكن هذه المحاولات المبكرة لإقامة شراكة عسكرية بين بريطانيا وإسرائيل لم تؤت أكلها؛ ففي كانون الثاني/ يناير١٩٥٤ خلُص رئيس الوزراء البريطاني إلىٰ أنهم لا يرغبون في أن تعتمد سياستهم العسكرية في الشرق الأوسط «إما كليًا أو بشكل أساسي علىٰ التعاون مع إسرائيل»[1]، إلا أن بريطانيا تخلّت عن هذا التحذير بعد عامين عندما دخلت في شراكة مع فرنسا وإسرائيل في محاولة لإعادة تأكيد السيطرة الاستعمارية علىٰ مصر بعد تأميم قناة السويس.

يصعب تفسير الدعم الذي قدّمه الاتحاد السوفييتي للصهاينة في ثلاث مناسبات كبرىٰ، ففي عام ١٩٤٧، وجّه الاتحاد السوفييتي تصويت الكتلة الاشتراكية لصالح قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين. وفي عام ١٩٤٨ كلّف السوفييت تشيكوسلوفاكيا بنقل إمدادات كبيرة من الأسلحة الثقيلة إلىٰ اليشوف، مما أدىٰ إلىٰ قلب التوازن العسكري لصالح إسرائيل؛ كما كان الاتحاد السوفييتي ثاني دولة تعترف بإسرائيل، والسؤال: لماذا اختار السوفييت الإطاحة برغبات العرب وتقويض الأحزاب الشيوعية العربية بتصويتهم لإقامة دولة احتلالية يهودية

(1) Sachar, Israel and Europe, 14-15, 18.

في فلسطين؟ لا تزال دوافعهم غامضة، إلا أن هناك حجتين شهيرتين: لقد توقعوا أن يؤدي إنشاء إسرائيل إلىٰ تسريع الانسحاب البريطاني من المنطقة، كما رأوا في إسرائيل حليفًا قريبًا بسبب طبيعتها الاشتراكية الظاهرة؛ لكن كلتيهما ليست مقنعة؛ فقد كان البريطانيون في طريقهم للخروج علىٰ أية حال، وإن الطابع الاشتراكي لإسرائيل كان قشرة أكثر من كونه لُبًّا. ربما كان السوفييت ينظرون إلىٰ الأمر باستراتيجية أعمق؛ فبدون إسرائيل، من المستبعد أن تتخلّىٰ أي من الأنظمة العربية عن اعتمادها علىٰ الغرب؛ وحده الغضب العربي علىٰ إسرائيل هو ما سيفتح الشرق الأوسط أمام النفوذ السوفيتي؛ ومن هنا كان إنشاء إسرائيل يخدم -بشكل غير مباشر- مصالح السوفييت أيضًا.

أثار الدعم السوفيتي المبكّر لإسرائيل -والذي سارعت إسرائيل إلىٰ استغلاله- مخاوف في الولايات المتحدة؛ وفي الفترة التي تلت عام ١٩٤٨، سعت إسرائيل -بعناية- إلىٰ تعميق هذا القلق من خلال الوقوف في منطقة رمادية حيال الحرب الباردة. ما كشفت عنه الأحداث في النهاية يجعلنا نجزم بأن إسرائيل لم تنشئ اقتصادًا اشتراكيًّا، ولا انضمت إلىٰ المعسكر السوفيتي في الحرب الباردة، لكن هذا كان أقل وضوحًا لصانعي السياسة الغربيين آنذاك. ومن أجل إبعادها عن المعسكر السوفيتي، كانت الولايات المتحدة حريصةً جدًّا علىٰ تقوية علاقاتها مع إسرائيل -العلاقات السريّة بالتأكيد- كوسيلة لترسيخ وجود إسرائيل في صف الترسانة الغربية. كان من الممكن لإسرائيل المتحالفة مع الاتحاد السوفيتي أن تغيّر الترتيبات القائمة في الشرق الأوسط بطرق مقلقة للغاية للقوىٰ الغربية؛ فقد كان من الممكن أن يشكّل التحالف السوفيتي الذي يضم إسرائيل ومصر وسوريا تحديًا خطرًا للسيطرة الغربية علىٰ النفط في الخليج العربي.

لقد كانت إسرائيل في موضع جلب لها مزيدًا من الدعم والحظّ، لدرجة أن تدعم مجموعة متنوعة من القوىٰ العظمىٰ في القرن العشرين المشروع الاحتلالي

لليهود الغربيين في فلسطين. تبدو إسرائيل «معجزة» فقط إذا لم نأخذ بعين الاعتبار القوىٰ التي كانت تعمل علىٰ إنجاحها، لقد كان اليهود الغربيون شريحة رائدة في المجتمعات الغربية، صحيحٌ أنهم كانوا مكروهين من قبل «مضيفيهم»، إلا أنهم تمتّعوا بنفوذ شديد علىٰ القوىٰ الغربية الكبرىٰ. من ناحية أخرىٰ، كانت الأراضي الفلسطينية التي استهدفها الاحتلال في ذلك الوقت متخلّفة، وليس لدىٰ شعبها وعي قومي قوي. كما كان المجتمع العربي الأكبر -الذي كانت فلسطين جزءًا منه- متخلّفًا، وضعيفًا، ومنقسمًا، ولا يزال يرزح تحت نير الاحتلال الأجنبي، ولم يكن لهذا المجتمع -ودينه وحضارته- تعاطف يُذكر في الخطاب الغربي. وفي الوقت نفسه، كانت كل واحدة من القوىٰ الغربية العظمىٰ تتطلع إلىٰ المنطقة بسبب أصولها الاستراتيجية الرئيسية: النفط وقناة السويس. إن «معجزة» إسرائيل ما هي إلا نتاج إجماع مجموعة متنوعة من القوىٰ القوية علىٰ الوقوف بجانب الصهيونية. بإمكاننا الحديث عن حاجة الصهاينة إلىٰ معجزة حقيقية لو أرادوا إنشاء دولة يهودية في جزء من أوروبا؛ المنطقة التي ينتمون إليها؛ لقد كان القرار الصهيوني باختيار فلسطين -بدلًا من مقاطعة في ألمانيا أو فرنسا- خطوة مدروسة بحنكة، فقد تمكّن هذا الخيار -في الحال- من حشد دعم كل تلك القوىٰ الغربية التي وقفت -سرًّا وعلانية- خصمًا تاريخيًّا وثقافيًّا للعالم الإسلامي.

الفصل السابع عشر
استثارة عداوة العرب

«سيسعىٰ [الصهاينة] إلىٰ إشراك [الولايات المتحدة] في سلسلة من العمليات التي تتسع وتتعمق باستمرار، والتي تهدف إلىٰ تأمين أقصىٰ قدر من الأهداف اليهودية».
هيئة الأركان الأمريكية المشتركة، ١٩٤٨

«خلال السنوات ١٩٥٥-١٩٥٦ (وربما في وقت مبكر من عام ١٩٥٤)، شنّ الجيش الإسرائيلي ضربات انتقامية من أجل جرّ الدول العربية إلىٰ حربٍ مبكرة».
بيني موريس (Benny Morris)، ٢٠٠١[1]

ما هي السياسات التي اختارت إسرائيل اتباعها -خلال العقدين الأولين بعد إنشائها- لتسريع تحولها من عبء استراتيجي إلىٰ رصيد استراتيجي؟

في أبريل ١٩٤٨ -قبل شهر من إنشاء إسرائيل- توقّعت هيئة الأركان المشتركة الأمريكية أن الدولة اليهودية لن تتوان في حشد الأمريكيين لدعم طموحاتهم في الشرق الأوسط، وإبان توقّعهم للاستراتيجية الإسرائيلية، كتبوا أن الصهاينة «سوف يسعون لإشراك الولايات المتحدة في سلسلة من العمليات التي

(1) Green, Taking Sides, 20; Morris, Righteous Victims, 276.

تتّسع وتتعمّق باستمرار، والتي تهدف إلىٰ تأمين أقصىٰ قدر من الأهداف اليهودية»؛ إن الصهاينة طموحون: سوف يسعون مبدئيًّا إلىٰ السيادة اليهودية علىٰ جزء من فلسطين، واستجلاب مصادقة القوىٰ العظمىٰ علىٰ حق اليهود في الهجرة غير المحدودة، ثم بسط السيادة اليهودية علىٰ كل فلسطين، وتوسيع «أرض إسرائيل» لتمتد إلىٰ الأردن وأجزاء من لبنان وسوريا، ومن ثم بسط الهيمنة اليهودية علىٰ الشرق الأوسط بأكمله، ويضيف التقرير «لسوء الحظ أن جميع مراحل هذا البرنامج لها نفس القداسة بين مفاهيم القادة اليهود المتعصبين»[١].

وبدلًا من السعي إلىٰ تسوية، انتهج الإسرائيليون سياسة الاستفزاز ضد الفلسطينيين وجيرانهم العرب[٢]، فمنعوا عودة اللاجئين الفلسطينيين، وهاجموهم عندما حاولوا العودة إلىٰ أراضيهم، واستمروا في خلق لاجئين فلسطينيين جدد[٣]، كما محوا آثار أكثر من ٤٠٠ قرية فلسطينية في إسرائيل بتطهيرها من

---

(1) Green, Taking Sides, 20-21.

(٢) علم خبراء القوات الجوية والجيش الأمريكي في عام ١٩٥٠ أن إسرائيل هي «القوة العظمىٰ» المهيمنة في المنطقة. في الواقع، رفضوا المطالب الإسرائيلية بتوفير أنظمة أسلحة كبيرة في مايو ١٩٥٠ -علىٰ الأقل جزئيًا- لأن هذا «سيزيد من قدرات إسرائيل الهجومية ويعطي الحافز للتخطيط الهجومي». Hahn, Caught in the Middle East, 73.

(٣) فيما يتعلق بالتطهير العرقي المستمر للفلسطينيين، كتب جوناثان كوك (Jonathan Cook): «استمرت عمليات الطرد المنظمة والصغيرة للفلسطينيين طوال السنوات الأولىٰ للدولة. في عام ١٩٥٠، علىٰ سبيل المثال، نُقِل ما تبقىٰ من السكان الفلسطينيين في بلدة المجدل البالغ عددهم ٢٧٠٠ نسمة عبر الحدود إلىٰ قطاع غزة . . . كما طُرِد ما يصل إلىٰ ٧٠٠٠ بدوي من صحراء النقب، إما إلىٰ الأراضي الأردنية أو المصرية، خلال عام بداية من تشرين الثاني/ نوفمبر١٩٤٩. وأُجبِر أكثر من ٥٠٠٠ فلسطيني علىٰ مغادرة قراهم في منطقة وادي عارا، كما أجبروا علىٰ العبور إلىٰ الضفة الغربية في صيف عام ١٩٤٩». وفوق ذلك، وتحت غطاء حرب السويس عام ١٩٥٦، كانت إسرائيل تخطط لطرد ٤٠ ألف مواطن عربي إلىٰ الأردن. وقد جاءت هذه الخطة بنتائج عكسية بسبب المجزرة الإسرائيلية في كفر قاسم، لكنها طردت ٢٠٠٠ فلسطيني من قريتين في الجليل إلىٰ سوريا.

Cook, Blood and Religion, 112-13.

سكانها في حرب عام ١٩٤٨، وصعّدوا حرب الاستنزاف، ورفضوا مبادرات السلام من العرب، حتىٰ أنهم سعوا إلىٰ تحويل مسار مياه نهر الأردن من جانبهم[١]، من الواضح إذن أن الإسرائيليين لم يسعوا إلىٰ التسوية مع العرب.

خدمت هذه الاستفزازات مجموعة متنوعة من الأهداف الإسرائيلية، فقد عمّقوا الغضب العربي، وجعلوا السياسة العربية متطرّفة، كما ألّبوا القوميين العرب علىٰ الولايات المتحدة. لقد روّج الصهاينة لرواية تاريخية مزيّفة عن حرب ١٩٤٨، زاعمين أن المستوطنين اليهود نجحوا بشق الأنفس في تجنّب الإبادة علىٰ أيدي الجيوش العربية الغازية[٢]، وبعد الحرب، قدّمت إسرائيل نفسها كدولة صغيرة، ومحاصرة، ومعرضة لخطر داهم مستمر من قبل جيرانها العرب المعادين، كما قدّمت إسرائيل معلومات استخباراتية للولايات المتحدة تبالغ في القوة العسكرية للدول القومية العربية[٣]، ومن أجل الحفاظ علىٰ هذه الصورة، استمرّت إسرائيل في استفزاز الدول العربية المجاورة، تلك الدول التي كان الإسرائيليون يعرفون جيدًا أنها عاجزة عن الانتقام. ومع ذلك، فبعد إجبار العرب علىٰ حفظ ماء الوجه، أشبع العرب رغبة إسرائيل بإطلاقهم خطابًا عدائيًّا ضدها. ومن ثمّ استخدمت إسرائيل هذه التهديدات العربية الجوفاء للمطالبة بمساعدات عسكرية واقتصادية موسّعة من الغرب. كما أن سياسة الاستفزاز الإسرائيلية كانت تهدف إلىٰ إجبار العرب علىٰ اللجوء إلىٰ الاتحاد السوفيتي طلبًا للمساعدة

---

(١) كانت خطة تحويل منابع المياه خطة لجامعة الدول العربية تهدف لتحويل اثنين من المصادر الثلاثة لنهر الأردن، ومنعها من التدفق إلىٰ بحيرة طبريا، من أجل إحباط خطط إسرائيل لاستخدام مياه الحاصباني وبانياس في مشروعها الوطني لناقلات المياه من أجل الري من الأحواض. وقد وافقت الجامعة العربية علىٰ الخطة في عام ١٩٦٤ ولكن إسرائيل منعت تطوير المشروع بشن ضربات جوية علىٰ الأراضي السورية في أبريل ١٩٦٧. (المترجم).

(2) Rubenberg, Israel and the American National Interest, 51.

(٣) كتب ميرشايمر (Mearsheimer) ووالت (Walt) في (The Israel Lobby): «قبل حرب الأيام الست . . . رسمت تقييمات المخابرات الإسرائيلية صورة قاتمة ومخيفة للقدرات والنوايا المصرية، والتي اعتقد مسؤولو المخابرات الأمريكية أنها غير صحيحة وذات دوافع سياسية».

العسكرية؛ وبمجرد حدوث ذلك، كان من شبه المؤكد أن تقف القوىٰ الغربية بجانب إسرائيل باعتبارها خط دفاعها الأول ضد التهديدات العربية لمصالحها في الشرق الأوسط.

واستكمالًا للأعمال الإسرائيلية علىٰ أرض الواقع، ضغط الصهاينة -بلا كلل- علىٰ الولايات المتحدة للاعتراف بإسرائيل كرصيد إستراتيجي. خلال الخمسينيات من القرن الماضي، عرضت إسرائيل مرارًا وتكرارًا أن تصبح الذراع العسكري للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وفي عامي ١٩٥٠ و١٩٥١ عرضت إسرائيل علىٰ الولايات المتحدة إنشاء قواعد عسكرية في صحراء النقب، كما لم تتأخر عن الانضمام إلىٰ اتفاقية دفاع إقليمية ضد السوفييت، وعرضت تشكيل جيش قوامه ٢٥٠ ألفًا لمحاربة الاتحاد السوفيتي(١)، وفي ديسمبر ١٩٥٠ دعت وزارة الخارجية الإسرائيلية الولايات المتحدة سرًّا إلىٰ تخزين الأسلحة والمواد الغذائية والمواد الخام في إسرائيل، مما يعني: توريد الأسلحة لإسرائيل؛ وترسيخ مكانة إسرائيل كمنتج رئيسي للأسلحة. كان هذا الاقتراح -المعروف باسم اتفاقية المخزون الاحتياطي- جزءًا من محاولة بن غوريون لإقناع واشنطن بجعل إسرائيل «القاعدة وورشة العمل ومخزن الحبوب» الأمريكي في الشرق الأوسط. رفضت واشنطن الاقتراح لأنها لم تكن ترغب في بناء سياسة شرق أوسطية تتمحور حول إسرائيل، فقد كانت تعبئة المنطقة بأكملها ضد السوفييت تخدم مصالحها بشكل أفضل(٢)، إلا أنه هذا لم يثبط عزيمة الإسرائيليين؛ فبعد تأميم قناة السويس، أخبر أبا إيبان (Abba Eban) مبعوثًا أمريكيًّا أن إسرائيل كانت الشريك الوحيد الموثوق به للغرب في الشرق الأوسط؛ ومن ثم يتعيّن علىٰ الولايات المتحدة «اتخاذ خطوات فورية لوضع [إسرائيل] في مكانة تمكنها من أن تكون معقلا للقوة»(٣)، إلا أن الولايات المتحدة لم تكن مقتنعة بهذه الخطوة، علىٰ الأقل حتىٰ ذلك الوقت.

---

(1) Gazit, "Israeli Military Procurement," 89.

(2) Mansour, Beyond Alliance, 73.

(3) Ben-Zvi, The United States and Israel, 54.

في السنوات التي سبقت إنشاء إسرائيل، حذّر كبار المسؤولين في وزارتي الخارجية والدفاع في عهد الرئيس ترومان -علىٰ حد تعبير بيتر هان (Peter Hahn)- من أن الدعم الأمريكي للصهيونية «من شأنه أن يشعل حربًا في الشرق الأوسط، ويقوّض المصالح الأمريكية في العالم العربي، وسيدفع الدول العربية إلىٰ شراكة مع الاتحاد السوفيتي»(١). لم تدخر إسرائيل جهدًا لضمان تحقيق هذه التنبؤات في مجملها، وقد تسبب التفوق العسكري الإسرائيلي المتزايد، وشراكتها العسكرية الوثيقة مع فرنسا؛ في قلق متزايد في مصر، وعندما شنّت إسرائيل غارة عسكرية واسعة النطاق علىٰ غزة في فبراير ١٩٥٥، أثار هذا الانتهاك الصارخ لسيادتها قلق مصر، فتحركت بسرعة لتحصل في سبتمبر من نفس العام علىٰ شحنة كبيرة من الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا؛ وقد كانت هناك ضغوط إسرائيلية مماثلة أجبرت سوريا من قبلُ علىٰ الحصول علىٰ أسلحة من الاتحاد السوفيتي. وفي يوليو ١٩٥٦، عندما سحب وزير الخارجية دالاس عرض تمويل سد أسوان، قامت مصر بتأميم قناة السويس، وفي أكتوبر من نفس العام، شنّت فرنسا وبريطانيا وإسرائيل حربًا علىٰ مصر -عُرفت باسم حرب السويس- لاستعادة قناة السويس، والإطاحة بالحكومة القومية العربية في القاهرة، وفي الوقت نفسه احتلت إسرائيل سيناء(٢). دفع هذا العدوان الثلاثي مصر بقوة أكبر إلىٰ أحضان المعسكر السوفيتي.

ولات حين مناص؛ فبعد أن بدأت مصر وسوريا علاقة عسكرية مع الاتحاد السوفيتي، أصبحت الولايات المتحدة -التي تأثرت بالفعل باستعراض إسرائيل لقوتها العسكرية في حرب السويس- أكثر استعدادًا للنظر إلىٰ إسرائيل كثقل له وزنه ومفيد ضد صعود القومية الراديكالية في العالم العربي. وشيئًا فشيئًا، سرىٰ الاعتقاد بأن إسرائيل بدأت تتحول إلىٰ رصيد استراتيجي. في مذكرة خرجت في

(1) Hahn, Caught in the Middle East, 28.

(2) Walt, The Origins of Alliances, 61-62.

كانون الثاني/يناير ١٩٥٨، اتخذ مجلس الأمن القومي الموقف القائل بأن دعم إسرائيل -«القوة الوحيدة المؤيدة للغرب المتبقية في الشرق الأدنىٰ»- ينبثق كـ «نتيجة طبيعية» من معارضة الولايات المتحدة للقومية العربية الراديكالية. كان وزير الخارجية ألين دالاس (Allen Dulles) مقتنعًا حينها بأن إسرائيل القوية يمكنها منع مصر من التدخل عسكريًّا لدعم القوىٰ القومية في الدول العربية الصديقة للقوىٰ الغربية، وفي أغسطس ١٩٥٨ أُبلغ أبا إيبان أن الولايات المتحدة مستعدة لتجهيز إسرائيل «لردع محاولة تمرّد من قبل القوات المحلية»؛ لقد كانت هذه نقطة تحوّل مهمة، فللمرة الأولىٰ -بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٠- وافقت الولايات المتحدة علىٰ تسليم أنظمة أسلحة كبرىٰ لإسرائيل، بما في ذلك بنادق مضادة للدبابات، وعشرين طائرة هليكوبتر من طراز (S-58 Sikorsky)، ونظام إنذار مبكر ضد الغارات الجوية[١]، ومن ذلك الوقت فصاعدًا، عرفت شحنات الأسلحة الأمريكية طريقها لإسرائيل بشكل متزايد.

بدأت سياسة الاستفزاز الإسرائيلية ضد العرب تؤتي ثمارها، فقد تبنّت الولايات المتحدة شيئًا فشيئًا وجهة النظر القائلة بأنه يمكن الاعتماد علىٰ إسرائيل لبدء التهديدات التي تشكّلها الدول العربية الراديكالية المتحالفة مع الاتحاد السوفيتي إذا أُمدت بسخاء بأحدث أنظمة الأسلحة الأمريكية. ولا يهم أن قيام إسرائيل، وتطهيرها العرقي للفلسطينيين، وسياستها الاستفزازية ضد العرب قد أفرز هذه التهديدات أو زادها؛ ما يهم هو الحقائق الجارية علىٰ أرض الواقع. ونظرًا لأن إنشاء إسرائيل كان أمرًا لا مناص منه بالنسبة لحسابات السياسة الغربية، فقد كان بإمكان الولايات المتحدة أن تتصدّىٰ بشكل أفضل للتهديد العربي والسوفييتي من خلال منح إسرائيل تميزًا عسكريًّا طاغيًا علىٰ أعدائها العرب، وإطلاقها لإغراق سفينة القومية العربية.

---

(1) Mansour, Beyond Alliance, 79-81.

لعب اللوبي الإسرائيلي دورًا ثانويًا فقط في إحداث هذا التحوّل في السياسة الأمريكية، صحيحٌ أنه في مناسبتين سابقتين -إقرار وعد بلفور في عام ١٩١٧ وتصويت الأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين- حشد هذا اللوبي شبكته في الولايات المتحدة لتحقيق النتائج التي يريدها، لكن في السنوات التي أعقبت إنشاء إسرائيل، ضعف نفوذ اللوبي الإسرائيلي لسببين: أولًا، في هذه السنوات الأولىٰ الحاسمة من الحرب الباردة، كانت الولايات المتحدة حريصة علىٰ الحدّ من تداعيات إنشاء إسرائيل، وإن الاستسلام أمام اللوبي الإسرائيلي يخاطر بخسارة الشرق الأوسط وسقوطه في قبضة الاتحاد السوفيتي. لقد فهم الإسرائيليون هذا أيضًا، ووافقوا -مع تحفظات- علىٰ قرار الولايات المتحدة بتقديم دعمها بشكل غير مباشر. ثانيًا، كان الجنرال أيزنهاور معزولًا -بشكل أفضل من أي رئيس سابق أو مستقبلي- عن ضغوط اللوبي الإسرائيلي؛ ووفقًا لإدوارد تيفنان (Edward Tivnan) فإن «البطل القومي من البيت الأبيض لا يدين بأي شيء لأي مجموعة مصالح محلية أو خارجية؛ فلأنه رجل جيش محترف، لم يكن يومًا في وضع يسمح له بالاستفادة من الدعم اليهودي أو يتوجه إليه عداء الكونغرس». بالإضافة إلىٰ ذلك، لم يكن الرئيس قلقًا بشأن خسارة التصويت اليهودي، لأنه حصل علىٰ ٣٦٪ فقط من أصواتهم في عام ١٩٥٢[١]. وفي عام ١٩٥٣ عندما واصلت إسرائيل -في تحدٍ للولايات المتحدة- تحويل المياه من نهر الأردن، قام الرئيس أيزنهاور سرًّا بتعليق قرض لإسرائيل، وهدّد بإلغاء حالة الإعفاء الضريبي عن جمعية النداء اليهودي الموحّد، وبعد ذلك بعام، علّق المساعدات لإسرائيل بسبب مذبحة بحق المدنيين في قرية قبية في الضفة الغربية[٢]. وأخيرًا، عندما تباطأ القادة الإسرائيليون في إخلاء سيناء، هدّدت الولايات المتحدة بقطع جميع المساعدات، وطرد إسرائيل من الأمم المتحدة،

---

(1) Burns, Economic Aid and American Policy, 21.

(2) Tivnan, The Lobby, 36-38.

وفرض عقوبات علىٰ البلاد[1]. بالتأكيد لم يكن من الممكن تخيّل أيًا من هذه الأفعال في سبعينيات القرن الماضي، ناهيك عن العقود الأخيرة.

لكن هذا لا يعني أن اللوبي الإسرائيلي كان خامدًا خلال هذه السنوات. في كتابه عن إدارة أيزنهاور، كتب شيرمان آدامز (Sherman Adams) -رئيس أركان البيت الأبيض في الفترة من يناير ١٩٥٣ إلىٰ سبتمبر ١٩٥٨- «كان الرأي العام في الولايات المتحدة المؤيد لإسرائيل عاملًا كبيرًا في كل قرار حكومي بشأن قضايا الشرق الأوسط»[2]. في عام ١٩٥٤ أسّس الصهاينة منظمة ضغط مؤيدة لإسرائيل: المجلس الصهيوني الأمريكي للشؤون العامة، تمهيدًا للجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية، وفي آذار/مارس من العام نفسه، عقد مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الكبرىٰ اجتماعه الأول «لمناقشة أفضل السبل التي يمكن أن يساعد بها يهود أمريكا إسرائيل في مواجهة عداء إدارة أيزنهاور»[3]. وعندما كانت إسرائيل -في كانون الثاني/يناير١٩٥٧- تحت ضغط أمريكي لإخلاء سيناء، أطلقت السفارة الإسرائيلية «حملة إعلامية ضخمة» اتصلت خلالها بمحررين رئيسيين، ورجال في الكونغرس، وقادة عماليين، وبعد شهر التقىٰ ٤١ عضوًا جمهوريًّا في الكونغرس بالرئيس للتعبير عن معارضتهم لقراره بالانسحاب من سيناء إلىٰ أن توافق مصر علىٰ الاعتراف بإسرائيل، وفي الوقت نفسه طالب ٧٥ ديموقراطيًّا بأن تضمن الولايات المتحدة لإسرائيل حق المرور الحرّ عبر مضيق تيران، وعندما اشتدت معارضة الكونغرس لسياسته، ناشد الرئيس الشعب الأمريكي مباشرةً لتخويف الكونغرس. بالإضافة إلىٰ ذلك، دعا آلان دالاس القادة غير اليهود إلىٰ «أن يكونوا أكثر إحساسًا وإدراكًا للموقف، وإلا ستحدث كارثة كبرىٰ»، وفي خطاب ألقاه أمام الكنيسة المشيخية، حذر دالاس من أنه «إذا كان

---

(1) Morris, Righteous Victims, 299.

(2) Sharabi, Palestine and Israel, 26.

(3) Tivnan, The Lobby, 38, 41.

لليهود حق النقض على السياسة الخارجية لأمريكا، فإن العواقب ستكون وخيمة»[1].

بدأ ظهور اللوبي الإسرائيلي من جديد خلال رئاسة جون كينيدي؛ ومنذ ذلك الحين فصاعدًا ستكون السماء وحدها هي سقف النفوذ اليهودي. لقد فهم الرئيس كينيدي أهمية الفوز بالدعم اليهودي، ومثل كل سياسي جيد، صاغ وجهات نظره لإرضاء اللوبي الإسرائيلي. في عام ١٩٥٨، عندما التقى فيليب كلوتزنيك (Philip Klutznick) -رئيس مجلس المنظمات اليهودية الكبرى- بالسيناتور كينيدي لاستكشاف آرائه حول إسرائيل، أعرب السناتور عن مخاوفه بشأن مشكلة اللاجئين العرب، ومخاطر الحرب في المنطقة، فقال كلوتزنيك: «انظر أيها السناتور، إذا كنت تخطط للترشح للرئاسة لتلقي على مسامعنا هذا الكلام، فعليك أن تستبعد من حساباتك صوتي، وأصوات الكثيرين غيري». بعد فوزه بترشيح الحزب الديمقراطي للانتخابات الرئاسية، التقى كينيدي بمجموعة من القادة اليهود في نيويورك، الذين تعهدوا بمبلغ ٥٠٠ ألف دولار لحملته، ولم يكن الرئيس كينيدي لينسى دينه. في ربيع عام ١٩٦١ -بعد أن أصبح رئيسًا- قال كينيدي لدافيد بن غوريون -رئيس الوزراء الإسرائيلي- «أعلم أنني وصلت إلى المنصب بفضل أصوات اليهود الأمريكيين؛ قل لي، هل هناك ما يمكنني القيام به للشعب اليهودي؟»[2].

قرب نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، كانت عناصر الاعتراف بإسرائيل كرصيد استراتيجي ودولة خادمة للمصالح الأمريكية موجودة، وبدعم من الغرب، وسّعت إسرائيل تفوقها العسكرية على الدول القومية العربية الرائدة. وخلال حرب السويس، قدّمت أيضًا دليلًا مقنعًا يؤكد قدرتها على هزيمة جيش الدولة القومية العربية بسرعة. كما أدّت سياسة الاستفزازات الإسرائيلية إلى

---

(1) Ben-Zvi, The U.S. and Israel, 69, 73.

(2) Tivnan, The Lobby, 52, 53, 56.

وصول القوميين العرب للسلطة في ثلاث دول عربية رئيسية، ودفعتهم إلىٰ الاقتراب أكثر من الاتحاد السوفيتي. بالنسبة للولايات المتحدة، كانت هذه التهديدات الجديدة تتضمن حلها: أطلق سراح إسرائيل لتنظف التهديدات التي أوجدتها.

لا يزال هناك عاملان يفرضان علىٰ الولايات المتحدة قيودًا أمام احتضانها الصادق لإسرائيل. كان الأمريكيون قلقين من أن هذه العلاقة ستقنع الدول القومية العربية باستضافة القواعد العسكرية السوفيتية في أراضيها، وبنفس المنطق، سيستغل السوفييت أيضًا هذا التماهي العميق بين الولايات المتحدة وإسرائيل للمطالبة بعلاقات أوثق مع القوميين العرب. وأخيرًا، كان هناك تخوّف من أن القوىٰ القومية العربية -بدعم من مصر وسوريا والعراق- قد تُحرّض علىٰ استيلاء قومي علىٰ دول الخليج الغنية بالنفط، أو -من أجل استباق مثل هذا الاستيلاء- قد يقرر الملكيون العرب إبعاد أنفسهم عن الأمريكيين.

من الواضح أن هذا التوازن لم يكن مستقرًّا. قد يتخيّل مراقبٌ غير مطلع علىٰ نقاط القوة النسبية بين القوميين العرب وإسرائيل، أن للشرق الأوسط فرصًا متساوية في التطور في أحد اتجاهين متعاكسين؛ حيث يمكن للقوميين العرب -بمساعدة السوفييت- الاستمرار في اكتساب القوة حتىٰ يتمكنوا من توجيه ضربة قاضية لإسرائيل، أو يمكن لإسرائيل أن تهزم القوميين العرب، ومن ثمّ تهيئ الظروف لدمجهم في مجال النفوذ الغربي. وكما اتضح من الأحداث بعد ذلك، كانت إسرائيل هي الفائز في هذه الجولة من جولات الموت التاريخي. ففي كل مواجهة تاريخية، هناك أشياء يمكنها أن تحدث الفارق، وتقلب الأمور -مثل الفرق الذي يمكن أن تحدثه الروح البشرية، والفرص المواتية والحظ وغيرها من الأشياء التي يمكن أن تلعب دورا في النتائج التاريخية- ولكن إذا استبعدنا ذلك، فإن إسرائيل -في هذه الفترة الزمنية- قد فازت لأنها كانت المفضّلة لدىٰ التاريخ.

❀ ❀ ❀

في هذه المرحلة، قد يكون من المفيد حسم مسألة التوقيت: متىٰ بدأ صانعو السياسة الأمريكية في التعامل مع إسرائيل باعتبارها رصيدًا استراتيجيًّا وليس عبئًا استراتيجيًّا؟

يفضّل الكتاب الصهاينة فحص توقيت هذا التحوّل بالنظر إلىٰ حجم تدفقات المساعدات الأمريكية إلىٰ إسرائيل فحسب[١]، فبما أن هذه التدفقات قد ارتفعت بشكل كبير فقط بعد حرب حزيران/يونيو، فمن المعقول أن تصبح هي نقطة التحوّل في علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل. إن التحولات الجذرية في تدفّق المساعدات الأمريكية إلىٰ إسرائيل واضحة للغاية؛ حيث بلغ متوسط المساعدة الأمريكية السنوية لإسرائيل ٦٥ مليون دولار من ١٩٥٢ إلىٰ ١٩٧٠، ثم قفزت من ٧١ مليون دولار في عام ١٩٧٠ إلىٰ ٦٠١ مليون دولار في عام ١٩٧١، وظلت في تصاعد مستمر منذ ذلك الحين حتىٰ أوائل الثمانينيات، كما بلغ متوسط تدفق المساعدات السنوية للفترة ١٩٧١-١٩٨٠ حوالي ١٠٨١ مليون دولار، وهو ما يمثل زيادة بمقدار سبعة أضعاف عن متوسط تدفقات المعونة السنوية للفترة السابقة[٢]. ومع ذلك، فإن هذا التركيز علىٰ تدفقات المعونة إلىٰ إسرائيل مضلّل، حيث إنه يتجاهل التحوّل في سياسات الولايات المتحدة تجاه إسرائيل الذي كان جاريًا منذ أواخر الخمسينيات.

بمجرد أن ضمن الرئيس ترومان موافقة الأمم المتحدة علىٰ تقسيم فلسطين، وفاز في الانتخابات التمهيدية؛ اتخذ خطوات حثيثة للحدّ من الضرر الذي أحدثته

---

(١) من المعتاد أن تركز دراسات العلاقة الخاصة علىٰ هذه الإحصاءات. Organski, The 36 Billion$ Bargain, 15-24.

(٢) لا يتغير توقيت تسريع المعونة الأمريكية لإسرائيل عندما نقارن تدفقات المعونة خلال هاتين الفترتين من حيث حصتها في إجمالي تدفقات المعونة الأمريكية؛ ففي الوقت بين عامي ١٩٥٠ و١٩٧٠، تلقت إسرائيل ١,١٤% من إجمالي المساعدات الأمريكية، وخلال الفترة من ١٩٧١ إلىٰ ١٩٨٣، قفزت هذه الحصة بأكثر من ثمانية عشر ضعفًا إلىٰ ٢٠,٧ ٪. Laufer, "U.S. Aid to Israel," 126-27.

سياسته المؤيدة للصهيونية، وبموجب السياسة الجديدة، سيقلل من المخاطر التي يتعرّض لها أمن إسرائيل من خلال تقديم المساعدة بشكل غير مباشر وسرّي. بدأت تلك السياسة في كانون الأول/ديسمبر١٩٤٧، عندما فرضت الولايات المتحدة حظرًا علىٰ الأسلحة علىٰ جميع دول الشرق الأوسط، وذلك لتثبت أنها كانت وسيطًا منصفًا بين إسرائيل والعرب، في الوقت نفسه -في انتهاك لحظر الأسلحة- سمحت الولايات المتحدة لإسرائيل باستيراد ناقلات الأفراد الفائضة من الحرب العالمية الثانية، وتجنيد قدامىٰ المحاربين اليهود الأمريكيين في الحرب العالمية الثانية للقتال في إسرائيل، وهذا الأخير ينتهك قوانين الجنسية الأمريكية(١)، صحيحٌ أنها رفضت شحن أي أنظمة أسلحة رئيسية إلىٰ إسرائيل حتىٰ أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، إلا أن الولايات المتحدة أبرمت صفقات مع حلفاء الناتو ليقوموا بهذه المهمة(٢)، كما قدمت التدريب لأفراد الجيش الإسرائيلي في الولايات المتحدة، وسمحت لأعداد كبيرة من اليهود الأمريكيين بالخدمة في الجيش الإسرائيلي، وسهّلت نقل التكنولوجيا إلىٰ صناعة الأسلحة الإسرائيلية، وزوّدت إسرائيل سرًّا بالأموال لشراء الأسلحة، كما قدّمت الولايات المتحدة دعمها الخفيّ لبرنامج إسرائيل النووي. ففي عام ١٩٥٥ منحت الولايات المتحدة إسرائيل مفاعلًا نوويًا صغيرًا، إلىٰ جانب ترسانة من التقارير البحثية حول الموضوعات النووية، ودرّبت حوالي ستة وخمسين عالمًا نوويًا إسرائيليًّا. بالإضافة إلىٰ ذلك -وفقًا لوكالة المخابرات المركزية- استطاع الموساد

---

(1) Aliya Bet & Machal Virtual Museum, Pictorial History.

(٢) في أكتوبر ١٩٥٨ سهّلت الولايات المتحدة بيع ٥٥ دبابة بريطانية من طراز سنتوريان لإسرائيل. وبين عامي ١٩٦٢ و١٩٦٥، عجّلت بيع ١٥٠ دبابة باتون من الأسهم الألمانية؛ وفي أغسطس ١٩٥٦، سمحت لكندا بنقل طائرات مقاتلة من طراز F-86 إلىٰ إسرائيل علىٰ الرغم من أنه كان من المقرر تسليمها في الأصل إلىٰ الولايات المتحدة. وفي مناسبة أخرىٰ، وضعت الولايات المتحدة جانبًا أولوية الناتو لطائرات ميستر الفرنسية لصالح إسرائيل. Levey, "Israeli Foreign Policy," 42, 44; Mansour, Beyond Alliance, 77.

تهريب مائتي رطل من اليورانيوم المخصب (وهو ما يكفي لصنع من ثلاث عشرة إلىٰ عشرين قنبلة) وهي الكمية التي فُقدت في عام ١٩٦٦ من شركة في أبولو- بنسلفانيا، وذلك لتفعيل برنامج الأسلحة النووية الإسرائيلي[1].

رفضت الولايات المتحدة المطالب الإسرائيلية المتكررة -خلال الخمسينيات- بتقديم ضمانات رسمية لحماية أمنها؛ إلا أن هذا الرفض الرسمي كان بالأساس مجرد مُسَكِّن للغضب العربي المستعر؛ فإن الوثائق الرسمية لهذه الحقبة «مليئة بالملاحظات التي توحي بأن حماية إسرائيل كانت موضع اهتمام رسمي». تكشف الأرشيفات الإسرائيلية الرسالة التالية من [وزير الخارجية] دالاس إلىٰ وزارة الخارجية الإسرائيلي: «حتىٰ بدون ارتباط رسمي -وهو ما سنصل إليه في الوقت المناسب- يجب علىٰ إسرائيل أن تثق في أن الولايات المتحدة لن تتخلّىٰ عنها»[2].

ابتداءً من أواخر الخمسينيات، بدأت الولايات المتحدة في عكس سياستها الظاهرة، وكأنها تنأىٰ بنفسها عن إسرائيل، وقد تسبب حدثان خلال هذا العقد -وكلاهما حتمي- في هذا التغيير. مع التدفق المستمر للأسلحة الغربية والتكنولوجيا العسكرية، وسّعت إسرائيل من نطاق تفوقها العسكري علىٰ الدول العربية المجاورة. علاوة علىٰ ذلك، استطاعت تقديم دليل مقنع في حرب السويس عام ١٩٥٦ علىٰ تفوّقها في المعركة ضد الدول العربية الرائدة. وتشير التقديرات الأمريكية الرسمية لقوة الجيش الإسرائيلي خلال هذه الفترة إلىٰ أن مصر «ستُهزم شر هزيمة» في حالة دخولها حربًا مع إسرائيل[3]. وبحلول أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، سيطر القوميون العرب علىٰ ثلاث دول عربية

---

(1) Mansour, Beyond Alliance, 72, 76-78, 81; Wenger, "Recipe for an Israeli Nuclear Arsenal," 11-12.

(2) Mansour, Beyond Alliance, 75.

(3) Ibid., 76.

رئيسية -مصر وسوريا والعراق- التي كانت آنذاك متحالفة مع الاتحاد السوفيتي. وفي ظلّ هذه الظروف، ليس من المستغرب ميل الولايات المتحدة -بشكل أكثر وضوحًا- نحو وجهة النظر القائلة بأن إسرائيل يمكنها القيام بدور مفيد -وربما لا غنىٰ عنه- في مواجهة التهديد المتزايد الذي تشكّله القومية العربية علىٰ المصالح الأمريكية في المنطقة[١]. حتىٰ وصل الأمر إلىٰ تحولٍ في السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل.

ابتداءً من السنوات الأخيرة من الولاية الثانية للرئيس أيزنهاور، بدأت الولايات المتحدة بتزويد إسرائيل -علنًا ودون أي وسطاء- بأنظمة أسلحة كبيرة، وتسارع هذا الاتجاه في عهد الرئيس كينيدي، الذي قال لجولدا مائير (Golda Meier) في ديسمبر ١٩٦٢، «إن للولايات المتحدة علاقة خاصة مع إسرائيل في الشرق الأوسط يمكن مقارنتها حقًّا بالعلاقة التي تربطها ببريطانيا في مجموعة واسعة من الشؤون العالمية، نحن إذن في موقف نوضح للعرب أننا سنحافظ علىٰ صداقتنا مع إسرائيل وضماناتنا الأمنية لها». وفي عام ١٩٦٢ وافق الرئيس كينيدي علىٰ المطالب الإسرائيلية بتزويدها بصواريخ هوك المضادة للطائرات، كما تلقّت العلاقة العسكرية المباشرة بين الولايات المتحدة وإسرائيل دفعة إضافية خلال إدارة جونسون؛ ففي فبراير ١٩٦٥، عندما ألغت ألمانيا الغربية صفقة أسلحة بعد افتضاح الأمر -مما أدىٰ إلىٰ احتجاجات من قبل الدول العربية- قررت الولايات المتحدة «تعويض» الخسارة بتزويد إسرائيل بـ ٢٠٠ دبابة من طارز «باتون» علىٰ الرغم من أن ألمانيا كانت قد أكملت تسليم ٧٠% من الصفقة. وفي فبراير ١٩٦٦، قررت الولايات المتحدة تزويد إسرائيل بثماني وأربعين قاذفة

---

(١) أجرت الولايات المتحدة -وفقًا لما ذكره أبا إيبان- مشاورات منتظمة مع إسرائيل خلال أواخر الخمسينيات، «من الواضح أن الولايات المتحدة كانت تنظر إلىٰ إسرائيل ليس علىٰ أنها عبء يجب تحمله مهما كلف الأمر، ولكن كرصيد استراتيجي ضروري في التوازن العالمي والأيديولوجي». Mansour, Beyond Alliance, 79-80.

قنابل من طراز (Skyhawk) خفيفة الوزن وعالية السرعة[1]. ويجب أن يكون واضحًا أنه قبل حرب يونيو ١٩٦٧ بفترة طويلة، حلّت الولايات المتحدة محل فرنسا كمورد رئيسي للأسلحة لإسرائيل.

كما ساعدت الولايات المتحدة إسرائيل في دفع تكاليف أنظمة الأسلحة التي كفلت تسليمها بطريقة أو بأخرىٰ، فيما بين عامي ١٩٤٨ و١٩٦٥، ومع عدم وجود مدخرات محلية في المتناول، مولّت إسرائيل وارداتها من الأسلحة والسلع الرأسمالية والاستهلاكية بالكامل من التدفقات المالية الأجنبية. وقد جاء الجزء الأكبر من هذه التدفقات المالية من تحويلات أحادية الجانب من ثلاثة مصادر: مدفوعات تعويضات ألمانيا الغربية، والمساعدات الحكومية الرسمية، والتبرعات من الشتات اليهودي[2].

مثّلت المساهمات القادمة من الشتات اليهودي من الولايات المتحدة الشق الأكبر من هذه التدفقات، مستفيدةً إلىٰ أقصىٰ حد من إعفاء هذه المساهمات من الضرائب علىٰ الرغم من عدم استيفائها للمعايير القانونية للمساهمات الخيرية. وفي الولايات المتحدة، نظّمت جمعية النداء اليهودي الموحد (UJA) حملة لجمع التبرعات لإسرائيل، وبدلًا من إنفاق هذه الأموال من خلال قنوات التوزيع الخاصة بها، تقوم الجمعية بتسليمها إلىٰ الوكالة اليهودية في إسرائيل -وهي منظمة شبه حكومية- لتقوم بعد ذلك بتخصيصها في الغالب للمستوطنات الجديدة والمؤسسات الدينية واستيعاب المحتلين الجدد[3]. أدىٰ الدعم الأمريكي دورًا

---

(١) في خريف عام ١٩٦٤ دخلت ألمانيا الغربية في صفقة سرية مع إسرائيل لتسليم خمسين طائرة، و١٥٠ دبابة أمريكية، وغواصتين، وستة زوارق سريعة، وعدة شاحنات، وصواريخ مضادة للطائرات، وصواريخ مضادة للدبابات. لم يكن علىٰ إسرائيل أن تدفع ثمن هذه الأسلحة، التي تبلغ قيمتها علىٰ الأقل ٢٥٠ مليون دولار. Lewan, "How West Germany Helped to Build Israel," 56-57; Mansour, Beyond Alliance, 81-83.

(2) Howard, "Israel: The Sorcerer's Apprentice," 16-17.

(3) Bainerman, "End American Aid to Israel?"

حيويًا في إقناع ألمانيا الغربية بالاستجابة إلىٰ المطالب الإسرائيلية بالتعويضات والوصول بها إلىٰ أقصىٰ حد. لم تكن ألمانيا الغربية ملزمة بدفع هذه التعويضات؛ لأنها لم تشن حربًا ضد إسرائيل، لكنها وافقت تحت ضغط من القوىٰ الغربية، ولا سيما الولايات المتحدة(١). بالإضافة إلىٰ ذلك، ضحّت القوىٰ الغربية بمطالبها من أجل السماح لألمانيا الغربية بزيادة تعويضاتها لإسرائيل، فمن أجل السماح للألمان الغربيين بتلبية المطالب الإسرائيلية؛ أجَّل عددٌ من الدول الغربية الدائنة تسوية ديونها، ووافقوا في بعض الحالات علىٰ تخفيضها. بالإضافة إلىٰ ذلك، ضغط المفوض السامي الأمريكي في ألمانيا علىٰ الألمان الغربيين لتلبية أقصىٰ حد ممكن من المطالب الصهيونية بالتعويضات، كما كان للضغط الذي مارسته الدوائر المصرفية اليهودية تأثير كبير علىٰ مسار مؤتمر لندن للديون -الذي انعقد في أكتوبر ١٩٥٠- وهو ما أقنع الألمان الغربيين بأن يبسطوا أيديهم في تعويضاتهم لإسرائيل(٢).

وبسبب هذه الضغوط، نجحت إسرائيل في انتزاع أكثر التعويضات سخاءً من ألمانيا الغربية. في سبتمبر ١٩٥٢ -بموجب الاتفاقية الأولىٰ من هذه الاتفاقيات- وافقت ألمانيا الغربية علىٰ تحويل ٨٤٥ مليون دولار كتعويضات إلىٰ إسرائيل تُدفع علىٰ مدار أربعة عشر عامًا(٣). وبمرور الوقت، زادت هذه المدفوعات بشكل كبير. وفقًا لأحد المصادر، بحلول عام ١٩٩٨ «تجاوز إجمالي

---

(1) Balabkins, West German Reparations to Israel

(٢) هدد ناحوم غولدمان Nahum Goldman المستشار أديناور Adenaeur بالعواقب الوخيمة التي ستترتب علىٰ عدم الاستجابة للمطالب الصهيونية بالتعويضات: «سيكون هناك رد فعل عنيف من العالم بأسره، بدعم من دوائر واسعة من غير اليهود، الذين يتعاطفون بشدة مع استشهاد الشعب اليهودي تحت ظل الحكم النازي، سيكون هذا العنف مبررًا تمامًا ولا يقاوم». Lewan, "How West Germany Helped to Build Israel," 53-54.

(3) Wyman and Rosenzveig, The World Reacts to the Holocaust, 866.

التعويضات الألمانية ١٠٠ مليار مارك ألماني، وكان المستفيد الأكبر من هذه التعويضات هو دولة إسرائيل. لقد أنقذ سيل الأموال الذي فتحته اتفاقية لوكسمبورغ (Wiedergutmachung) الدولة الناشئة خلال سنواتها الأولىٰ من الضعف الاقتصادي الحاد والأكثر خطورة من العرب»[١]. ولم تكن إسرائيل في العقود الأولىٰ بعد إنشائها قادرة علىٰ بناء اقتصاد وصناعة وجيش من العالم الأول لولا هذه التحويلات من ألمانيا الغربية.

بدأ تحوّل إسرائيل من العبء إلىٰ الرصيد الاستراتيجي قبل فترة طويلة من انتصار إسرائيل المذهل في حرب حزيران/يونيو عام ١٩٦٧. في الواقع، بدأ هذا التحوّل بعد وقت قصير من إنشاء إسرائيل، مدفوعًا بالاعتراف بأن إسرائيل كانت «أداة استراتيجية» معرضة للخطر، ولا يمكن التخلّي عنها. عززت إسرائيل هذا المنطق علىٰ جبهتين؛ فأولًا: استمرت في استفزاز الدول العربية الضعيفة للرد بخطاب عدائي، ودفعتها لتصبح أكثر راديكالية في أهدافها القومية، ومن ثمّ تنحاز إلىٰ المعسكر السوفيتي. وبمجرد أن أقنع هذا التحوّل الدول الغربية بتسليح إسرائيل ومنحها أفضليّة طاغيّة علىٰ القوات المشتركة للعرب؛ بدأت إسرائيل في الادعاء بأنها رصيد استراتيجي، فقد كان لديها القدرة علىٰ الدفاع عن المصالح الغربية في الشرق الأوسط. أما داخل الولايات المتحدة، فقد عمل اللوبي الإسرائيلي بجد لخلق مناخ عام مؤيد للمواقف الإسرائيلية علىٰ أعلىٰ مستويات المجتمع المدني والحكومة.

وأخيرًا، في يونيو ١٩٦٧ أطلقت إسرائيل رصاصة الرحمة بهزيمة الدولتين القوميتين العربيتين الرائدتين، وقد نالت الآن استحسان العالم الغربي من خلال

---

(١) يشير ساشار في "Israel and Europe" إلىٰ التعويضات التي دفعتها ألمانيا الغربية للناجين المباشرين من الهولوكوست.

قضائها علىٰ التهديد القومي العربي لمصالحها في المنطقة. ستستفيد إسرائيل الآن فصاعدًا من هذا الاستحسان لتعميق الدعم الغربي لسياساتها؛ والأهم من ذلك: التأكد من أن الولايات المتحدة -علىٰ عكس بريطانيا- لن تملك أبدًا رفاهية التراجع عن دعمها لإسرائيل.

الفصل الثامن عشر
حرب يونيو: ما بعد النكبة

«إن أمجاد الماضي السحيق لن يُقال عنها بعد الآن «كان يا مكان»، بل ستصير جزءًا من حاضر الدولة الجديدة».
افتتاحية جريدة «هاآرتز Haaretz» العبرية، ٨ يونيو١٩٦٧

«لقد عدنا إلىٰ أقدس أماكننا؛ لقد عدنا ولن نفارقه مرةً أخرىٰ».
موشيه ديان (Moshe Dayan)، ٩ يونيو ١٩٦٧

«لقد اجتاحت البلادَ رياحٌ مسيانية؛ أهل الدين في كل مكان يتحدثون عن «معجزة» وعن «الخلاص»؛ لقد عادت أرض إسرائيل القديمة إلىٰ شعب الله».
بِيني موريس (Benny Morris)، ٢٠٠١

«يمكنك تتبع عودة ظهور ما نسميه «التطرف الإسلامي» إلىٰ بداية حرب الأيام الستة».
مايكل أورين (Michael Oren)، ٢٠٠٧[1]

---

(1) Morris, Righteous Victims, 329; Bregman, A History of Israel, 120; Morris, Righteous Victims, 329; Teger, "Coming Together, Falling Apart."

مايكل ب. أورين (Michael B. Oren) هو زميل أول في مركز شاليم.

بحلول منتصف الستينيات من القرن الماضي، كانت إسرائيل قاب قوسين أو أدنىٰ من تغيير ميزان القوىٰ التاريخية في الشرق الأوسط إلىٰ الأبد؛ لقد أظهرت حماسًا متزايدًا لإقحام العرب في حرب كبرىٰ، وغيّرت الجغرافيا السياسية في المنطقة بشكل كبير.

كانت المواجهة بين إسرائيل والعرب تقترب من ذروتها؛ فمنذ انطلاقها عام ١٨٩٧، تحدّت الصهيونية الفلسطينيين واستفزت قوميتهم لرد الغاصب الصهيوني؛ كما رفعت من حدّة وتطرّف الحركة القومية العربية الوليدة، خاصة بعد أن أعلن البريطانيون دعمهم لإنشاء دولة يهودية في فلسطين. في عام ١٩٤٨، وضع قيام إسرائيل، ثم هزيمتها لخمسة جيوش عربية، القوميين العرب أمام مهمة ملحة جديدة: سيكون عليهم استئصال هذه الدولة الاستيطانية اليهودية، وبمجرد أن يبدأ هذا الهدف في دفع القومية العربية نحو أهداف راديكالية، ستعرض إسرائيل نفسها للغرب -وخاصة الولايات المتحدة- باعتبارها الحصن الرئيسي ضد هذا التهديد المتزايد للمصالح الغربية. في الواقع، لم يكن الخطاب العدائي للقوميين العرب سوىٰ وقود مجاني للصهاينة، وقد كانوا سيفعلون كل ما في وسعهم للحفاظ علىٰ غليان العرب؛ فقد استمرت إسرائيل في استفزاز العرب من أجل دفعهم إلىٰ أقصىٰ تطلعاتهم القومية تطرفًا، ولكي يصبو جام غضبهم علىٰ الولايات المتحدة، ثم جرّهم إلىٰ حرب مبكرة ضد إسرائيل. كان الغرب سعيدًا جدًّا بهذه التطورات، فمن خلال مرابطة القوات المصرية والسورية علىٰ الجبهة الإسرائيلية، وضعت إسرائيل حدودًا واضحة لمنع تسرب القومية العربية إلىٰ الممالك العربية الغنية بالنفط حول الخليج العربي.

كانت القومية العربية تفتقر إلىٰ الشجاعة والصمود اللذين يمكنهما جمع كلمة العرب علىٰ مواجهة إسرائيل. بدأت هذه القومية بعيبين أساسيين؛ فأولًا، لم يكن لها جذور عميقة في تاريخ أو تقاليد الشعوب الناطقة بالعربية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. في أواخر القرن التاسع عشر، بدأ العرب المسيحيون في

سوريا -وهم أول العرب الذين تشرّبوا قيم التعليم الغربي واحتضنوا الأفكار الغربية-في زرع بذور هذه الهوية العرقية الجديدة، وهو ما من شأنه أن يشكّل الأساس لدولة سورية جديدة أو ربما -بشكل أكثر طموحًا- توحيد جميع الشعوب الناطقة بالعربية تحت راية دولة عربية كبرىٰ. وخلال الحرب العالمية الأولىٰ، اعتمد البريطانيون لفترة وجيزة علىٰ هذه الهوية لتحريض العرب علىٰ الثورة ضد الدولة العثمانية. من ناحية أخرىٰ، لم تكن القومية العربية تفتقر إلىٰ الجذور التاريخية العميقة فحسب، بل سعت أيضًا إلىٰ تهميش -أو محو- الهوية الدينية للمسلمين الناطقين بالعربية من خلال تمسكها القويّ بالعلمانية. لقد سعت القومية العربية إلىٰ بناء هوية عرقية جديدة من خلال استمداد هيكل المجد العربي البعيد -أي الخلافة العظيمة للأمويين والعباسيين- ولكن دون قلبها النابض: الإسلام، ومن خلال التأكيد علىٰ الطابع العلماني لمقاومتهم ضد إسرائيل، وعدم التفاتهم للأهمية الرمزية لفلسطين في الجغرافيا الإسلامية المقدّسة؛ فشل القوميون العرب في توصيل رسالتهم للقاعدة الإسلامية الأكبر، ولم يتمكّنوا من كسب تعاطف العالم الإسلامي الأوسع الذي يتجاوز العرب.

عانت القومية العربية من عيب خطير ثان؛ فقد تبنّت أهدافًا راديكالية ومثالية في نفس الوقت -توحيد العالم العربي، والتخلّص من السيطرة الغربية علىٰ الموارد العربية، وتفكيك الدولة اليهودية في فلسطين-، ولكن -في جميع مكوناتها تقريبًا- كانت حركة يقودها أفراد من الطبقة البرجوازية الصغيرة، وكانت تفصل بينهم الولاءات القبلية، مما أدىٰ إلىٰ تناقض مقلق بين الطابع الطبقي للحركة القومية العربية، وتطلّعاتها الراديكالية. في الواقع، لم تكن مناهضتهم للإمبريالية وخطابهم عن الوحدة العربية سوىٰ قشرة سطحية الهدف منها -إلىٰ حد كبير- احتواء الغضب الشعبي الإسلامي من قيام إسرائيل، وهذا يعني -من بين أمور أخرىٰ- أن القيادة القومية العربية لم تكن لديها القدرة علىٰ شنّ مقاومة مستمرة.

ظهر هذا التناقض في الاستراتيجية التي اعتمدها القوميون العرب لهزيمة إسرائيل، فبدلًا من بناء قاعدة جماهيرية واسعة بين شعوبهم، والاستعداد لحرب طويلة الأمد ضد خصم متفوق تقنيًا -كما فعل الفيتناميون أو الجزائريون- سعىٰ القوميون العرب إلىٰ مواجهة إسرائيل بشروطها هي، وذلك من خلال الحصول علىٰ أنظمة أسلحة حديثة من السوفييت؛ ومن ثم أصبحت راديكاليتهم الجوفاء هي الفخ الذي سقط فيه القوميون العرب؛ فبدون أصول صناعية وتعليمية وعلمية متطورة كتلك التي تتمتع بها إسرائيل؛ كان علىٰ القوميين العرب إدراك أنهم لا يمكنهم الانتصار في حروب تقليدية ضد خصم يفوقهم في كل شيء. ومع ذلك، لم تتراجع القيادة القومية العربية عن رغبتها في خوض حروب تقليدية ضد إسرائيل، وحتىٰ الهزائم المتكررة في حروبهم مع إسرائيل -في ١٩٤٨، و١٩٥٦، و١٩٦٧، والعديد من المواجهات الصغيرة الأخرىٰ لم تقنعهم بإعادة التفكير في استراتيجيتهم. لم تكن الأنظمة العربية البرجوازية مستعدة لتقديم التضحيات التي تتطلّبها «حرب العصابات»؛ كما عرفوا أيضًا أنه لا يمكن لراية قومية عربية علمانية حديثة التكوين أن تحشد شعوبهم وتلهمهم لخوض حرب «شعبية طويلة الأمد».

ونتيجة لذلك، كان القوميون العرب يتّجهون نحو مواجهة نهائية مع إسرائيل لم ولن يتمكّنوا من الفوز بها؛ لأنهم اختاروا القتال بشروط العدو، وقد عرف الإسرائيليون ذلك، فبحلول أوائل الستينيات، كان من الواضح للإسرائيليين أنهم يمتلكون القدرة العسكرية علىٰ هزيمة الجيوش العربية في غضون أيام. وعرف الأمريكيون هذا أيضًا؛ فحسب التقديرات الأمريكية الرسمية قبل حرب ١٩٦٧، فإن الجيش الإسرائيلي يحتاج فقط «من خمسة إلىٰ سبعة أيام» لهزيمة الجيوش العربية في الحرب، بغض النظر عمن يبادر بالقتال، وعندما انتقد الرئيس جونسون هذا التقدير باعتباره «متفائلًا» للغاية، أعادت أجهزة الاستخبارات حساباتها، وفي تقديراتهم المعدّلة -التي كانت أقل إيجابية بشكل طفيف- أن إسرائيل لن تحتاج إلىٰ أكثر من عشرة أيام لهزيمة الجيوش العربية[1]، حتىٰ الرئيس المصري جمال

---

(1) Mansour, Beyond Alliance, 86.

عبد الناصر كان يعرف أيضًا أنه لا يستطيع أن يخوض هذه الحرب وينتصر[1]. ومع ذلك، لم يفوّت العرب أي فرصة لتهديد إسرائيل، وأقحموا أنفسهم -برعونة وتهوّر- في حرب كان ينبغي عليهم فعل كل شيء لتجنبها حتىٰ يستعدوا بشكل أفضل.

لقد كان ثمن هذا التهور والتبجّح باهظًا. في اليوم الأول من الحرب -وفي غضون ساعات قليلة- فقدت مصر والأردن كامل قوتهما الجوية، وخسرت سوريا نصف قوتها الجوية، واستطاعت إنقاذ النصف الآخر بتحليق طائراتهم بعيدًا عن مجال الطائرات الإسرائيلية. وبعد ساعتين من بدء الهجمات الإسرائيلية، اتصل الجنرال عيزر وايزمان (Ezer Weizman) -نائب رئيس الأركان العامة- بزوجته يقول لها: «لقد انتصرنا في الحرب»[2]، ولم تكن هذه مبالغة؛ فبدون غطاء جوي، ذهبت الجيوش العربية أدراج الرياح في غضون أيام. وبحلول الوقت الذي انتهت فيه أعمال العنف في ١٠ يونيو/حزيران، كانت إسرائيل قد استولت علىٰ كل سيناء وغزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان، وبهذا تجاوز الصهاينة الهدف الصهيوني الرسمي المتمثل في إقامة دولة يهودية في كل فلسطين.

كانت الولايات المتحدة قد أعطت مباركتها لضربة إسرائيل الاستباقية ضد العرب. في البداية حذّر الرئيس الأمريكي إسرائيل من اتخاذ إجراءات أحادية الجانب لرفع الحصار المصري عن مضيق تيران، وفضّل العمل الدولي؛ إلا أنه غيّر رأيه في الأيام التي سبقت ٥ يونيو، واقتناعًا منه بأن إسرائيل -علىٰ حد تعبير الرئيس جونسون- «يمكن أن تبيدهم بسهولة»، فقد أعطىٰ وزير الخارجية ماكنمارا

---

(١) كان الرئيس عبد الناصر علىٰ علم بالضعف العسكري لمصر في الستينيات، ففي عام ١٩٦٣ في بورسعيد قال بوضوح: «أنا لست في وضع يسمح لي بخوض الحرب، أقول لكم هذا بصراحة -ولا عيب أن أقولها علانية-: إن خوض الحرب دون امتلاك الوسائل الكافية سيكون بمثابة قيادة البلاد والشعب إلىٰ كارثة». Sharabi, Palestine and Israel, 111.

(2) Morris, Righteous Victims, 317-18.

«الضوء الأخضر لإسرائيل لاتخاذ إجراءات عسكرية ضد مصر»[1]، كما ساعدت الولايات المتحدة جهود إسرائيل الحربية من خلال توفير معلومات استخبارية -في الوقت المناسب- عن الأضرار التي سبّبها القصف الإسرائيلي للمطارات المصرية، ثم مواقع وتحرّكات القوات المصرية[2]، وربما ساعدت هذه المعلومات الاستخباراتية إسرائيل علىٰ تحقيق أهدافها العسكرية قبل فرض وقف إطلاق النار.

ستعمل إسرائيل والولايات المتحدة من الآن -منفردتين ومجتمعتين- لاستخراج أكبر رأس مال سياسي من الوضع الجديد في الشرق الأوسط، علىٰ الرغم من أن أهدافهم لم تكن متطابقة. قد يبدو للوهلة الأولىٰ أن للولايات المتحدة وإسرائيل مصلحة مشتركة في الحصول علىٰ اعتراف عربي بإسرائيل، وإقامة سلام مع العرب، وإخراج الدول القومية العربية من المعسكر السوفيتي؛ إلا أنه هذا ظاهر مخادع. صحيحٌ أنه كان للولايات المتحدة مصلحة قوية في تحقيق هذه الأهداف، لكن السلام الشامل مع العرب لا يمكن أن يكون في مصلحة إسرائيل؛ فإذا عقدت الدول القومية العربية السلام مع إسرائيل وخلعت ولاية السوفييت؛ فإن هذا من شأنه أن يقلّل -بشكل كبير- من قيمة إسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة؛ لا يمكن لإسرائيل أن تدّعي امتيازات الرصيد الاستراتيجي إذا انضمت دول قومية عربية كبرىٰ -مثل مصر وسوريا- إلىٰ المعسكر الأمريكي.

كانت الأهداف الإسرائيلية بعد حرب يونيو مختلفة تمامًا عما يريد الأمريكيون السعي وراءه. لقد خلق الانتصار المذهل عام ١٩٦٧ فرصًا جديدة

---

(1) Shlaim, The Iron Wall, 240-41.

(٢) في الأيام التي سبقت حرب حزيران/ يونيو نقلت الولايات المتحدة سرًّا سربها الاستطلاعي التكتيكي الثامن والثلاثين إلىٰ صحراء النقب، حيث قدمت بيانات مراقبة حيوية حول تدمير سلاح الجو المصري، وتحركات القوات المشاة المصرية.

Green, Taking Sides, 204-11.

لإسرائيل لمتابعة الأهداف المتطرفة للصهيونية، فقد انتصرت اسرائيل علىٰ العرب، وهم الآن يمتلكون كل فلسطين، وكل سيناء، وينظرون -بازدراء- إلىٰ دمشق من مرتفعات الجولان، فلماذا يتراجعون الآن؟ بالتأكيد لن ينسحبوا من الضفة الغربية وغزة، لكن كانت هذه هي الحدود الجديدة لمشروعهم الاحتلالي، وسوف يجلبون مليون محتل يهودي إلىٰ هذه الأراضي الجديدة، وعندما يحين الوقت، سيطردون الفلسطينيين شر طردة. أدرك الإسرائيليون أن خطتهم لتوسيع حدودهم الاحتلالية تتعارض مع المصلحة الأمريكية في التحرّك نحو تسوية سلميّة بين العرب وإسرائيل، ومن ثم كانت مهمة اللوبي الإسرائيلي تلطيف هذا الصراع؛ وسوف تعمل الأذرع المتعددة لهذا اللوبي بكامل قوتها «لإقناع» الولايات المتحدة بمواصلة دعم إسرائيل -أو بالأحرىٰ تعميق شراكتها مع إسرائيل- علىٰ الرغم من هذا التضارب في المصالح[1].

كانت لإسرائيل اليد العليا في المفاوضات بعد ذلك؛ لأنها حملت الورقة الرابحة: الأراضي العربية التي أُحتلت في يونيو ١٩٦٧. لقد فهمت كل من إسرائيل والولايات المتحدة -كل علىٰ طريقته الخاصة- أنهما سوف تستخدمان الأراضي المحتلة لمساومة العرب وإجبارهم علىٰ الاعتراف إسرائيل. في ١٩يونيو -بعد أيام من انتهاء الحرب- عرض مجلس الوزراء الإسرائيلي -في اجتماع سرّي- علىٰ مصر وسوريا شروط «اتفاقية سلام تقوم علىٰ إعادة رسم الحدود الدولية، ومراعاة المتطلبات الأمنية لإسرائيل»[2]. وصل هذا القرار لوزير الخارجية، دين راسك (Dean Rusk)، لكن لم يرد في السجلات الأمريكية أن الإسرائيليين طلبوا من دين راسك إيصال هذا القرار إلىٰ مصر أو سوريا، والعرب

(١) في إحدىٰ الصيغ المحددة لهذه العقيدة، صرّح موشيه ديان في عام ١٩٦٩: «شرم الشيخ بدون سلام أفضل من السلام بدون شرم الشيخ».

shlaim, The Iron Wall, 290.

(٢) شملت شروط إسرائيل للتسوية السلمية مع مصر: حرية الملاحة وحقوق التحليق فوق مضيق تيران وخليج العقبة، وحقوق الملاحة عبر قناة السويس، ونزع السلاح من سيناء. Ibid..253 ,

أيضًا ينفون تلقّي هذه الرسالة، ويختتم آفي شلايم (Avi Shlaim) بالقول: «يستطيع المرء أن يكوّن انطباعًا بأن إيبان كان مهتمًا أكثر باستخدام قرار مجلس الوزراء في ١٩ يونيو لإقناع الأمريكيين بدلًا من إشراك حكومتي مصر وسوريا في مفاوضات جوهرية». بالإضافة إلىٰ ذلك، سرعان ما بدأ القادة الإسرائيليون -في السر والعلن- يتبرأون من هذا «القرار»، وبعد أقل من شهر، وافقوا علىٰ خطط المستوطنات اليهودية في مرتفعات الجولان. كتب آفي شلايم: «أصبح قرار ١٩ يونيو مجرد حبر علىٰ ورق حتىٰ قبل إلغائه رسميًّا في أكتوبر»[١].

علاوة علىٰ ذلك، فإن شروط «اتفاقية السلام» التي قدمتها إسرائيل كانت مصمّمة خصيصًا للرفض العربي. إن هزيمة واحدة -مهما كانت سريعة وحاسمة- لم تكن قادرة علىٰ إقناع الأنظمة القومية العربية بتجرّع مرارة إذلالهم، والاعتراف بإسرائيل، وقبول الهيمنة الإسرائيلية علىٰ الشرق الأوسط. وحتىٰ لو كانت بعض هذه الأنظمة العربية تميل إلىٰ توقيع سلام مُذل، فإن سكانها سيطالبون بمواصلة النضال للقضاء علىٰ دولة إسرائيل. في الأول من سبتمبر ١٩٦٧، في استعراض كبير للتحدّي والوحدة في قمة الخرطوم، أعلنت الدول العربية اللاءات الثلاث: لا تفاوض، ولا اعتراف، ولا سلام مع إسرائيل، ولا يمكن للقمة إلا أن تقبل الانسحاب غير المشروط للقوات الإسرائيلية من جميع الأراضي العربية التي احتلتها في يونيو ١٩٦٧. واستغلالًا لهذا الرفض -الذي كان يجب أن يتوقعوه طوال الوقت- ألغىٰ مجلس الوزراء الإسرائيلي في ٣٠ أكتوبر -سرًّا- عرضه السابق للسلام مع مصر وسوريا بخصوص الحدود الدولية؛ وسوف يسعون الآن إلىٰ تعديل هذه الحدود لتعزيز الأمن الإسرائيلي. من حيث المبدأ أيّدت الولايات المتحدة الموقف الإسرائيلي الجديد، فعلىٰ حد تعبير والت روستو (Walt Rostow) -المساعد الخاص للرئيس- كانت الولايات المتحدة «تعارض أي قرار للأمم المتحدة يطالب إسرائيل بالتنازل عن مكاسب الحرب إلا مقابل تسوية عربية

(1) Ibid., 254.

إسرائيلية نهائية»[1]، ومن هنا أدىٰ التطابق الظاهري بين المواقف الإسرائيلية والأمريكية إلىٰ إصدار قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ في ٢٢ نوفمبر، والذي دعا إلىٰ «السلام» مع العرب مقابل استعادة أراضيهم، وهكذا أصبح لدىٰ إسرائيل الغطاء القانوني من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة للاحتفاظ بالأراضي التي احتلتها في يونيو ١٩٦٧ حتىٰ يوافق العرب علىٰ شروطها لـ «السلام».

لم تؤدِ الهزيمة المُدوّية في حزيران/يونيو ١٩٦٧ إلىٰ تغييرات تُذكر في العالم العربي، بل لم يكن هناك تغيير أساسي في الاستراتيجية التي اتّبعها القوميون العرب في مواجهتهم مع إسرائيل والولايات المتحدة، فهاهم -مرةً أخرىٰ- يستعدون لشنّ حروب تقليدية ضد إسرائيل، وبسرعة كبيرة، جدّد المصريون والسوريون المعدات العسكرية التي فقدوها خلال الحرب، حيث لم تُحدِث هزيمتهم الساحقة أي تغيير في القيادة في العالم العربي، وزعم بعض المعلّقين العرب خطًا أن كل هذا لا يدل علىٰ هزيمة العرب سياسيًّا رغم خسائرهم العسكرية، حيث كتب المؤرخ هشام شرابي أن «النصر الساحق» لإسرائيل لم ينتج عنه «استسلام» عربي، وخلص إلىٰ أنه «علىٰ العكس من ذلك، ظهرت قوىٰ جديدة جعلت الاستسلام السياسي بعيد الاحتمال»[2].

كانت تلك غطرسة فارغة وكبرياء أعمىٰ عن مواجهة الهزيمة ومعالجة أسبابها. لقد كان غياب التغييرات المهمة -ناهيك عن الضرورية- في العالم العربي آنذاك ينذر بشلل مزمن، وبالتأكيد لم تكن تلك البلادة دليلًا علىٰ «القدرة العربية المذهلة علىٰ التأقلم مع الهزيمة»[3] في السنوات التي أعقبت نكسة يونيو ١٩٦٧، لم تكن هناك مساءلة للقادة العرب المهزومين، ولا بحث عن الذات بين النخب القومية، ولا رفض للاستراتيجيات العسكرية التي أدت إلىٰ الهزيمة،

---

(1) Gerges, "The 1967 Arab-Israeli War," 195.

(2) Sharabi, Palestine and Israel, 135.

(3) Ibid., 136.

ولا دافع للكشف عن الأسباب الهيكلية لتلك الهزيمة المدوية، ولم تُبذل جهودٌ لتشكيل جبهة عربية موحدة لإيقاف سيل المكاسب الصهيونية منذ عام ١٩١٧، وبدلًا من ذلك كانت ردة فعل النخب العربية علىٰ هزيمتهم هو تعزيز الوضع السابق، وإبقاء الحال علىٰ ما هو عليه.

لم تكن الشعوب العربية سعيدة بغياب الرد المناسب علىٰ هزيمة ١٩٦٧، فقد كان هناك استياء عام في صفوف الجيش واحتجاجات بين العمال والطلاب؛ لكن الأنظمة العربية سرعان ما قمعت كل معارضة، إما بالفصل من الجيش، أو الاعتقالات[١]. ونتيجة لذلك، اتسعت الهُوَّة بين هذه الأنظمة وبين شعوبها، وكان سبيلها للتمسك بالسلطة هو أن تصبح دولًا بوليسية. بالإضافة إلىٰ ذلك، ظهرت فجوة متزايدة بين أيديولوجية الدول القومية العربية -التي لا تزال تسعىٰ إلىٰ الشرعية بلغة القومية العربية العلمانية- والخطاب الإسلامي للمعارضة الشعبوية للأنظمة العربية. وبمرور الوقت، ومع اكتساب المعارضة الإسلامية قوتها في معظم أنحاء العالم العربي؛ سعت الأنظمة «القومية» -التي فقدت مصداقيتها- إلىٰ ضمان بقائها من خلال القمع والصداقة -بشكل علني أو سرّي- مع إسرائيل والولايات المتحدة.

في الحرب النفسية التي أعقبت النكسة، كانت كل الأوراق الرابحة بيد إسرائيل: لقد حققت انتصارًا مذهلًا، وضاعفت أراضيها أربع مرات تقريبًا، والآن أصبحت الولايات المتحدة في صفها بشكل واضح وعلني، كما لديها الغطاء القانوني من قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ للاحتفاظ بالأراضي التي احتلتها إلىٰ حين الانتهاء من هندسة «السلام» الذي تريد. كما كان الوقت لصالح إسرائيل؛ واستخدمت هذه الميزة لخلق واقع جديد لجعل عملية التنازل عن الأراضي غير ممكنة. من ناحية أخرىٰ، كان الوقت ضد الأنظمة العربية المهزومة؛ فقد أدت هزيمتهم إلىٰ تآكل شرعيتهم، وكانوا يتعرضون لضغوط

---

(1) Ibid., 135.

متزايدة لعكس هذا التآكل من خلال عقد صفقات فردية مع إسرائيل لاستعادة أراضيهم. لا يمكن للدول العربية القومية الآن أن تتوقع مساعدةً كبيرة من الأنظمة العربية الملكية الغنية بالنفط؛ والآن بعد أن تضاءل التهديد القومي العربي لأنظمتهم، لم يكن هناك ضغط لمواصلة دعم السياسة القومية العربية في مواجهة إسرائيل إلىٰ ما لا نهاية، لقد كانت مصلحتهم هي تفكيك القومية العربية.

الظروف مهيأة الآن لاستسلام عربي، ومن المفارقات أن مصر -زعيمة الحركة القومية العربية- ستكون أول من يقدم أوراق انسحابه. من الواضح أن إسرائيل أرادت الاحتفاظ بجميع الأراضي التي حصلت عليها في الحرب، لكن هذا كان محفوفًا بالمخاطر، فيمكن أن يطيل ذلك من عمر القومية العربية المترنّحة، ويشجّع تجدد التدخل السوفيتي في الصراع العربي الإسرائيلي، ومن ثمّ كان الخيار التالي الأفضل هو التخلّي عن سيناء، وعقد صفقة منفصلة مع المصريين. إن الانشقاق المصري هو ما قصم ظهر القومية العربية، وهو ما أعطىٰ إسرائيل حريّة التصرّف في التعامل مع الفلسطينيين والعرب الآخرين. عرفت إسرائيل أيضًا أن مصر -من بين الدول العربية المهزومة- لديها الحافز الأقوىٰ لصنع سلام منفصل، فقد عانت من أكبر الخسائر الإقليمية، كما كانت خسائرها الاقتصادية هي الأكبر بسبب إغلاق قناة السويس وفقدان حقول أبو رديس النفطية في سيناء، وبمجرد استعادتها للأراضي التي فقدتها، يمكن لمصر الادّعاء بأنها استردت شرفها.

في يناير ١٩٧١ -بعد أشهر من توليه منصبه- بدأ الرئيس أنور السادات في تقديم مبادرات سلام مع إسرائيل؛ وقد كان حريصًا علىٰ توقيع اتفاق سلام منفصل مع إسرائيل، إلا أن الإسرائيليين لم يعيروه اهتمامًا، فقد أرادوا سلامًا لا يتحدث عن تنازلات إقليمية، وبعد أن رفضت إسرائيل، ونفد صبر مصر لإجبارها علىٰ الجلوس إلىٰ طاولة المفاوضات، خطّط الرئيس السادات لحرب استباقية محدودة هدفها هو عبور قناة السويس وطرد الإسرائيليين من الضفة

الشرقية، وكان يُعتقد أن هذا سيجبر الإسرائيليين علىٰ التفاوض. في أكتوبر ١٩٧٣ نجح الجيش المصري في تنفيذ عبور مفاجئ لقناة السويس، لكن في هجوم مضاد سريع، استعادت إسرائيل رباطة جأشها، وعبرت قناة السويس، وقطعت الإمدادات عن المصريين في سيناء وحاصرت الجيش المصري الثالث. وعلىٰ الرغم من أن مصر خسرت هذه الحرب أيضًا، إلا أن الرئيس السادات استطاع انتزاع سلام منفصل مع إسرائيل. أقنعت حرب أكتوبر إسرائيل والولايات المتحدة بالتفاوض علىٰ شروط معاهدة سلام منفصلة مع مصر. وفي سبتمبر ١٩٧٨-في كامب ديفيد- انشق الرئيس السادات عن العالم العربي معترفًا بشرعية الدولة الاحتلالية الاستيطانية ومصادرتها ٧٨٪ من فلسطين، وفي مقابل الاعتراف بإسرائيل، والانفصال عن العرب، والتخلية بين الفلسطينيين وأجهزتهم؛ أعادت مصر سيناء (بشرط أن تكون منطقة منزوعة السلاح)، وحصلت علىٰ التزام دائم بملياري دولار من المساعدات الأمريكية، لقد كانت صفقة لا تُعوّض لإسرائيل والولايات المتحدة.

في كامب ديفيد، أعلنت مصر رسميًّا نهاية حقبة القومية العربية، فبعد أن شنّت أربعة حروب متفرقة في خمسة وعشرين عامًا، كان من الطبيعي أن تُستنزف قواها، وهي الآن زاهدة في قيادة القومية العربية، وستتّجه لترميم داخلها. الفلسطينيون وسوريا والأردن ولبنان وحدهم الآن، وهم أيضًا سيسعون إلىٰ تحقيق «سلام» منفصل مع إسرائيل. في الواقع، سوف يرضخون لأي مصير تختار إسرائيل التعامل به مع كل منهم علىٰ حده، أما الفلسطينيون المشردون والرازحون تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي، أو المنتشرون في مخيمات اللاجئين في العالم العربي؛ فهؤلاء فقدوا كل شيء علىٰ ما يبدو. وبعد أن أكل الذئب ما أكل لم تتوقف الحركة القومية العربية -رغم فشلها التام- عن أن تكون مصدر الإلهاء

الكبير، أو ربما ما هو أسوأ من ذلك: تخصص إهدار الفرص؛ فبدلًا من تقديم الدعم وتأكيد الوحدة والكرامة العربية، عزّزت القوة المشتركة للإمبريالية الغربية التي تعمل جنبًا إلىٰ جنب مع الدولة الاحتلالية اليهودية. ربما لن نجد أي منطقة أخرىٰ في العالم -في حقبة ما بعد الاستعمار- فشلت تماما في إزعاج إرث الإمبريالية الغربية مثلما فشلت القومية العربية.

الفصل التاسع عشر
اللوبي يكتسب نفوذًا

«لولا اللوبي الصهيوني، لكانت إسرائيل رمادًا تذروه الرياح»
إشعياء كينين (Isaiah (Si) Kenen)

«خلال كل حملة انتخابية للكونغرس، يُطلب من كل مرشح عن كل مقعد أن يسطّر آراءه حول الشرق الأوسط؛ ويسعىٰ كل حريص علىٰ حجز مقعد في الكونغرس إلىٰ عرض أرائه في صفحات طوال بكل سرور؛ ثم تشارك لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية النتائج مع أعضائها لتحديد المرشح الأكثر تأييدًا لإسرائيل».
جوناثان جيرمي غولدبيرج (J. J. Goldberg)، ١٩٩٦

«تتمتع لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية بميزة كبرىٰ ألا وهي:
ليس هناك أي معارضة لها بكل ما تحمله الكلمة من معنىٰ»
دوغلاس بلومفيلد (Douglas Bloomfield)، ٢٠٠٣

«في العقدين الأخيرين بين عامي ١٩٨٠ و٢٠٠٠:
اكتسب اليهود الأمريكيون قوة ونفوذًا لم يسبق لهم أن تمتعوا به من قبل».
ستيفين شوارتز (Stephen Schwartz)، ٢٠٠٦

«إن اللوبي يشبه زهرة الليل: إنها تتفتح في الظلام، وتذبل في النور».
ستيفن روزين (Steven Rosen)، **٢٠٠٣**

«إذا قصفت إسرائيل شيكاغو بالأسلحة النووية: فإن الكونغرس سيوافق علىٰ ذلك».
ستيف ريد (Steve Reed)، **٢٠٠٩**(١)

من المستحيل بناء تقدير صحيح لإسرائيل -قيامها وحروبها وسياساتها التوسعية- ما لم ننظر إليها كضلع في مثلث، حيث يمثّل الشتات اليهودي والقوىٰ الغربية الضلعين الآخرين في هذه العلاقة.

إن إنشاء دولة استيطانية استعمارية إقصائية في منتصف القرن العشرين -علىٰ أساس التطهير العرقي- في قلب حضارة أخرىٰ؛ لم يكن عملًا عاديًا نجده كثيرًا عبر التاريخ، وقد عرف الصهاينة الأوائل ذلك؛ لقد كانوا طموحين ولديهم فهم راسخ للواقع، ولم يكونوا مجرد سُذّج متهورين، فقد كانوا يعلمون أنهم سيدخلون في صراع مع الأشخاص الذين سيهجّرونهم من فلسطين، وكذلك مع سائر العالم الإسلامي القريب والبعيد؛ وحتىٰ إذا تمكّن الصهاينة -بطريقة ما- من تهجير الفلسطينيين دون التأثير بشكل مباشر علىٰ جيرانهم -بترحيل الفلسطينيين إلىٰ الأرجنتين مثلا-؛ فإن سائر العالم الإسلامي لن يبرح يقاوم هذا التدخل(٢). إن

---

(1) Burns, EconomicAid andAmerican Policy, 20; Goldberg, Jewish Power, 225; Mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 146; Schwartz, Is It Good for the Jews, 121; Goldberg, "Real Insiders"; Reed, "No Happy Ending." Isaiah Kenen founded the American Zionist Committee for Public Affairs, the precursor to American Israeli Public Affairs Committee)AIPAC(;

ج. ج. غولدبرغ J. J. Goldberg هو مدير قسم قضايا السياسة الخارجية في منظمة AIPAC. أما دوغلاس بلومفيلد Douglas Bloomfield فهو المدير التشريعي السابق لنفس المنظمة.

(٢) ردًا علىٰ العروض الصهيونية بالتنازل عن فلسطين مقابل المساعدة المالية؛ أصرّ السلطان العثماني علىٰ أنه «لا يمكنه أبدًا التخلّي عن القدس». وفي عام ١٨٩٦ قال لهرتزل -من خلال وسيط- «لقد =

المستوطنين المحتلين ليسوا سائحين يدخلون منطقة ما، ويستمتعون بمناظرها، ويقضون بضع ليالٍ في الفنادق، ثم يغادرون ببعض التذكارات والهدايا، فعندما ينشئ هؤلاء المستوطنون دولتهم الإقصائية، فإنهم يعلنون الحرب ليس علىٰ السكان الأصليين وحدهم، بل حربًا أكثر عمومية تنطوي علىٰ تجريف للديموغرافيا، وتحريف لخريطة المنقطة، وتغيير لجغرافيتها السياسية، وتلاعب بالذاكرة التاريخية للمنطقة التي فرضوا أنفسهم عليها.

لا يمكننا أن نفسّر إنشاء إسرائيل -ونجاحاتها الاقتصادية والعسكرية- علىٰ أنه مجرد تجسيد للقوة اليهودية وحدها. لقد نجح الصهاينة لأنهم كانوا قادرين علىٰ تضخيم القوة اليهودية من خلال تجنيد الحلفاء. كان بالإمكان القول إن اليهود الغربيين ما هم إلا ثلة من الحمقىٰ والمتهورين لو أنهم حاولوا بمفردهم تنفيذ مشروعهم الجريء للغاية، الذي كان من المؤكد أن ينتج عنه تصادمٌ مع الكتلة العظيمة للشعوب الإسلامية، إلا أنهم لم يقترحوا هذا المشروع إلا لأنهم كانوا علىٰ يقين بإمكانهم استخدام اليهود الغربيين -المنخرطين في المجتمعات الغربية-، لتسخير موارد وأسلحة المجتمعات الغربية لدعم مشروعهم. ومن أجل الوقوف أمام العالم الإسلامي وإخضاعه، توجّب علىٰ الصهاينة تأليب الغالبية العظمىٰ من العالم الغربي ضده.

إن اعتماد إسرائيل علىٰ القوة الغربية -ومن ثمّ علىٰ اليهود الغربيين- لم ينته -ولا يمكن أن ينتهي- بإنشائها، بل علىٰ العكس من ذلك، فإن هذه الاعتمادية سوف تنمو بمرور الوقت. كان من السهل نسبيًا إقامة دولة استيطانية يهودية في الشرق الأوسط في وقت كانت فيه السيطرة الغربية علىٰ هذه المنطقة في أوجها، وعندما كان الفجوة بين الغرب والإسلام أكبر مما كانت عليه في أي وقت مضىٰ.

= ربح شعبي هذه الإمبراطورية بالقتال، ولا تزال تلك الأرض مخضبة بدمائهم، نحن علىٰ استعداد لأن نغمرها مرة أخرىٰ بدمائنا قبل أن نسمح بانتزاعها منا . . . فليوفر اليهود ملايينهم».

morris, Righteous Victims, 39, 41.

لكن تلك الفجوة ستضيق في فترة ما بعد الحرب، ومع حصول الدول الإسلامية علىٰ قدر من الاستقلال، فإنها ستبني قدراتها الاقتصادية والصناعية والعسكرية. بالإضافة إلىٰ ذلك، كان من المؤكد أن الغاصب الإسرائيلي سيثير ردة فعل معاكسة -وربما متأخرة- من العالم الإسلامي، ففي البداية، اتخذ هذا الردّ شكل القوميّة العربيّة، ولكن لاحقًا -عندما تكسّرت الموجة الأولىٰ من المقاومة أو تماهت مع العدو-، أعقبتها موجة ثانية من المقاومة استندت إلىٰ الأفكار والمُثُل الإسلامية. إن طموحاتها الاحتلالية المتطرفة وردة الفعل علىٰ المقاومة الإسلامية العميقة؛ دفعت إسرائيل إلىٰ الاعتماد -بشكل متزايد- علىٰ الدعم المالي والعسكري والدبلوماسي لدولتها الراعية الجديدة: الولايات المتحدة.

إن اعتماد إسرائيل المتزايد علىٰ الولايات المتحدة يمكن أن يصبح عبئًا لا يمكنها التخلّص منه. لم يستطع الصهاينة تحمّل تراجع بريطانيا -الدولة الراعية الأولىٰ- التي قلّصت -بشكل كبير- من التزامها بالصهيونية في عام ١٩٣٩، عندما أصبحت التكاليف الاستراتيجية لهذه السياسة باهظة للغاية. وإن إسرائيل إذ تختار دقّ أوتاد مشروعها الاحتلالي الآن في أراضي الولايات المتحدة، فإنها تواجه خطرًا مشابهًا. في الواقع، سترتفع تكلفة التراجع مع نمو عدد السكان اليهود في إسرائيل. في عام ١٩٤٨ -وقت إنشائها- ضمّت إسرائيل أقل من ٦% من يهود العالم، وارتفعت هذه الحصة بشكل كبير بعد عام ١٩٤٨، ومع ازدياد نسبة ما تضمّه إسرائيل من يهود العالم، تزداد تكلفة تراجع الولايات المتحدة وتخلّيها عن المشروع الصهيوني. لكن يتعيّن علىٰ الصهاينة تجنّب أو -علىٰ الأقل- تقليل الأخطار التي يمكن أن تنتج من تخلىٰ الولايات المتحدة عن إسرائيل.

كان هذا هو التحدي الأكبر أمام الصهاينة: كيف يمكن أن يضعوا الولايات المتحدة بقوة لتكون في صف إسرائيل و-الأهم من ذلك- إبقاؤها كذلك؟ تطلّبت هذه العملية اتباع نهج ذي شقين؛ علىٰ الأرض، سيتعين علىٰ إسرائيل إدامة وتعميق الغضب العربي والإسلامي ضد الغرب، والولايات المتحدة علىٰ وجه

الخصوص. لا يمكن لسياسات إسرائيل التوسعية أن يكون لها مردود إلا من خلال ما تخلقه من رد فعل معادٍ لأمريكا، وهو ما تعتمد عليه إسرائيل لتدّعي أنها «تدافع» عن الولايات المتحدة. في الوقت نفسه، سوف يتوسّع اليهود الصهاينة، ويستخدمون نفوذهم علىٰ السياسة الداخلية في الولايات المتحدة لتشكيل سياستها في الشرق الأوسط. باختصار، سيتعيّن علىٰ الصهاينة أن يصنعوا «علاقة خاصة» بين إسرائيل والولايات المتحدة، تجعل ثقل الولايات المتحدة السياسي والعسكري طوع بنان إسرائيل، وستكون مهمة اللوبي اليهودي هي زيادة الدعم الأمريكي لإسرائيل إلىٰ الحد الأقصىٰ، وتعزيز التعاون الاستراتيجي بين البلدين، وتضخيم التهديدات العربية والإسلامية للولايات المتحدة، ومن ثم تحصل إسرائيل علىٰ تفويض بضبط الشرق الأوسط. سيبحث هذا الفصل كيف اكتسب اللوبي اليهودي -منذ قيام إسرائيل- القدرة علىٰ متابعة وتحقيق هذه الأهداف.

❀ ❀ ❀

لننظر أولًا في بعض الخصائص الرئيسية للعلاقة الخاصة التي نشأت بين الولايات المتحدة وإسرائيل في العقود التي تلت إنشاء إسرائيل.

أحد المؤشرات الأولية التي تستخدم -بشكل متكرر- لفحص هذه العلاقة الخاصة تتبّع حجم المساعدة التي تلقتها إسرائيل من الولايات المتحدة. لقد زادت قيمة المساعدة الاقتصادية والعسكرية السنوية لإسرائيل بشكل كبير في عامي ١٩٧٠ و١٩٧٤، ولم تقل أبدًا عن ٣ مليارات دولار بين عامي ١٩٨٥ و٢٠٠٠، ولم تنخفض إلا بشكل طفيف منذ ذلك الحين[1]. علاوة علىٰ ذلك، تلقّت إسرائيل هذه المساعدات بشروط لا تتمتّع بها الدول الأخرىٰ التي تتلقّىٰ مساعدات. لسنوات عديدة، وافق الكونغرس علىٰ التزامات المساعدة لإسرائيل تلقائيًا، ودون أي نقاش أو معارضة، كما تلقّت إسرائيل كل مساعداتها علىٰ شكل منح منذ عام ١٩٨٥، والتي يُنفق معظمها علىٰ أنظمة الأسلحة، وتتلقّىٰ كل

(1) Jewish Virtual Library, US Assistance to Israel, FY 1994-FY2006.

مساعداتها في بداية كل عام، وتنفق وزارة الدفاع من هذه المساعدات في عمليات الشراء العسكرية بغير حساب، وتتصرّف في المعونات دون أي رقابة. كما أن لإسرائيل الحرية في إعادة تمويل الديون المستحقة للحكومة الأمريكية(١). وفي النهاية تسقط عامة ديون إسرائيل، فوفقًا لأحد التقديرات، بين عامي ١٩٧٤ و١٩٨٩، أُسْقط مبلغ مقداره ١٦,٤ مليار دولار من القروض العسكرية التي تلقّتها إسرائيل(٢). بالإضافة إلىٰ ذلك، قدّمت الولايات المتحدة ١٩ مليار دولار كضمانات قروض لإسرائيل منذ تسعينيات القرن الماضي(٣). وقد سمح هذا لإسرائيل بتخفيض تكلفة اقتراضها من سوق رأس المال الأمريكي.

دائمًا ما تُقَدَّر التكاليف الاقتصادية لعلاقة الولايات المتحدة الخاصة مع إسرائيل بقيمة المساعدة المالية المباشرة الممنوحة لإسرائيل. فإذا نظرنا إلىٰ معونات عام ٢٠٠١، نجد أن إسرائيل قد تلقّت بين عامي ١٩٧٣ و٢٠٠١ مساعدات اقتصادية وعسكرية بقيمة ٢٤٠ مليار دولار من الولايات المتحدة، إلا أن هذا الرقم يقلل -بشكل خطير- من التكلفة الاقتصادية الإجمالية للعلاقة الأمريكية الخاصة مع إسرائيل. فإذا ذهبنا إلىٰ تقدير أوسع وأشمل لهذه التكاليف فيجب أن نأخذ في الحسبان ارتفاع تكاليف الطاقة بسبب الحظر النفطي الذي فرضه العرب، والمساعدات التي تلقتها مصر والأردن مقابل توقيع معاهدات السلام مع إسرائيل، وتكاليف المقاطعة العربية للشركات الأمريكية التي تتاجر معها إسرائيل، وتكاليف التخزين المسبق للإمدادات في إسرائيل . . . وهلمّ جرًّا. ووفقًا لتوماس ستوفر (Thomas Stauffer)، فإن التكلفة الاقتصادية الإجمالية التي

(1) Mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 26-28, 32; Mark, Israel: U.S. Foreign Assistance, 8-9.

(2) Zunes, "US Aid to Israel."

(3) Sharp, U.S. Foreign Assistance, 6-7; Mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 28-29.

تتحملها الولايات المتحدة بسبب علاقتها الخاصة مع إسرائيل -بين عامي ١٩٧٣ و٢٠٠١- تصل إلىٰ ١,٦ تريليون دولار[١].

إن برنامج المساعدة هو جانب واحد فقط من جوانب العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. ابتداءً من الثمانينيات، بدأت الولايات المتحدة التعاون مع إسرائيل في مجموعة متنوعة من المجالات العسكرية: بما في ذلك التخطيط العسكري، والمناورات العسكرية المشتركة، والخدمات اللوجستية، وجمع المعلومات الاستخباراتية، وتطوير أنظمة أسلحة جديدة. في تشرين الثاني/ نوفمبر١٩٨٣، اتفقت الولايات المتحدة وإسرائيل علىٰ تشكيل مجموعة سياسية عسكرية مشتركة (JPMG)، تجتمع كل ستة أشهر لمناقشة القضايا المتعلقة بالتخطيط العسكري، والتدريبات العسكرية المشتركة، والتخزين المسبق للإمدادات العسكرية في إسرائيل. أما في مايو ١٩٨٦ فقد أصبحت إسرائيل ثالث حليف للولايات المتحدة ينضم إلىٰ مبادرة الدفاع الاستراتيجي (SDI)، والتي منحتها الحق في تقديم مبادرات للحصول علىٰ عقود الدفاع الاستراتيجي. بعد ذلك بعام، أصبحت إسرائيل -بعد اليابان وأستراليا- ثالث حليف «رئيسي من خارج الناتو»، وقد منح هذا إسرائيل إمكانية الوصول إلىٰ أنظمة أسلحة متطورة، بالإضافة إلىٰ الحق في تقديم طلبات للحصول علىٰ عقود دفاع حلف الناتو[٢]. بالإضافة إلىٰ ذلك -ورضوخًا للضغط الإسرائيلي- أجرت الولايات المتحدة عمليات تفتيش متراخية للمنشآت النووية الإسرائيلية في الستينيات، ولاحقًا، منحت الولايات المتحدة إسرائيل مساعدات غير محدودة عندما عُرف أنها تمتلك مخزونًا من الأسلحة النووية[٣]. في الواقع، أكّد أندرو وليزلي كوكبيرن أن

---

(1) Stauffer, "The Cost of Conflict in the Middle East," 45, 61.

(2) Reich, Securing the Covenant, 43-45; Rabil, Syria, the United States, 80-82; Mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 31-36.

(3) Mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 35; Thomas, Gideon's Spies, 93.

الولايات المتحدة -مقابل الانسحاب الإسرائيلي من سيناء في عام ١٩٥٧- سمحت لإسرائيل بنقل ٢٠٠ رطل من اليورانيوم المخصّب من مصنع أبولو في بنسلفانيا إلىٰ إسرائيل[١]، ووفقًا لمصدر آخر، فإن إسرائيل أفلتت من تبعات سرقة مواد نووية في ثلاث مناسبات أخرىٰ علىٰ الأقل[٢].

في مفارقة ساخرة: لم يستطع سيل المساعدات التي قدمتها الولايات المتحدة أن يجعل لها كلمة مسموعة علىٰ إسرائيل. فرغم تنامي الدعم المالي الأمريكي لإسرائيل -مصحوبًا بأفضل الشروط- إلا أنه لم يمنع إسرائيل أبدًا من اتباع سياسات -مثل إنشاء مستوطنات يهودية غير شرعية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وضم القدس ومرتفعات الجولان، والانخراط عمليات الاغتيال، والحروب ضد لبنان- تتعارض مع رغبات الولايات المتحدة، بل وتضرّ بمصالحها الاستراتيجية. وفي المناسبات النادرة التي تجرّأ فيها الرئيس الأمريكي علىٰ إظهار اختلافه مع إسرائيل، تدخّل الكونغرس لثني الرئيس عن رأيه؛ ففي سبتمبر ١٩٩١، عندما سعىٰ الرئيس جورج دبليو بوش لتأجيل الموافقة علىٰ ضمانات قروض بقيمة ١٠ مليارات دولار، عارض الكونغرس التأجيل بعدد كافٍ من الأصوات لمنع حق النقض[٣]. ومن هنا يمكننا القول إنه علىٰ الرغم من المساعدات الهائلة التي تقدّمها الولايات المتحدة، إلا أنها لا تستطيع الحصول علىٰ «تعاون» من إسرائيل إلا من خلال تقديم «المزيد من المكافآت»، ولم يعد بإمكانها استخدام «عصىٰ» التهديد بقطع المساعدات[٤].

---

(1) Cockburn and Cockburn, Dangerous Liaison, 78-81.

(2) Pry, Israel's Nuclear Arsenal, 28-29.

(٣) في ١٢ سبتمبر ١٩٩١ تجاوز الرئيس بوش المُحبَط رؤساء الكونجرس ليوجه نداءً مباشرًا إلىٰ الرأي العام الأمريكي؛ لكن هذا كان خطأ. فبعد بضعة أسابيع، حشد اللوبي الإسرائيلي قواه لإخضاع ريتشارد ثورنبرج - (Richard Thornburgh)الصديق المقرب للرئيس- في محاولته تحصيل عضوية مجلس الشيوخ. وكان ثورنبرج يتقدّم استطلاعات الرأي -بفارق كبير- قبل أسابيع قليلة فقط من خطاب الرئيس بوش في سبتمبر ١٩٩١ Goldberg, Jewish Power, xv-xvi, xxiv ..

(4) Mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 37.

تتحملها الولايات المتحدة بسبب علاقتها الخاصة مع إسرائيل -بين عامي ١٩٧٣ و٢٠٠١- تصل إلىٰ ١,٦ تريليون دولار[١].

إن برنامج المساعدة هو جانب واحد فقط من جوانب العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. ابتداءً من الثمانينيات، بدأت الولايات المتحدة التعاون مع إسرائيل في مجموعة متنوعة من المجالات العسكرية: بما في ذلك التخطيط العسكري، والمناورات العسكرية المشتركة، والخدمات اللوجستية، وجمع المعلومات الاستخباراتية، وتطوير أنظمة أسلحة جديدة. في تشرين الثاني/ نوفمبر١٩٨٣، اتفقت الولايات المتحدة وإسرائيل علىٰ تشكيل مجموعة سياسية عسكرية مشتركة (JPMG)، تجتمع كل ستة أشهر لمناقشة القضايا المتعلقة بالتخطيط العسكري، والتدريبات العسكرية المشتركة، والتخزين المسبق للإمدادات العسكرية في إسرائيل. أما في مايو ١٩٨٦ فقد أصبحت إسرائيل ثالث حليف للولايات المتحدة ينضم إلىٰ مبادرة الدفاع الاستراتيجي (SDI)، والتي منحتها الحق في تقديم مبادرات للحصول علىٰ عقود الدفاع الاستراتيجي. بعد ذلك بعام، أصبحت إسرائيل -بعد اليابان وأستراليا- ثالث حليف «رئيسي من خارج الناتو»، وقد منح هذا إسرائيل إمكانية الوصول إلىٰ أنظمة أسلحة متطورة، بالإضافة إلىٰ الحق في تقديم طلبات للحصول علىٰ عقود دفاع حلف الناتو[٢]. بالإضافة إلىٰ ذلك -ورضوخًا للضغط الإسرائيلي- أجرت الولايات المتحدة عمليات تفتيش متراخية للمنشآت النووية الإسرائيلية في الستينيات، ولاحقًا، منحت الولايات المتحدة إسرائيل مساعدات غير محدودة عندما عُرف أنها تمتلك مخزونًا من الأسلحة النووية[٣]. في الواقع، أكّد أندرو وليزلي كوكبيرن أن

---

(1) Stauffer, "The Cost of Conflict in the Middle East," 45, 61.

(2) Reich, Securing the Covenant, 43-45; Rabil, Syria, the United States, 80-82; Mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 31-36.

(3) Mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 35; Thomas, Gideon's Spies, 93.

الولايات المتحدة -مقابل الانسحاب الإسرائيلي من سيناء في عام ١٩٥٧- سمحت لإسرائيل بنقل ٢٠٠ رطل من اليورانيوم المخصّب من مصنع أبولو في بنسلفانيا إلىٰ إسرائيل(١)، ووفقًا لمصدر آخر، فإن إسرائيل أفلتت من تبعات سرقة مواد نووية في ثلاث مناسبات أخرىٰ علىٰ الأقل(٢).

في مفارقة ساخرة: لم يستطع سيل المساعدات التي قدمتها الولايات المتحدة أن يجعل لها كلمة مسموعة علىٰ إسرائيل. فرغم تنامي الدعم المالي الأمريكي لإسرائيل -مصحوبًا بأفضل الشروط- إلا أنه لم يمنع إسرائيل أبدًا من اتباع سياسات -مثل إنشاء مستوطنات يهودية غير شرعية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وضم القدس ومرتفعات الجولان، والانخراط عمليات الاغتيال، والحروب ضد لبنان- تتعارض مع رغبات الولايات المتحدة، بل وتضرّ بمصالحها الاستراتيجية. وفي المناسبات النادرة التي تجرّأ فيها الرئيس الأمريكي علىٰ إظهار اختلافه مع إسرائيل، تدخّل الكونغرس لثني الرئيس عن رأيه؛ ففي سبتمبر ١٩٩١، عندما سعىٰ الرئيس جورج دبليو بوش لتأجيل الموافقة علىٰ ضمانات قروض بقيمة ١٠ مليارات دولار، عارض الكونغرس التأجيل بعدد كافٍ من الأصوات لمنع حق النقض(٣). ومن هنا يمكننا القول إنه علىٰ الرغم من المساعدات الهائلة التي تقدّمها الولايات المتحدة، إلا أنها لا تستطيع الحصول علىٰ «تعاون» من إسرائيل إلا من خلال تقديم «المزيد من المكافآت»، ولم يعد بإمكانها استخدام «عصىٰ» التهديد بقطع المساعدات(٤).

---

(1) Cockburn and Cockburn, Dangerous Liaison, 78-81.

(2) Pry, Israel's Nuclear Arsenal, 28-29.

(٣) في ١٢ سبتمبر ١٩٩١ تجاوز الرئيس بوش المُحبَط رؤساء الكونجرس ليوجه نداءً مباشرًا إلىٰ الرأي العام الأمريكي؛ لكن هذا كان خطأ. فبعد بضعة أسابيع، حشد اللوبي الإسرائيلي قواه لإخضاع ريتشارد ثورنبرج - (Richard Thornburgh)الصديق المقرب للرئيس- في محاولته تحصيل عضوية مجلس الشيوخ. وكان ثورنبرج يتقدّم استطلاعات الرأي -بفارق كبير- قبل أسابيع قليلة فقط من خطاب الرئيس بوش في سبتمبر ١٩٩١ Goldberg, Jewish Power, xv-xvi, xxiv ..

(4) Mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 37.

علىٰ الصعيد الدبلوماسي، فإن الولايات المتحدة تابعة لإسرائيل، ففي العقود الأخيرة، أصبح لدىٰ الولايات المتحدة سجلًا ممتلئًا من استخدام حق النقض ضد كل قرار تعارضه إسرائيل من قرارات مجلس الأمن. ابتداءً من سبتمبر ١٩٧٢، استخدمت الولايات المتحدة حق النقض في ٣٩ مناسبة لحماية إسرائيل مِن القانون الدولي، وقد استخدمت حق النقض ضد قرارات تؤكد حق الفلسطينيين في تقرير المصير، وحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلىٰ ديارهم، أو عدم جواز الاستيلاء علىٰ الأراضي بالقوة. وفي مناسبات أخرىٰ، رفضت قرارات تدين الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، أو الهجمات الإسرائيلية المتكررة ضد الدول المجاورة[١]. ولو كان لدولة عربية أو أفريقية سجلًا مماثلًا لسجل إسرائيل في انتهاك القوانين الدولية، لتعرّضت لجميع ألوان العقوبات الدولية منذ سنوات عديدة.

أقامت الولايات المتحدة وإسرائيل علاقة خاصة أيضًا في مجال التجارة؛ حيث أصبحت إسرائيل أول دولة توقّع اتفاقية تجارة حرّة مع الولايات المتحدة في عام ١٩٨٥، أي قبل ما يقرب من عقد من تأسيس هذه الأخيرة للتجارة الحرة مع أقرب جيرانها؛ كندا والمكسيك. كانت فوائد اتفاقية التجارة الحرة غير متكافئة تمامًا؛ فقد تضاعفت حصة الصادرات الإسرائيلية التي استقبلتها الولايات المتحدة بين عامي ١٩٨٠ و١٩٩٧؛ بينما ظلّت حصة الولايات المتحدة من واردات إسرائيل دون تغيير تقريبًا خلال نفس الفترة[٢]. في ديسمبر ٢٠٠٤، وقّعت الولايات المتحدة اتفاقية تجارة حرّة محدودة للسماح باستقبال صادرات من مناطق معينة في مصر شريطة أن يكون ١١,٧% من مكوناتها إسرائيلي المنشأ[٣].

---

(1) Ibid., 40.

(2) Lovett, Eckes, and Brinkman, U.S. Trade Policy, 95.

(3) AFP, Egypt, Israel Enhances Trade.

لعلّ هذه الاتفاقية هي الوحيدة من بين اتفاقيات التجارة الحرّة التي ترتبط فيها الصادرات من إحدىٰ الدولتين بالواردات من دولة ثالثة.

❁ ❁ ❁

لا تخطئ عين الناظر في تطوّر العلاقات الأمريكية مع إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ -وتحوّل الأخيرة من العبء إلىٰ الرصيد الاستراتيجي- أن إسرائيل وحلفاءها الصهاينة في الولايات المتحدة كانت دائمًا في مقعد القيادة.

تبنّىٰ الرئيس ترومان مشروع إنشاء إسرائيل في عام ١٩٤٧ ليس لأن المؤسسة الأمريكية اعتبرتها رصيدًا استراتيجيًّا؛ كتبت شيريل روبنبرغ (Cheryl Rubenberg): «لا أحد -ولا حتىٰ الإسرائيليون أنفسهم- يجرؤ علىٰ القول بأن الولايات المتحدة دعمت إنشاء الدولة اليهودية لأسباب تتعلق بالأمن أو المصلحة الوطنية»[(١)]. لقد كانت السياسة المحلية -في عام الانتخابات- هي القوة الأساسية خلف صهيونية الرئيس ترومان. بالإضافة إلىٰ ذلك، لم يكن الضرر الذي ألحقه إنشاء إسرائيل بالمصالح الأمريكية فوريًا؛ فالموجات الأولىٰ من تبعات خروج المشروع الصهيوني إلىٰ النور سيتحمّلها البريطانيون الذين كانوا لا يزالون القوة العظمىٰ في المنطقة[(٢)]، ومع ذلك، اتخذ الرئيس ترومان بعد فترة وجيزة من مساعدة إسرائيل إجراءاتٍ بدا أنها أبعدت الولايات المتحدة عن الدولة

---

(١) «عمليًّا: عارض كل بيروقراطيي الشؤون الخارجية -بما في ذلك وزارتي الخارجية والحرب (الدفاع لاحقًا)- وهيئة الأركان المشتركة إنشاء إسرائيل من وجهة نظر المصالح القومية الأمريكية».
Rubenberg, Israel and the American National Interest, 9-10.

(٢) في عام ١٩٥٢ سيطر البريطانيون علىٰ أصول عسكرية واقتصادية كبيرة في الشرق الأوسط، و«كان لديهم ٨٠ ألف جندي يحرسون مجمع قاعدة قناة السويس، وكانت هناك مرافق بحرية في عدن، والأسراب الجوية في العراق، والفيلق العربي في الأردن، والقواعد الخلفية في قبرص ومالطا؛ كما سيطروا علىٰ إنتاج النفط الإيراني، وامتلكوا أكبر مصفاة نفط في العالم في عبادان. وأخيرًا، كانت بريطانيا مسؤولة عن الدفاع والسياسة الأجنبية لسلسلة من المحميات علىٰ طول الخليج الفارسي».

peterson, The Decline of the Anglo-American Middle East, 1.

اليهودية؛ فبدلًا من إلزام القوات الأمريكية بحماية إسرائيل عندما قاتلت ضد خمسة جيوش عربية، فرض ترومان حظر الأسلحة علىٰ طرفي الصراع[1]. لو استطاعت تلك الحرب تفكيك إسرائيل، لكانت الولايات المتحدة قد حثّت علىٰ التحرك الدولي لحماية المحتلين اليهود في فلسطين، لكنها كانت ستقبل زوال إسرائيل المبكر كأمر واقع. كما فشلت الضغوط الصهيونية في إقناع الرئيس ترومان برفع حظر الأسلحة. ومن المفارقات أنه من المحتمل أن المساعدات العسكرية من تشيكوسلوفاكيا -بناءً علىٰ طلب سوفييتي- هي ما أنقذ إسرائيل.

وبمجرد أن هزمت إسرائيل جيوش الدول العربية «البدائية»، وطردت الفلسطينيين لتَظهر للعالم كدولة يهودية خالصة عام ١٩٤٩، فسرعان ما ستستغل هذه الحقائق الوحشية لصالحها. وتحت قيادة الولايات المتحدة، ستعترف القوىٰ الغربية واحدة تلو أخرىٰ بإسرائيل، مدركة أنها ساعدت في خلق مسؤولية يتعين عليها الدفاع عنها. في الوقت نفسه، أشعلت مرارة الهزيمة حنق القوميين العرب في جميع أنحاء المنطقة، ومن ثم وجّهوا غضبهم ضد إسرائيل ورعاتها الغربيين. ومن المفارقات أن هذا الوضع قد مكّن إسرائيل من تسريع تحولها إلىٰ رصيد استراتيجي. وبالتنسيق مع اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة، سعت إسرائيل إلىٰ تعظيم المساعدات الغربية من خلال اتباع المزيد من السياسات التي تستفز القومية العربية وتدفعها إلىٰ حافة التطرف، ومع نمو تفوقها العسكري، صعَّدت إسرائيل من موقفها العدواني تجاه العرب. لقد كان لدىٰ إسرائيل القوة لبدء عملية تراكمية من شأنها أن تخلق في المستقبل القريب التهديد العربي الذي ستقنع الدول الغربية أنها تدافع عنها ضده. ونتيجة لذلك، في أوقات مختلفة خلال

---

(١) وفي الوقت نفسه سمحت الولايات المتحدة لإسرائيل -منتهكة لحظر الأسلحة- باستيراد ناقلات الأفراد الفائضة في الحرب العالمية الثانية وتجنيد قدامىٰ المحاربين اليهود الأمريكيين في الحرب العالمية الثانية للقتال في إسرائيل، وهذا الأخير ينتهك قوانين الجنسية الأمريكية.

liya Bet & Machal Virtual Museum, Pictorial History.

الخمسينيات من القرن الماضي، تتابعت فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا علىٰ اعتبار إسرائيل رصيدًا استراتيجيًّا.

لم يبدأ احتضان أمريكا لإسرائيل عام ١٩٦٧؛ فإن انتصار إسرائيل في حرب حزيران/يونيو لم يؤد إلّا إلىٰ تسريع العملية التي كانت جارية منذ ما قبل إنشائها. في الواقع، قرّر الصهاينة في عام ١٩٣٩ أن يوجّهوا نظرهم للولايات المتحدة وإعدادها لتكون بلدهم الراعي الجديد. لقد كان العدد الكبير والمؤثر من اليهود الأمريكيين مصدرًا ينتظر من الصهاينة استغلاله[١]، وقد آتىٰ هذا القرار ثماره بشكل جيد في عام ١٩٤٧، عندما جلب الدعم الأمريكي للصهيونية، حيث صوّتت الأمم المتحدة علىٰ خطة تقسيم لفلسطين. سعت الولايات المتحدة لعدة سنوات بعد عام ١٩٤٧ إلىٰ احتواء الضرر الذي لحق بمصالحها الاستراتيجية بسبب قيام دولة إسرائيل، ومع ذلك، لم تكن هذه الجهود تزيد الأمر إلا سوءًا، فلم يعد ثمة طريق للرجوع. ومن هذه اللحظة تولّت إسرائيل -وليس الولايات المتحدة - مقعد القيادة، وستبذل كل ما في وسعها لزيادة واستغلال التداعيات السلبية من اندماجها في الشرق الأوسط، وبمجرد أن نجحت إسرائيل في تضخيم -محدود- للتهديد العربي لها وللولايات المتحدة استعاد اللوبي اليهودي عافيته، وسيعود لممارسة دوره في الترويج لإسرائيل كرصيد استراتيجي. لدينا هنا حلقة مفرغة أخرىٰ لصالح إسرائيل: كل زيادة في حدة التهديد العربي والسوفييتي المشترك للولايات المتحدة، سيقابلها زيادة في نفوذ اللوبي اليهودي.

عندما دحرت إسرائيل التهديد العربي في عام ١٩٦٧، تحوّل اللوبي اليهودي إلىٰ وظيفته المفضّلة، فلم يمض وقت طويل حتىٰ بدأ يتحرك لحصاد رأس المال السياسي الهائل الذي حققه النصر في حرب يونيو لإسرائيل في الولايات

---

(١) قال دبلوماسي إسرائيلي -ذات مرة- لمسؤول في وزارة الخارجية (في الخمسينيات): «لقد وضع الله روافد نفطية ضخمة تحت الأرض العربية؛ من حسن حظنا أيضًا أن الله قد وضع خمسة ملايين يهودي في أمريكا». Bass, Support my Friend, 6

المتحدة. كما أدى الاستيلاء الإسرائيلي على القدس في عام ١٩٦٧ إلى تنشيط الصهاينة المسيحيين إلى حدٍّ كبير، الذين سيكونون تنظيمات -بتشجيع من الصهاينة اليهود- ويدخلون في السياسة الجمهورية، وسرعانِ ما يصبحون حليفًا رئيسيًا للوبي اليهودي. من الآن فصاعدًا لم يعد هناك حد لإمكانات إسرائيل والصهاينة في الولايات المتحدة، وستصبح العلاقة الخاصة أكثر خصوصية في ظل كل رئاسة جديدة.

يستهجن العديد من الكتاب اليساريين الأمريكيين القول بأن اللوبي اليهودي كان قوة مُحرّكة في تشكيل سياسة أمريكا في الشرق الأوسط؛ ويرون أن الولايات المتحدة قد دعمت إسرائيل بسبب تقارب مصالحهم في المنطقة[١]. يشير أصحاب نظرية التقارب -بشكل صحيح- إلى ما توفّره إسرائيل من «فيض هائل من السيطرة الاستراتيجية، كما أنها أحد أعظم الجوائز المادية في تاريخ العالم»[٢]، لكنهم استنتجوا -خطًا- أن هذا هو ما يشكّل السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، لكن نظرة فاحصة تبيّن ما في هذا الطرح من غرابة، لأن بريطانيا -حتى أوائل الخمسينيات- تمكّنت من الحفاظ على سيطرتها الكاملة على نفط الشرق الأوسط بدون إسرائيل، وهو إنجاز لم تستطع الولايات المتحدة الوصول إليه على الرغم من -(أو بسبب)- «الدعم الاستراتيجي» لإسرائيل. ومن ثمّ -كما يقول منظرو التقارب- تعرّضت السيطرة الغربية على النفط للتهديد بدءًا من الخمسينيات من

---

(1) Chomsky (Fateful Triangle, 9-83) and Zunes (Why the U.S. Supports Israel?; "U.S. Aid to Israel") have been the leading exponents of this position. More recently, this position has been defended by Amin and Kenz (Europe and the Arab World, 39-41), Massad ("Blaming the Lobby"), and Abu-Manneh ("Israel in the U.S. Empire"). Zionist apologists who take this position are a legion, including Spiegel ("The Other Arab-Israeli Conflict), Organski (The $36 Billion Bargain), and Kramer ("The American Interest). For writers on the left who blame the Jewish lobby, see Petras (The Power of Israel, 168-81), Cockburn ("The Uproar over the Israel Lobby), and Blankfort ("The Israeli Lobby and the Left"; "Damage Control).

(٢) جاء هذا التأكيد من تقرير صدر عام ١٩٤٥ عن وزارة الخارجية Chomsky, Fateful Triangle, 17.

القرن الماضي من القومية العربية -وفيما بعد- من الإسلاميين الأصوليين. لقد أثبتت إسرائيل قيمتها الاستراتيجية من خلال كبح جماح التحدي القومي العربي، ثم هزيمته لاحقًا. ومنذ ذلك الحين، احتوت إسرائيل التحدّي الإسلامي للهيمنة الأمريكية علىٰ المنطقة.

قد يكون من المفيد فحص تحليل نعوم تشومسكي للعلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل؛ لأنه يتمتّع بمكانة رمزية بين الليبراليين واليساريين -علىٰ حدٍ سواء- في الولايات المتحدة. يؤطّر تشومسكي تحليله لـ «العوامل السببية» الكامنة وراء هذه العلاقة الخاصة كخيار أساسي بين «مجموعات الضغط المحلية» و«المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة»، ويحدّد وجهين من أوجه القصور في الحجة القائلة بأن «الجالية اليهودية الأمريكية» هي البطل الرئيسي في العلاقة الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة. فأولًا، يرىٰ تشومسكي أن هذا القول «يضيق من مجال مفهوم «دعم إسرائيل»»، وثانيًا، يبالغ في تقدير دور مجموعات الضغط السياسي في صنع القرار، حيث يشير تشومسكي إلىٰ أن اللوبي الإسرائيلي «أوسع بكثير» من الجالية اليهودية الأمريكية، فهو يضم الليبراليين، والقادة العماليين، والأصوليين المسيحيين، والمحافظين، والمتحمسين من جميع الأطياف[(١)]. صحيحٌ أن هذا التعريف الأوسع للوبي الإسرائيلي مناسبٌ لحقيقته، إلا أن تشومسكي يعتقد أن وجود هذا الدعم «الأوسع بكثير» لإسرائيل يقلل الدور الذي يلعبه اليهود الأمريكيون في اللوبي الإسرائيلي.

هناك مصادرتان خفيّتان تشكّلان جزءًا أساسيًا من قول تشومسكي بأن هناك لوبي إسرائيلي أوسع يُدخِل الجماعات غير اليهودية ضمن نطاق الضغط. أولًا، فشل تشومسكي في تفسير التداخل القوي -باستثناء الأصوليين المسيحيين- بين الجالية اليهودية الأمريكية ومجموعات الضغط المحلية الأخرىٰ التي يعدّدها، ففي الولايات المتحدة، كان هذا التداخل موجودًا منذ العقود الأولىٰ من القرن

(1) Ibid., 13.

العشرين، وازداد -بشكل كبير- في فترة ما بعد الحرب، ولا تكاد عينا الناظر تخطئ الوجود اليهودي -الساحق، وبنسب تفوق عامة الجماعات الأخرىٰ- في المناصب القيادية في الشركات، والحركات العمّالية، وغيرها من المهن والمراكز التي تشكّل الخطاب العام. ابتداءً من الثمانينيات، أدىٰ صعود المحافظين الجدد من اليهود -مع ما لهم من مراكز فكرية ووجود إعلامي- إلىٰ منح اليهود الأمريكيين صوتًا مؤثرًا بنفس القدر في الدوائر المحافظة. من المؤكد أن رأي المحافظين الجدد خلال السنوات الأولىٰ من حكم الرئيس بوش -داخل وخارج إدارته علىٰ حد سواء- كان مقدّمًا علىٰ غيره بإطلاق، كما أن الوجود اليهودي الكبير في الدوائر القيادية لجماعات الضغط «الأخرىٰ» يقوّض دعوىٰ تشومسكي بأن اللوبي الإسرائيلي «أوسع بكثير» من الجالية اليهودية الأمريكية.

هناك مشكلة ثانية في حجة تشومسكي؛ فهو يفترض -ضمنيًا- أن الجماعات المختلفة المؤيدة لإسرائيل وُجدت وتطوّرت ومارست نشاطها بشكل مستقل عن بعضها البعض، أو -بدلًا عن ذلك- أن الضغط المشترك الذي تبذله هذه المجموعات متفرق ومختلف، وكل ما في الأمر أن تلك الجهود تتلاقىٰ وتأتلف وينضم بعضها إلىٰ بعض، وهذا يتجاهل الدور التحفيزي الذي مارسته المنظمات اليهودية في تعبئة الرأي العام الغربي وراء المشروع الصهيوني. لقد عمل نشطاء اليهود الأمريكيين -كأفراد ومجموعات وشبكات- علىٰ عدة مستويات، ومن المؤكد أن قادة الحركة الصهيونية وجّهوا قسمًا كبيرًا من طاقاتهم للضغط علىٰ أعلىٰ مستويات صنع القرار الرسمي. في الوقت نفسه، أنشؤوا شبكة من المنظمات الصهيونية التي كرّست نفسها لخلق وتنظيم دعم المجتمع المدني الأمريكي الأوسع لأهدافها.

لقد شقّ اليهود الأمريكيون عدة قنوات لتعميق التأثير الصهيوني علىٰ المجتمع المدني، فمع تزايد أعداد اليهود الأمريكيين الذين تشرّبوا الأهداف الصهيونية خلال الأربعينيات، ومع تعمق التزامهم بالصهيونية، أُجبرت أكبر

المنظمات اليهودية علىٰ تبنّي الأهداف الصهيونية. بالإضافة إلىٰ ذلك، أنشأ الصهاينة -منذ أيامهم الأولىٰ- المنظمات وكوّنوا الحلفاء وبنوا الشبكات ورسّخوا الأفكار التي من شأنها أن تترجم إلىٰ دعم إعلامي ورئاسي للمشروع الصهيوني، ناهيك عن الكونجرس. ونظرًا لأن الأمريكيين اليهود يشكلون جزءًا متزايدًا من النشطاء والقادة في مختلف فروع المجتمع المدني -العمالية والحقوق المدنية والحركات النسوية- كان من الطبيعي تبنّي الفروع الرئيسية للمجتمع المدني الأهداف الصهيونية. ليس من المنطقي إذن القول بأن المواقف المؤيدة لإسرائيل للمنظمات الأمريكية الرئيسية ظهرت مستقلةً عن نشاط الجالية اليهودية الأمريكية.

هل يمثّل البروتستانت مشكلة لتحليلنا من جهة أن اليهود قلة بين صفوفهم؟ يمكننا القول إن الحركة البروتستانتية تلقت دافعًا قويًّا من رغبتها في «تجمع» اليهود في إسرائيل منذ أواخر القرن التاسع عشر. إن التيار التدبيري داخل البروتستانتية في الولايات المتحدة -الذين يؤمنون بوجوب عودة اليهود إلىٰ إسرائيل كمقدمة للمجيء الثاني- تلقىٰ دعمًا هائلًا من كل نجاح صهيوني في العالم. لقد رأوا هذه النجاحات -إطلاق الصهيونية، ووعد بلفور، وقيام إسرائيل، والاستيلاء علىٰ القدس و«يهودا» و«السامرة» في عام ١٩٦٧- كما لو كانت تأكيدات كثيرة علىٰ تحقق نبوءاتهم عن نهاية العالم[1]. ومع كل انتصار صهيوني تكتسب عقائد البروتستانتية قوة جديدة. في الوقت نفسه، سيكون من السذاجة تمامًا استبعاد العلاقات المباشرة بين الصهاينة وقادة الحركة البروتستانتية، فنادرًا ما امتنع الصهاينة عن قبول الدعم، حتىٰ عندما أتىٰ من مجموعات لها معتقدات لا تناسبهم؛ فلا يهم أن التدبيريين البروتستانت يعتقدون أن اليهود الذين كفروا بيسوع سيواجهون في مجيئه الثاني مصيرًا أسوأ من الهولوكوست، وهو استئصالهم بالكامل.

---

(1) Bacevich, The New American Militarism, 134.

يثير نعوم تشومسكي اعتراضًا ثانيًا علىٰ قدرة اللوبي المؤيد لإسرائيل علىٰ التأثير بمفرده في السياسة الأمريكية؛ ويؤكد أنه «لا يمكن لأي مجموعة ضغط أن تهيمن بمفردها علىٰ تشكيل الرأي العام أو تحافظ علىٰ تأثير ثابت علىٰ صنع السياسة ما لم تكن أهدافها قريبة من أهداف **عناصر النخبة ذات السلطة الحقيقية**»(١) [التسويد مضاف]. يمكننا إيضاح مشكلة هذه الحجة بسهولة؛ إنها تصنّف اللوبي اليهودي كـ «مجموعة ضغط» علىٰ الآخرين الذين يملكون سلطة حقيقية، إلا أن المطابقة بين اللوبي اليهودي و«مجموعات الضغط» مضللة بعض الشيء؛ لقد قررنا فيما سبق -وهو موقف مدعوم جيدًا بالأدلة- بأن أبطال الصهيونية اليهود قد عملوا من خلال العديد من القنوات المختلفة للتأثير علىٰ الرأي العام، وتكوين المواقف والقرارات السياسية، كما لهم أذرعهم في عامة المؤسسات ووسائل الإعلام التي تشكّل الرأي العام لتحديد ما يعرفه الأمريكيون عن إسرائيل، وكيف يفكرون في إسرائيل، وماذا يمكنهم أن يقولوا عن إسرائيل. وبمجرد أن ندرك حجم الموارد المالية التي يحتكم عليها اللوبي الإسرائيلي، ومجموعة القوىٰ السياسية التي يمكنه حشدها، والأدوات التي يستعملها لتوجيه الرأي العام في الشرق الأوسط؛ فإننا لن نكون قادرين علىٰ وصفه بكونه مجرد «مجموعة ضغط»(٢).

---

(1) Chomsky, Fateful Triangle, 17.

(٢) هذه التسمية -في الواقع- خاطئة من بعض النواحي. يُعرِّف قاموس (Merriam-Webster) علىٰ الإنترنت جماعة الضغط (lobby) بأنها «مجموعة من الأشخاص المنخرطين في ممارسة الضغط، خاصة إذا كانوا ممثلين لمجموعة مصالح معينة». يتحدث هذا عن تمييز بين «جماعة ضغط lobby» و«مجموعة المصالح»، حيث تعمل الأولىٰ كوكيل للأخيرة. ينهار هذا التمييز - إلىٰ حدٍ كبير- في حالة «اللوبي» اليهودي بسبب تنوع القنوات التي يسعىٰ هذا اللوبي من خلالها للتأثير علىٰ المسؤولين الحكوميين، بما في ذلك وسائل الإعلام، والأوساط الأكاديمية، والتصويت، والمساهمات في الحملات، والنشاط السياسي والتجمعات. وبصفتهم ناخبين ومانحين وكتّاب وأكاديميين وسياسيين وعاملين ميدانيين وناشطين، يشارك جزء كبير من الجالية اليهودية في أنشطة الضغط نيابة عن إسرائيل. من الأفضل وصف أنشطة الجالية اليهودية الأمريكية الداعمة لإسرائيل علىٰ أنها حركة متفرّعة من الحركة الصهيونية العالمية.

ينتقل تشومسكي بسرعة إلىٰ نقطة تنهار من خلالها حجته حول «عناصر النخبة ذات القوة الحقيقية»، حيث يوضح أن «عناصر [النخبة] **ليست متحدة المصالح**، وحتىٰ في حالة وجود مصالح مشتركة، أو في المواقف التكتيكية، وفي بعض القضايا الحيوية **مثل هذه** [سياسة الولايات المتحدة تجاه إسرائيل] تكون إرادة الولايات المتحدة منقسمة في كثير من الأحيان»(١) [التسويد مضاف]، لكن علىٰ الرغم من الاختلافات في المصالح والتكتيكات، ورغم الانقسام؛ يؤكد تشومسكي أن «عناصر النخبة» لديها «قوة حقيقية». من الغريب إذن أن يقال إن هذه النخب «المنقسمة» -أيًا ما كانت- تستطيع ممارسة حق النقض علىٰ توجّهات اللوبي اليهودي بجيوبه العميقة، وتسلسلاته الهرمية داخل المنظمات، وتأثيره الذي الأجهزة الرئيسية للمجتمع المدني، ومساهماته في الحملات الانتخابية، وما يتمتع به من أصوات شعبية.

تتحوّل حجة تشومسكي مرة أخرىٰ -للمرة الثانية في نفس الفقرة- بعيدًا عن «عناصر النخبة» إلىٰ «المفاهيم الأمريكية المتغيرة تجاه مصالحها السياسية الاستراتيجية» في الشرق الأوسط(٢). تشير هذه الحجة إلىٰ نهج جديد للوقوف علىٰ المحدد الرئيسي لسياسة الولايات المتحدة تجاه إسرائيل. ونرىٰ في قلب هذه «المصالح السياسية الاستراتيجية» الثروة النفطية في الشرق الأوسط، المهدّدة من قبل القوميين العرب والسوفييت. حيث يُفترض أن إسرائيل قد حمت هذه «المصالح السياسية الاستراتيجية» من خلال احتواء التهديد القومي العربي والسوفييتي. لكن، لكي تستقيم هذه الحجة، كان علىٰ تشومسكي نسيان أن التهديد العربي للمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط كان -في جزء كبير منه- نتيجة مباشرة لقيام إسرائيل، وما قامت به من تطهير عرقي، وتحويل مياه نهر الأردن، واستفزازها المستمر للعرب. ليس من الضروري مراعاة التهديد

---

(1) Chomsky, Fateful Triangle, 17.

(2) Ibid., 17.

السوفييتي، لأنهم ما دخلوا المنطقة إلا علىٰ خلفية السخط القومي العربي من قيام إسرائيل، ولو لم يحدث ذلك، فمن المرجح بقاء جميع الدول في الشرق الأوسط -تمامًا مثل تركيا وباكستان- داخل دائرة النفوذ الغربي.

في محاولة أخرىٰ لإقناع قرائه بأن النفط هو الدافع وراء السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، يزعم تشومسكي أن الولايات المتحدة «كانت مضطرة للفوز بهذه الجائزة (النفط السعودي) والاحتفاظ بها»[١]، ويفترض أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك بدون مساعدة من إسرائيل. هذه الحجة واهية؛ لأنها تتجاهل التاريخ. ابتداءً من عام ١٩٣٣، امتلكت شركات النفط الأمريكية -التي اندمجت لاحقًا لتشكّل أرامكو- الحقوق الحصرية للتنقيب واستخراج وتسويق النفط السعودي، واستطاعت المملكة العربية السعودية أن تحصل علىٰ حصة ملكية بنسبة ٢٥% في أرامكو لأول مرة عام ١٩٧٣. لو ظهر تهديد قومي عربي لسيطرة الولايات المتحدة علىٰ النفط السعودي في الخمسينيات والستينيات -في غياب إسرائيل- لكان بإمكان الولايات المتحدة وبريطانيا مواجهة هذه التهديدات بمفردهم[٢]. وبعيدًا عن المساعدة في تعزيز السيطرة الأمريكية علىٰ النفط السعودي، فإن إسرائيل -من دفع القومية العربية نحو التطرف- أعطت المملكة العربية السعودية

---

(1) Ibid., 17.

(٢) خلال أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، حافظ البريطانيون علىٰ وجود عسكري كبير في شبه الجزيرة العربية. في مذكرة إلىٰ وزير الخارجية روبرت ماكنمارا (Robert McNamara) كتب رؤساء الأركان المشتركة: «يمكن للقوات البريطانية في الشرق الأوسط القيام بعمليات عسكرية فعالة في أي مكان في شبه الجزيرة العربية. ويمثل الجمع بين القدرة العسكرية المنسقة للولايات المتحدة والمملكة المتحدة قوة متجاوبة ومرنة لتحقيق الاستقرار اللازم». Peterson, The Decline of the Anglo-American Middle East, 38. بالإضافة إلىٰ ذلك، ولأجل ردع الهجمات المصرية علىٰ المملكة العربية السعودية، حشدت الولايات المتحدة -بين يوليو ١٩٦٣ ويناير ١٩٦٤- سرب مكون من ثماني طائرات من طراز F-100 وخمسمائة من قوات المشاة إلىٰ الأراضي السعودية.

peterson, The Decline of the Anglo-American Middle East, 36.

الدافع والذريعة للحصول علىٰ حصة ٢٥% في أرامكو أولًا، ثم تأميمها عام ١٩٨٨.

هل كانت الولايات المتحدة ملزمةً فعلًا بالفوز بهذه الجائزة «الكبرىٰ» والاحتفاظ بها؟ إذا كانت الولايات المتحدة ملتزمة بالفعل بهذا الهدف، لكانت قد اتبعت تجاه الشرق الأوسط سياسة يُتوقع منها -مع مخاطر قليلة- تعزيز وصول شركات النفط الأمريكية إلىٰ حقوق التنقيب والاستخراج وتوزيع النفط في هذه المنطقة. ومع ذلك، لم يكن هذا ما فعلته الولايات المتحدة، فبمساعدتها في إنشاء إسرائيل وتسليحها وحمايتها، اتّبعت الولايات المتحدة سياسة من شأنها -وهو ما توقعه المسؤولون في وزارتي الخارجية والدفاع- إحداث تأثيرات معاكسة تمامًا؛ فقد أشعلت السياسات الأمريكية تجاه الشرق الأوسط -جنبًا إلىٰ جنب مع مساعداتها لإسرائيل- القومية العربية، ودفعتها نحو حافة التطرف، وأدت في غضون سنوات قليلة إلىٰ استيلاء القوميين العرب علىٰ ثلاث من الدول الأربع الرئيسية في العالم العربي، وهذا بدوره ساهم في تأميم الثروة النفطية حتىٰ في تلك الدول العربية التي ظلت علىٰ علاقة مع الولايات المتحدة، ناهيك عن الدول التي استولىٰ عليها القوميون العرب، الذين استبعدوا شركات النفط الأمريكية من هذه الصناعة تمامًا. بالإضافة إلىٰ ذلك، أجبر الوجود الأمريكي بجانب إسرائيل القوميين العرب علىٰ السعي للحصول علىٰ الدعم السوفيتي، ومن ثم أصبح الشرق الأوسط أيضًا ساحة مستباحة لصراعات الحرب الباردة. في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، استفزّت الولايات المتحدة الدول العربية من خلال إعادة تسليح الجيش الإسرائيلي -بكثافة- خلال هذه الحرب، وهو ما دفعهم إلىٰ فرض حظر نفطي مكلف علىٰ الولايات المتحدة. وفي معارضة لمناشدات شركات النفط التابعة لها، منعت الولايات المتحدة شركاتها من التعامل مع ثلاث دول منتجة للنفط في الشرق الأوسط: إيران والعراق وليبيا[١].

---

(1) Mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 143.

إذا كان النفط هو محرك سياسة أمريكا في الشرق الأوسط، فينبغي أن نكون قادرين علىٰ رؤية بصمات لوبي النفط واضحة في هذه السياسة. في العقود الأخيرة -طبقًا لميرشايمر ووالت- وجهت شركات النفط جهود الضغط التي تبذلها بالكامل تقريبًا «لمصالحها التجارية، بدلًا من الجوانب الأوسع للسياسة الخارجية». لقد عملوا للحصول علىٰ أفضل صفقات السياسات الضريبية واللوائح الحكومية وحقوق الحفر، حتىٰ اللجنة العامة للشؤون الأمريكية الإسرائيلية تشهد علىٰ ذلك. في أوائل الثمانينيات، أشار المدير التنفيذي السابق للجنة العامة للشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية موريس أميتاي (Morris J. Amitay) إلىٰ أنه «نادرًا ما رأيناهم [شركات النفط] يضغطون من أجل قضايا السياسة الخارجية ... بمعنىٰ ما، لسان حالهم: نحن نعمل في مجالنا وحسب»[1].

من أجل دراسة فاعلية اللوبي الإسرائيلي، يجب فحص حركته عبر المراحل الزمنية المختلفة، وذلك في إطار جدلي (dialectical). إن اللوبي اليهودي هو جزء من القوىٰ -التي تضم إسرائيل والفلسطينيين والقوميين العرب والإسلاميين والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي- التي تؤثر وتتأثر بمنطق الصهيونية المزعزع للاستقرار، لقد اكتسب قوته من الخطوات الإسرائيلية علىٰ أرض الواقع لتحويل نفسه إلىٰ رصيد استراتيجي، كما أن ترسيخه وتضخيمه لانتصارات إسرائيلية استطاع حشد يهود أمريكا والمسيحيين الصهاينة والجمهور الأمريكي الأوسع خلف الأهداف الصهيونية.

علىٰ مدار القرن العشرين، رسّخ اليهود الأمريكيون أقدامهم في المناصب القيادية في جميع مجالات الحياة الأمريكية تقريبًا، باستثناء الرياضات الاحترافية. خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، كانت هناك قيود علىٰ دخول اليهود إلىٰ الكليات المرموقة، ورفضت أفضل الشركات القانونية والمحاسبية توظيف

---

(1) Ibid., 145.

اليهود، واستبعدتهم الشركات الكبرىٰ من كوادرها الإدارية، لكن علىٰ الرغم من هذه الحواجز، تقدّم اليهود بثبات، ومع تحسّن مكانتهم في المجتمع، عملوا بنشاط لإزالة هذه الحواجز. بعد نصف قرن، «كان كل مجال من مجالات العمل تقريبًا مفتوحًا لليهود في أمريكا»(١)، وعلىٰ الرغم من أن نسبتهم من السكان كانت حوالي ٢٪ في أواخر الستينيات، فقد بلغت نسبة اليهود ٢٠٪ من أعضاء هيئة التدريس في جامعات النخبة، و٤٠٪ من الأساتذة(٢). بالإضافة إلىٰ ذلك، فإنهم «يشكّلون ٢٥٪ أو أكثر من الكُتّاب والمحررين والمنتجين» في «إعلام النخبة» الأمريكية، بما في ذلك أقسام الأخبار، وأهم الصحف الأسبوعية، والصحف اليومية الأربع الرائدة(٣). وبحلول أوائل التسعينيات، كان اليهود يرأسون أكبر ثلاث شبكات تلفزيونية، وأكبر أربعة استوديوهات سينمائية، والصحيفة الأكثر شهرة(٤).

هناك مؤشرات أخرىٰ تؤكد أيضًا وجودًا قويًا لليهود في أعلىٰ مستويات المجتمع الأمريكي، ففي العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين -وفقًا لاثنين من كبار علماء الاجتماع الأمريكيين- كان اليهود «يشكلون ٥٠٪ في قائمة أفضل مائتي مفكر، و٤٠٪ من الحائزين علىٰ جائزة نوبل في العلوم والاقتصاد، و٢٠٪ من الأساتذة في الجامعات الرائدة، و٢١٪ من موظفي الخدمة المدنية رفيعي المستوىٰ، و٤٠٪ من الشركاء في شركات المحاماة الرائدة في نيويورك وواشنطن، و٢٦٪ من المراسلين والمحررين والمديرين التنفيذيين لوسائل الإعلام المطبوعة والمسموعة الرئيسية، و٥٩٪ من المديرين والكتاب ومنتجي الأفلام الخمسين الأكثر ربحًا من عام ١٩٦٥ إلىٰ عام ١٩٨٢، و٥٨٪ من المخرجين والكتاب والمنتجين في مسلسلين تلفزيونيين أو أكثر في أوقات

---

(1) Goldberg, Jewish Power, 112.

(2) Ginsberg, The Fatal Embrace, 1.

(3) Goldberg, Jewish Power, 280.

(4) Ginsberg, The Fatal Embrace, 1.

الذروة»[١]. وبالمثل، أصبح اليهود يلعبون «دورًا مركزيًا» في التمويل الأمريكي خلال الثمانينيات، فقد كانوا يمثلون ما يقرب من نصف المليارديرات في البلاد، و«أكثر من ٢٥٪ من نخبة الصحفيين والناشرين، وأكثر من ١٧٪ من قادة المنظمات التطوعية والمنظمات الرئيسية التي تخدم المصلحة العامة، وأكثر من ١٥٪ من كبار موظفي الخدمة المدنية»[٢].

من السذاجة بمكان افتراض أن اليهود الأمريكيين لم يستغلوا -بشكل منهجي- قوتهم الاجتماعية ونفوذهم الاقتصادي والفكري الضخم من أجل خدمة الأهداف الصهيونية. لا شك أن هناك «عرقيات (ethnicities)» أخرىٰ في الولايات المتحدة ناجحة أيضًا -مثل الأمريكيين من أصول نرويجية أو سويدية أو يابانية-، رغم أنه لا يمكن مقارنتهم بنجاح اليهود بالنسبة إلىٰ أعدادهم، ومع ذلك، فإن هذه المجموعات -بعد اندماجها في الثقافة الأمريكية السائدة- لا تُعرّف نفسها من خلال أصولها العرقية، ولا تعتنق المعتقدات أو تمارس الطقوس أو تشارك في الأنشطة السياسية التي تمليها عليها أصولها العرقية، وليس هذا هو الحال مع معظم اليهود الأمريكيين. لقد عملت الجالية اليهودية الأمريكية بجد للحفاظ علىٰ ثقافتها الدينية المميزة وتماسكها، كما عملت العديد من جوانب الديانة اليهودية وتقاليدها التاريخية علىٰ تعزيز الهوية اليهودية وترسيخها. وباعتبارها تسطّر التاريخ المبكر -المفترض- لليهود، فإن التوراة تعزز بقوة التميّز والفرادة اليهودية؛ كما يتّبع اليهود تقويمًا للأعياد يلخّص -من خلال الطقوس والصلوات والحفلات- الأساطير القديمة وتاريخ اليهود، ويحفظ -بلا شك- ذكرىٰ الاضطهاد الذي تعرضوا له في أوروبا[٣]. منذ منتصف القرن التاسع عشر، روّج اليهود الغربيون

---

(1) Lipset and Raab, Jews and the New American Scene, 26-27.

(2) merican Scene, 26-27. 38.

(٣) يسرد كتاب واحد سبع عشرة عطلة يهودية في جدول محتوياته؛ بعضها يحيي ذكرىٰ الأحداث المحورية في التاريخ اليهودي؛ ويعود بعضها إلىٰ التوراة، والبعض الآخر وضع في وقت لاحق. Goodman, Teaching Jewish Holidays.

أسطورة أن اليهود ينحدرون من العبرانيين القدماء، وأنهم حافظوا علىٰ نقائهم العرقي خلال آلاف السنين من التشتت. تعزز الروحانية والثقافة اليهودية معًا الإحساس اليهودي بأنهم يحتلون مكانة خاصة في أقدار الله التي كتبها علىٰ البشرية؛ إنهم يرون أنفسهم «منارة للأمم».

في المقابل، أوجد الإحساس القوي بالهوية اليهودية -إلىٰ جانب الإحساس بالرساليّة- بين اليهود مستوياتٍ عالية من النشاط السياسي، وحفزهم علىٰ العمل التطوعي، والتبرعات الخيرية. لقد كان هذا النشاط مدفوعًا أيضًا بالحاجة اليهودية للتغلّب علىٰ الحواجز الرسمية وغير الرسمية المتبقية التي تحول بينهم وبين دخول مختلف المهن، وذلك عندما اندمجوا في التيار الرئيسي للمجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر. ونتيجة لذلك، وُجّه جزءٌ ضخم من النشاط السياسي اليهودي نحو القضايا التقدمية، كتلك المتعلقة بالحقوق المدنية وحقوق الإنسان وحقوق العمال والنساء والحرية الدينية. وإحدىٰ النتائج المهمة لهذا التركيز هي الوجود اليهودي القوي في النقابات العمالية، ومنظمات الحقوق المدنية، والمنظمات النسوية، ومختلف المؤسسات التي تدافع عن القضايا الليبرالية المختلفة.

علىٰ مدىٰ العقود الستة الأولىٰ من القرن العشرين، وجّه اليهود الأمريكيون طاقاتهم السياسية بالدرجة الأولىٰ نحو الدفاع عن الفرص المتاحة لهم في الاقتصاد والمجتمع الأمريكي وتوسيعها[١]، وقد وضع هذا اليهود في طليعة كل الحركات التقدمية والليبرالية تقريبًا التي ظهرت خلال هذه الفترة. ونظرًا لأن اليهود كانوا يشكّلون جزءًا صغيرًا جدًّا من سكان الولايات المتحدة، فقد تمكّنوا

---

(١) يفضّل بعض اليهود الأمريكيين رؤية جذور ليبراليتهم في التقاليد اليهودية؛ ومع ذلك، وفقًا لجولدبيرغ (Jewish Power, 27): «ينظر العديد من النشطاء غير اليهود الذين كانوا علىٰ اتصال مع المجتمع اليهودي المنظم إلىٰ الليبرالية اليهودية بعبارات أكثر وضوحًا، حيث يرونها كمسألة بسيطة تتعلق بالمصلحة الذاتية».

من حماية حقوقهم الخاصة، وتوسيع نطاقها بشكل فعال من خلال تبني المفهوم الأوسع للحقوق، وهو مفهوم يشمل حقوق جميع الفئات المُهمّشة اجتماعيًّا واقتصاديًّا، بما في ذلك الأقليات العرقية والأقليات الدينية والنساء والعمال والمهاجرين، وفي النهاية: حقوق الشواذ جنسيًّا. كتب جوناثان جولدبرج (J. J. Goldberg): «عندما يتعلق الأمر بالحقوق المدنية، وسياسة الهجرة، وحقوق الإجهاض، وتنظيم العمل، وتمويل الحملات الديمقراطية»، فلليهود اليد الطولىٰ والهيمنة الكبرىٰ علىٰ الليبرالية الأمريكية، كما كان الحال خلال معظم القرن العشرين[1].

خلال النصف الأول من القرن العشرين، كان اليهود الأمريكيون يوجهون نشاطهم عادةً نحو القضايا المحليّة، إلا أنهم -في مناسبتين علىٰ الأقل- أعادوا توجيه نشاطهم نحو الأهداف الصهيونية، الأولىٰ كانت إطلاق وعد بلفور عام ١٩١٧، والثانية في الفترة التي سبقت قرار الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين. وبالفعل، فإن السهولة والسرعة التي حقق بها المبعوثون الصهاينة من أوروبا إعادة توجيه النشاط اليهودي نحو الأهداف الصهيونية -خاصة في عام ١٩٤٧- تبين التطور التنظيمي لليهود الأمريكيين واستعدادهم للانضمام إلىٰ الطموحات الصهيونية. وعلىٰ الرغم من نشاطهم لنصرة القضايا الصهيونية، إلا أن القليل من اليهود الأمريكيين كانوا علىٰ استعداد للهجرة إلىٰ إسرائيل قبل أو بعد إنشاء إسرائيل. ومع ذلك، فقد أظهرت منظماتهم -ونشاط أعضائها- القدرة علىٰ توليد دعم مالي وسياسي هائل -وبسرعة- كلما احتاجت إسرائيل.

لقد نجحت الصهيونية في كسب دعم معظم اليهود الأمريكيين لقضيتها بنهاية الحرب العالمية الثانية. ويظهر هذا جزئيًّا في النمو الهائل في عضوية المنظمة الصهيونية الأمريكية: من ٨٤٠٠ عام ١٩٣٢ إلىٰ ٤٣٠٠٠ عام ١٩٣٩، وأكثر من ٢٠٠٠٠٠ بحلول عام ١٩٤٥. وفي عام ١٩٤٧ نجح النداء اليهودي الموحّد في

---

(1) Ibid., 23.

جمع ٥٠ مليون دولار، مقارنة بـ ٣,٥ مليون دولار في عام ١٩٤٠. وعلىٰ حد تعبير مؤرخ الصهيونية البارز والتر لاكوير «أصبح يهود أمريكا صهيونيين مخلصين خلال الأربعينيات، بينما كانت الأغلبية في الماضي غير مبالية أو حتىٰ معادية للأهداف الصهيونية»(١). هذا ليس مفاجئًا، فبمجرد أن قررت بريطانيا أن تنأىٰ بنفسها عن المشروع الصهيوني في عام ١٩٣٩، والهيمنة السريعة لألمانيا علىٰ أوروبا القاريّة؛ أصبحت الولايات المتحدة -بهذا العدد الكبير من اليهود المؤثرين- المسرح المركزي للأنشطة الصهيونية. توجّهت الجهود الصهيونية بأغلبية ساحقة الآن إلىٰ تجنيد الولايات المتحدة لتكون الدولة الراعية الجديدة للمشروع الاحتلالي اليهودي في فلسطين. إن نجاح اليهود الأمريكيين شبه الكامل في وضع قوة الولايات المتحدة وراء المشروع الصهيوني في عام ١٩٤٧؛ شهادةٌ علىٰ فاعلية الضغط الذي يمارسونه، لقد كان هذا انتصارًا استثنائيًا؛ فقد انتزع الصهاينة هذا الدعم في مواجهة إجماع دوائر صنع السياسة العليا علىٰ أن دعم الرئيس ترومان للصهيونية سيلحق ضررًا دائمًا بالمصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

بمجرد أن تبنّت الولايات المتحدة مشروع الدولة اليهودية، بدأت سعيًا حثيثًا للحدّ من أضرارها. في السنوات التي تلت عام ١٩٤٨، سعت إلىٰ تجنب أي ظهور للدعم الذي تقدمه لدولة إسرائيل الجديدة، وقد تبنّت القيادة اليهودية الأمريكية هذه السياسة لسببين؛ الأول هو أن أي تهديد لمصلحة أمريكية حيوية -في الشرق الأوسط- في ذروة الحرب الباردة سيكون أمرًا غير مقبول سياسيًّا، حيث كان الاتحاد السوفيتي حريصًا علىٰ استخدام الغضب العربي معبرًا إلىٰ الخليج الفارسي. بالإضافة إلىٰ ذلك، كان ابتعاد الولايات المتحدة الظاهري عن إسرائيل في غالبه خدعة دبلوماسية، والأهم من ذلك أنه كان بمثابة خط رجوع يضمن للولايات المتحدة عكس مسارها إذا تطلب الأمر. فقد حثّت الولايات

(1) Laqueur, A History of Zionism, 549-50.

المتحدة سرًّا الأعضاء الآخرين في الناتو علىٰ تلبية الاحتياجات العسكرية لإسرائيل، وفي الوقت نفسه، اعتمدت علىٰ ألمانيا في تقديم تعويضات سخيّة لإسرائيل. صحيحٌ أن الإسرائيليين لم يحتجّوا بشدة علىٰ رفض الولايات المتحدة تقديم دعم مباشر لإسرائيل، إلا أنهم عقدوا العزم علىٰ عكس تلك العملية، وعلىٰ مدىٰ العقدين التاليين، عملت إسرائيل -من خلال عدة قنوات مختلفة- علىٰ مضاعفة التهديدات العربية للمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، باعتبار إمكان استخدام هذه التهديدات لتحويل إسرائيل إلىٰ رصيد استراتيجي يجب الحفاظ عليه. أما في الولايات المتحدة، فقد كثّفت الجالية اليهودية الأمريكية جهودها لإقناع -وزيادة الضغط علىٰ- الجمهور الأمريكي ووسائل الإعلام والكونغرس والرئيس لدعم إسرائيل اقتصاديًّا وعسكريًّا ليكتمل نضجها كرصيد استراتيجي.

❀ ❀ ❀

قال أحد المعلقين الأمريكيين: «غالبًا ما اعتبر أيزنهاور وكينيدي اللوبي الإسرائيلي مصدر إزعاج مستمر، كما لو كان كلبًا لا يكف عن النباح»[1]. ربما يكون هذا تقييمًا عادلًا للعلاقة بين الرئيس أيزنهاور واللوبي اليهودي، ولكن، كان اللوبي اليهودي خلال ولاية الرئيس جون كينيدي في طريقه لأن يصبح تنينًا عملاقًا أكثر من كونه مجرد مصدر إزعاج. لقد درسنا آنفًا سبب عدم فعالية اللوبي اليهودي في عهد الرئيس أيزنهاور بالصورة التي أصبح عليها لاحقًا، وهذا لم يكن سببه الرئيس أن اللوبي كان ضعيفًا في حد ذاته -من حيث طاقمه وتنظيمه وتمويله، فقبل سنوات قليلة فقط، استطاع اكتساب كامل دعم الرئيس ترومان لإنشاء دولة يهودية. كان اللوبي اليهودي في الخمسينيات من القرن الماضي يمتلك قوة انتخابية أكبر مما أصبح لديه لاحقًا بسبب انخفاض نسبة اليهود في عموم السكان، لقد أوجد كتلة قوية مؤيدة لإسرائيل في الكونغرس من خلال

---

(1) Bass, Support My Friend, 6.

قدرته علىٰ تضخيم القضايا ورفع وتوجيه المساهمات في الحملة وتعبئة الرأي العام. كما ظل اللوبي منخرطًا بنشاط في القضايا الحيوية بالنسبة لإسرائيل خلال هذه الفترة، لكنه مع أيزنهاور يواجه رئيسًا أقل التزامًا بالطموح اليهودي ومصالحهم الخاصة، وأقل اعتمادًا علىٰ الأصوات اليهودية، وما زال يحاول احتواء التداعيات السلبية الناتجة عن إنشاء إسرائيل(١). اعتقد الرئيس أيزنهاور أنه لا تزال هناك فرصة لوقف انحياز القوميين العرب إلىٰ السوفييت، لكن من الواضح لنا الآن أن اللعبة قد انتهت بالفعل، وأن القوىٰ التاريخية التي أطلقها إنشاء إسرائيل ستجبر الفاعلين الرئيسيين علىٰ السير في المسار الذي سلكوه في العقود اللاحقة، وينبع هذا المنطق الذي لا يرحم من حقيقة بسيطة مفادها: أن الغرب -بقيادة الولايات المتحدة- لا يمكنه التخلي عن إسرائيل.

إن فشل اللوبي اليهودي في هذه الفترة نسبي فقط، حيث لم يستطع إقناع الولايات المتحدة باحتضان إسرائيل كرصيد إستراتيجي، لكنه نجح -مستفيدًا من مكانة إسرائيل كأداة استراتيجية تحمل مزايا تنافسية- في دفع السياسات التي عززت اقتصاد إسرائيل وجيشها، وحمت إسرائيل من الضغوط لإعادة اللاجئين الفلسطينيين، والأهم من ذلك هو إفساد العلاقة بين الولايات المتحدة ومصر. واجهت إسرائيل عجزًا تجاريًّا هائلًا خلال الخمسينيات، حيث استوعبت مهاجرين جددًا وطوّرت صناعتها وبنيتها التحتية، تحملت جمعية «النداء اليهودي الموحد» (UJA) -جزئيًّا- سد هذا العجز من خلال أموال معفاة من الضرائب جُمِعت في الولايات المتحدة؛ غير أن التعويضات الألمانية السخية كانت هي الدعامة الأكبر

---

(١) واصل اللوبي اليهودي ممارسة الضغط علىٰ الرئيس أيزنهاور لتقديم المساعدة العسكرية لإسرائيل. في خريف عام ١٩٥٥، نظم اللوبي مسيرات عامة، حضرها شخصيات بارزة مثل هاري ترومان وإليانور روزفلت، «لإظهار قوة التعاطف الأمريكي مع إسرائيل». كما قدّم التماسًا للكونغرس وقّعه ٤٠ عضوًا جمهوريًّا في الكونغرس لدعم المساعدة العسكرية الأمريكية؛ لاقىٰ اللوبي نجاحا أكبر في حشد مجلسي الشيوخ والنواب ضد الدعم الأمريكي لمشروع سد أسوان.

Burns, Economic Aid and Foreign Policy, 21, 49.

التي اعتمدت عليها إسرائيل لسد هذا العجز؛ وقد كان ذلك بفضل الضغط اليهودي الذي مورس بيد الولايات المتحدة.

اتّبعت إسرائيل سياسة الاستفزاز واستعراض العضلات تجاه العرب بحلول أواخر الخمسينيات وذلك لاستنفار ردود الفعل المرغوبة[1]، وبدأت واشنطن الآن تفكر في تجهيز إسرائيل لتكون مَصَدًّا أمام معاداة الولايات المتحدة القوية في العالم العربي، التي هي بحد ذاتها رد فعل علىٰ قيام إسرائيل. في عام ١٩٥٨، بدأ الرئيس أيزنهاور بتزويد إسرائيل بأنظمة أسلحة كبيرة، ولكن لا يزال الدعم سريًا، ولكن في عام ١٩٦٢، تعهّد الرئيس كينيدي علنًا بتسليم صواريخ مضادة للطائرات إلىٰ إسرائيل، وبهذا خرج الدعم العسكري الأمريكي لإسرائيل أخيرًا من الظلام؛ وفي عام ١٩٦٦، وسّع الرئيس جونسون من سياسة تسليم الأسلحة الثقيلة لتشمل الدبابات والقاذفات[2]، وعلىٰ عكس الادعاء الشائع، لم توضع أسس العلاقة الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة اعتمادًا علىٰ الانتصار المذهل لإسرائيل في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، حيث لم يمنح هذا الانتصار سوىٰ زخمًا جديدًا للقوىٰ التي تصاعدت منذ أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، والتي كانت تطمح إلىٰ إيجاد التزام أمريكي أقوىٰ تجاه إسرائيل باعتبارها رصيدًا استراتيجيًا. إن القوىٰ التي أسست العلاقة الخاصة -وكذلك الملامح الأساسية لهذه العلاقة- سبقت انتصار إسرائيل في حرب الأيام الستة بزمن طويل.

---

(١) يمكن أن نُرجِع نقطة التحول في نهج الرئيس أيزنهاور تجاه مصر إلىٰ أوائل عام ١٩٥٦، عندما أصبح من الواضح عدم استطاعته إقناع جمال عبدالناصر بقبول إسرائيل، أو التخلّي عن صداقته المتنامية مع الاتحاد السوفيتي. أوضح النهج الجديد -المنصوص عليه في مذكرة أوميغا- الحاجة إلىٰ تقويض مصر والقوميين في سوريا، وإيقاف المساعدة لسد أسوان، ومواصلة منع الإمدادات العسكرية لمصر. Burns, Economic Aid and American Policy, 77-70.

(2) Ben-Zvi, Lyndon B. Johnson and the Politics of Arms Sales, 70.

أعطت هزيمة إسرائيل لمصر وسوريا والأردن في يونيو ١٩٦٧ دفعة جديدة للقضية الصهيونية. ولأسباب تخدم مصالحها، بالغ الصهاينة في تضخيم سطوة القومية العربية باعتبارها تهديدًا للمصالح الغربية وتهديدًا لوجود إسرائيل، وقد كانت تلك سياسة تجلب المزيد من المشاكل ولكنها ذكية، وكان لهذه المبالغة هدفان: دفع الولايات المتحدة إلىٰ النظر إلىٰ إسرائيل كمنقذ لها، وفي نفس الوقت تنبيه القوات الموالية لإسرائيل، ودفعها لممارسة ضغط متزايد علىٰ الحكومة الأمريكية لدعم الأهداف الصهيونية، وقد نجحت هذه الاستراتيجية. ففي الأسابيع التي سبقت حرب حزيران/يونيو، كان هناك قلق متزايد بشأن مصير إسرائيل بين الجماهير في كل من إسرائيل والولايات المتحدة. ونتيجة لذلك، عندما هزم الإسرائيليون العرب، رأت هذه الجماهير أن هذا النصر مذهل، بل معجزة، ورأىٰ البعض في هذا تأكيدًا لتوقعاتهم حول المجيء الثاني للمسيح. والأهم من ذلك كله، أنه من خلال هزيمتها لما أصبح يُنظر إليه علىٰ أنه أكبر تهديد لمصالح أمريكا في الشرق الأوسط، أوجدت إسرائيل احتياطيًا ضخمًا من رأس المال السياسي مع الأمريكيين.

لم يضيّع اللوبي اليهودي أي وقت، وسيبدأ علىٰ الفور بالاعتماد علىٰ رأس المال السياسي هذا. وبالطبع لن ينفق اللوبي رأس المال السياسي المكتسب بحماقة مقابل حفنة قليلة من المكافآت ويعود من حيث جاء، بل سيستخدم اللوبي رأس المال هذا لكسب الدعم الأمريكي للسياسات -الأمريكية والإسرائيلية- التي تعزز من صورة إسرائيل كرصيد استراتيجي، مما يسمح لها بإعادة شحن صندوق رأس المال السياسي لديها بالأمريكيين. سوف يوجّه اللوبي اليهودي الطاقة والدعم -القادمين من الجالية اليهودية الأمريكية، والصهاينة المسيحيين، وغيرهم- التي أثارهما انتصار يونيو إلىٰ بناء المنظمات والتحالفات وانتزاع الالتزامات وتوجيه السياسات التي ستستمر في تقديم الدعم لإسرائيل لعقود قادمة.

أعطىٰ الانتصار الإسرائيلي الضوء الأخضر لليهود الأمريكيين لوضع ثقلهم بثقة أكبر خلف إسرائيل. ولن يكون هناك أي اتهام بولاء مزدوج نتيجة تحيّزهم لإسرائيل، حيث إن إسرائيل قد «أثبتت» أن مصالحها هي نفسها مصالح الولايات المتحدة. في الوقت نفسه، مثّل انتصار إسرائيل المذهل في حرب الأيام الستة بداية عهد جديد من الترويج للفرادة اليهودية في إسرائيل. أصبح اليهود الأمريكيون الآن أكثر ارتباطًا بإسرائيل من أي وقت مضىٰ، وصاروا ينظرون -بشكل متزايد- إلىٰ إسرائيل علىٰ أنها مركز ومحور المجتمع اليهودي العالمي. كما ساعد الانتصار اليهودي في حرب حزيران/يونيو العديد من اليهود علىٰ محو الشعور بالذنب بسبب فشلهم في إنقاذ المزيد من اليهود من الهولوكوست. ونتيجة لذلك كان بإمكان اللوبي اليهودي -في فترة ما بعد عام ١٩٦٧- الاعتماد علىٰ الدعم السياسي والمالي المتزايد من الجالية اليهودية الأمريكية، حتىٰ في الوقت الذي كان يستعد فيه لتصعيد المطالب التي قد يطرحها علىٰ الولايات المتحدة.

كما أدىٰ الانتصار العسكري لإسرائيل في حرب الأيام الستة إلىٰ قلب ميزان القوىٰ داخل الحركة الصهيونية لصالح فصائلها الأكثر تشدّدًا؛ إن هذا التحوّل نحو اليمين له تاريخ طويل، فتحت قشرتهم الليبرالية والاشتراكية -التي لم تزعجها أبدًا الأهداف الاحتلالية للصهيونية- كانت جميع فصائل الحركة الصهيونية تقريبًا تنزع نحو اليمين، وقد أصبح هذا التحوّل حتميًا منذ اللحظة التي واجه فيها الصهاينة المطلب المركزي لحركتهم، وهو استحالة إقامة دولة يهودية في فلسطين دون تطهير عرقي للفلسطينيين. وبدلًا من التراجع عن هدفهم المتمثل في إقامة دولة يهودية، تحوّل الصهاينة -بشكل متزايد- إلىٰ اليمين في خطابهم وسياساتهم، وأبدوا استعدادهم لخوض حرب حتمية ضد الفلسطينيين والعرب المجاورين.

لم يكن التوجّه الليبرالي والاشتراكي للعديد من الصهاينة الأوائل -وهو إرث من كفاحهم ضد معاداة السامية في أوروبا الشرقية- ملائمًا لمشروعهم في

فلسطين؛ ففي الوقت الذي واجه فيه المستوطنون مقاومة السكان الأصليين، وعندما أدركوا أنهم لا يستطيعون التخلص «من السكان المشردين عبر دفعهم خارج الحدود»؛ بدأ الصهاينة في وضع خطط لإخراج الفلسطينيين بالقوة. في وقت مبكر جدًّا، اعتنق الصهاينة العماليّون -الفصيل المهيمن في الحركة الصهيونية- برنامجًا إقصائيًا، فمنذ البدايات الأولىٰ لإسرائيل استبعد الكيبوتس (kibbutz) والنقابات العمالية الفلسطينيين من الخدمات التي قدموها بكل حزم، ومن أجل جذب المحتلين اليهود، وإنشاء أمة من هذه المغتصبات التي أتىٰ سكانها من خلفيات عرقية متنوعة، وعسكرة المجتمع الاستيطاني الإسرائيلي، والاستعداد لتطهير عرقي للفلسطينيين؛ بدأت الصهيونية العلمانية المبكرة في خلع قناع الصهيونية الدينية. وصلت كل هذه النزعات إلىٰ ذروتها خلال الأربعينيات من القرن الماضي، حيث صعَّد الصهاينة من خططهم للاستيلاء علىٰ فلسطين؛ فبدأ الإرغون (Irgun)[1] حملتهم الإرهابية ضد أهداف بريطانية في فبراير ١٩٤٤؛ وسرعان ما انضمت إليهم عصابة شتيرن (Stern Gang)، وفي حرب عام ١٩٤٨ -بعد تقسيم فلسطين بموافقة الأمم المتحدة- طردت الهاغانا (Haganah) والإرغون وشتيرن ومحتلون يهود مسلحون آخرون أكثر من ٨٠٪ من الفلسطينيين من الأراضي التي احتلوها. من المهم الإشارة إلىٰ أن هذا التحوّل نحو اليمين لم يتوقف في الفترة التي تلت عام ١٩٤٨، حيث قامت إسرائيل بتهميش السكان

---

(١) الإرغون (Irgun): المنظمة العسكرية القومية في إسرائيل، نشأت في الفترة السّابقة لإعلان قيام دولة إسرائيل في فلسطين التي كانت تحت الانتداب البريطاني في الفترة بين ١٩٣١ و١٩٤٨. ويُعزىٰ الكثير من مشاكل الشعب الفلسطيني لمنظمة الإرغون. ويرىٰ الكثير من الإسرائيليين في الإرغون منظمة قتالية تنادي بحرّية إسرائيل. والجدير بالذكر أن شعار المنظمة يتكون من خريطة فلسطين والأردن وعليها صورة بندقية. وقد صنفتها السلطات الإنجليزية كمنظمة إرهابية في عام ١٩٣١، لانشقاقها عن الجناح العسكري الصهيوني آنذاك (الهاجاناه)، وذلك بسبب امتعاض الإرغون من القيود البريطانية المفروضة علىٰ الهاجاناه في تعاملها مع الثّوار الفلسطينيين. انظر:
jacob Shavit, Jabotinsky and the Revisionist Movement 1925-1948 p. 97 Routledge 1988
(المترجم).

العرب الذين ما زالوا داخل إسرائيل، واستخدمت القوة الساحقة -بشكل متكرر- لمنع عودة الفلسطينيين، واتبعت سياسة استفزاز العرب المجاورين لتدفعهم لخوض حروب يمكنهم الدخول فيها، ولا يمكنهم الفوز بها.

قدّم انتصار إسرائيل في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ زخمًا رئيسيًا جديدًا للسياسة الإسرائيلية للانتقال إلىٰ اليمين. كان هناك سببان لذلك؛ فمن أجل الحصول علىٰ حرية أكبر في متابعة أهدافها في الشرق الأوسط، ستدعم إسرائيل بقوة أهداف أمريكا الإمبريالية في مناطق أخرىٰ من العالم. وستحوّل إسرائيل نفسها بشكل متزايد -علنًا وسرًّا- إلىٰ أداة للإمبريالية الأمريكية؛ وفي كثير من الأحيان، ستكتسب نفوذًا علىٰ الإدارات الأمريكية من خلال القيام بالأعمال القذرة نيابة عنها؛ لأنها غير قانونية بموجب القوانين الأمريكية. لقد أعطىٰ احتلال المناطق التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ دفعة للفصائل اليمينية الأصولية في إسرائيل، حيث دعم الإسرائيليون بأغلبية ساحقة هذه الجولة الثانية من الاحتلال، لكن هذه المرة بقيادة من المتعصبين الدينيين الذين أصبحوا هم الرواد الجدد، وحلّوا محل الصهاينة العماليين في جولة الاحتلال السابقة. ونظرًا لأن معظم الإسرائيليين ينظرون إلىٰ المغتصبات الجديدة علىٰ أنها منخرطة في مهمة توسيع حدود إسرائيل -مما يجعلها أقل عرضة لهجمات العرب- فقد نمت القوىٰ اليمينية التي قادت ونظّمت هذا الاحتلال، وحظيت بقوة وهيمنة ساحقة، ونتيجة لذلك، بدأت أحزاب اليمين المتطرف في الفوز في استطلاعات الرأي علىٰ حساب حزب العمل. ومع صعود الليكود إلىٰ السلطة عام ١٩٧٧، أصبح اليمين الإسرائيلي هو القوة المهيمنة في السياسة الإسرائيلية. وكانت هذه هي المرة الأولىٰ التي يفقد فيها حزب العمل السلطة في إسرائيل.

حدثت تحولات مماثلة نحو اليمين في الجوهر اليهودي للحركة الصهيونية في الولايات المتحدة، والأكثر وضوحًا هو أن كادرًا جديدًا تولّىٰ قيادة المنظمات اليهودية الرئيسية، حيث أعادت القيادة الجديدة تشكيل هذه المنظمات للتعبير عن

المطالب التوسعية الأكثر تطرفًا لإسرائيل بشكل علني والتمسك باحتلال الأراضي التي احتلتها في يونيو ١٩٦٧. تتجه المنظمات اليهودية الرئيسية الآن أكثر فأكثر لأن تكون مجرد امتدادات للحكومة الإسرائيلية، وتسعىٰ -علنًا- لتنفيذ جدول الأعمال الإسرائيلي من خلال نفوذهم المتزايد علىٰ السياسة الداخلية للولايات المتحدة، واستخدام نفوذهم لقمع المعارضة في المجتمع اليهودي. ومن ثم أصبحت المنظمات اليهودية الرئيسية «محركًا للجغرافيا السياسية»، وتعمل علىٰ دعم المصالح الإسرائيلية من خلال تأثيرها علىٰ السياسة الداخلية للولايات المتحدة(١).

يشرح معلق يهودي بارز هذا التحول في طبيعة السياسة اليهودية بطريقة مختلفة قليلًا. يحاجِج جولدبيرج (Goldberg) بأن أقلية صغيرة من اليهود -«أقلية لها سلطة وتميّز»- هي التي دفعت هذا التحوّل، لقد انزعج هؤلاء اليهود من «عزلة إسرائيل في الأمم المتحدة، وغضبوا من معاداة السود للسامية في نيويورك، وطاردهم شبح وقوع هولوكوست جديد»، لقد تأثّر هؤلاء اليهود بهذه التجربة، ومن خلال قناعتهم بأنه لا يمكن لأحد أن يشعر بألم اليهود إلا اليهود، فقد «استولوا علىٰ قاطرة السياسة اليهودية»(٢). هذه النظرية تقول إن التحولات الجيوسياسية تحدث فجأة ومن حيث لا تُتوَقّع. لقد كان الصهاينة واقعيين -أكثر من اللازم- في ربط ثرواتهم بمسابقات الشعبية في الأمم المتحدة، ومن غير المعقول أيضًا أن نفترض أن معاداة السامية السوداء -وهي ظاهرة هامشية دائمًا- كانت عاملًا مؤثرًا في السياسة اليهودية. وأخيرًا، من غير المتصوّر أن القيادة اليهودية الأمريكية -التي كانت علىٰ معرفة تامّة بتفوق إسرائيل العسكري الساحق علىٰ الدول القومية العربية- كان بإمكانها أن تأخذ علىٰ محمل الجد فكرة وقوع هولوكست آخر في الأسابيع التي سبقت أو أثناء حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧. لقد

---

(1) Goldberg, Jewish Power, 149.

(2) Ibid., 146-47.

أثار القادة الصهاينة شبح وقوع هولوكوست جديد فقط لانتزاع التزام يهودي أمريكي جديد أكثر صلابة تجاه إسرائيل.

من المنطقي بدرجة أكبر اعتبار هذا التحول في السياسة اليهودية بمثابة تعديل لقائمة المطالب الجديدة التي قدمتها إسرائيل لليهود الأمريكيين في أعقاب حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، فقد كانت المصالح المحلية ليهود أمريكا لا تزال متوافقة -إلىٰ حد كبير- مع الميول الليبرالية للمجتمع الأمريكي، كما كان من الصعب -ومن الحماقة- محاولة دفع الجالية اليهودية بأكملها إلىٰ اليمين؛ لأن هذا من شأنه أن يفقدهم دعم كل تلك الجماعات غير اليهودية التي عملت مع اليهود -وغالبًا مع القيادة اليهودية- في مجموعة متنوعة من القضايا الليبرالية والتقدمية علىٰ مدىٰ نصف القرن الماضي وأكثر، لذلك اختار الصهاينة اليمينيون مسارًا أكثر ذكاءً. لقد تولّوا قيادة المنظمات اليهودية الكبرىٰ وسَعَوا في توسيع قاعدتها بقوة أكبر لدعم إسرائيل لكن دون تنفير القاعدة اليهودية، ومن المثير للاهتمام أن المجتمع اليهودي -كما لو كان متواطئًا في هذا الانقلاب- لم يبد أي مقاومة لهذا التغيير في قيادة المنظمات اليهودية «الرئيسية»، كتب جولدبيرج: «بالكاد حاول أي شخص إيقافهم»، صحيحٌ أن غالبية اليهود الأمريكيين لم يتخلوا عن ليبراليتهم، لكنهم «تركوا هياكل المجتمع لليهود الجدد»[١].

عزّزت حرب يونيو من قوة اللوبي اليهودي أيضًا من خلال منحه فرصة للتدخل مباشرة في سياسات الولايات المتحدة تجاه الاتحاد السوفيتي. بدأ اليهود السوفييت -بدافع الانتصار الإسرائيلي في حرب الأيام الست- في المطالبة بالحق في الهجرة -بحرية- من الاتحاد السوفيتي، وعندما رفض السوفييت هذا الطلب، قرّر اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة استعراض عضلاته. وبدعم من المؤسسة اليهودية الأمريكية، وبالعمل مع العناصر المتشددة في الكونغرس؛ أدخل اللوبي اليهودي تعديلًا علىٰ قانون تعزيز التجارة بين الشرق والغرب يربط بين منح

(1) Ibid., 147, 149.

الاتحاد السوفيتي امتيازات الدولة ذات الأفضلية في اتفاقيات التجارة[1] وبين حق يهود الاتحاد السوفييتي في الهجرة. وعلىٰ الرغم من معارضة البيت الأبيض، حشد اللوبي مجلس النواب لإقرار التعديل في ١٣ ديسمبر ١٩٧٣ بأغلبية ٣٨٨ صوتًا مقابل ٤٤ صوتوا ضد التعديل. كانت هذه علامة فارقة في مسيرة اللوبي اليهودي، حيث كتب جولدبيرج: «لقد استولىٰ النشطاء اليهود علىٰ إدارة نيكسون والكرملين وانتصروا؛ وبهذا أثبت اليهود للعالم ولأنفسهم أنهم يستطيعون الوقوف والقتال من أجل أنفسهم»[٢]. إن هذا الانتصار التشريعي أعطىٰ دفعة هائلة لسطوة وقوة اللوبي اليهودي، ومن ثم اكتسب اللوبي اليهودي سمعة كونه قوة لا تُقهر وصاحب كلمة مسموعة داخل قاعة الكونغرس.

في أعقاب حرب حزيران/يونيو، تطوّرت علاقة جديدة أوثق بين إسرائيل واللوبي اليهودي من جهة، وبين البروتستانت في الولايات المتحدة من جهة أخرىٰ. نظرًا لأن لاهوت وخيال البروتستانت مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بإسرائيل و«عودة» اليهود إلىٰ صهيون، فقد رأوا في ظهور إسرائيل وانتصاراتها تحقيقًا لنبوءات الكتاب المقدس. لقد كان انتصار إسرائيل في حزيران/يونيو ١٩٦٧ هو الذي أعطىٰ أقوىٰ دفعة للتصورات الألفية للبروتستانت التي تتنبأ بنهاية العالم، كما شجع توقعاتهم بأن المجيء الثاني قد يحدث إبان حياتهم. وبدافعٍ من هذه التوقعات المسيحية، بدأ البروتستانت -جنبًا إلىٰ جنب مع اليمين المسيحي الأوسع- في إنشاء المنظمات التي من شأنها التأثير علىٰ السياسة الداخلية وتوجيه الولايات المتحدة نحو سياسة أكثر دعمًا لإسرائيل[٣]، وقد حصلوا علىٰ تشجيع

(١) الدولة ذات الأفضلية هو الوضع الذي تمنحه إحدىٰ الدول إلىٰ أخرىٰ في التجارة الدولية، وهو ما يعني أن الدولة المستقبِلة ستمنح جميع المزايا التجارية -مثل التعريفات الجمركية المنخفضة- إلىٰ دولة أخرىٰ لها هذا الوضع أيضا؛ ويعتبر مبدأ الدولة ذات الأفضلية واحدًا من الركائز الأساسية لقانون التجارة لمنظمة التجارة العالمية. (المترجِم).

(2) Ibid., 171; 174.

(٣) كتب الرئيس السابق لمدرسة ممفيس اللاهوتية تيموثي فيبر (Timothy Weber): «قبل حرب الأيام =

من اللوبي اليهودي في هذه الجهود. وفي الوقت الذي كان دعم الكنائس المسيحية السائدة للاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة يتناقص -وأصبح البعض ينتقد علانية القمع الإسرائيلي للفلسطينيين- سعىٰ الصهاينة -ابتداءً من منتصف السبعينيات- إلىٰ تعويض هذه الخسارة من خلال التحالف مع البروتستانت. وقد تعمّق هذا التحالف بمرور الوقت، مما أعطىٰ الصهاينة اليهود جيشًا من المتعصبين داخل الجسم السياسي الأمريكي. ومنذ أن بدأ البروتستانت باستعراض عضلاتهم الانتخابية، وإرسال أعداد متزايدة من مندوبيهم إلىٰ الكونغرس ومجلس الشيوخ، أصبح دعمهم المتعصب لإسرائيل هو الدعامة الأساسية للحزب الجمهوري. في الواقع، يزعم دانييل بايبس (Daniel Pipes) -أحد كبار المدافعين اليهود الأمريكيين عن إسرائيل- أنه بصرف النظر عن الجيش الإسرائيلي، «قد يكون الصهاينة المسيحيون الأمريكيون هم الأصول الاستراتيجية النهائية للدولة اليهودية»[1].

تزامن صعود الصهاينة المسيحيين في الحزب الجمهوري مع تزايد بروز المحافظين الجدد، وهم مجموعة نخبوية ذات غالبية يهودية سعت إلىٰ تسخير القوة الأمريكية لخدمة إسرائيل. كان بعض «اليهود الجدد» -الذين تولوا قيادة المنظمات اليهودية الرئيسية بعد حرب ١٩٦٧- ليبراليين سابقين، وكانوا مقتنعين بأن بإمكانهم خدمة مصالح إسرائيل الأساسية علىٰ أفضل وجه بالتحالف مع اليمين الأمريكي. ونتيجة لذلك، نحّوا الديموقراطيين، وانضموا إلىٰ الحزب الجمهوري، حيث بدأوا -بالتحالف مع عدد قليل من شخصيات غير يهودية لها

= الست، كان الدعاة التدبيريين راضين بالجلوس في مدرجات التاريخ، مشاهدين أحداث نهاية الزمان في الميدان أمامهم . . . ولكن بعد تمدد إسرائيل في الضفة الغربية وغزة، بدأوا في النزول إلىٰ الميدان، والتأكد من أن الفرق اصطفت بشكل صحيح، وانخرطت في طرق سياسية ومالية ودينية لم تكن موجودة من قبل».

mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 133.

(1) Pipes, "Israel's Ultimate Strategic Asset."

نفوذ- في الدعوة إلىٰ سياسة خارجية أمريكية أكثر إمبريالية وعسكرية(١). بالإضافة إلىٰ ذلك، دعا المحافظون الجدد -لتمييز أنفسهم عن المحافظين التقليديين- إلىٰ شراكة أعمق مع إسرائيل، واستخدام جيشها للسيطرة المباشرة علىٰ نفط الشرق الأوسط(٢)، لقد كان هذا أيضًا هدف المتطرفين داخل إسرائيل -الليكود علىٰ وجه الخصوص- الذين أرادوا إعادة رسم خريطة المنطقة لتسهيل سيطرة إسرائيل الكاملة والتي لا رجعة فيها علىٰ المنطقة(٣)، ومع مرور الوقت، أقام المحافظون اليهود الجدد علاقات وثيقة مع السياسيين الإسرائيليين والأيديولوجيين اليمينيين؛ وغالبًا ما عملوا معًا في مراكز أبحاث أمريكية وإسرائيلية يمينية، ودعوا معًا إلىٰ وضع الجيش الأمريكي وراء طموحات إسرائيل للهيمنة علىٰ الشرق الأوسط.

إن المحافظين الجدد الأمريكيين هم مجموعة نخبوية صغيرة، ولكنها ديناميكية، تجمع بين الإنتاج الفكري الغزير والنشاط السياسي، وكانوا يضعون أنفسهم منذ السبعينيات في مراكز تشكيل السياسة الخارجية للولايات المتحدة. وبدعم من أكبر المنظمات اليهودية السائدة، قاموا بتأسيس العديد من المجلات ومراكز الفكر المؤثرة، والتي قدمت بلا كلل قضية توسيع واستخدام التفوق العسكري الأمريكي لإعادة تشكيل خريطة الشرق الأوسط ومنع صعود أي قوة منافسة -حتىٰ لو كانت إقليمية- باستخدام التهديدات أو الاستخدام الفعلي للقوة العسكرية. حصل المحافظون الجدد لأول مرة علىٰ مناصب مهمة في صنع

---

(١) كتب جينسبيرج (Ginsberg) في (The Fatal Embrace, 231)، أن المحافظين الجدد انتقلوا إلىٰ اليمين في المقام الأول بسبب «ارتباطهم بإسرائيل، وإحباطهم المتزايد خلال الستينيات من الحزب الديمقراطي، الذي أصبح معارضًا -بشكل متزايد- للتأهب العسكري الأمريكي، وازداد شغفه شيئًا فشيئًا بـ «قضايا العالم الثالث».

(٢) ظلّ يهود المحافظون الجدد يتوقعون -خلال السبعينيات- «أن اليهود قد نزعوا بيعة الليبرالية، وسيحولون الآن ولائهم إلىٰ الصف الجمهوري».

Goldberg, Jewish Power, 161.

(3) Chomsky, Fateful Triangle, 455-63.

السياسات في إدارة ريغان[١]، لكنهم خضعوا للرقابة خلال سنوات كلينتون، وانتقلوا إلىٰ مراكز الفكر والمجلات والصحف اليمينية والمؤيدة لإسرائيل، حيث وضعوا خططهم من أجل «ولايات متحدة أكثر إمبريالية»، وعمّقوا تحالفاتهم مع الليكود الإسرائيلي، وحقّقوا توغلات أعمق في التسلسل الهرمي للحزب الجمهوري. وبانتخاب جورج دبليو بوش عام ٢٠٠٠، تمكنوا من السيطرة علىٰ العديد من المناصب الرئيسية في مكاتب نائب الرئيس والبنتاغون ووزارة الخارجية؛ وفي سبتمبر ٢٠٠٠، كان المحافظون الجدد يتمنون وقوع «حدث كارثي ومحفز» -مثل بيرل هاربور جديد- لتسريع خططهم لتوجيه الجيش الأمريكي إلىٰ سياسات تضمن التفوق العسكري الأمريكي لعقود[٢]، وفي ١١ سبتمبر ٢٠٠١، نالوا سؤلهم. ومن خلال استغلال المخاوف الأمريكية، انتهز المحافظون الجدد الفرصة علىٰ الفور لتنفيذ خططهم للهيمنة علىٰ العالم من خلال الوسائل العسكرية، وأطلقوا عليها اسم «الحرب العالمية علىٰ الإرهاب»، فكانت غزوات أفغانستان في أكتوبر ٢٠٠١ والعراق في أبريل ٢٠٠٣ بمثابة ضربة البداية لهذه الحرب.

في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، بدا الصهاينة علىٰ وشك تحقيق رؤيتهم المتطرفة المتمثلة في ترسيخ هيمنتهم علىٰ الشرق الأوسط علىٰ أساس دائم، فقد نما المشروعان اللذان أطلقتهما الصهيونية -في فلسطين والولايات المتحدة- بشكل كبير في العقود التي تلت حرب يونيو. بعد هزيمة خصومها القوميين العرب واستمالة مصر، اكتسبت إسرائيل اليد العليا علىٰ الدول العربية المتبقية، التي كانت الآن حريصة علىٰ التعاون مع الدولة اليهودية. في الولايات المتحدة أيضًا،

---

(1) Mearsheimer and Walt, The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy, 128-32.

(٢) «علاوة علىٰ ذلك، فإن عملية التحوّل [إلىٰ التقنيات الجديدة التي «ستحافظ علىٰ التفوق العسكري الأمريكي في العقود القادمة»]، حتىٰ لو أحدثت تغييرًا ثوريًا، فمن المرجح أن تكون طويلة في ظل غياب حدث كارثي ومحفّز مثل بيرل هاربور.

project for the New American Century, Rebuilding America's Defenses, 51.

نمت قوة اللوبي اليهودي -مدفوعًا بالقوىٰ المنبثقة عن انتصار إسرائيل في حرب حزيران- بشكل تراكمي، إلىٰ أن أصبح هو المسؤول عن جميع الأمور المتعلقة بالشرق الأوسط تقريبًا، وأحيانًا يتدخل في بعض الأمور خارج هذه المنطقة أيضًا، كتب ستيفن شوارتز (Stephen Schwartz): «في العقدين الأخيرين بين ١٩٨٠ و٢٠٠٠، اكتسب اليهود الأمريكيون قوة ونفوذًا يفوق أي نفوذ تمتعوا به من قبل»[١]، يقرّ جولدبيرج أيضًا أن يهود أمريكا -خلال فترة ما بعد ١٩٦٧- ظهروا «كقوة أساسية علىٰ المسرح الدولي»[٢].

هل الجالية اليهودية الأمريكية أم إسرائيل هي التي وضعت اليهود في مكانة بارزة علىٰ مسرح التاريخ؟ يرىٰ جولدبيرج أن الجالية اليهودية الأمريكية هي المركز الحقيقي ليهود العالم، والمصدر الحقيقي لقوتهم[٣]. إن الرؤية التي تجعل صعود القوة اليهودية الأمريكية كقوة لها وزنها علىٰ المسرح العالمي معزولًا عن إسرائيل؛ رؤية مناقضة للتاريخ؛ فثروات الاثنين مترابطة بشدة، خاصة منذ عام ١٩٣٩ عندما قررت بريطانيا أن تنأىٰ بنفسها عن المشروع الصهيوني. في هذه العلاقة المتعاضدة بين أكبر تجمعين لليهود منذ الحرب العالمية الثانية، كان اليشوف في فلسطين -ولاحقًا دولة إسرائيل اليهودية- هم الذين قادوا المشروع الصهيوني العالمي، في حين استجاب يهود أمريكا لمطالبهم المتصاعدة، وساهموا بدور لا يقل أهمية في نجاحات الصهيونية. لقد أنشؤوا منظمات جديدة، وأعادوا توجيه أخرىٰ، واكتسبوا حلفاء جدد أقوياء، وعززوا من نفوذ هذه المنظمات والتحالفات علىٰ السياسة الداخلية لتضع كامل ثقل الولايات المتحدة خلف إسرائيل. في شبكة التفاعلات بين إسرائيل والجالية اليهودية

---

(1) Schwartz, Is It Good for the Jews, 121.

(2) Goldberg, Jewish Power, 15.

(٣) بالنسبة إلىٰ النظرة الصهيونية للعالم، يكتب جولدبيرغ (القوة اليهودية Jewish Power, 18)، أن الدولة اليهودية هي التي «ستعطي صوتًا لمن لا صوت له، وتعيد اليهود إلىٰ مرحلة التاريخ بعد قرون من العجز. لقد قلبت القوة اليهودية الأمريكية الفكرة الصهيونية رأسًا علىٰ عقب».

الأمريكية، كرّست الأخيرة مؤسساتها وقيمها وحتىٰ تحالفاتها أكثر فأكثر لخدمة احتياجات إسرائيل. صحيحٌ أنه بدون الصهيونية وإسرائيل، ستظل الجالية اليهودية الأمريكية تحتل مكانة متميزة في العديد من مجالات الاقتصاد والمجتمع والثقافة؛ لكن من غير المرجح أن تكون قوة محورية في سياسة الولايات المتحدة.

الفصل العشرون
ملخص

«يا إلهي! هل هذه هي النهاية! أهذا هو الهدف الذي ناضل من أجله آباؤنا، وفي سبيله عانت جميع الأجيال؟ أهذا هو حلم العودة إلىٰ صهيون الذي حلم به شعبنا لقرون . . . أن نأتي الآن إلىٰ صهيون لنلطّخ أرضه بدماء بريئة!»
آحاد هعام (Ahad Ha'am) ١٩٢١[١]

وظّفت هذه الدراسة إطارًا جدليًا لتحليل منطق الصهيونية المزعزع للاستقرار. لقد درسنا هذا المنطق كما تكشَّف عبر الزمن، مدفوعًا برؤيته الاستعمارية الإقصائية، وفي اجتذابه إلىٰ ترسانة قواه الأمم والشعوب والقوىٰ والحضارات -معه أو ضده- التي يمكن أن تؤثر أفعالها وتفاعلاتها علىٰ مسار الصهيونية، والذين بدورهم تأثروا بهذا المسار.

سيكون من السطحية بعض الشيء دراسة مجال التفاعلات بين مختلف الجهات الفاعلة في هذه الدراما التاريخية علىٰ افتراض أن هؤلاء الفاعلين ثابتين ومصالحهم لا تتغير؛ بدلًا من ذلك، نحتاج إلىٰ استكشاف الطرق المعقّدة التي

---

(١) كتب أحد هعام هذا عند سماعه إشاعة أن يهود يافا قتلوا صبيًّا عربيًّا ثأرًا.

Khalidi, From Haven to Conquest, 831.

عمل بها الصهاينة -ونجحوا في كثير من الأحيان- علىٰ تغيير سلوك اللاعبين السياسيين الآخرين في هذه الدراما؛ وكيف استجاب الصهاينة بدورهم لهذه التغييرات. والأهم من ذلك، نحن بحاجة إلىٰ استكشاف جميع الطرق التي نجح بها الصهاينة في تعبئة موارد الولايات المتحدة والقوىٰ الغربية الأخرىٰ لخدمة أهدافهم المحددة.

إذا نظرنا إلىٰ قائمة الفاعلين السياسيين الذين كان لهم أكثر من مجرد ارتباط عابر بالمشروع الصهيوني والذين تأثّروا بهذا المشروع في وقت أو آخر، سنجد أولًا، الفصائل الصهيونية المختلفة، والشتات اليهودي، ولاحقًا دولة إسرائيل. هذه الكيانات متداخلة، مع تغيُّر في درجات التداخل بينها بمرور الوقت. المجموعة الثانية من الممثلين تتكوّن من القوىٰ الغربية -وخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا- والصهاينة المسيحيين -خاصة في الولايات المتحدة-، والاتحاد السوفيتي وحلفائه في أوروبا الشرقية. وأخيرًا، هناك ممثلون هم الضحايا المباشرون، وغير المباشرين للمشروع الصهيوني، أولئك الذين دفعوا تكاليف النجاح الصهيوني؛ إنهم يشكّلون أربع دوائر متحدة المركز حول إسرائيل تضم الفلسطينيين والعرب والشرق الأوسط والعالم الإسلامي الأوسع. تشكل هذه المجموعات الثلاث الشخصيات الدرامية في مأساة المشروع الصهيوني التي تكشف لنا بمرور الوقت.

من الواضح أن عدد الفاعلين المتورطين، وتنوعهم، والقوة متعددة الطبقات التي يحتكم عليها الصهاينة وحلفاؤهم؛ تشير إلىٰ أن الصهيونية ليست مجرد ظاهرة تاريخية عارضة، فمن جانبٍ لدينا تلك المشاركة المباشرة للكثير والكثير من العالم الغربي، ولدينا علىٰ الجانب الآخر العالم الإسلامي الذي سيشكل سكانه قريبًا ربع سكان العالم.

أسّس العديد من المستوطنين البيض مستعمرات في أفريقيا خلال القرن التاسع عشر، وفي فلسطين، أسس اليهود المستعمرة الوحيدة للمستوطنين البيض

في الشرق الأوسط، والباقية من مستعمرات آسيا كلها. ومن بين كل هذه المشاريع الاستيطانية الاحتلالية، لم يبق إلىٰ القرن الحالي سوىٰ المستوطنون اليهود في فلسطين. في عام ١٩٤٨ -بعد ثلاثة عقود فقط من حصولهم علىٰ الدعم البريطاني لمشروعهم- أنشأ المحتلون اليهود دولتهم الخاصة التي أصبحت بين عشية وضحاها القوة المهيمنة في المنطقة، والقادرة علىٰ هزيمة أي مجموعة من القوات العسكرية لجيرانها. وفي غضون عقدين من تأسيسها، حصلت الدولة اليهودية «الصغيرة» أيضًا علىٰ ترسانة من الأسلحة النووية، وهي الدولة الوحيدة في المنطقة التي تمتلك أسلحة إبادة جماعية. وفي العقود الأخيرة، سبقتها عسكريًّا ثلاث دول فقط هي الولايات المتحدة وروسيا والصين. بالإضافة إلىٰ ذلك، أقامت إسرائيل علاقة خاصة مع الولايات المتحدة، تلك العلاقة التي ضمنت -ولازالت- تمويل جيشها وتسليحه وحمايتها من عقوبات مخالفة القوانين الدولية، وتترك لها الحرية في توسيع مشروعها الاحتلالي، وتهديد جيرانها ومهاجمتهم متىٰ شاءت. وبعد الحادي عشر من سبتمبر، كانت إسرائيل وحلفاؤها فاعلًا رئيسيًا -إن لم يكن حاسمًا- في دفع الولايات المتحدة لغزو واحتلال العراق. ولعدة سنوات حتىٰ الآن، كانوا يتوقون إلىٰ تحريض الولايات المتحدة علىٰ الحرب ضد إيران.

كيف استطاع الصهاينة فعل كل هذا؟

يكمن جزء كبير من الإجابة علىٰ هذا السؤال في اتخاذ القوىٰ الداعمة لإسرائيل قرارات تعزز قدرتها علىٰ البقاء. لو استمر المحتلون الفرنسيون في الجزائر، واستطاعوا تقسيم البلاد لإنشاء دولة استيطانية بيضاء علىٰ طول ساحل البحر الأبيض المتوسط -مثل إسرائيل- لكانت تلك الدولة الاستيطانية أيضًا مدججة بالسلاح، ومدعومة بعلاقة خاصة مع فرنسا، وعلىٰ استعداد دائم للحرب مع اللاجئين الجزائريين ومع جيرانها العرب/الأفارقة. في عام ١٩٦٠ حثّ دافيد بن غوريون الرئيس الفرنسي شارل ديغول علىٰ إنشاء دولة استعمارية استيطانية في

الجزائر في المناطق الزراعية الغنية علىٰ طول ساحل البحر الأبيض المتوسط. وفي الحرب الأهلية الجزائرية، دعمت إسرائيل منظمة الجيش السريّ (OAS)، وهي منظمة مسلحة سريّة للمستعمرين في الجزائر، والتي أرادت تقسيم الجزائر[١]. لو استطاعت تلك المنظمة أن تبلغ هدفها، لكان التقسيم قد أطال عمر الصراع في الجزائر، ولضمّت الجزائر توأمًا لإسرائيل في شمال أفريقيا مما يعمق الروابط بين فرنسا وإسرائيل. لكن لسوء حظ إسرائيل، رفض ديغول بشدة اقتراح التقسيم، فقد كان مقتنعًا بأنه لا يمكن الحفاظ علىٰ التدخل الفرنسي في الجزائر، واعترف للجزائريين بحقهم في الاستقلال.

كيف نجح المحتلون اليهود في فلسطين في إنشاء دولة استعمارية استيطانية إقصائية في منتصف القرن العشرين، واستمروا في النمو بدعم من دولة راعية بديلة، بينما المحتلون الفرنسيون في الجزائر، والإيطاليون في ليبيا، والبريطانيون في كينيا اضطروا للتخلي عن مشاريعهم الاستعمارية؟ الجواب علىٰ هذا السؤال سهل؛ لم يكن للمحتلين البيض في الجزائر أو ليبيا أو كينيا تأثير كافٍ علىٰ الدولة الراعية -فرنسا وإيطاليا وبريطانيا- لعكس ما قررت نخب هذه الدول أنه في مصلحتهم، أي الانسحاب من البلدان المحتلة؛ أما المحتلون اليهود في فلسطين فقد كان لهم قوة أكبر من سلطة المحتلين البيض في الجزائر وليبيا وكينيا؛ لكن من أين أتت قوتهم؟

إن نجاح المحتلين اليهود في فلسطين وفشل المحتلين في الجزائر وليبيا وكينيا قد يثير شيئًا من التناقض؛ فقد كان للمستوطنين الفرنسيين والإيطاليين والبريطانيين وطنًا طبيعيًا، وبلدًا أصليًا، يتشاركون مع شعبه رابطة عرقية، لكن لم يكن للمحتلين اليهود في فلسطين دولة أمّ طبيعية، ودولة يهودية قوية لدعم مشروعهم الاحتلالي. ومع ذلك، نجح هذا المشروع، وتخلصوا من الفلسطينيين من أجل إقامة دولة يهودية نقية. لم ينجز المحتلون اليهود هذا العمل الفذّ

(1) Laskier, "Israel and Algeria," 7; Rodinson, Israel and the Arabs, 92.

بمفردهم؛ لقد نجحوا بسبب قدرتهم علىٰ تجنيد أعظم القوىٰ الغربية والعديد من القوىٰ الأخرىٰ لدعم مشروعهم الاحتلالي. بطريقة ما، حوّل الصهاينة ما كان يمكن أن يكون نقصًا فادحًا في مقومات مشروعهم الاحتلالي -غياب دولة راعية طبيعية- إلىٰ أعظم مصادر قوتهم؛ فقد كان لهم حرية اختيار دولتهم الراعية.

كيف فعل الصهاينة ذلك؟ لم يكن اليهود أغلبية في أي بلد، ولكن كانت توجد أقلية يهودية في كل بلد غربي تقريبًا، ولا يمكن أن يكون وجود الأقليات اليهودية بحد ذاته مصدر قوة؛ فلا تستطيع أقلية يهودية ضعيفة في أي بلد أن تفعل شيئًا يذكر لمساعدة إخوانها في الدين في بلد آخر. لكن ما جعل الأقليات اليهودية مختلفة عن الأقليات الأخرىٰ هو أنها كانت تحمل ثقلًا يفوق أعدادها بكثير. فعلىٰ مدار القرن التاسع عشر، أصبح لهم وجود مهم وحيوي وغالب بين النخب المالية والصناعية والتجارية والفكرية في العديد من الدول الغربية الكبرىٰ، بما في ذلك بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا والولايات المتحدة. علاوة علىٰ ذلك، أقام أبرز أعضاء هذه النخب علاقات عابرة للحدود الوطنية مع بعضهم البعض.

وبمجرد أن قررت هذه النخب اليهودية المنتشرة في الدول الغربية الرئيسية دعم المشروع الصهيوني، فإنها ستصبح قوة فاعلة في السياسة العالمية. من ناحية أخرىٰ، يمكن للمشروع الصهيوني أن يغري القوىٰ العظمىٰ إذا كان دعمهم له سيشتري لهم مساعدة الجاليات اليهودية الموجودة في دولة منافسة أو صديقة، مما يعني دفع هذه الدول المضيفة في اتجاه مرغوب فيه لدىٰ نخب الدول الداعمة للصهيونية. وبمجرد أن يتنبه الصهاينة لهذه الصفقة، فإنهم سيسعون أيضًا لكسب التأييد لقضيتهم من خلال تقديم دعم الجاليات اليهودية في الدول الغربية الرئيسية. فسيكون من مصلحتهم المبالغة في النتائج التي قد تتمكن الجاليات اليهودية في هذا البلد أو ذاك من تحقيقها. وخلال فترات الصراعات الشديدة -مثل الحرب العالمية الأولىٰ- عندما كان مصير الأمم ضبابيًا مشوشًا، أصبحت

المنافسة علىٰ الدعم الصهيوني أكثر حدة من أي وقت مضىٰ. وضع هذا الصهاينة في موقف قوي لمقايضة مصالحهم بالتزام القوىٰ العظمىٰ بدعم أهدافهم. وفي سبتمبر ١٩١٧، أقنعت هذه المنافسة بريطانيا -في لحظة صعبة في الحرب- بتقديم دعمها للمشروع الصهيوني.

يواصل الصهاينة تسويق مشروعهم الاحتلالي كملاذ لليهود الهاربين من الاضطهاد المعادي للسامية. إلا أن هذا ليس إلا تضليلًا للتعمية عن الحقيقة. لقد بقي اليهود الفارّين من الاضطهاد في أوروبا -وبأغلبية ساحقة- بعيدين عن هذا «الملاذ» طالما كانت البدائل متاحة. والأدهىٰ من ذلك، أن الصهاينة كانوا يعتمدون علىٰ دعم أعداء السامية لدفع مشروعهم القومي الاحتلالي. لقد كانوا يعوّلون علىٰ الاضطهاد الذي تقوده معاداة السامية لإرسال المستوطنين اليهود إلىٰ فلسطين، كما كانوا يعتمدون علىٰ رغبة الأوروبيين المعادين للسامية في التخلص من اليهود لتجنيد القوىٰ الغربية لدعم مشروعهم الاحتلالي في فلسطين. كانت الصهيونية في الأساس حركة قومية سبقت أصولها عودة ظهور معاداة السامية في أواخر القرن التاسع عشر؛ فحتىٰ ذلك الوقت، سعىٰ معظم اليهود إلىٰ محاربة معاداة السامية من خلال الاندماج وحركات الاستقلال الذاتي اليهودي والثورات الاشتراكية؛ وعندما أجبروا علىٰ الهجرة، فضّلوا -بأغلبية ساحقة- وجهات خارج فلسطين. تحسنت حظوظ الصهيونية فقط عندما أغلقت معظم الدول الغربية أبوابها أمام المهاجرين اليهود. لم يعارض يهود الشتات غلق هذه الأبواب أمام الفارين اليهود في أوائل القرن العشرين؛ لأن قيادات يهود الشتات حينها تتبنّىٰ بشكل كامل الأهداف الصهيونية، ولم يكن هناك ضغط منهم لإعادة فتح هذه الأبواب قبل الستينيات.

تلقّىٰ الصهاينة منذ انطلاق حركتهم دعمًا من الشريحة البروتستانتية المهيمنة في المسيحية، التي أعاد لاهوتها استحقاق اليهود لعهدهم مع الله. ونتيجة لذلك، بدأ عدد قليل من البروتستانت في الدعوة إلىٰ «إعادة» اليهود إلىٰ فلسطين

في القرن السابع عشر؛ حينها، نظر اليهود إلىٰ هذه المقترحات بريبة شديدة، لكن منذ القرن التاسع عشر، بدأت مجموعة جديدة من المسيحيين البروتستانت في دعم عودة اليهود؛ لأنهم اعتقدوا أن هذا مقدمة ضرورية للمجيء الثاني. صار هذا التيار البروتستانتي -الذي امتدّ احتفاؤه بالانتصارات الإسرائيلية من موطنه في بريطانيا حتىٰ الولايات المتحدة- مصدرًا مهمًا لدعم الصهيونية في الولايات المتحدة.

تضاعف نجاح المشروع الاستعماري الصهيوني -إلىٰ حد كبير- مع الضعف الذي دبّ في عرب الشرق الأوسط، فعلىٰ عكس الجزائريين في القرن التاسع عشر أو الليبيين بين الحربين العالميتين، كان الفلسطينيون بطيئين في مقاومة الاحتلال اليهودي -أول مقاومة جادّة كانت في عام ١٩٣٦- وبمجرد هزيمتهم في عام ١٩٣٩، لم يتمكّنوا من إعادة تنظيم صفوفهم لأكثر من عقدين. والأمر الذي كان له تأثيرٌ حاسم هو أن الاحتلال اليهودي لفلسطين لم يثر ردة فعل في العالم العربي والإسلامي الأكبر تتناسب مع حجم التهديد الصهيوني، فقد تميّزت هذه الفترة بغياب أي جهود منسَّقة في سوريا أو مصر أو العراق أو شبه الجزيرة العربية لمقاومة الاحتلال اليهودي قبل أن يتحول إلىٰ تنين لا يُهزم. ولما بدأ القوميون العرب بالتحرك كان الأوان قد فات، حيث رسّخت إسرائيل قدمها في المنطقة، وأصبحت علىٰ بعد خطوات من الوضع الذي سيمكنها من تحطيمهم قبل أن يتمكنوا من بناء قوتهم.

حرصًا علىٰ إخفاء قوة اللوبي اليهودي، غالبًا ما يجادل الصهاينة بأن القوىٰ الغربية دعمت الصهيونية فقط لأن الدولة اليهودية خدمت المصالح الاستراتيجية الغربية في الشرق الأوسط. لقد أظهرنا أن الصهيونية كانت تتعارض مع المصالح طويلة المدىٰ لبريطانيا والولايات المتحدة. كما تقدّم ضرورات الحرب ووجود صهيونيين مسيحيين في حكومة لويد جورج تفسيرًا مقبولًا للدعم البريطاني الذي كان من مظاهره وعد بلفورعام ١٩١٧. ومن ناحية أخرىٰ، كان الدعم الأمريكي

القوي في عام ١٩٤٨ لتقسيم فلسطين -ولاحقًا- نتاج ضغط اللوبي اليهودي المحلي.

في الأربعينيات -وحتىٰ بعد ذلك- كانت صورة الولايات المتحدة حسنة جدًّا في العالم العربي، ومشهودًا لها بالنوايا الحسنة، حيث وجّهت الحركات الشعبوية في العالم العربي عداءها المناهض للاستعمار ضد البريطانيين والفرنسيين، وليس الأمريكيين. بالإضافة إلىٰ ذلك، فإن السلالات العربية والبرجوازية الصغيرة، الذين كانوا يتوقعون الوصول إلىٰ السلطة بعد رحيل الحكام الذين عيّنهم الاستعمار؛ كانوا سعداء للغاية للعمل مع محتليهم السابقين والولايات المتحدة. لم يكن لدىٰ القوميات العربية والمحلية -ضعيفة التأسيس علىٰ أي حال- توجه راديكالي، ولا يتطلب الأمر سوىٰ القليل من البصيرة لمعرفة أن إقحام إسرائيل في قلب الشرق الأوسط -سواء كان ذلك يخدم المصالح الاستراتيجية الغربية أم لا- من المؤكد أنه سيخلق تهديدات لهذه المصالح لم تكن موجودة من قبل، وبالطبع لم تكن هذه الرؤية غائبة عن واشنطن، فقد رأىٰ المسؤولون في وزارتي الخارجية والدفاع ذلك بوضوح، لكن صوت السياسة الرئاسية كان أعلىٰ.

وبمجرد إنشائها، كان لدىٰ إسرائيل الموارد اللازمة لخلق وترسيخ صورتها كرصيد استراتيجي، وأنها تدافع عن المصالح الحيوية للقوىٰ الغربية في الشرق الأوسط. لقد كان إنشاء دولة استعمارية يهودية في العالم العربي -دولة يتعين عليها الانخراط في تطهير عرقي واسع النطاق- هو التحريض المثالي لبدء دوامة غضب متصاعدة ضد داعمي إسرائيل الغربيين، وعلىٰ رأسهم الولايات المتحدة. إن الغضب العربي علىٰ إسرائيل -والذي تفاقم بسبب سياسات إسرائيل الاستفزازية- سوف يستمر في تأجيج القومية العربية، ودفعها إلىٰ حافة الراديكالية في معاداتها للغرب. ومع ذلك، تابعت الولايات المتحدة جهودها الفاشلة -خلال الخمسينيات من القرن الماضي- لإحلال السلام بين العرب وإسرائيل.

وبسبب حرص إسرائيل علىٰ عدم نجاح أي من هذه الجهود، أُجبرت الدول القومية العربية علىٰ اللجوء إلىٰ الاتحاد السوفيتي. وحتمًا، في هذه المرحلة، سترىٰ واشنطن القومية العربية المتطرفة علىٰ أنها تهديد لمصالحها في الشرق الأوسط، وبذلك اكتملت الدائرة الأولىٰ. لقد أوجدت إسرائيل التهديدات التي من شأنها أن تجعلها تبدو كرصيد استراتيجي، وفي ضربتها الاستباقية في يونيو ١٩٦٧، أكدت إسرائيل ذلك بهزيمة مصر وسوريا، الدولتين القوميتين العربيتين الرائدتين.

بمجرد أن تموضع هذا النموذج في مكانه، عملت إسرائيل وحلفاؤها اليهود في الولايات المتحدة بجد لضمان بقائه في مكانه، فعمل الصهاينة اليهود في الولايات المتحدة -داخل وخارج الجالية اليهودية-علىٰ تقليص قدرة النظام السياسي الأمريكي علىٰ اتخاذ أي مواقف تتعارض مع مصالح إسرائيل. وفي أعقاب الانتصار في حرب حزيران/يونيو، وما تبعها من سياسة إسرائيلية جديدة متمثلة في توسيع حدود الدولة اليهودية لتشمل الضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان؛ تولّىٰ كادر جديد من اليهود المؤيدين بشدة لإسرائيل قيادة التيار اليهودي السائد ومنظماته في الولايات المتحدة. لقد عملوا علىٰ قمع المعارضة داخل المجتمع اليهودي، واستخدموا ثقلهم الانتخابي لانتخاب أقوىٰ المرشحين الموالين لإسرائيل في الكونجرس، وحافظوا علىٰ الانضباط داخل الكونغرس من خلال معاقبة المعارضين في الانتخابات المقبلة. كما قاموا بتغذية المسيحيين الصهاينة، الذين نشطتهم النجاحات الإسرائيلية. في الوقت نفسه، أنتجت مراكز الأبحاث الموالية لإسرائيل المئات من الأوراق والتوصيات والمقالات الصحفية والمجلات والتقارير والكتب، هدفها الأول إحياء وإذكاء المخاوف من وجود إسلام خطير ومعاد للغرب، آخذ في النمو، وهو ما يمثل أكبر تهديد لقوة الولايات المتحدة ومصالحها.

إذن، يكمن سر النجاح الصهيوني في الطريقة التي تغلب بها علىٰ الخلل الرئيسي في مشروعه ألا وهو: عدم وجود وطن طبيعي لدعم مشروعه الاحتلالي، فمن خلال كسب دعم يهود الشتات الغربي، وتحفيزهم علىٰ استخدام ثرواتهم وفكرهم ونشاطهم للترويج للقضايا الصهيونية؛ نجح الصهاينة في استبدال الغرب بالوطن الطبيعي المفقود. ومع مرور الوقت، قدمت كل الدول الغربية الكبرىٰ تقريبًا (بما في ذلك الاتحاد السوفيتي) مساعدات حاسمة في إنشاء إسرائيل وبقائها ونجاحها. والأهم من ذلك، أن القوتين الغربيتين الأكبر -بريطانيا والولايات المتحدة- وضعتا قوتهما العسكرية خلف المشروع الصهيوني علىٰ الرغم من الضرر الذي ألحقه ذلك بمصالحهما الحيوية في الشرق الأوسط.

لقد دفعت الولايات المتحدة بالفعل ثمنًا باهظًا لسياساتها المؤيدة للصهيونية منذ عام ١٩٤٨. وبمرور الوقت، شملت هذه التكاليف مئات المليارات من الدولارات من الدعم لإسرائيل وحلفائها العرب، واكتساب عداوة العالم العربي، وحظر نفطي، ثم شراء النفط بسعر أعلىٰ، وصعود التطرف الإسلامي، وعدة مواجهات مع الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط. بعد ١١ أيلول/ سبتمبر٢٠٠١، وتحت ضغط قوي من إسرائيل -بالتعاون مع حلفائها من المحافظين الجدد- شنّت الولايات المتحدة حربًا مكلفة -ولكنها غير ضرورية- ضد العراق. وفي المقابل، حفزت هذه الحرب الراديكاليين الإسلاميين، ومنحتهم مسرحًا جديدًا يمكنهم من خلاله الاحتكاك بالولايات المتحدة. لقد موّلت الولايات المتحدة هذه الحرب -والحرب في أفغانستان- بالاقتراض من الصين والدول العربية الغنية بالنفط. يجب علينا أيضًا أن نضيف نتيجتين أخريين من نتائج حرب العراق لقائمة التكاليف الإسرائيلية علىٰ الولايات المتحدة: صعود إيران، والتحدي المتزايد للهيمنة الأمريكية في أمريكا اللاتينية.

من المرجح أن تكون التكاليف التي قد تتحملها الولايات المتحدة -وبقية العالم الغربي- أكبر بكثير في المستقبل. لا يمكننا سوىٰ تقديم بعض التكهنات

بشأن هذه التكاليف، أو موعد استحقاقها. بطبيعة الحال لن تستمر الأنظمة القمعيّة الموالية لأمريكا في العالم العربي، وعندما تبدأ هذه الأنظمة غير الشعبية في السقوط، وتحلّ محلها حكومات إسلامية، قد يصبح من الصعب علىٰ الولايات المتحدة الحفاظ علىٰ وجودها في المنطقة. في الواقع، من المحتمل أن تؤدي الولايات المتحدة نفسها أو إسرائيل إلىٰ هذه النتيجة بهجوم علىٰ إيران، ففي رأي البعض، هذا حادث ينتظر حدوثه.

في حالة زوال إسرائيل، ستتحمل الولايات المتحدة الكثير من الأضرار الجانبية لهذا الانهيار. يمكن أن تتلاشىٰ الدولة اليهودية بسبب الضغوط الدولية ضد نظام الفصل العنصري، وفقدانها البطيء لأفضليتها حيث يخسر المستوطنون اليهود «حربهم الديموغرافية» مع الفلسطينيين، أو فقدانها قوتها الرادعة مع استمرار المحاولات الفاشلة لتدمير حزب الله وحماس. لقد أصبحت إسرائيل والولايات المتحدة وجهان لعملة واحدة، ففي الخطاب العام في أمريكا، أصبح الاثنان متشابهين أكثر فأكثر: إنهما مجتمعان استثنائيان، اختارهما القدر، وتجسدت فيهما إرادة الله، وخلقهما روادٌ شجعان، شكلوا -وما زالوا- يشكلون مصيرهم المشترك من خلال التوسع الإقليمي والتطهير العرقي. وفي حالة اضمحلال الدولة اليهودية، فقد يبدأ توأمها الأكبر في الترنُّح.

قد يكون من السهل التكهن ببعض عواقب اضمحلال إسرائيل. خلال القرن الماضي، حفزت نجاحات الحركة الصهيونية العديد من اليهود الأمريكيين والمسيحيين الصهاينة؛ لكنهم الآن سيصابون بخيبة أمل، وسيدخلون في حالة من اليأس والارتباك والغضب. علىٰ الأرجح، سيرغب معظم اليهود الإسرائيليين في الهجرة إلىٰ الولايات المتحدة، تلك الهجرة التي لن يعارضها معظم الأمريكيين. ومع ذلك، فإن هذا سيؤدي إلىٰ احتكاكات بين بعض الأغيار الوثنيين واليهود، وقد يؤدي إلىٰ ظهور جيوب من معاداة السامية. كما ستزداد التوترات بين اليهود والمسلمين في الولايات المتحدة. كما قد يسعىٰ الصهاينة المسيحيون المحبطون

أيضًا إلىٰ البحث عن كبش فداء في جميع الشعوب الملونة، وخاصة العرب الأمريكيين والمسلمين. في جميع الاحتمالات، ستواجه الولايات المتحدة صراعات متزايدة بين فصائل مختلفة من سكانها، وسيكون هناك المزيد من العنصرية وجرائم الكراهية، وربما أسوأ؛ وبالطبع لن يكون أي من هذا جيدًا لصورة أمريكا كدولة عظمىٰ.

علىٰ الرغم من أن التداعيات المحلية لتلاشي دولة إسرائيل ستكون خطيرة، فإن الخسائر الأكثر خطورة للولايات المتحدة ستنبع من تآكل سيطرتها علىٰ الدول الغنية بالنفط في خليج فارس. سيكون من التهور التنبؤ بخطوط الخريطة الجديدة التي ستظهر في نهاية المطاف في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، ومهما كانت الهياكل الجديدة التي ستظهر، فمن المرجح أن تكون هذه التحولات جذرية وعنيفة. من ناحية أخرىٰ، سيؤدىٰ التشظي المفروض علىٰ العالم الإسلامي إلىٰ خلق مصالح محلية تسعىٰ إلىٰ الحفاظ علىٰ الوضع الراهن، وستحدث مواجهات بين هذه المصالح المحلية والحركات الإسلامية التي تسعىٰ إلىٰ إنشاء هياكل أكثر تكاملًا عبر العالم الإسلامي الأوسع. ستكون هذه الصراعات مزعزِعة للاستقرار بشكل كبير، حيث قد تختار الهند والصين وأوروبا وروسيا جانبًا، فكلٌّ منهم حريص علىٰ استبدال الولايات المتحدة. وبمجرد أن تتخفف القيود الأمريكية الإسرائيلية علىٰ المنطقة، فلن يكون من السهل تصميم قيود جديدة مصنوعة في موسكو أو بكين أو بروكسل أو نيودلهي؛ لم يعد العالم الإسلامي اليوم كما كان عليه خلال الحرب العالمية الأولىٰ، إنه أقل ميلًا بشكل ملحوظ للسماح للأجانب بالتخطيط لمصيره ورسم خريطة عالمه.

ثبت المراجع

Abu-Manneh, Bashir. "Israel in the U.S. Empire." Monthly Review 58, no. 10 (March 2007): 1-25.

Abu-Sitta, Salman H. The Palestinian Nakba, 1948: The Register of Depopulated Localities in Palestine. London: Palestine Return Center, 1998.

AFP. "Egypt, Israel Enhances Free-Trade Accord." Bilaterals.org, October 31, 2005, http//: www.bilaterals.org/article.php3?idarticle=3019.

Alam, M. Shahid. "Bernard Lewis: Scholarship or Sophistry." Studies in Contemporary Islam 4, no. 1 (Spring 2002): 53-80.

A New Theology of Power." CounterPunch, September 16, 2002, http//:www

.counterpunch.org/alam0916.html.

Israel and the Consequences of Uniqueness." CounterPunch, October 29-30, 2005, http//:www.counterpunch.org/shahid10292005.html.

Challenging the New Orientalism: Dissenting Essays on the "War Against Islam." North Haledon, NJ: Islamic Publications International, 2006.

Aliya Bet & Machal Virtual Museum. Pictorial History: Acquiring Arms and Personnel. http//:israelvets.com/pictorialhistacquiringarms.html.

Alroey, Gur. Mass Jewish Migration Database. Haifa, Israel: University of Haifa, 2005. http//:mjmd.haifa.ac.il/index.php?link=history1.

Al-Shawaf, Rayyan. "Review: Abbas Shiblak, Iraqi Jews: A History of Mass Exodus (London: Saqi Books, 2005)." Democratiya, Winter 2006, http//: www.democratiya.com/review

.asp?reviewsid=55.

Amin, Samir, and Ali El Kenz. Europe and the Arab World: Problems and Prospects for the New Relationship. London: Zed Books, 2005.

Ariel, Yaakov. "An Unexpected Alliance: Christian Zionism and Its Historical Significance." Modern Judaism 26, no. 1 (2006): 74-100.

Avishai, Bernard. The Tragedy of Zionism: How Its Revolutionary Past Haunts Israeli Democ- racy. New York: Allworth Press, 2003.

Avnery, Uri. "Israel's Missed Opportunities for Peace (Partial List)." Redress, May 28, 2006, http//:www.redress.cc/palestine/uavnery20060528.

Bacevich, A. J. The New American Militarism: How Americans Are Seduced by War. New York: Oxford University Press, 2005.

Badi, Joseph, ed. Fundamental Laws of the State of Israel. New York: Twayne, 1960.

Bain, Kenneth Ray. The March to Zion: United States Policy and the Founding of Israel. Col- lege Station, TX: Texas A&M University Press, 1979.

Bainerman, Joel. "End American Aid to Israel?: Yes, It Does Harm." The Middle East Quar- terly 2, no. 3 (September 1995), http//:www.meforum.org/article/258.

Balabkins, Nicholas. West German Reparations to Israel. New Brunswick, NJ: Rutgers Uni- versity Press, 1971.

Bar-Zohar, Michael. Ben-Gurion: The Armed Prophet. Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1968.

Bass, Warren. Support Any Friend: Kennedy's Middle East and the Making of U.S.-Israel Alli- ance. New York: Oxford University Press, 2003.

Beit-Hallahmi, Benjamin. The Israeli Connection: Whom Israel Arms and Why. London: I.

B. Tauris, 1988.

Bell, Dean Phillip. Jews in the Early Modern World: Continuity and Transformation. Boston: Rowman & Littlefield, 2008.

Beller, Steven. Vienna and the Jews, 1867-1938: A Cultural History. Cambridge: Cambridge University Press, 1989.

Benbassa, Esther. La Souffrance Comme Identité. Paris: Fayard, 2007. http//: www.estherbenbassa

.net/ATBEBactualite2.php.

Ben-Gurion, David. Ben-Gurion Looks at the Bible. Translated by Jonathan Kolatch. Mid- dle Village, NY: Jonathan David, 1972.

Ben-Sasson, Haim, ed. A History of the Jewish People. Cambridge: Harvard University Press, 1976.

Benson, Michael T. Harry S. Truman and the Founding of Israel. Westport, CT: Praeger, 1997.

Ben-Zvi, Abraham. The United States and Israel: The Limits of the Special Relationship. New York: Columbia University Press, 1993.

Lyndon B. Johnson and the Politics of Arms Sales to Israel. London: Routledge, 2004. Berle, A. A. The World Significance of a Jewish State. New York: Mitchell Kennerley, 1918. Berlin, Adele, and Marc Zvi Brettler, eds. The Jewish Study Bible. Oxford: Oxford Univer-

sity Press, 2004.

Berman, Aaron. Nazism, the Jews, and American Zionism, 1933-1988. Detroit, MI: Wayne State University, 1992.

Black, Edwin. The Transfer Agreement: The Dramatic Story of the Agreement Between the Third Reich and Jewish Palestine. New York: Carroll and Graf, 2001.

Blankfort, Jeffrey. "Damage Control: Noam Chomsky and the Israeli-Palestine Conflict."

Dissident Voice, May 25, 2005, http//:www.dissidentvoice.org/May05/Blankfort0525

.htm.

Bregman, Ahron. A History of Israel. Houndmills, UK: Macmillan, 2003.

Brenner, Lenni. Zionism in the Age of Dictators. Highland Park, NJ: Lawrence Hill, 1983.

ed. 51 Documents: Zionist Collaboration with the Nazis. Fort Lee, NJ: Barricade Books, 2002.

Brenner, Michael. Zionism: A Brief History. Translated by Shelley L. Frisch. Princeton, NJ: Markus Wiener, 2006.

Brown, Kenneth. "Iron and a King: Likud and the Oriental Jews." MERIP Reports 114 (May 1983): 3-13.

Brownfeld, Allan. "Judaism and the Jewish State." Journal ofaPlestineStudies 3, no. 2 (Winter 1974): 194-95.

Brustein, William I. Roots of Hate: Anti-Semitism in Europe Before the Holocaust. Cam- bridge: Cambridge University Press, 2003.

Burns, William J. Economic Aid and American Policy Towards Egypt, 1955-1981. Albany: State University of New York Press, 1985.

Carter, Jimmy. Palestine: Peace Not Apartheid. New York: Simon and Schuster, 2006. Chomsky, Noam. Fateful Triangle: The United States, Israel and the Palestinians. 1983.

Cambridge: South End, 1999.

Anti-Semitism, Zionism and the Palestinians." From Occupied Palestine, October 2002, http//:www.fromoccupiedpalestine.org/node/116.

The Fate of an Honest Intellectual." In Understanding Power, edited by Peter R. Mitchell and John Schoeffel. New York: New Press, 2002. http//: www.chomsky.info/ books/power01.htm.

Christison, Kathleen. Perceptions of Palestine: Their Influence on U.S. Middle East Policy.

Berkeley: University of California, 1999.

Clark, Harry. "How It All Began: Truman and Israel." CounterPunch, June 3-4, 2006, http//:www.counterpunch.org/clark06032006.html.

Clark, Victoria. Allies for Armageddon. New Haven, CT: Yale University Press, 2007. Cockburn, Alexander. "The Uproar Over the Israel Lobby." The Free Press, May 5, 2006,

http//:www.freepress.org/columns/display/2/2006/1368.

Cockburn, Alexander, and Jeffrey St. Clair, eds. The Politics of Anti-Semitism. Petrolia, CA: AK Press and CounterPunch, 2003.

Cockburn, Andrew, and Leslie Cockburn. Dangerous Liaison: The Inside Story of the U.S.- Israeli Covert Relationship. New York: HarperCollins, 1991.

Cohen, Eliot A. "Yes, It's Anti-Semitic." Washington Post, April 5, 2006, http//: washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/04/04/ AR2006040401282.html.

Cohen, Mark R. "The Neo-Lachrymose Conception of Jewish-Arab History." Tikkun, 6, no. 3 (May-June 1991): 55-60.

The Jews under Islam: From the Rise of Islam to Sabbatai Zevi: A Bibliographi- cal Essay." In Sephardic Studies in the University, edited by Jane S. Gerber. Madison, NJ: Fairleigh Dickinson University Press, 1995.

Under Crescent and Cross: The Jews in the Middle Ages. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1995.

Cohen, Michael J. Truman and Israel. Berkeley: University of California Press, 1990.

Committee on Foreign Affairs, House of Representatives. Establishment of a National Home in Palestine: Hearings before the Committee on Foreign Affairs, Sixty-Seventh Congress. Washington, DC: Government Printing Press, 1922.

Cook, Jonathan. Blood and Religion: The Unmasking of the Jewish and Democratic State.

London: Pluto Press, 2006.

Corcos, Alain F. The Myth of the Jewish Race: A Biologist's Point of View. Bethlehem, PA: Lehigh University Press, 2005.

Crosbie, Sylvia K. A Tacit Alliance: France and Israel from Suez to the Six Day War. Princ- eton, NJ: Princeton University Press, 1974.

Currie, William E. "God's Little Errand Boy," Life in Messiah, originally published in 1987, http//:www.lifeinmessiah.org/gleb.php.

Dalin, David G. "Jacksonian Jew: The Two Worlds of Mordecai Noah by Jonathan D. Sarna."

AJS Review 10, no. 1 (Spring 1985): 122-23.

The Myth of Hitler's Pope: How Pope Pius XII Rescued Jews from the Nazis. Washington, DC: Regnery, 2005.

Davidson, Lawrence. America's Palestine: Popular and Official Perceptions from Balfour to Israeli Statehood. Gainesville: University of Florida Press, 2001.

Christian Zionism and American Foreign Policy: Paving the Road to Hell in Palestine." Logos 4, no. 1 (Winter 2005), http//:www.logosjournal.com/issue4.1/davidson.htm.

Davis, Moshe. Zionism in Transition. New York: Arno, 1980.

DellaPergola, Sergio. "An Overview of the Demographic Trends of European Jewry." In Jewish Identities in the New Europe, edited by Jonathan Webber. London: Littman Library of Jewish Civilization, 1994.

Demography in Israel /Palestine: Trends, Prospects, Policy Implications. Jerusalem: Hebrew University of Jerusalem, August 2001. http / /: www.iussp.org /Brazil2001 / s60 / S6402dellapergola.pdf.

de Novo, John A. American Interests and Policies in the Middle East, 1900-1939. Minne- apolis: University of Minnesota Press, 1963.

Deutscher, Isaac. "Israel's Spiritual Climate." In Wrestling with Zion, edited by Tony Kush- ner and Alisa Solomon. New York: Grove, 2003.

Dowty, Alan. Israel /Palestine. London: Polity, 2008.

Dror, Yehezkel. "On the Uniqueness of Israel: Multiple Readings." In Israel in Compara- tive Perspective: Challenging the Conventional Wisdom, edited by Michael N. Barnett. Albany: State University of New York Press, 1996.

Druks, Herbert. The Uncertain Friendship: The U.S. and Israel from Roosevelt to Kennedy.

Westport, CT: Greenwood, 2001.

Einstein, Albert. "Our Debt to Zionism." In Prophets Outcast, edited by Adam Shtaz. New York: Nation Books, 2004.

Elazar, Daniel J. World Jewry as a Polity. Jerusalem: Jerusalem Center for Public Affairs, 1992. http / /: www.jcpa.org /dje /articles2 /worldjewry-pol.htm.

Elazar, Daniel Judah, and Stuart Cohen. The Jewish Polity: Jewish Political Organization from Biblical Times to the Present. Bloomington: Indiana University Press, 1984.

Elon, Amos. The Israelis: Founders and Sons. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1971. Endelman, Todd M. The Jews of Britain: 1656-2000. Berkeley: University of California

Press, 2002.

Engelman, Uriah Zevi. The Rise of the Jew in the Western World: A Social and Economic History of the Jewish People of Europe. New York: Behrman's Jewish Book House, 1944.

Ernst, Morris L. So FaroSood.GNew York: Harper and Brothers, 1948.

Ettinger, Shmuel, "Demographic Changes and Economic Activity in the Nineteenth Cen- tury." In A History of the Jewish People, edited by H. H. Ben-Sasson. Cambridge: Har- vard University Press, 1976.

Falk, Avner. Fratricide in the Holy Land: A Psycho-Analytic View of the Arab-Israeli Conflict.

Madison: University of Wisconsin Press, 2004.

Farsoun, Samih K., and Naseer H. Aruri. Palestine and the Palestinians: A Social and Politi- cal History. Boulder, CO: Westview, 2006.

Feingold, Henry L. "American Jewry." In The Holocaust Encyclopedia, edited by Judith Tydor Baumel. New Haven, CT: Yale University Press, 2001.

Feldman, Seymour. Philosophy in a Time of Crisis: Don Isaac Abravanel, Defender of the Faith. London: Routledge /Curzon, 2003.

Fieldhouse, David K. Colonial Empires: A Comparative Study from the Eighteenth Century.

New York: Delacorte, 1965.

Findley, Paul. They Dare to Speak Out: People and Institutions Confront Israel's Lobby. West- port, CT: Lawrence Hill, 1985.

Finkelstein, Norman G. The Holocaust Industry: Reflections on the Exploitation of Jewish Suffering. London: Verso, 2001.

Image and Reality of the Israeli-Palestine Conflict. 1995. London: Verso, 2003.

The Ludicrous Attacks on Jimmy Carter's Book." CounterPunch, December 28, 2006, http / /: www.counterpunch.org /finkelstein12282006.html.

Flapan, Simha. The Birth of Israel: Myths and Realities. New York: Pantheon, 1987.

Foa, Anna. The Jews of Europe After the Dark Ages. Berkeley: University of California Press, 2000.

Frankfurter, Felix. "An Interview in Mr. Balfour's Apartment, 23 Rue Nitot, Paris." In From Haven to Conquest: Readings in Zionism and the Palestine Problem until 1948, edited by Walid Khalidi. Beirut: Institute for Palestine Studies, 1971.

Friedman, Isaiah. Germany, Turkey, Zionism, 1897-1918. Oxford: Clarendon, 1977. Fromkin, David. A Peace to End All Peace. New York: Henry Holt, 1989.

Gaebelein, Arno C. TheiHstoryof the Scofield Reference Bible. New York: Our Hope, 1943.

Garfinkle, Adam M. "On the Origin, Meaning, Use and Abuse of a Phrase." Middle East- ern Studies, 27 (October 1991): 539-50.

Gazit, Mordechai. "Israeli Military Procurement from the United States." In Dynamics of Dependence: U.S.-Israeli Relations, edited by Gabriel Sheffer. Boulder: Westview, 1987. Gelvin, James L. The Israeli-Palestinian Conflict: One Hundred Years of War. Cambridge:

Cambridge University Press, 2005.

Gerges, Fawaz A. "The 1967 Arab-Israeli War: U.S. Actions and Arab Perceptions." In The ME and the United States: A Historical and Political Assessment, edited by David B. Lesch. Boulder, CO: Westview, 1996.

Germany, Federal Foreign Office. Israel. http//:auswaertiges-mt.de/diplo/en/Laender/Israel

.html (accessed December 26, 2006).

Ginsberg, Benjamin. The Fatal Embrace: Jews and the State. Chicago: University of Chicago Press, 1993.

Glazer, Nathan. American Judaism. Chicago: University of Chicago Press, 1972. Goldberg, J. J. Jewish Power: Inside the American Jewish Establishment. New York: Basic

Books, 1996.

Goldberg, Jeffrey. "Real Insiders." New Yorker, July 4, 2005, http//: www.newyorker.com/ archive/2005/07/04/050704fafact.

Goldmann, Nahum. The Jewish Paradox. Translated by Steve Cox. New York: Grosset and Dunlap, 1978.

Zionist Ideology and the Reality of Israel." Foreign Affairs 57, no. 1 (Fall 1978): 70-82.

Goodman, Robert. Teaching Jewish Holidays: History, Values and Activities. Denver, CO: A. R. E., 1997.

Green, Stephen. Taking Sides: America's Secret Relations with a Militant Israel. New York: William Morrow, 1984.

Grose, Peter. Israel in the Mind of America. New York: Alfred A. Knopf, 1983.

Ha"am, Ahad. "A Truth from Eretz Israel." In Wrestling with Zion: Progressive Jewish-American Responses to the Israeli-Palestinian Conflict, edited by Tony Kushner and Alisa Solomon. New York: Grove, 2003.

Hahn, Peter L. Caught in the Middle East: U.S. Policy Towards the Arab-Israeli Conflict, 1945-61. Chapel Hill: University of North Carolina, 2004.

Hecht, Ben. Perfidy. 1962. Jerusalem: Milah, 1997.

Hertzberg, Arthur, ed. The Zionist Idea: A Historical Analysis and Reader. 1959. Philadel- phia: Jewish Publication Society, 1997.

The Fate of Zionism: A Secular Future for Israel and Palestine. New York: Harper-SanFrancisco, 2003.

Hertzberg, Arthur, and Aron Hirt-Manheimer. Jews: The Essence and Character of a People.

New York: HarperSanFrancisco, 1998.

Herzl, Theodore. The Jewish State: An Attempt at a Modern Solution of the Jewish Question. 1896. Translated by Sylvie D"Avigdor. New York: Federation of American Zionists, 1917.

Old-New Land (Altneuland). 1902. Translated by Lotta Levensohn. New York: Block, 1960.

Hess, Moses. Rome and Jerusalem: A Study in Jewish Nationalism. 1862. Translated by Meyer Waxman. New York: Block, 1918.

Hirst, David. The Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle East. New York: Thunder's Mouth, 2003.

Hochberg, Severin Adam. "The Repatriation of Eastern European Jews from Great Britain: 1881-1914." Jewish Social Studies 50, no. 1/2 (Winter 1988-Spring 1992): 49-62.

Hochschild, Adam. King Leopold's Ghost: A Story of Greed, Terror and Heroism in Colonial Africa. New York: Houghton Mifflin, 1999.

Hodgson, Marshall. The Venture of Islam, volume 1: The Classical Age of Islam. Chicago: University of Chicago Press, 1974.

Horowitz, David. "Editor's Notes: It Was Always Jihad." Jerusalem Post, April 10, 2008, http//:www.jpost.com/servlet/ Satellite?cid=1207649985946&pagename=JPost

%2FJPArticle%2FPrinter.

Howard, Esther. "Israel: The Sorcerer's Apprentice." MERIP Reports, no. 112 (February 1983): 16-25.

Huntington, Samuel. The Clash of Civilizations: Remaking of World Order. New York: Simon and Schuster, 1997.

Ingram, O. Kelly. "Christian Zionism." The Link, 16, no. 4 (November 1983): 1-13, http / /: www.ameu.org /summary1.asp?iid = 74.

Ingrams, Doreen. Palestine Papers, 1917-1922: Seeds of Conflict. London: John Murray, 1972.

Israel, Ministry of Foreign Affairs. "PM Rabin Response to Alleged Killing of Egyptian POWs." August 16, 1995, http / /: www.mfa.gov.il /MFA /.

. "Address by Prime Minister Netanyahu to the American Jewish Committee, Washington, 14 May 1998." May 14, 1998, http / /: www.mfa.gov.il /MFA /.

Israeli, Raphael. War, Peace and Terror in the Middle East. New York: Routledge, 2003. Jabbour, George. Settler Colonialism in Southern Africa and theidMdleEast. Khartoum:

University of Khartoum, 1970.

Jastrow, Morris. Zionism and the Future of Palestine. New York: Macmillan, 1919.

Jeffries, J. M. N. "Analysis of the Balfour Declaration." In From Haven to Conquest, edited by Walid Khalidi. Beirut: Institute for Palestine Studies, 1971.

Jewishencylopedia.com. "Zionism: Rejected by Reform Judaism." 2008, http / /: jewishencyclopedia.com /view.jsp?artid = 132&letter = Z&search = .

Jewish Virtual Library. Immigration. http / /: jewishvirtuallibrary.org /jsource / Immigration / immigtoc.html.

Jewish and Non-Jewish Population of Palestine-Israel. http / /: jewishvirtuallibrary

org /jsource /Society&Culture /israelpalestinepop.html.

US Assistance to Israel, FY-1949-FY2006. http / /: jewishvirtuallibrary.org /jsource / US-Israel /U.S.AssistancetoIsrael1.html.

World Jewish Population. (1882-2000). http / /: jewishvirtuallibrary.org /jsource / History /worldpop.html.

Jews Against Zionism. Words of the Rabbis: Rabbi Avigdor Miller, 1908-2001. http / /: www

.jewsagainstzionism.com /Rabbiquotes /miller.cf.

Johnson, Paul. A History of the Jews. New York: Harper & Row, 1987.

"The Miracle." Commentary 105, no. 5 (May 1998): 21-27.

Julius, Lyn. "Dilemmas of Dhimmitude." Jewish Quarterly Review 197 (Spring 2005), http / /: www.jewishquarterly.org /article.asp?articleid = 73.

Review of: Nathan Weinstock. Uneessienlocne: gucoempmr ent le monde arabe a perdu ses juifs 1947-1967." Democratiya, Winter 2008, http//: www.democratiya.com / review.asp?reviewsid = 219.

Kamrava, Mehran. The Modern Middle East: A Political History Since the First World War.

Berkeley: University of California Press, 2005.

Karsh, Ephraim. Fabricating Israeli History: The 'New Historians." New York: Frank Cass, 1997.

The Long Train of Islamic Anti-Semitism," Israel Affairs 12, no. 1 (January 2006): 1-12.

Islamic Imperialism: A History. New Haven, CT: Yale University Press, 2007. Katz, Jacob. "The Jewish National Movement: A Sociological Analysis." In Jewish Society

Through the Ages, edited by H. H. Ben-Sasson and S. Ettinger. New York: Schocken Books, 1971.

. Tradition and Crisis: Jewish Society at the End of the Middle Ages. New York: Schocken Books, 1971.

Kayyali, Abdul-Wahab. "Zionism and Imperialism: The Historical Origins." Journal of Palestine Studies 6, no. 3 (Spring 1977): 98-112.

Kerekes, Janet Elizabeth. Masked Ball at the White Cross Café: The Failure of Jewish Assimila- tion. Lanham, MD: University Press of America, 2005.

Kessner, Carole S., ed. The Other New York Jewish Intellectuals. New York: New York Uni- versity Press, 1994.

Khalidi, Walid. From Haven to Conquest: Readings in Zionism and the Palestine Problem until 1948. Beirut: Institute for Palestine Studies, 1971.

Palestine Reborn. London: I. B. Tauris, 1992.

The Jewish-Ottoman Land Company: Herzl's Blueprint for the Colonization of Palestine." Journal of Palestine Studies 22, no. 2 (Winter 1993): 30-47.

Kiener, Ronald C. The Jewish Experience of Suffering. Wisdom House, 2002. http//: shakti

trincoll.edu /˜kiener /Sufferingtalk.htm.

King, Ruth. "William Eugene Blackstone, October 6, 1841-November 7, 1935." Mideast Outpost, February 25, 2008, http//:mideastoutpost.com/archives/000437.html.

Kohn, Hans. "Zion and the Jewish National Idea." In Zionism Reconsidered: The Rejection of Jewish Normalcy, edited by Michael Selzer. London: Macmillan, 1970.

Kook, Rabbi Isaac Hakohen. "The Rebirth of Israel." In The Zionist Idea: A Historical Analysis and Reader, edited by Arthur Hertzberg. Philadelphia: Jewish Publication Society, 1997.

When God Becomes History: Historical Essays of Rabbi Abraham Isaac Hakohen Kook. Translated by Bazalel Naor. Spring Valley, NY: Orot, 2003. http//: www.orot

com/history2.html.

Kovel, Joel. "Zionism's Bad Conscience." Tikkun, September-October 2002, http//: www

.joelkovel.org/zionism.html.

Overcoming Zionism: Creating a Single Democratic State in Israel/Palestine. London: Pluto, 2007.

Kramer, Martin. "The American Interest." Azure, no. 26 (Fall 2006): 21-33.

Kushner, Tony, and Alisa Solomon, eds. Wrestling Zion: Progressive Jewish-American Responses to the Israeli-Palestinian Conflict. New York: Grove, 2003.

Laqueur, Walter. A History of Zionism. New York: MJF Books, 1972.

Laskier, Michael M. "Israel and Algeria Amid French Colonialism and the Arab-Israeli Conflict, 1954-1978." Israel Studies 6, no. 2 (Summer 2001): 1-32.

Laufer, Leopold Yehuda. "U.S. Aid to Israel: Problems and Perspectives." In Dynamics of Dependence: U.S.-Israeli relations, edited by Gabriel Sheffer. Boulder, CO: Westview, 1987.

Lazare, Bernard. Anti-Semitism: Its History and Causes. 1894. Lincoln: University of Nebraska Press, 1995.

Lazare, Daniel. "The Chosen: Ideological Roots of the U.S.-Israeli Relationship." In Wres- tling Zionism: Progressive Jewish-American Responses to the Israeli-Palestinian Conflict, edited by Tony Kushner and Alisa Solomon. New York: Grove, 2003.

Leon, Abram. The Jewish Question: A Marxist Interpretation. Mexico City: Ediciones Pion- eras, 1950. http//:www.marxists.de/religion/leon/index.htm.

Levene, Mark. "The Balfour Declaration: A Case of Mistaken Identity." English Historical Review, January 1992, 54-77.

Levey, Zach. "Israeli Foreign Policy and the Arms Race in the Middle East 1950-1960."

Journal of Strategic Studies 24, no. 1 (March 2001): 29-48.

Lewan, Kenneth M. "How West Germany Helped to Build Israel." Journal of Palestine Studies 4, no. 4 (Summer 1995): 41-64.

Lewis, Bernard. Semites and Anti-Semites. New York: Norton, 1986.

The Jews of Islam. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1987.

The Roots of Muslim Rage." The Atlantic, September 1990, http//:www

theatlantic.com.

The New Anti-Semitism." American Scholar 75, no. 1 (Winter 2006): 25-36. Liberles, Robert, and Stanford M. Lyman. Salo Wittmayer Baron: Architect of Jewish History.

New York: New York University Press, 1995.

ibo, Kenneth, and Michael Skakun. The Clash of the Titans: Stephen S. Wise vs Abba Hil- lel. Part IV. New York: Center for Jewish History, 2004. http//: www.cjh.org/education/ essays.php?action=show&id=24.

Lilienthal, Alfred. What Price Israel? 1953. Haverford, PA: Infinity, 2003.

The Other Side of the Coin. New York: Devin-Adair, 1965.

Lindemann, Albert S. Esau's Tears: Modern Anti-Semitism and the Rise of the Jews. Cam- bridge: Cambridge University Press, 1998.

Lindqvist, Sven. Exterminate All the Brutes. New York: New Press, 1996.

Lipset, Seymour Martin, and Earl Raab. Jews and the New American Scene. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1995.

Lipstadt, Deborah. "Jimmy Carter's Jewish Problem." Washington Post, January 20, 2007, http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2007/01/19/AR2007011901541.html.

Lloyd George, David. Memoirs of the Peace Conference, Volume II. New Haven, CT: Yale University Press, 1939.

Lovett, William Anthony, Alfred E. Eckes, and Richard L. Brinkman. U.S. Trade Policy: History, Theory and the WTO. Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1999.

Lozowick, Yaacov. Right to Exist: A Moral Defense of Israel's Wars. New York: Doubleday, 2003.

Maisel, L. Sandy, ed. Jews in American Politics. Lanham, MA: Rowman & Littlefield, 2001. Malino, Frances. "Jewish-Christian Relations." In Christianity: Enlightenment, Reawak- ening and Revolution, 1600-1815, edited by Stewart J. Brown and Timothy Tackett.

Cambridge: Cambridge University Press, 2006.

Mansour, Camille. Beyond Alliance: Israel in U.S. Foreign Policy. New York: Columbia Uni- versity Press, 1994.

Mark, Clyde R. Israel: U.S. Foreign Assistance. Washington, DC: Library of Congress, Con- gressional Research Service, October 17, 2002. http//: www.adc.org/IB85066.pdf.

Masalha, Nur. Imperial Israel alnedstitnhieaPns:The Politics of Expansion. London: Pluto, 2000.

Expulsion of the Palestinians: The Concept of "Transfer" in Zionist Political Thought, 1882-1948. Washington, DC: Institute for Palestine Studies, 2001.

Catastrophe Remembered: Palestine, Israel and the Internal Refugees. New York: Zed Books, 2005.

Massad, Joseph. "Blaming the Lobby." Al-Ahram Weekly 787 (March 23-29, 2006), http//: weekly.ahram.org.eg/2006/787/op35.htm.

Matar, N. I. "The Restoration of the Jews in English Protestant Thought: Between the Reformation and 1660." Durham University Journal, December 1985, 23-36.

Islam in Britain: 1558-1685. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1998.

Mearsheimer, John, and Stephen Walt. "The Israel Lobby." London Review of Books, March 23, 2006, http//:www.lrb.co.uk/v28/n06/mear01.html.

The Israel lobby and US foreign policy. New York: Farrar, Straus and Giroux, 2007. Menocal, María Rose. The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Cre- ated a Culture of Tolerance in Medieval Spain. Boston: Little, Brown & Company, 2003.

Merkley, Paul C. The Politics of Christian Zionism, 1891-1948. London: Frank Cass, 1998. Merom, Gil. "Israel's National Security and the Myth of Exceptionalism." Political Science

Quarterly 114, no. 3 (Autumn 1999): 409-34.

Meyer, Karl E. "Editorial Notebook: Woodrow Wilson's Dynamite." New York Times, August 14, 1991, http//:query.nytimes.com/gst/fullpage.html?res=9D0CE0DC173F F937A2575BC0A967958260.

Miglietta, John P. American Alliance Policy in the Middle East, 1945-1992: Iran, Israel and Saudi Arabia. Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2002.

Miller, Rabbi Avigdor. Awake My Glory: Aspects of Jewish Ideology. Brooklyn, NY: Bais Yisroel of Rugby, 1980.

Millis, Walter, ed. The Forrestal Diaries. New York: Viking, 1951.

Morris, Benny. The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-49. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1987.

Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict, 1881-2001. New York: Vintage Books, 2001.

The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited. Cambridge, UK: Cam- bridge University Press, 2004.

1948: A History of the Arab-Israeli War. New Haven, CT: Yale University Press, 2008.

Naimark, Norman M. "Revolution and Counter-Revolution in Eastern Europe." In The Crisis of Socialism in Europe, edited by Christiane Lemke and Gary Marks. Durham, NC: Duke University Press, 1992.

Neff, Donald. Fallen Pillars: U.S. Policy Towards Israel and Palestine Since 1945. Wash- ington, DC: Institute for Palestine Studies, 2002. http//: www.washingtonpost.com/ wp-srv/style/longterm/books/chap1/fallenpillars.htm.

Neusner, Jacob. "A 'Holocaust" Primer." National Review, August 3, 1979.

The Comparative Hermeneutics of Rabbinic Judaism. Vol. 1. Binghamton, NY: Global Academic Publishing, 2000.

Neusner, Jacob, and Alan Jeffery Avery-Peck. The Routledge Dictionary of Judaism. New York: Routledge, 2003.

Noah, Mordecai. "Restoration of the Jews," The Occident and American Jewish Advocate 3, no. 1 (April 1845), http//:www.jewish-history.com/Occident/volume3/apr1845/restoration.html.

Nordau, Max, and Gustav Gottheil. Zionism and Anti-Semitism. New York: Fox, Duffield, 1905.

Organski, A. F. K. The $36 Billion Bargain: Strategy and Politics in U.S. Assistance to Israel.

New York: Columbia University Press, 1990.

Ottolenghi, Emanuele. "Anti-Zionism is Anti-Semitism." Guardian, November 29, 2003, http//:www.guardian.co.uk/world/2003/nov/29/comment.

Ould-Mey, Mohameden. "The Non-Jewish Origin of Zionism." The Arab World Geographer 5, no. 1 (2002): 34-52, http//:mama.indstate.edu/users/mouldmey/The%20Non-Jewish%20Origin%20of%20Zionism.PDF.

Geopolitical Genesis and Prospect of Zionism." Journal of Political Geography

(2003): 1-29, http//:mama.indstate.edu/users/mouldmey/Geopolitical%20Genesis

%20and%20Prospect%20of%20Zionism.PDF.

Pappe, Ilan. Britain and Arab-Israeli Conflict, 1948-51. London: Macmillan, 1988.

The Ethnic Cleansing of Palestine. Oxford: One World, 2006.

Pasachoff, Naomi, and Robert J. Littman. A Concise History of the Jewish People. Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2005.

Patai, Raphael. The Complete Diaries of Theodore Herzl. Translated by Harry Zohn. New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960.

Patai, Raphael, and Jennifer P. Wing. The Myth of the Jewish Race. New York: Charles Scribner's, 1975.

Paul, James A. "Great Power Conflict over Iraqi Oil: The World War One Era." Global Pol- icy Forum, October 2002, http//:globalpolicy.org/security/oil/2002/1000history.htm.

Peters, Joan. From Time Immemorial: The Origins of Arab-Jewish Conflict Over Palestine.

New York: Harper & Row, 1984.

Peterson, Tore T. The Decline of the Anglo-American Middle East, 1961-1969: A Willing Rriegthretaotn.,BUK: Sussex Academic Press, 2006.

Petras, James. The Power of Israel in the United States. Atlanta: Clarity, 2006.

Pinsker, Leo. Auto-Emancipation. Translated by J. Schulsinger. 1882. Cairo-Alexandria: 1944.

Pipes, Daniel. "]Michael Oren's[Six Days of War." New York Post, June 4, 2002, http//: www.danielpipes.org.

Israel's Ultimate Strategic Asset." Jerusalem Post, July 16, 2003, http//: jewishpoliticalchronicle.org/oct03/Israel%20s%20ultimate.pdf.

Portis, Larry. "Zionism and the United States." CounterPunch, February 24-25, 2007, http//:www.counterpunch.org/portis02242007.html.

Prager, Dennis, and Joseph Telushkin. Why the Jews? The Reason for Anti-Semitism. New York: Touchstone, 2003.

Prior, Michael. Zionism and the State of Israel: A Moral Inquiry. London: Routledge, 1999.

Israel-Palestine: A Challenge to Theology." In Faith in the Millennium, edited by Stanley E. Porter, Michael A. Hayes, and David Tombs. London: Continuum Interna- tional Publishing Group, 2001.

ProCon.Org. Israeli-Palestinian: Population Statistics. http//: israelipalestinian.procon.org/ viewresource.asp?resourceID=000636.

Project for the New American Century. Rebuilding America's Defenses: Strategy, Forces, Resources For a New Century. Washington, DC: September 2000. http//: www.newamericancentury

org/RebuildingAmericasDefenses.pdf.

Pry, Peter. Israel's Nuclear Arsenal. Boulder, CO: Westview, 1984.

Quigley, John. Flight into theaMelstrom:Soviet Immigration to Israel and the Middle East Peace. Ithaca, NY: Ithaca Press, 1997.

Qumsiyeh, Mazin B. Sharing the Land of Canaan: Human Rights and the Israeli-Palestinian Struggle. London: Pluto, 2004.

Rabil, Robert G. Syria, the United States, and the War on Terror in the Middle East. West- port, CT: Greenwood, 2006.

Rabkin, Yakov M. A Threat from Within: A History of Jewish Opposition to Zionism. Lon- don: Zed Books, 2006.

Raisin, Max, A History of the Jews in Modern Times. New York: Hebrew, 1919.

Reed, Fred. "No Happy Ending." LewRockwell.com, January 30, 2009, http //:www .lewrockwell.com /reed /reed154.html.

Reich, Bernard. Securing the Covenant: United States-Israel Relations after the Cold War.

Westport, CT: Greenwood, 1995.

Reinharz, Jehuda. "His Majesty's Zionist Emissary: Chaim Weizmann's Mission to Gibral- tar in 1917." Journal of Contemporary History 27, no. 2 (April 1992): 259-77.

Rejwan, Nissim. Israel in Search of Identity: Reading the Formative Years. Gainesville: Uni- versity of Florida Press, 1999.

Rodinson, Maxime. Israel: A Colonial-Settler State? New York: Monad, 1973.

Israel and the Arabs. Harmondsworth, UK: Penguin, 1982.

Rose, Jacqueline. The Question of Zion. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005. Rose, John. The Myth of Zionism. London: Pluto, 2004.

Roth, Cecil. Essays and Portraits in Anglo-Jewish History. Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1962.

Rottenberg, Dan. Finding our Fathers: A Guidebook to Jewish Genealogy. Baltimore: Genea- logical Publishing, 1986.

Roupp, Heidi, ed. Teaching World History: A Resource Book. Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1996.

Rubenberg, Cheryl A. Israel and the American National Interest: A Critical Examination.

Urbana: University of Illinois Press, 1986.

Sachar, Howard. Israel and Europe: An Appraisal in History. New York: Alfred A. Knopf, 1999.

Safran, Nadav, Israel: The Embattled Ally. Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 1982.

Said, Edward. "An Ideology of Difference." Critical Inquiry 12, no. 1 (Autumn 1985): 38-58.

Foreword." In Jewish History, Jewish Religion, by Israel Shahak. London: Pluto, 1994.

Samuel, Maurice. You Gentiles. Boring, OR: CPA, 1924.

Sand, Shlomo. "Israel Deliberately Forgets Its History." Le Monde Diplomatique, Septem- ber 2008, http//:mondediplo.com/2008/09/07israel.

The Invention of the Jewish People. London: Verso, 2009.

Schnall, David J. "Review of Raphael Patai and Jennifer P. Wing, The Myth of the Jewish Race." Review of Jewish Quarterly 66, no. 3 (January 1976): 181-85.

Schoenfeld, Gabriel. The Return of Anti-Semitism. San Francisco: Encounter Books, 2004. Schuldiner, Michael J., and Daniel J. Kleinfeld, eds. The Selected Writings of Mordecai

Noah. Westport, CT: Greenwood, 1999.

Schwartz, Stephen. Is It Good for the Jews? The Crisis of America's Israel Lobby. New York: Doubleday, 2006.

Schweitzer, A. "Moshe Dayan: Between Leadership and Loneliness." Haaretz, December 12, 1958.

Scult, Mel. Millennial Expectations and Jewish Liberties: A Study of the Efforts to Convert the Jews in Britain, Up to the Mid-Nineteenth Century. Leiden, the Netherlands: E. J. Brill, 1978.

Secretary of State for Colonies. British White Paper of June 1922. Yale Law School: Avalon Project. http//:www.yale.edu/lawweb/avalon/mideast/brwh1922.htm.

Segev, Tom. One Palestine Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate. New York: Henry Holt and Co., 2000.

Seidman, Peter. Socialists and the Fight Against Anti-Semitism: An Answer to the B"nai B"rith Anti-Defamation League. 1973. New York: Pathfinder, 2002.

Shahak, Israel. Jewish History, Jewish Religion: The Weight of Three Thousand Years. London: Pluto, 1994.

Shapira, Anita. Land and Power: The Zionist Resort to Force, 1881-1948, 40-41. New York: Oxford University Press, 1992.

Shapiro, Yonathan. Leadership of the American Zionist Organization, 1897-1930. Urbana: University of Illinois Press, 1971.

Sharabi, Hisham. Palestine and Israel: The Lethal Dilemma. New York: Pegasus, 1969.

Sharif, Regina. "Christians for Zion, 1600-1919." Journal of Palestine Studies 5, no. 3/4 (Spring-Summer 1976): 123-41.

Non-Jewish Zionism: Its Roots in Western History. London: Zed, 1983.

Sharp, Jeremy M. U.S. Foreign Assistance to the Middle East: Historical Background, Recent Trends, and the FY2006 request. Washington, DC: Library of Congress, Congressional Research Service, June 13, 2005. http//:fpc.state.gov/documents/organization/50383

.pdf.

Shatz, Adam, ed. Prophets Outcast: A Century of Dissident Jewish Writing about Zionism and Israel. New York: Nation Books, 2004.

Shavit, Ari. "Survival of the Fittest: An Interview with Benny Morris," Logos 3, no. 1 (Win- ter 2004), http//:www.logosjournal.com/morris.htm.

Shiblak, Abbas. Iraqi Jews: A History of Mass Exodus. London: Saqi Books, 2005. Shimoni, Gideon. The Zionist Ideology. Hanover, NH: University Press of New England/

Brandeis University Press, 1995.

Shlaim, Avi. Collusion Across the Jordan: King Abdullah, the Zionist Movement, and the Parti- tion of Palestine. Oxford: Clarendon, 1988.

The Impact of U.S. Policy in the Middle East." Journal ofaPlestine Studies 17, no. 1 (Winter 1988): 15-28.

The Protocol of Sèvres, 1956: Anatomy of a War Plot." International Affairs 73, no. 3 (1997): 509-30, http//:users.ox.ac.uk/˜ssfc0005/The%20Protocol%20of%20Sevres

%201956%20Anatomy%20of%20a%20War%20Plot.html.

The Iron Wall: Israel and the Arab World. New York: W. W. Norton, 2001.

Why Zionism Today Is the Real Enemy of the Jews." Electronic Intifada, Febru- ary 4, 2005, http//:www.electronicintifada.net/v2/article3599.shtml.

Sidebotham, Herbert. "British Interests in Palestine, 1917." In From Haven to Conquest: Readings in Zionism and the Palestine Problem until 1948, edited by Walid Khalidi. Beirut: Institute for Palestine Studies, 1971.

Simon, Leon, ed. About Zionism: Speeches and Letters by Professor Albert Einstein. London: Soncino, 1930.

Simon, Maurice, ed. Speeches, Articles and Letters of Israel Zangwill. London: Soncino, 1937.

Slezkin, Yuri. The Jewish Century. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2004.
Smith, Charles D. Palestine and the Arab-Israeli Conflict. New York: St. Martin's, 1988.

Snobelen, S. "'The Mystery of this Restitution of All Things": Isaac Newton on the Return of the Jews." In Millenarianism and Messianism in Early Modern European Culture: The Millenarian Turn, edited by J. E. Force and R. H. Popkin. Dordrecht: Kluwer Academic, 2001.

Sokolow, Nahum. History of Zionism: 1600-1918. Vol. 1. London: Longmans, Green, 1919.

Solomon, Norman. "The Lobby and the Bulldozer: Mearsheimer, Walt and Corrie." Huff- ington Post, April 13, 2006, http//:www.huffingtonpost.com/norman-solomon/the

-lobby-and-the-bulldozb19028.html.

Spiegel, Steven L. The Other Arab-Israeli Conflict: Making America's Middle East Policy from Truman to Reagan. Chicago: University of Chicago Press, 1985.

Stannard, David. "The Politics of Genocide Scholarship." In Is the Holocaust Unique? Per- spectives on Comparative Genocide, edited by Alan S. Rosenbaum. Boulder, CO: West- view, 2001.

Stauffer, Thomas R. "The Cost of Conflict in the Middle East, 1956-2002: What the U.S. Has Spent." Middle East Policy 10, no. 1 (March 2003): 45-102.

Stein, Leonard. The Balfour Declaration. New York: Simon and Schuster, 1961.

Sternhell, Zeev. The Founding Myths of Israel. Translated by David Maisel. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998.

Stone, Ronald H. Professor Reinhold Niebuhr: A Mentor to the Twentieth Century. Louisville, KY: Westminster John Knox, 1992.

Stork, Joe, and Sharon Rose. "Zionism and American Jewry." Journal of Palestine Studies 3, no. 3 (Spring 1974): 39-57.

Straten, Jits Van, and Harmen Snel. "The Jewish 'Demographic Miracle" in Nineteenth- Century Europe: Fact or Fiction." Historical Methods: A Journal of Quantitative and Interdisciplinary History 39, no. 3 (Summer 2006): 123-31.

Straus, Nellie. The Congress Addresses of Theodore Herzl. Translated by Nellie Straus. New York: Federation of American Zionists, 1917.

Taylor, Melissa Jane. "Evian Conference." In Anti-Semitism: A Historical Encyclopedia of Prej- udice and Persecution, edited by Richard S. Levy. Santa Barbara, CA: ABC-CLIO, 2005. Teger, Shira. "Coming Together, Falling Apart." Jerusalem Post, April 23, 2007, http//:www.jpost.com/servlet/Satellite?apage=1&cid=1177251151218&pagename

=JPost%2FJPArticle%2FShowFull.

Telegraph (Marconi Transatlantic Wire Telegraph). "Angola Is Offered for Zionist Colony."

New York Times, June 28, 1912.

Thomas, Gordon. Gideon's Spies: The Secret History of the Mossad. Houndmills, UK: Mac- millan, 2007.

Tivnan, Edward. The Lobby: Jewish Political Power and American Foreign Policy. New York: Simon and Schuster, 1987.

van Straten, Jits, and Harmen Snel. "The Jewish 'Demographic Miracle" in Nineteenth Century Europe." Historical Methods 39, no. 3 (Summer 2006): 123-31.

Vital, David. The Origins of Zionism. New York: Oxford University Press, 1975.

A People Apart: The Jews in History. New York: Oxford University Press, 1999. Vreté, Mayir. "The Restoration of the Jews in English Protestant Thought 1790-1840."

Middle Eastern Studies 8, no. 1 (January 1972): 3-50.

Walt, Stephen M. The Origins of Alliances. Cornell, NY: Cornell University Press, 1990. Weinstock, Nathan. Zionism: False Messiah. Translated by Alan Adler. London: Ink Links,

1979.

. Histoires de chiens. Paris: Mille et Une Nuits, 2004.

Use si longue presénce: comment le monde arabe a perdu ses juifs 1947-1967. Plon, 2008.

Wenger, Martha. "Recipe for an Israeli Nuclear Arsenal." MERIP Middle East Report, no.

143 (November-December 1986): 8-12, 14-15.

Wexler, Paul. The Non-Jewish Origins of the Sephardic Jews. Albany: SUNY Press, 1996. Wyman, David S., and Charles H. Rosenzveig. The World Reacts to the Holocaust. Balti-

more: Johns Hopkins University Press, 1996.

Yaacobi, Gad. Breakthrough: Israel in a Changing World. New York: Cornwall Books, 1996. Ye"or, Bat. The Dhimmi: Jews and Christians under Islam. Madison, NJ: Dickinson Uni-

versity Press, 1985.

The Decline of Eastern Christianity under Islam: From Jihad to Dhimmitude. Madison, NJ: Dickinson University Press, 1996.

Islam and Dhimmitude: Where Civilizations Collide. Madison, NJ: Dickinson University Press: 2002.

Young, James E. "Bad for the Jews: Review of David Vital, A People Apart." New York Times, November 7, 1999, http//:query.nytimes.com/gst/fullpage.html?res

=9C02E6DA1138F934A35752C1A96F958260.

Zangwill, Israel. The Voice of Jerusalem. London: William Heinemann, 1920.

Zionist Organization of America, The American War Congress and Zionism: Statements by Members of the American War Congress on the Jewish National Movement. New York: Zionist Organization of America, 1919. http//: ia360919.us.archive.org/1/items/ americanwarcongr00zion/ americanwarcongr00zion.pdf.

Zunes, Stephen. "U.S. Aid to Israel: Interpreting the 'Strategic Relationship."' Washington Report on Middle East Affairs, http//:www.wrmea.com/html/ usaidtoisrael.htm.

Why the U.S. Supports Israel. Washington, DC: Foreign Policy in Focus, May 1, 2002. http//:www.fpif.org/fpiftxt/1545.

Zureik, Elia. "Palestinian Refugees and Peace." Journal of Palestine Studies 24, no. 1 (Sum- mer 1994): 5-17.

نبذة تعريفية

المؤلف:

محمد شهيد علم ولد عام ١٩٥٠ في داكا شرق باكستان، وحصل علىٰ بكالوريوس من جامعة دكا، وماجستير من جامعة كراتشي، ودكتوراه من جامعة ويسترن أونتاريو (١٩٧٩).

يُدرِّس عَلَم الاقتصاد في جامعة نورث إيسترن منذ عام ١٩٨٨. وقبلها درَّس في جامعة كراتشي، وجامعة كوينز، وجامعة كونكورديا، وجامعة كولجيت. وعلىٰ مدىٰ السنوات العديدة الماضية، درَّس المواد الجامعية التالية: «التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط»، «تاريخ الاقتصاد العالمي»، «نقد الرأسمالية واقتصاديات التنمية».

• حصل علىٰ الميدالية الذهبية من الدرجة الأولىٰ في برنامج ماجستير الاقتصاد من جامعة كراتشي، ١٩٧٤.

• والميدالية الذهبية في برنامج البكالوريوس (مع مرتبة الشرف)، جامعة دكا، ١٩٧١.

• كما حصل جائزة «حرية التعبير»، المقدمة من فرع كلية الحقوق بجامعة نورث إيسترن التابعة لنقابة المحامين الوطنية في ١٦ فبراير ٢٠٠٥.

أشهر كتبه:

• الاستثنائية الإسرائيلية: منطق الصهيونية الهدام (٢٠٠٩). وهو هذا الكتاب الذي بين يديك.

• تحدي الاستشراق الجديد (Challenging the New Orientalism) (٢٠٠٧).

• هل هناك مشكلة إسلامية؟ مقالات عن المجتمعات الإسلامية والولايات المتحدة وإسرائيل (٢٠٠٤).

• الفقر من ثروة الأمم: التكامل والاستقطاب في الاقتصاد العالمي منذ ١٧٦٠ (Poverty From the Wealth of Nations: Integration and Polarization in the Global Economy since 1760) (٢٠٠٠).

• الحكومات والأسواق في استراتيجيات التنمية الاقتصادية: دروس من كوريا وتايوان واليابان. (١٩٨٩).

أوراق بحثية:

• «السلع في الاقتصاد: إشكالية المحبة أو الكراهية» (Commodities in Economics: Loving or Hating Complexity," Economic Thought5, 1 (Spring 2016: 1-18).

• «إسماعيل وإسحاق: مقال عن الاقتصاديات الأخلاقية المتباينة للقرآن والتوراة» ("Ishmael and Isaac: An Essay on the Divergent Moral Economies of the Qur'an and the Torah,"Islamic Studies (Summer 2012): 139-154.).

• «إشكالية المركزية الأوروبية» ("A Eurocentric Problem," Third World Resurgence (October-November 2012): 25-28.).

• «الكولونيالية وتفكيك الكولونيالية ومعدلات النمو: النظرية والدليل التجريبي» ("Colonialism, Decolonisation and Growth Rates: Theory and Empirical Evidence" Cambridge Journal of Economics, 1994, 18(3), 235-57.).

• «الإمبريالية والعالم الثالث» (Imperialism and the Third World: A Review Essay," Monthly Review (March 2006): 55-62).

المترجم:

م. مصطفىٰ هندي، مترجم وباحث مهتم بقضايا الفكر والاجتماع، له عدد من الترجمات والمقالات المنشورة، مشرف قسم الترجمات بمنصة أثارة.